مكتبة نوبل

١٩٤٩



وليم فوكنر

الصخب والعنف

ترجمة جبرا ابراهيم جبرا



وليم فوكنر

الصخب والعنف

ترجمة

جبرا ابراهيم جبرا



الصخب والعنف



المؤلف: وليم فوكنر
الكتاب: الصخب والعنف
ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ١٩٩٨
الطبعة الثانية: ٢٠١٤

Author: William Faulkner
Title: The Sound and The Fury
Translator: Jabra Ibrahim Jabra
Cover designed by: Roula Majed
P.C.: Al-Mada
First Edition: 1998
Second Edition: 2014

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧

www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box : 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

الصخب والعنف

دراسة بقلم جبرا ابراهيم جبرا

« غداً ، وغداً ، وغداً ،
وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً إثر يوم
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب ،
وإذا كل أماسينا قد أنارت للحمقى المساكين
الطريق إلى الموت والتراب . الا انطفئي ، يا شمعة وجيزة!
ما الحياة إلا ظل يمشي ، ممثل مسكين
يتبختر ويستشيط ساعته على المسرح ،
ثم لا يسمعه أحد : إنها حكاية
يحكيها معتوه ، ملؤها الصخب والعنف ،
ولا تعني أيّ شيء » .

(مكبث لشكسبير)

١

عندما منح الكاتب الأمريكي وليم فوكنز جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٠ .

كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة* . وكان قد قضى أكثر من ربع قرن بكتابة الروايات ، وأنجز منها عدداً كبيراً .

وهي ليست بالكتب اليسيرة القراءة . بل ان أكثر القراء كانوا يجدون بادئ الأمر في أسلوب فوكنر الطويل الجمل ، المركب الصور ، المعقد المبنى ، المليء بالكلمات المزدوجة الصياغة ، اشارة الى ضرب من الفوضى الذهنية والعاطفية في المؤلف ، وعائقاً لهم عن تذوق فنه . ولكن فوكنر ظل منزوياً في بلدة صغيرة في احدى الولايات الجنوبية (اكسفورد ، مسيسبي) ، منصرفاً عن المعارك الأدبية إلى كتابته واسلوبه . وقد خلق اسطورة بعيدة الأصول ، منتشرة الفروع ، تضيف اليها كل رواية يكتبها تفصيلاً جديداً واتساعاً جديداً . وكان رائده في ايجاد هذه الأسطورة الخلاقة إن يصور ما يدعوه الامريكيون «الجنوب» : وهو يتألف من الولايات التي انتعشت على زراعة القطن واستخدمت الزنوج رقيقاً الى ان اندلعت نيران الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ، فخسر الجنوب الحرب ، وألغي الرق ، وغزا الشمال الجنوب بوسائل شتى وتغيرت معالم الحياة فيه .

وهذا التغير ، بما فيه من انحطاط أو سمو ، من شهامة أو حقارة ، وبما سبقه وتلاه من جرائم وصراع وهتك عرض ، هو موضوع فوكنر . و« الشرف والإباء » كلمتان تترددان في أكثر كتبه . الشرف والاباء والحب والشجاعة ، وقد أحاطت بها قوى الفساد والجريمة والمادية والجشع والخسة . فإن فوكنر يرى في قصة الجنوب مصغراً لما حلَ بالعالم من فوضى خلقية وانحلال اجتماعي ، ويرى في ذلك مأساة كونية . وقد قيل ان فوكنر لا ينتقي من المواضيع إلاّ ما كان قبيحاً أو مرعباً ، كأنه بذلك يغذي الغرائز الدنيا في القراء . وهذا في الواقع عكس ما يرمي اليه . لقد أراد ان يجابه مشكلة الشر ، ويتفحصها من كل جانب ، لكي يرى فعلها في حياة الإنسان وهو لذلك لم يترك رذيلة أوجريمة لم يجد مكاناً لها في كتبه : تصور الاغتصاب والسلب والزنا بذوي الرحم ، والقتل

---

* توفي فوكنر في ٦ تموز ١٩٦٢ وهو في الخامسة والستين من عمره .

والانتحار وقتل الأخوة وإدمان المخدرات والمسكرات ، وسلب القبور وتزاوج البيض والسود ومضاجعة الموتى ، والفحشاء والبغاء ، قتل الجماهير للشخص ، والخيانة والأنانية ونكران الجميل . فهي كلها تصور مأساة « الجنوب » وبالتالي مأساة الإنسان ، وتنطلق كلها من قلم المؤلف عنيفة عاتية ، تعبر عن غضبه واشمئزازه ، ولكنه يضع إزاءها الفضائل التي يراها آخذة في الزوال : الشهامة ، الشجاعة ، الحب ، الشرف ، الإباء ، الشفقة .

وقد وضع فوكنر لأسطورته حدوداً جغرافية ، وأرقاماً للمساحة وعدد السكان ، وأوجد للمقاطعة عاصمة وقرى ، كلها من خلقه ، وجعل هذه المقاطعة الخيالية في ولاية مسيسبي ، واسمها « يوكناباتوفا » وعاصمتها « جفرسن » ، (وهذه تشبه كثيراً بلدة أكسفورد ، حيث يقطن المؤلف) . وأكثر السكان ـ عدا أصحاب الحوانيت والحرف ـ مزارعون أو حطابون ، وحاصلاتهم هي على الأغلب بالات القطن التي يشحنونها إلى مدينة ممفيس (وهذه حقيقية ، ويجعلها فوكنر مركزاً لكل مايعتلج في المدن من فسق) . والبعض منهم يقيم في بيوت ضخمة ، هي بقايا عصر انقضى والبعض الآخر في منازل خشبية لا بأس بها . أما الأكثرية فمستأجرون ، وليست منازلهم بأفضل من منازل العبيد أيام ما قبل الحرب الأهلية .

ولكي يحسن القارئ فهم أي رواية من روايات فوكنر ، يجب أن يطلع مقدماً على موجز للأسطورة التي تجعل من الروايات أجزاء متواشجة . وفحواها أن « الجنوب القصي » Deep South كان يأهله قوم من الأرستقراطيين ، كعشيرة سارتوريس ، وجماعة من النازحين الجدد ، أمثال الكولونيل ستبن وكلتا الجماعتين عازمة على إنشاء نظام اجتماعي دائم على الأراضي التي اغتصبوها من الهنود الحمر ، وذلك بتخليف نسل يحافظ على التقاليد الأوربية وهي تقاليد الشرف والفروسية . على أنه كانت في صلب خطتهم خطيئة لازمة ، وهي الرق (إذ استحضروا الزنوج من أفريقيا بمئات الآلاف لهذا الغرض) . فوضع الرق لعنة على الأرض ، وسبب الحرب الأهلية ، فلما خسروها ، أرادوا استعادة خطتهم

بطرق أخرى ، فلم يصيبوا إلا نجاحاً جزئياً ، وبمرور الزمن اكتشفوا أن بين ظهرانيهم أعداء جنوبيين وهم الطبقة الاستغلالية الجديدة ، أحفاد البيض الذين كانوا أيام الرق بلا أملاك أو أراض ، وتتمثل هذه الطبقة في آل سنوبس ، وهي طبقة لا ضمير لها ولاوازع ، ولاغاية لها سوى الكسب المادي . وإذ نشأ الصراع بين آل سارتوريس (الأرستقراطيين) وآل سنوبس ، كانت الهزيمة قد كتبت على آل سارتوريس مقدماً ، بسبب تقاليدها التي تجعلها تترفع عن استعمال سلاح العدو المشين . ودفعاً لثمن هذا النصر كان على آل سنوبس أنفسهم أن يخدموا مدنية الشمال الآلية . وهي مدنية ـ كما يراها فوكنر ـ واهية أخلاقياً ، وهي التي أفسدت في النهاية أهل الجنوب[١] .

فالوضع في روايات فوكنر مبني على أن الشمال مادي وآلي ، يعتمد على المدن الكبيرة التي تعيش فيها الملايين التي لا وجه لها ولا شخصية ، وإن الجنوب زراعي يعتز شعبه بالشرف . وتيار الشمال الأرعن يهدد بالقضاء على تقاليد الجنوب العريقة ، ولكنها تقاليد فيها كثير من البلى والوهم ، وتفوح منها رائحة الموت[٢] .

٢

« الصخب والعنف » ، أول رواية نشرها فوكنر عن قصة الجنوب هذه ، وكان قد كتب قبلها رواية « سارتوريس » ، ولكنه نشرها فيما بعد . وقبل هذين الكتابين أمل المؤلف أن يحظى بالشهرة في روايتين أخريين ، ولكن دون جدوى ، لأنهما كانتا عاديتين . أما أول مانشر من كتب فهو ديوان من الشعر عنوانه « الظبي المرمري » ، شديد التأثر بالشعر الرومانسي ، لم

---

(١) أنا مدين في هذا الملخص لما لكم كاولي في مقدمته الممتازة لكتاب The Portable Gaulkner .

(٢) ويرمز فوكنر الى ذلك في الرواية التي شهرته فجأة ، وإن تكن أقل قيمة من معظم كتبه الاخرى : « الحرم » Sanctuary . ففيها يغتصب رجل من الشمال فتاة عذراء من أهل الجنوب . ولكنه عنين (ويرمز بذلك الى الشلل في نفس الشمال) فيقضي وطره منها باستعمال عرنوس الذرة . ولكن الفتاة بعد ذلك تلتهب شبقاً . فكأنها بذلك تمثل انهيار القيم في الجنوب .

يلتفت إليه آنئذ أحد ، وهذا يدل على أن فوكنر (ككثير من الروائيين ومن جملتهم بلزاك) بدأ حياته الأدبية شاعراً . ولما تحول إلى النثر بقيت الروح الشاعرية في كل مايكتب . فنثره مشحون بالصور الشعرية والألفاظ غير المتوقعة ، مذكراً القارئ أحياناً بثروة شكسبير اللفظية .

« فالصخب والعنف » كتاب فوكنر الخامس . وقد شغل به زهاء ثلاث سنوات ، وكان عمره عند نشره (١٩٢٩) اثنتين وثلاثين سنة . وفي الحال التفت النقاد إليه ، ورأوا في كتابه رواية رائعة البناء ، والأسلوب ، سمّاها البعض « رواية الروائيين » . غير أن القارئ يحتاج في تذوقها وتخطي صعوباتها إلى حساسية فنية مرهفة ، وأناة شديدة . فكان الكتاب نصراً أدبياً لصاحبه ، وإن لم يكن نصراً مادياً[١] .

والآن وقد كتب فوكنر حوالي الثلاثين كتاباً ، واتضحت خطته فيها ، نجد أن « الصخب والعنف » مازال أحسن ما كتب[٢] ، وقد يضع البعض رواية « نور في آب » Light in August (١٩٣١) في المرتبة العليا ليسر تناولها ووضوحها ، غير أن التركيب الفني في « الصخب والعنف » مازال في جماله وبراعته معجزة من معجزات الخيال .

والكتاب ، من نواح كثيرة ، تبدو فيه الاتجاهات الأسلوبية والشكلية التي شاعت بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ وهي فترة من أهم الفترات وأخصبها في تاريخ الرواية ، لا لظهور عدد من الروائيين الكبار فيها فحسب ، بل لكثرة التجارب ونجاح الكثير منها ، في فن القصة . فهي الفترة التي لمع فيها شعراء مثل ت . س . اليوت وإزرا باوند ، وكلاهما يجمع بين الشعر والنقد ، وكلاهما واسع العلم ، عقلاني ، وكلاهما أثر في تغيير أشكال الأدب لافي الشعر فقط بل في النثر أيضاً . وهي الفترة التي غدت فيها نظريات فرويد ويونغ في اللاوعي حافزاً على معالجة

---

(١) ولكن اختلفت الحال مع فوكنر في النهاية . فبيع في السنوات الاخيرة من رواياته الكثيرة عشرات الملايين من النسخ .

(٢) سئل فوكنر قبيل وفاته عن أحَب كتبه إلى نفسه . فقال : « الصخب والعنف » .

مشاكل النفس الخفية ، بحيث يتغلغل المؤلف نزلاً في طوايا الشخصية ويكتشف طبقات الوعي السفلى ، إلى أن يبلغ القرارة التي ترسبت فيها تجارب الحياة وذكرياتها وأحلامها ، وهي الفترة التي ظهرت فيها السريالية ، مستمدة قوتها من نظريات اللاوعي ومن « الكتابة السحرية » لشعراء كان لهم تأثير عظيم ، أمثال رامبو ولافورغ وغيّوم أبولينير (الذي نحت كلمة « السرياليزم ») . وإلى هذا وذاك ، ظهرت روايتان مهمتان في هذه الفترة أثّرتا في معظم ما كتب فيما بعد ، وهما : « البحث عن الزمن الضائع » لمارسل بروست ، و« يوليسيز » لجيمس جويس ، وكلتا الروايتين تعتمد استثارة الذكرى والتداعي ، ولكن لكل أسلوبها . فبينما تعتمد الأولى السرد المسهب الدقيق ، تعتمد الثانية استخراج ما في النفس من تجمعات الحوادث والخواطر لا سرداً بل دفقاً ، عن طريق المونولوج الداخلي . والمونولوج الداخلي يعتمد على التداعي ، والرموز المتواترة ، والصور المترددة وانتشرت بين الأدباء عادة ، من الصعب ردها إلى أصلها ، وهي أن يبني الكاتب قصيدته أو قصته على أسطورة قديمة في لباس حديث ، أو أن يدخل في كتاباته حوادث تعود في الواقع إلى مراسيم بدائية كمراسيم الخصب ودفن الموتى (كنتيجة لانتشار النظريات الأنثروبولوجية التي فصلها السر جيمس فريزر في كتابه « الغصن الذهبي ») أو أن يبني الحوادث على عبارة في كتاب لأرسطو أو مقطوعة لشكسبير ، أو أن يجمع كل ذلك معاً في كتاب واحد ، كما فعل جيمس جويس في « يوليسيز » . ولم يستخدم هذه الأساليب الكتاب العقلانيون فحسب ، أمثال ت . س . اليوت (مثلاً قصيدته « الأرض اليباب ») وجيمس جويس ، بل استخدمها أيضاً السرياليون : أمثال كوكتو وغيره .

ويبدو أن فوكنر الشاب ، وقد سئم الدراسة الجامعية (فتركها دون الحصول على شهادة) ، وحاول نظم الشعر ، وتسكع ما شاء له التسكع في نيو أورلينز ، والحي اللاتيني في باريس ، وبلدته الصغيرة اكسفورد (مسيسبي) ، كان يتشرب هذه التأثيرات على مهل . ويروي المحدثون كيف كان يتمشى في شوارع اكسفورد في تلك الأيام مفلساً ، حافياً ، غير حليق

الذقن ، يجلس القرفصاء في مدخل أحد الدكاكين حاملاً المجلات ويقرأ ، أو يستمع إلى حديث الناس وثرثرة الزنوج ، وأسطورة الجنوب تتبلورفي ذهنه .

لما جعل يكتب « الصخب والعنف » كان قد هضم تأثيرات فترته ، بحيث استطاع أن يجعل منها عُدّة لكتابة عجيبة . فالكتاب يعتمد على المونولوج الداخلي ، وتأثير جيمس جويس واضح ، ولكنه تأثير خلاق لا محطم ، والقصة في خطوطها العريضة توسيع وتمثيل لعبارة مشهورة من مأساة « مكبث » ، وكل شخص من أشخاصها الثلاثة المهمين (وهم أخوة) يعبر عن إحدى الشخصيات اللاواعية التي اسماها فرويد الهو id ، الأنا ego ، والأنا الأعلى super-ego ، والأخت وابنتها تمثلان الليبيدو Libido ـ أي الطاقة الجنسية .

هذه عُدّة فوكنر . ولكنها وسيلة لا غاية . وسوف يتوقف نجاحه على مقدار ما أصاب من غايته وغايته هي أن يصور انحلال أسرة آل كمبسن[١] Compson ، ضمن اطار الانحلال العام في « الجنوب » .

وكان عليه أن يجعل من ذلك شيئاً فنياً مؤثراً وهذا بالضبط ما نجح في انجازه .

٣

حيث بدأ الكتاب نجد أن معظم الحوادث قد حدثت . ولن يعود اليها المؤلف إلا مستذكراً هنا هناك ، كأن القارئ يعرفها ، وما على المؤلف إلاّ أن يرى أثرها ووقوعها في نفس أحد الأبطال ، ملقياً عليها كل مرة ضوءاً جديداً ، بل إن الحوادث نفسها تكاد تكون لا خطورة لها إذا قيست بما يحيط بها من ظروف وماتخلف من وقع . والصعوبة في قراءة الكتاب تبدو في عدم معرفة القارئ للحوادث التي يشير إليها المؤلف كأنها معلومة لدى القارئ وهو في الواقع لن يستوفي معرفتها إلاّ حين ينهي الكتاب . وعليه حينئذ أن يعيد قراءة الرواية من جديد ليستمتع بها المتعة الكاملة . ولعل هذا هو السبب في أن

---

(١) مؤسس الاسرة هو الكولونيل ستبن وهي أيضاً عريقة التقاليد مثل اسرته .

فوكنر ، بعد نشره الرواية بستة عشرة عاماً كتب لها ملحقاً ـ يوضع في الطبعات الحديثة كمقدمة كما فعلنا في ترجمتنا هذه ـ يشرح فيه الحوادث المهمة في الكتاب بايجاز ، ويصف أفراد آل كمبسن واحداً واحداً (راجعاً بتاريخهم حوالي منتي سنة إلى الوراء) ويوضح مكانهم في القصة . وإذ بهذا الملحق قطعة رائعة جديدة هي ولا شك من صلب الكتاب ، وتلقي عليه نوراً جديداً ، فهو يستمر في تاريخ أفراد القصة حتى سنة ١٩٤٥ ـ بينما ينتهي الكتاب يوم ٨ نيسان ١٩٢٨ . فكأن أشخاص الكتاب فعلاً أحياء يرزقون .

الرواية قصة أخوة ثلاثة هم كونتن Quentin ، وجاسن Jason و بنجامين (أو بنجي) Benjy وأختهم كاندس (أو كادي) Candace ، وابنتها كونتن (وسميت باسم خالها بعد انتحاره) .

وقد كتبت على شكل سمفونية في أربعة أقسام ، كل قسم من الأقسام الثلاثة الأولى يرويه أحد الأخوة بالدور ، كل على طريقته ، والقسم الأخير يرويه المؤلف ، فيأتي الترتيب هكذا :

١ ـ بنجي : بتاريخ ٧ نيسان ١٩٢٨ .
٢ ـ كونتن : بتاريخ ٢ حزيران ١٩١٠ .
٣ ـ جاسن : بتاريخ ٦ نيسان ١٩٢٨ .
٤ ـ المؤلف : بتاريخ ٨ نيسان ١٩٢٨ .

إنها سمفونية مروّعة بجمالها ومأساتها تتكرر فيها الإشارة إلى الحوادث نفسها ، كأن كل حادثة « موتيف » في السمفونية تعزفها كل مرة آلة مختلفة . ومن بدنها حتى النهاية يتردد فيها بكاء بنجي المعتوه ، كأنه نوح على الحياة وهي تتدهور ، كأنه « صوت كل بؤس لاصوت له » يرتفع فوق الصخب والعنف .

وكل قسم يختلف كل الاختلاف عن الأقسام الأخرى ، للاختلاف الشديد بين الأخوة : فبنجي معتوه يسمع ولكن لا ينطق ولا يستطيع إلاّ الصراخ والعويل . وهو حين يروي الحوادث لايستطيع أن يرتبها ترتيباً زمنياً وماحدث قبل عشرين سنة ، وماحدث اليوم ، كلاهما متساوي الأهمية في

سرده ، متساوي الوضوح ، وكل شيء يذكره يبدو كأنه يراه لأول مرة ، بكل ما فيه من جدة وبراءة . إنها حكاية يقصها معتوه...

وكونتن - في ١٩١٠ ، لا في ١٩٢٨ كما في المقطع السابق - طالب في هارفرد ، مفرط الحساسية ، شديد التعلق بشرف الأسرة .

وجاسن - ونعود إلى ١٩٢٨ - فظ ، شرس ، سادي ، أناني ، يبغي من الحياة النجاح وتجميع الثروة ، عن أي طريق .

وكل منهم يشير إلى الحوادث نفسها على الأغلب ، ناظراً إليها من زاويته ، وخلاصة هذه الحوادث هي :

أن أسرة كمبسن (المقيمة في دار كبيرة في مدينة جفرسن ، في خدمتها عدد من الزنوج ، أهمهم الخادمة دلزي) تحاول التمسك بالتقاليد الارستقراطية عبثاً . فالأب ، وهو بليغ الكلام ، يعتكف على مطالعة الكتب الكلاسيكية ومعاقرة الويسكي ، ينشد فيهما نسيان تيار الحياة الجديدة ، والأم « سيدة » شديدة الكبرياء والترفع ، ولكنها دائمة المرض تقضي أكثر أوقاتها في الفراش مصرة على منزلتها الاجتماعية ، ولا تثق إلاّ بابنها جاسن ، وهو الذي يسلب مالها دون وعي منها لأغراضه الشخصية . تبيع الأسرة قطعة ثمينة من أراضيها لإرسال كونتن إلى هارفرد ، وهو يحب أخته كاندس حباً شديداً ولكنه يتألم جداً عندما يعلم أنها عشقت رجلاً غريباً وضاجعته ، فلا يستطيع أن يتحمل فكرة فقدانها العفاف ، وما في ذلك من وصم لشرف آل كمبسن ، فيدعي أمام أبيه أنه هو الذي ضاجعها! ثم تتزوج اخته وهو في هارفرد ، وبعد ذلك بمدة قصيرة ، حال انتهاء السنة الدراسية الأولى ، ينتحر غرقاً في نهر تشارلز في كمبردج ، ماساشوستس ، وذلك يوم ٢ حزيران سنة ١٩١٠ . أما أخته كاندس ، فيكتشف زوجها أنها حامل من رجل آخر ، فيطلقها وتضع بنتاً تسميها « كونتن » إحياء لذكرى أخيها ، وتهجر أهلها وتنتقل من رجل إلى آخر وتسوء سمعتها (وقد أخذت الأسرة ابنتها كونتن لتربيتها) ، إلى أن نسمع أخيراً أنها في سنة ١٩٤٣ عشيقة لجنرال ألماني في باريس .

وفي هذه الأثناء كانت كاندس ترسل أول كل شهر مقداراً من النقود ليصرف على ابنتها ، ولكن جاسن ـ وقد كان يكرهها ويشاكسها ، ويكره ويشاكس ابنتها أيضاً ـ يتسلم المال ، ويخفيه عن الفتاة كونتن عدا عشرة دولارات كل شهر ، ويجمعه في صندوق مخبأ في غرفته . فتنشأ الفتاة تحت اضطهاد مستمر منه . وفي ليلة ٨ نيسان ١٩٢٨ تتسلق شجرة الإجاص التي تمس فروعها نافذة غرفة جاسن وتكسر الزجاج ، وتقتحم الغرفة ، وتسرق المال (حوالي ٧ آلاف دولار) وتهرب به مع عشيق لها من الممثلين في «السيرك» .

وطوال هذه السنين كان بنجي موضع عناية الخدم الزنوج مع عطف شديد من دلزي . ولكن كاندس هي التي علق بها المعتوه المسكين على طريقته ، فقد كانت تلاعبه وتحنو عليه ، وبعد أن اختفت كان كلما سمع اسمها يبكي وينوح ، وكلما اشتم رائحة أوراق الشجر في المطر يتذكرها لأنها كرائحة اخته . ويهاجم مرة فتاة دون نجاح ، فيطلب جاسن إلى أبيه أن يخصيه دون جدوى ، إلى أن يموت الأب فيخصى بنجي ، ثم تموت الأم ، فيضع جاسن أخاه في مستشفى المجانين (١٩٣٣) ويسرح الخادمة دلزي (وكان يكرهها) وأولادها ، ويبيع الدار لرجل يحولها إلى نزل ، ولا يبقى من الأسرة شيء .

٤

هذه هي الحوادث الرئيسية ،ويحسن بالمرء أن يعرفها مقدماً قبل الشروع في الكتاب ، ولاسيما المقطع الأول منه .

فهذا الجزء ، الذي يقصه بنجي المعتوه ، متقطع ، قصير الجمل ، غير بادي الارتباط ، فجائي الانتقال بين فترات الزمن كأنها كلها موجودة آنياً معاً . والحوادث هنا أشبه بلعبة الـ jigsaw ، يضع القارئ أجزاءها في أمكنتها ببطء إلى أن يفرغ من الجزء فتكتمل الصورة . والقصة هنا لا تنمو بقدر ما تدور على نفسها أو تتحرك في خطوط متوازية . فترى كاندس في صباها ،

ونرى ابنتها الصبية أيضاً ، في نفس الصفحة . ولكن كاندس تحنو على بنجي ، في حين أن ابنتها شرسة تقسو عليه . ونرى جاسن رجلاً كاملاً ، ونراه ولداً ، وهو في كلتا الحالتين شرس مكروه .

بنجي هو الإنسان الأول . هو «الهو» في سيكولوجية فرويد . فيه البدائية وفيه البراءة المطلقة ، وهو لا يفهم ماذا يجري حوله . إنه مجموعة أحاسيس فقط : بل ان حواس الشم والسمع واللمس قوية جداً هنا . فهو «يسمع السطح» (لأن المطر يسقط عليه) ، ويشمَ الليل ، ويريد لمس النار لانه يحب نور اللهب . يقول فوكنر : «ما أحب بنجي الا أشياء ثلاثة : المرعى الذي بيع لارسال كونتن الى هارفرد ودفع نفقات زواج كاندس ، واخته كاندس ، ووهج النار» . وكلما ناح او صرخ ، اعطاه الولد الزنجي زهرة ليحملها فيسكت .

هذه هي الحركة الاولى من السمفونية : قصيرة النغمات ، متقطعة ، تدور وتلتف عى نفسها . ولكن جوها مفعم بأصوات الطبيعة وروائحها ، بخفق المطر وتراقص اللهب وبكاء بنجي ، والتجاذب والتناحر بين افراد عائلة تحوّم فوقها اشباح الموت .

فاذا جئنا الى الحركة الثانية ، تغيّر الاسلوب ، وتغيّر الجو ، وتغيّرت صفة الزمن . فالقاص هنا كونتن يوم ٢ حزيران ١٩١٠ . ويبدأ من ساعة نهوضه بُعَيد السابعة في غرفته بجامعة هارفرد ، ويستمر حتى الثامنة مساء عندما يلقي بنفسه منتحراً في مياه نهر تشازلز . والجمل هنا تبدأ طويلة متداخلة متواصلة ، بعكس المقطع السابق . وكونتن ، وقد عزم على الانتحار ، يشعر بعبث الزمن ، وعبث الساعات التي تدق ثانية ثانية ، دون معنى . ولعل فوكنر هنا يفصّل قول مكبث :

« ... وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً اثر يوم .
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب ،
و اذا كل آماسينا قد أنارت للحمقى المساكين الطريق الى الموت

والتراب » . وأول ما يذكر كونتن هو عن وعيه بآلة الزمن :

« عندما سقط ظل عارضة الشباك على الستائر ، كانت الساعة بين السابعة والثامنة ، فقد افقت اذن في الوقت المطلوب ثانية ، وأنا أسمع الساعة . كانت تلك ساعة جدي ، وعندما أهداني إياها أبي قال : كونتن ، إني أعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها . وانه لمن المناسب ان تستخدمها حتى الألم لتكسب النهاية المنطقية الحمقاء لاختبارات الانسان جميعها ، وهي التي لن تنسجم وحاجاتك الشخصية أكثر مما انسجمت وحاجات جدك أو أبيه . إني اعطيك اياها لا لكي تذكر الزمن ، بل لكي تنساه بين آونة وأخرى ، فلا تنفق كل ما لك من نفَس محاولاً ان تقهر الزمن . لأن ما من معركة ربحها أحد ، قال أبي . لا بل ما من معركة حارب فيها أحد . فالميدان لا يكشف للمرء إلاّ عن حماقته ويأسه ، وما النصر إلاّ وهم من أوهام الفلاسفة والمجانين » .

ثم يقوم ويكسر عقربي الساعة ، ولكنها تستمر في التكتكة : تحصي الزمن ولا تشير اليه ، في آن واحد . ويضعها في جيبه .

وهذا المقطع ، من أوله إلى نهايته ، يتحرك تحت ظل الساعة . فبينما كان الزمن في مقطع بنجي موجوداً كله آنياً لا ترتيب فيه ، هنا يسمع كونتن دقات ساعات المدينة ربعاً ربعاً ، وتظل ساعته المكسورة العقربين تدقدق في جيبه ـ وقد بطل كل ما فيها من معنى .

والفكرة الملحاح في نفس كونتن هي كيف ضيعت اخته كاندس بكارتها مع رجل يحتقره ، وكيف انها قبل شهرين تزوجت من رجل آخر غني يكرهه . فيتمنى لو استطاع هو ان يضاجعها لكي يحفظها لنفسه ، فيحفظ الأسرة من التفكك وفساد الدم . وهذا ما يقوله فوكنر في « الملحق » ، ملخصاً بعبارة رائعة شخصية كونتن المأسوية :

« ما عشق جسد أخته ، بل عشق فكرة ما عن شرف آل كمبسن ، وهو الشرف المحمول مقلقلاً ومؤقتاً على غشاء بكارتها النحيف الدقيق ، كمن يريد ان يوازن مصغراً للكرة الأرضية الشاسعة على أنف فقمة مدربة . وما عشق

فكرة الزنا بالأخت ، وذلك ما لن يقترفه ، بل فكرة دينية عن العقاب الأبدي لخطيئة كتلك . وبذلك يستطيع هو ، عوضاً عن اللّه ، ان يقحم نفسه واخته في الجحيم ، فيحرسها هناك الى الأبد ، ويبقيها سليمة الى الأبد وسط النيران الأزلية . ولكنه عشق الموت أكثر من أي شيء آخر ، ولم يعشق إلاّ الموت . فعشق وعاش متقصداً ومتوقعاً الموت ، كمن يعشق جسد حبيبته الطري الموالي المستسلم ولكنه يحجم عنه متقصداً ، إلى أن يعجز عن تحمل المنع لا الإحجام ، فيلقي ويقذف بنفسه ، هاجراً كل شيء ، غارقاً في النهر... » .

ويخرج كونتن من غرفته ويذهب في سيارة نحو بوسطن ، بمحاذاة النهر مدة ، وهو يستذكر ماحدث له ولأخته . والمعجزة الكتابية هنا هي في الطريقة التي يعرض فيها المؤلف أحياناً ثلاث طبقات من الوعي معاً ، ويحمل القارئ ، زمنياً ، جيئة وارتداداً بينها ، ويبقيه دوماً على أكثر من مستوى زمني واحد ، في طفرات تجعل للحدث الآني متوازيات من الأماسي الماضيات تتواشج به عن مغزى أو عبث . فكونتن إذ يتمشى يلقى فتاة ايطالية صغيرة لا تتكلم الإنكليزية ، فيشتري لها خبزاً وكعكاً ، ويساعدها في البحث عن بيتها ، وفي النهاية يهاجمه أخوها متهماً إياه بمحاولة اختطافها . ولكننا في الوقت عينه نجد أنفسنا داخل ذهن كونتن وهو يتذكر كلفه باخته وغضبه على فسقها بتفصيل مترع بالأحاسيس . وخلال هذه الذكرى نطلع على مشهد آخر عنيف له وهو يحاول معانقة فتاة اسمها ناتالي في الطين والمطر ينهمر . لست أعتقد أن في الأدب المعاصر قطعة من« سيل الوعي » كتبت بهذه البراعة وهذا السحر ، ولاريب أن بين هذه الأجزاء الثلاثة ارتباطات خفية من الرغبة والسخرية . اذ يقترن غضبه على اخته وتعلقه بها بشهوته لناتالي ، مع كل مافي الطين من رمز إلى المصاعب والقذارة ، وما يكاد يساعد فتاة صغيرة بريئة ، حتى ينصب على رأسه غضب أخيها وقد أخطأ القصد ، بينما لم يخطئ هو القصد في غضبه على عشيق أخته .

وفي خلال هذا المقطع يتبدى لنا رمز قوي آخر هو زهر العسل ، الذي لا

يستطيع كونتن أن ينساه (كما لا يستطيع أن ينسى الساعة) ، لأنه رمز لكل ما يشتهيه ويكرهه في كاندس . فهناك مشهد يتذكره عن محاولته واخته الإنتحار معاً ، وإقلاعهما عن ذلك ، ثم محاولته الفاشلة لقتل عشيقها (وتختلط هذه الذكرى فيما بعد ، بمحاولته ضرب صديق له يلقاه بعد حادثة الفتاة الإيطالية) . والجو مشحون بشذا زهر العسل ، ومن اليسير أن نرى أنه أضحى رمزاً لكاندس نفسها[١] :

« عندها جعلتُ أبكي ولمستني يدها ثانية وجعلت أبكي ووجهي على قميصها الرطب ثم استلقت على ظهرها وانطلقت نظراتها بمحاذاة رأسي نحو السماء فرأيت مداراً من البياض تحت بؤبؤ عينيها وفتحت سكيني .

أتذكرين يوم ماتت جدتي وجلست أنت في الماء بسروالك .

نعم .

ووضعت رأس سكيني على حنجرتها .

لن تستغرق إلاّ ثانية فقط ثم اطعن حنجرتي ، اطعن حنجرتي بعدها .

لا بأس أتستطيع أن تطعن حنجرتك بنفسك .

نعم فالشفرة طويلة لابد أن بنجي قد نام الآن .

نعم .

لن تستغرق إلاّ ثانية وسأحاول ألاّ أؤلمك .

حسناً .

أغمضي عينيك .

لا إذا وضعتها هكذا عليك أن تضغط بعزم أشد .

المسيها بيدك .

ولكنها لم تتحرك وكانت عيناها مفتوحتين باتساع تنظران بمحاذاة رأسي إلى السماء .

---

(١) من عادة المؤلف ان يهمل في سرد الذكريات ليوحي بسيولتها وتداخلها بعضها في بعض . وهي ظاهرة اسلوبية بارزة في هذه الرواية .

كاندس أتذكرين كيف جعلت دلزي تصيح بك لأن ثيابك السفلى اتسخت بالطين .
لا تبك .
لست ابكي ياكاندس .
ادفعها ألا تريد أن تدفعها .
أتريدينني أن ادفعها .
نعم ادفعها .
ألمسيها بيدك .
لاتبك مسكين كونتن .
ولكنني لم استطع الكف عن البكاء فأمسكت برأسي عند صدرها الصلب الرطب وجعلت اسمع قلبها ينبض بثبات وبطء وماعاد يضرب كالمطرقة والماء يثرثر بين اشجار الصفصاف في الظلام والتوت ذراعي وكتفي تحتي .
ما هذا ما هذا الذي تفعله .
واجتمعت عضلاتها فجلستُ منتصباً .
سكيني لقد اسقطتها » .
ويستمر تذكره كيف قاما وحاول أن يمنعها عن الذهاب لمقابلة عشيقها وهي تطلب إليه أن يعود إلى البيت :
« وتساقط زهر العسل في رذاذ إثر رذاذ واستطعت أن أسمع الزيزان ترقبنا في دائرة حولنا... » .
وأخيراً يعود في اتجاه البيت بين الشجر وهو يسمع الزيزان والضفادع ولا يستطع نسيان زهر العسل :
« وركضت على الحشيش الأغبر بين الزيزان ورائحة زهر العسل تشتد وتشتد وكذلك تشتد رائحة الماء ثم جعلت أرى الماء في لون زهر العسل الأغبر وارتميت على الضفة ووجهي لصق الأرض لكي لا أشم زهر العسل فلم أشمه ثم بقيت ملقى هناك أشعر بالأرض تخترق ثيابي وأصغي إلى الماء... » .

وبعد أن يفرغ من هذه الذكريات ، وهو مازال يتمشى عودةً نحو الجامعة ، ندرك أن زهر العسل والماء قد أضحيا عنده شيئاً واحداً .

ولذلك حالما يرى النهر ثانية يقول :

« هنا رأيت النهر لآخر مرة هذا الصباح... وجعلت أشعر بوجود مياه وراء الأصيل ، ورائحة . عندما كانت الأزهار تنفتح في الربيع ويهمي المطر ينتشر الشذا في كل مكان... فإذا ما أمطرت السماء ، بدأت الرائحة بالتسرب إلى الدار عند الأصيل ، وعند الأصيل إما أن يشتد المطر أو أن في وهج الأصيل شيئاً يجعل الشذا حينئذ أقوى رائحة إلى أن أجدني مستلقياً على فراشي وأنا أقول متى ستكفّ ، متى ستكفّ . وإذا دخل الهواء من الباب حمل رائحة الماء كنفس رطب مستمر . وكنت أحياناً أنَوم نفسي وأنا أعيد وأكرر ذلك إلى أن اختلط زهر العسل به و أمسى كل ذلك يرمز إلى الليل والقلق... » .

وهكذا يختلط زهر العسل والماء وكاندس ، فيرمز الواحد إلى الآخر . وإذ انتحر غرقاً فكأنه انتحر بالشذا وبتلك الخطيئة المريعة التي يتصور أنه اقترفها ، وإذ اقترن كل ذلك بغضبه على تزعزع الأسرة وتلويث شرفها ، أضحى انتحاره نهاية محتومة ، لأنها تعبر عن تلك النزعات كلها معاً . وإلى هذا وذلك تبقى الساعة تهذر بالثواني ، ولا تدل على الزمن ، وقد أضحى الزمن عبثاً مؤلماً لم يأت إلا بالموت والإنحلال .

٥

وما نكاد نطفر زمنياً إلى ٦ نيسان ١٩٢٨ ، ولنبدأ المقطع الثالث من السمفونية ، حتى يجابهنا جاسن بقوله رأساً : « عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم . هذا ما أقوله أنا » . فنعلم أننا مع رجل هو نقيض أخيه كونتن . فإذا كان كونتن هو « الأنا الأعلى » الذي تتمثل فيه تقاليد الأسرة ، فإن جاسن هو « الأنا » - بأقبح مظاهره . ففيه الغطرسة النامية عن حقد ، وهو الرجل المتكالب على النجاح

المادي مهما تطلب ذلك من خسة . فهو يختلس مال أمه الواثقة به ، ويسرق النقود التي ترسلها كاندس شهرياً لتربية ابنتها كونتن سبعة عشر عاماً متوالياً . ومجمل مايتصف به من أخلاق تقليدية هو نقمته على غراميات الفتاة الناشئة كونتن (وهي التي يعنيها بقوله : عاهرة يوماً...) ، فيراقبها سراً ويلاحقها « من أجل أمي » كما كان يراقب في صباه أمها كاندس . ومع هذا فإن عشيقته مومس في ممفيس . ويتصف جاسن بكل الرياء المعروف عن الذين يخشون على مكانتهم الإجتماعية من « كلام الناس » ، فيرفض مقابلة اخته كاندس في د كانه علناً ، لأن سيرتها قد ساءت ، ولكنه يقاضيها مئة دولار ليريها ابنتها الصغيرة د قيقة واحدة! وهو سادي ، يصر على خصي أخيه المعتوه (لأن المسكين تطاول على فتاة دون وعي بما يفعل) ، إلى أن يخصيه فعلاً ثم يضعه في مستشفى للمجانين ، رغم أنه لا يؤذي أحداً ويجد سلوى بمرافقة الخدم الزنوج . ويطلب جاسن إلى أمه بأن تأذن له بجلد الفتاة كونتن . وللحقارة التي في نفسه يحقد على الخدم الزنوج الأبرياء . وقد حصل مرة على تذكرتين للسيرك الذي قدم إلى بلدة جفرسن ، ولكنه لم يستطع الذهاب ، وكان الخادم الصبي « لَستر »طيلة اليوم يترجى هذا وذاك للحصول على ثمن تذكرة للذهاب الى السيرك ، ولكن جاسن يحرق أمام الصبي كلتا التذكرتين واحدة واحدة ، ولا يعطيه إحداهما رغم توسلاته...

فجاسن يمثل قوى التصدع الناشئة عن الأسرة العريقة نفسها ، كما تمثلها كاندس في شكل آخر بانطلاقها الجنسي ، وكما يمثلها الأب بتهربه من الواقع ، وكونتن بعشقه للموت . ولكن ليس من الصعب أن نحكم من هو الذي قد بلغ الحضيض بالفعل!

والزمن عنصر هام من عناصر هذا المقطع أيضاً ولكنه هو الآخر يختلف عن الزمن عند كونتن أو عند بنجي . فالزمن عند جاسن هو زمن التقويم (الرزنامة) : هو تواريخ الدفع والقبض ، ولا تدق الساعة إلاّ لتدل على أوقات الأكل ، وفتح الدكان أو اغلاقها ، فالزمن عنده هو الزمن كما يعرفه التاجر ، ولامغزى آخر له البتة ، بل أن كل شيء عند جاسن لا قيمة له إلاّ من ناحية

الربح أو الخسارة ، فهو مغضب على انتحار كونتن لأنه انتحر بعد أن بيعت قطعة الأرض لدفع نفقات تعليمه في هارفرد ، وبالتالي لم يستطع هو (جاسن) أن يدرس في جامعة . وعندما يموت أبوه ويدفن يلاحظ أن اخته (وقد جاءت لتحضر دفن أبيها محجبة لئلا يتبينها أهل البلدة) قد احضرت كمية كبيرة من الزهور ، وللحال ، يقول « إنها تساوي خمسين دولاراً » .

ولذلك فمن المناسب أن تكون الحادثة المركزية التي تتفرع عنها الحوادث الأخرى والذكريات (وأغلبها يشير إلى الحوادث التي عرفناها) ، هي الاختلاس : كيف يتسلم جاسن صكاً من كاندس ، بمبلغ مئتي دولار لينفقها على الفتاة كونتن ، وكيف جاءته كونتن إلى الدكان تطالبه بشيء من النقود ، فيدعي أنه لم يتسلم من أمها إلاّ عشرة دولارات يعطيها إياها فتشتمه لأنها لا تصدقه . ثم يراها بعد الظهر مع أحد ممثلي السيرك في سيارة ، فيلحق بها في سيارته ولكنه يفقد أثرها . وبعد سحب الفلوس يزوّر صكاً بنفس المبلغ ويأخذه إلى أمه ، وهذه ـ وهي السيدة الشريفة التي تتألم لسوء سيرة ابنتها كاندس ـ ترفض أن تصرف على حفيدتها أجور الفحشاء ويتظاهر جاسن بالموافقة (كما يفعل كل شهر) ويحضر لها معولاً تحرق فيه الصك المزوّر ارضاء لضميرها! وينتهي المقطع في الليل بدخول جاسن غرفته التي يقفل بابها بحيطة شديدة ، ويخرج الصندوق المخبأ الذي يجمع الدولارات المسروقة فيعدها ثانية ، ثم يعيدها إلى مكانها وهو يردد «عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم » ويمنّي نفسه بأنه سيبتز يهود نيويورك كلهم في الحصافة المالية .

ويتبدل الأسلوب في الحال حين تبدأ الحركة الرابعة من الكتاب بصباح اليوم الثامن من نيسان ـ فكل مقطع يبدأ صباحاً وينتهي مساء ـ ويقصها المؤلف ، فنسمع صوته لأول مرة : « طلع الفجر قاحلاً قارس البرد » . ويصف لنا طلوعه على الخادمة الزنجية دلزي وهي التي نشاهدها في المقاطع السابقة تعمل باستمرار على راحة كل فرد في الأسرة . تعرفهم جميعاً خيراً مما يعرف بعضهم بعضاً وتحنو عليهم بعطف رؤوم ـ ولا سيما المستضعفين منهم .

وفي الفقرات الأولى يصفها المؤلف : يصف وقفتها وثيابها وهي تفتح الباب ، ثم يأتي إلى جسمها فيجعل منها مايشبه القديسة في هذا الوصف الذي يجمع بين الدقة والشاعرية :

« كانت امرأة ضخمة فيما مضى ، ولكن هيكلها الآن ينتصب ، يكسوه إهاب واسع غير محشو ، يشتد ثانية عند بطنها... كأن العضل ولفائف اللحم كانت يوماً شجاعة أو جلداً أتت عليهما الأيام والسنون ، حتى لم يبق إلاّ الهيكل العظمي الذي لايقهر ، منتصباً كالخرائب أو المعالم فوق الأحشاء الوسنانة التي لا تشق ، ويعلو جميع ذلك وجه متداع يوحي للرائي بأن عظامه خارج اللحم ، يرتفع أمام النهار المندفع بتعبير في القسمات قَدري » .

فدلزي تختلف عن الآخرين لأنها مثال التحمل والصبر والعطف ، وإذا كانت الأسرة في طريقها إلى الانحلال اوالاضمحلال فإن الزنوج ـ وهم ليسوا إلاّ خداماً ـ هم الذين يبقون و« يجالدون » . ماأشد الفرق بين دلزي وبين سيدتها « مسز كمبسن » ـ تلك السيدة العليلة ابداً ، المصرة ابداً على أنها من كرام القوم ، وقطعة القماش المخضلة بالكافور دوماً على جبينها تلطف عنها الألم .

لعل هذا المقطع ما وجد إلاّ من أجل دلزي . إلاّ أن الحادثة المهمة هنا هي اكتشاف جاسن أن الفتاة كونتن قد تسلقت شجرة الاجاص ودخلت منها إلى غرفته بعد أن كسرت زجاج النافذة ، وسرقت (أو استردت) مالها ، وهربت مع ممثل السيرك ، فيجن جاسن ، ويخرج للبحث عن كونتن ويبدو أنه سيقتلها إذا وجدها . ولكنه لا يعثر لها على أثر (ولانعرف شيئاً عنها بعد ذلك) بل إنه لحنقه يتعدى على جزار بريء أثناء البحث ، فيكاد هذا يقتله لو لم ينقذه بعض الواقفين هناك .

أما دلزي فإنها في الصباح الباكر ، قبل الذهاب إلى الكنسية ، تقبع في المطبخ وقد سمعت ضوضاء جاسن عندما اكتشف أمر كونتن ، وإذا المؤلف يذكرنا بالزمن مرة أخرى :

« وراحت الساعة تدق ، تك تك ، تك تك ، في وقار وعمق ، كأن ذلك

نبض البيت المتداعي نفسه... فأخذ بنجي ينن...» .

وبعد ذلك تذهب إلى كنيسة الزنوج وتأخذ معها ابنها وبنجي ، لتسمع الموعظة ، واليوم هو أحد العيد الكبير ، يوم بعث المسيح . وهناك ، وقد هزت مشاعرها كلمات الواعظ الرهيبة عن الموت والقيامة ، «تدحرجت دمعتان على خديها المهدمين ، وهما تدخلان وتخرجان من ملايين التجاعيد ، تجاعيد التضحية ونكران الذات والزمن...» .

ويفرغ الواعظ من خطبته ، وتخرج دلزي من الكنيسة برفقة بنجي وابنها «فروني» :

«لم تنبس دلزي بشيء ، ولم يرتعش وجهها والدموع تجري في مجاريها الهابطة الملتوية ، ومشت مرفوعة الرأس دون أن تحاول مسح دموعها .

فقال فروني : «لماذا لاتكفين عن ذلك ياأماه ، وهولاء الناس يرقبوننا ؟ وبعد لحظات سنمر بالقوم البيض» .

فقالت دلزي : «لقد رأيت البداية والنهاية . لا عليك» .

ـ أية بداية وأية نهاية ؟

فقالت دلزي : «لا عليك . لقد رأيت البداية ، وها أنا الآن أرى النهاية» .

واذ يصرخ بنجي وينوح من جديد حين يبلغون البيت ، تحض دلزي ابنها على أخذه في عربة إلى المقبرة ليشاهد قبر أخيه المنتحر . فيفعل ابنها ذلك ويعطيه زهرة ليحملها فيهدأ . ولكن جاسن يرى العربة في ميدان المدينة ـ وقد عاد خائباً من بحثه عن الفتاة الآبقة ـ فيستشيط غضباً ، ويوقف العربة ، ويصفع الصبي ويلطم بنجي ، ويأمرهما بالعودة إلى البيت ، فيعودان وبنجي ينوح والزهرة مبتورة الساق في يده من لطمة أخيه .

ويترد في الذهن صدى كلمات دلزي بعد الذي شاهدته من صخب وعنف في بيت آل كمبسن ، وكأنها كلمات الكورس في المآسي الإغريقية : «لقد رأيت البداية والنهاية» .

جبرا ابراهيم جبرا

ملاحظتان

١

لما كان أهم ما يشغل فوكنر في هده الرواية ، من حيث الطريقة ، هو سرد الأحداث على عدة مستويات من الزمن والوعي ، فقد لجأ إلى بضع وسائل طباعية تسعفه في أدائه المعقد . ونود هنا أن نلفت النظر إلى اثنتين منها ، لكي نيسر على القارئ الدخول في جو الكتاب .

أما الوسيلة الأولى ، وهي بارزة جداً ، فهي استعمال الحرف المائل (italics) باللغة الإنجليزية ، كلما تحول السرد فجأة ، ولو كان ذلك في وسط الجملة ، من الحاضر إلى الماضي ، أو من الماضي إلى ماقبله ، أو من القول الواعي إلى القول اللاواعي ، أو من الحدث الجاري إلى الحدث المتذكر . وفي الترجمة جعلنا الحرف الأسود يقوم مقام الحرف المائل في الأصل .

ويستخدم هذا الحرف أيضاً كفاصل بين الفكرة والفكرة أثناء التداعي ، ولاسيما في المقطع الأول ، حيث تتوالى الحوادث والأفكار والأقوال وتتراكم بمايشبه حبات العقد المنثور ، على غير نظام ظاهر . ولكن الذي ينظمها كلها أخيراً هو سيطرة المؤلف على طريقته في تصوير الزمن وانصياع الكيان الإنساني له .

أما الوسيلة الثانية ، فهي استعمال الترقيم أو إهماله ، وفق حاجة المؤلف . فكلما انتقل الفعل من الحدث المباشر في سير القصة إلى الحدث المستذكر الذي أصبح انسياباً ذهنياً (بعد أن كان تسلسلاً جسدياً) ، انعدم الترقيم ، لأن الترقيم

يوحي بالفواصل المنطقية ، وفي الذكرى ـ كما يريدها المؤلف هنا ـ تتداخل الأفعال والأقوال دونما فاصل أو ناظم منطقي . ورغم أن المترجم لايود فضح البواطن كلها التي في هذه الرواية ، لكي يتيح للقارئ لذة الخوض فيها واستكشافها على طريقته ، فإنه يودّ بوجه خاص أن يلفت النظر الى الحوار المستذكر . في أواخر المقطع الثاني ، بين كونتن وأبيه وطريقة المؤلف في عرضه باستعمال مايشبه الملاحظات التي قد يدونها المرء في دفتر مذكراته : هو : ... ، أنا : ... ، ولكن دون ترقيم ومع اضافة مستمرة لحرف العطف توكيداً على الانسياب الذهني :

وهو... وأنا... وهلم جراً .

٢

قد تلتبس أسماء افراد اسرة كمبسن على القارئ العربي . ولذا فإننا ندرجها فيما يلي ايضاحاً لما قد يبدو فيها من تعقيد الأصل الذي حافظنا عليه في الترجمة .

جاسن (أو السيد كمبسن) : الأب . وكذلك الابن الثاني .

كونتن : الابن الاكبر . وكذلك ابنة اخته . وقد سميت باسمه لانها ولدت بُعَيد انتحاره .

كاندس (أو كادي) : اخت كونتن ، لا يسميها باسمها الكامل إلا أمها . أما الآخرون فيسمونها بمصغر التحبب من اسمها : كادي .

بنجامين : سمي في الأصل(موري) ، باسم خاله ، غير أنه دعي (بنجامين) عندما ادركوا أنه معتوه . لا تسميه باسمه هذا إلا أمه . أما الآخرون فإما أن يسموه بمصغر التحبب : بنجي (وكل الذين يعطفون عليه يدعونه كذلك) ، أو بمصغر آخر هو اقتضاب بنجامين :« بن » . وأخوه جاسن والمؤلف يدعوانه بهذا الاسم المقتضب .

كارولاين : الأم . وهي بالطبع المسز كمبسن . وقد آثرنا ابقاء الاسم الأخير على صيغته الأصلية عوضاً عن ترجمته إلى « السيدة كمبسن » .

ج. ا. ج

ملحق

كمبسن

١٦٩٩ ـ ١٩٤٥

ايكيموتبَ : ملك امريكي مسلوب ، سماه أخوه بالتبني ، أحد فرسان فرنسا ، «لوم» **L'Homme** (ويدعى أحياناً «دي لوم») ، ولو لم يولد متأخراً لكان من ألمع تلك الكوكبة اللألاءة من الأوغاد الفوارس الذين كانوا قادة جيوش نابوليون ، وقد ترجم اللقب من لغة الشيكاسو* ، ومعناه «الرجل» وهذه الترجمة خطا بها ايكيموتب ، وهو نفسه من ذوي النكتة والخيال والحنكة في الحكم على الخلق الشخصي بما ذلك خلقه هو ، فجعلها بالإنجليزية «دوم» **Doom** (القضاء المحتوم) وقد وهب من أراضيه الفسيحة السليبة ميلاً مربعاً كاملاً من تربة المسسبي العذراء ، زواياه كزوايا مائدة القمار(وكانت آنئذ مشجرة إذ كانت تلك أيام ماقبل ١٨٣٣ حين تهاوت النجوم ، وجفرسن مسسبي لا تعدو كونها بناء طويلاً واحداً من الأحطاب يمتد دونما خطة بطابقه الأوحد وجدرانه المرقعة الصدوع بالطين يسكن فيها الوكيل الشيكاسو وبها مخزونه التجاري البسيط) وهبه الى حفيد أحد اللاجئين الاسكوتلنديين ، وكان هذا اللاجئ قد فقد ميراثه لمؤازرته ملكاً كان هو بدوره قد خلع وسلب . وهذا لقاء بعض الحق في المسير بأمان ،

* إحدى قبائل الهنود الحمر . المترجم

بالوسيلة التي يرتنيها هو وقومه ، مترجلين أو راكبين شريطة أن تكون الخيول من الشيكاسو ، نحو الفلوات الغربية التي ستدعى بعد ذلك أوكلاهوما : دون أن يعلم أحد حينئذ شيئاً عن النفط .

جاكسن : من كبار الآباء البيض ، يتقلد سيفاً . (مبارز قديم ، ضرغام ، شرس ، أشعث ، قديد ، كثير الشجار ، طويل البقاء ، لايفنى ، وضع مصلحة الأمة فوق البيت الأبيض وجعل صالح حزبه الجديد فوق كليهما ، وجعل فوقها جميعاً ، لا شرف زوجته ، بل مبدأ ضرورة الدفاع عن الشرف سواء أتم الدفاع عنه أو لم يتم ، لأن الدفاع عنه تم سواء أكان أم لم يكن) . وقد دوّن الهبة وختمها ووقعها بيده في خيمته الذهبية في « واسي تاون » ، دون أن يعلم شيئاً عن النفط أيضاً : لكي يظهر المشردون من أحفاد هذا المسلوب يوماً راكبين ، وقد استلقوا على ظهورهم من السكر في روعة من البحران ، فوق مثوى عظامهم الترابي ، في عربات جنائزية وسيارات اطفائية حمراء اللون صنعت خصيصاً .

هؤلاء كانوا من آل كمبسن :

كونتن مكلاخن : ابن طباع من أهل غلاسجو ، تيتم فرباه أهل أمه في جبال بيرث . هرب من « كلودن مور » إلى « كارولاينا » وهو لا يملك إلاّ سيفاً وعباءة اسكوتلندية يرتديها في النهار ويلتحفها في الليل ، في الثمانين من عمره ، وبعد أن حارب مرة ملكاً انجليزياً وخرج من الحرب خاسراً ، رفض أن يلدغ من جحر مرتين فهرب ثانية في إحدى ليالي عام ١٧٧٩ حاملاً معه حفيده الطفل وعباءته (أما السيف فكان قد اختفى كما اختفى معه ابنه ـ أبو حفيده ـ من أحد فيالق تارلتون في احدى ساحات القتال في جورجيا قبل ذلك سنة) لاجئاً إلى كنتاكي ، حيث كان جار له يدعى« بون » قد أنشأ مستعمرة .

شارل ستيوارت : هُدر دمه وحجزت أملاكه اسماً ورتبة في فيلقه البريطاني ، وفي احد مستنقعات جورجيا هجره جيشه المتراجع ظناً منه بأنه

قد مات وهجره كذلك الجيش الأمريكي الزاحف ، وكان كلا الجيشين مخطئاً . فقد كان لما يزل يحمل سيفه الاسكوتلندي حتى عندما راح يسير على ساقه الخشبية التي صنعها بنفسه إلى أن لحق بأبيه وابنه بعد ذلك باربع سنوات في هوردسبرغ ، كنتاكي ، وسرعان مادفن أباه وبدأ عهداً من حياته كان فيه شخصية مفصومة وهو يحاول أن يكون المعلم الذي حسب أنه يريد أن يكونه ، إلى أن تخلى عن التعليم في النهاية وأصبح المقامر الذي كانه في الواقع ، والذي كانه كل فرد من آل كمبسن دون أن يعوا ، شريطة أن تكون فاتحة اللعب رهيبة وامكانية الخسران كبيرة ، أفلح أخيراً في المجازفة لابحياته فحسب بل بضمان عائلته وكرامة الاسم الذي سيخلفه لأحفاده ، بانخراطه في الإتحاد الذي رئسه رجل من معارفه يدعى ولكنسن (الذي امتاز بالكثير من الموهبة والنفوذ والعقل والسطوة) والذي اعد مؤامرة لفصل وادي المسسبي برمته عن الولايات المتحدة لربطه باسبانيا . فر عندما انفجرت الفقاعة (التي كان الكل يعلم أنها ستنفجر فيما عدا معلما من آل كمبسن) ، وكان فريداً في كونه المتآمر الوحيد الذي اضطر إلى الفرار من بلده : وذلك لاهرباً من انتقام وقصاص الحكومة التي حاول تمزيقها ، بل هرباً من الإشمئزاز العنيف الذي اعترى رفاقه الاتحاديين الذين جنّوا في طلب السلامة ، وهو لم يطرد من الولايات المتحدة بل ما جرّده من الوطن إلاّ لسانه ، فلم يكن طرده نتيجة للخيانة بل لكثرة ماتشدق بشأنها ، حارقاً وراءه كل جسر كلاماً قبل أن يبلغ مكاناً يبني فيه جسره التالي : ولذا لم يكن الحاكم العسكري أو حتى السلطة المدنية ، بل شركاؤه في المؤامرة هم الذين شرعوا بحركة للقذف به من كنتاكي والولايات المتحدة ، بل والعالم كله ، هذا لو هم افلحوا في القاء القبض عليه ، وقد هرب ليلاً ، طبقاً للتقليد العائلي ، وهو يحمل ابنه وسيفه القديم وعباءته الاسكوتلندية .

جاسن ليكورغس : هو الذي مضى مندفعاً ـ ربما ـ باسمه الرنان الذي اطلقه عليه ابوه الجريء الساخر المتمرمر الخشبي الساق والذي قد يكون

مازال يعتقد في دخيلته أن ما ينشده هو أن يكون معلماً للكلاسيكيات ، قاصداً « ناتشز تريس » في أحد أيام ١٨١١ بزوج من المسدسات الجميلة وخُرج ضامر على فرس نحيلة الخصر ولكنها متينة الكواحل استطاعت أن تقطع أول شوطين[١] في أقل من نصف دقيقة ولم تقل سرعتها عن ذلك كثيراً في الشوطين الثانيين ، وهذا كل ماهنالك غير أنه كان كافياً . وهو الذي بلغ وكالة الشيكاسو في أوكاتوبا (وكانت عام ١٨٦٠ ما تزال تدعى « جفرسن القديمة ») ولم يتخط ذلك .

وفي مدى ستة أشهر غدا كاتباً لدى صاحب الوكالة ، وفي مدى اثني عشر شهراً غدا شريكاً له ، فكان هو الكاتب رسمياً إلاّ أنه في الواقع صاحب نصف ما أضحى دكاناً كبيراً مزدهراً بارباح الفرس في سباقاتها مع خيل فتيان ايكيموتب التي كان سليل كمبسن يعنى بجعلها لاتتعدى ربع ميل أو ثلاثة أشواط على الأكثر ، وفي العام التالي كان ايكيموتب هو صاحب الفرس الصغيرة وغدا جاسن كمبسن صاحب الميل المربع الكامل من الأرض التي يقدر لها أن تحتل يوماً القلب من مدينة جفرسن ، وكانت آنئذ مشجرة كما بقيت مشجرة بعد ذلك بعشرين سنة وإن تكن قد تحولت فغدت بستاناً أكثر منها غابة ، بما فيها من مساكن العبيد والاسطبلات وحدائق المطابخ والمروج الصغيرة المهندسة والمماشي والسقائف التي خططها ذلك المعماري نفسه الذي بنى البيت بمدخله المعمد وأثاثه الذي جلب بالمركب البخاري من فرنسا ونيو أورلينز ، والميل المربع غير المنقوص عام ١٨٤٠ وقد أخذت تحيط به لا القرية البيضاء الصغيرة المسماة جفرسن فحسب بل ناحية بيضاء بكاملها ، اذ أن احفاد ايكيموتب وقومه كانوا في مدى بضع سنوات قد زالوا ، وماعاد من تبقى منهم يعيش على الحرب والصيد بل طفقوا يعيشون كالقوم البيض ـ مزارعين كسالى أو متسكعين ، هنا وهناك ، ومالكين لما

---

(١) الشوط هنا ١/٨ ميل . (المترجم)

جعلوا هم أيضاً يسمونه بالمزارع يملكون فيها عبيداً كسالى ، ويزيدون على البيض بعض الشيء قذارة وكسلاً وقسوة ـ حتى كاد الدم الأهوج نفسه يتلاشى في النهاية ، فلا يرى إلاّ نادراً في شكل أنف لوجه زنجي يركب عربة قطن ، أو وجه عامل أبيض من عمال مناشر الحطب ، أو صياد ، أو موقد نار في قاطرة ، وقد كان اذ ذاك يعرف بـ « ملك آل كمبسن » ، اذ اضحى مكاناً لائقاً لنسل الأمراء والساسة والقادة العسكريين والأساقفة ، انتقاماً لآل كمبسن الذين فقدوا كل ماكانوا يملكون في كلودن وكارولاينا وكنتاكي ، ثم عرف بعد ذلك بدار الحاكم ، لأنه مع مرور الزمن أنسل حاكماً بالفعل ـ دعي أيضاً باسم جده النازح من كلودن كونتن مكلاخن ـ وبقي يعرف بقصر الحاكم القديم حتى بعد أن أنسل (عام ١٨٦١) جنرالاً ـ (وقد سماه بذلك كل من في البلدة والناحية باتفاق مسبق ، كأنهم كانوا يعلمون مسبقاً أن الحاكم القديم هو آخر رجل من سلالة كمبسن لن يخفق في شيء ينشده سوى طول العمر أو الانتحار) ـ هو البريغادير جاسن ليكورغس الثاني ، الذي اخفق في شيلوح عام ٦٢ ، وأخفق ثانية بصورة أخف في رساكا عام ٦٤ ، والذي رهن الميل المربع ، الذي مازال غير منقوص ، لأول مرة لدى تاجر متجول من « نيو انجلند » عام ٦٦ ، بعد أن أحرق الجنرال الاتحادي سميث البلدة القديمة واقيمت البلدة الجديدة ، التي سيعمرها على مر الزمن اغلبية من احفاد سنوبس لاكمبسن ، تفتنت عليها ثم تقضم المزيد من اجزائها اذ قضى البريغادير الفاشل السنين الأربعين التالية وهو يبيع اجزاء منها ليبقي الرهن على ما تبقى منها . الى ان جاء يوم في عام ١٩٠٠ توفاه الله وهو في سرير عسكري في مخيم للقنص وصيد الأسماك عند أسافل نهر تالاهاشي حيث أمضى معظم أيامه الأخيرة .

والان غدا كل شيء ـ حتى الحاكم القديم ـ منسياً وما تبقى من الميل المربع القديم صار يعرف « مكان كمبسن » لاغير ـ حيث اختنقت بالأعشاب اثار المروج والمماشي المتهافتة ، وحالت ألوان البيت من زمن بعيد وأخذت

أعمدة مداخله تتفلّع وتتقشر حيث كان جاسن الثالث (الذي هُيئ للمحاماة وكان له بالفعل مكتب في الطابق العلوي يطل على« الميدان » وقد دفنت في اضابيره المغبرة عدة من أقدم اسماء الناحية ـ هولستن وستبن ، وغينيير وبوشام وكولد فيلد ـ وهي تحول سنة بعد أخرى في متاهات لا قرار لها من الأوراق والوثائق : ومن يدري أي حلم كان يساور قلب أبيه الأزلي وقد اكمل ثالث تجسداته الثلاثة ـ أولها تجسده ابناً لسياسي شهم لامع ، وثانيهما تجسده قائد معركة لفئة من كرام الشجعان ، وثالثهما تجسده رجلاً محظوظاً اشبه بمزيج من دانيال بون وروبنصن كروزو ، رجلاً لم يعد إلى مراهقته لأنه في الواقع ما تخطاها قط ـ من أن مكتب المحاماة ذاك قد يصبح ثانية غرفة الانتظار المؤدية إلى قصر الحاكم والأبهة القديمة) يجلس طوال النهار وبين يديه زجاجة وسكي ونثار من كتب هوراس ولفي وكتلس بصفحاتها المطوية الزوايا ، ويؤلف (فيما زعموا) مدائح ستيرية لاذعة عن الأموات والأحياء من بني بلدته ، وهو الذي باع البقية الأخيرة من أرضه ، فيماعدا القطعة التي حوت البيت والحديقة الخلفية والاسطبلات المتداعية وبيت خدم واحداً تقيم فيه عائلة دلزي ، لناد للغولف لقاء مبلغ دفع نقداً لكي يهيء زفافاً جميلاً لابنته كاندس في شهر نيسان وييسر لابنه كونتن اتمام سنة واحدة في جامعة هارفرد ينتحر بعدها في حزيران اللاحق عام ١٩١٠ ، وصار يعرف باسم مكان كمبسن القديم وآل كمبسن ما زالوا مقيمين فيه حتى عشية ذلك اليوم من ربيع عام ١٩٢٨ عندما قامت حفيدة حفيد الحاكم القديم ، وهي فتاة ضالة ذات مصير محتوم في السابعة عشرة من عمرها بسلب آخر من آخر قريب ذكر عاقل تبقى لها (عمها جاسن الرابع) ، إذ سرقت خزينته السرية وانزلقت نازلة على احد مزاريب البيت لتهرب مع عامل في سيرك متنقل ، وظل المكان يعرف باسم مكان كمبسن القديم بعد ان اختفت عنه آخر آثار آل كمبسن كلية بمدة طويلة : بعد ان ماتت الأم المترملة واودع جاسن الرابع . اذ ما عاد يخشى دلزي ، أخاه المعتوه بنجامين في مستشفى

مجاذيب الولاية في جاكسن وباع البيت لقروي حوله الى نُزُل يؤمه المحلفون وباعة الخيل والبغال ، وبقي يعرف باسم مكان كمبسن القديم حتى بعد أن تلاشى النزل (وتلاه ملعب الغولف ايضاً) وعاد الميل المربع القديم كاملاً غير منقوص ثانية حين تحول إلى صف تلو صف من منازل صغيرة قمينة نصف مدنية هزيلة البناء،مكتظة بمن فيها لكل منها مالك خاص .

وهؤلاء :

كونتن الثالث : الذي ماعشق جسد أخته ، بل عشق فكرة ما عن شرف آل كمبسن وهو الشرف المحمول (وما أعلمه بذلك!) مقلقلاً ومؤقتاً على غشاء بكارتها النحيف الدقيق ، كمن يريد أن يوازن مصغراً للكرة الأرضية الشاسعة على أنف فقمة مدربة ، وهو الذي ما عشق فكرة الزنى بالأخت ، فذلك أمر لايقترفه أبداً . بل تعشق فكرة « برسبتيرية » عن العقاب الأبدي لخطيئة كتلك وبذلك يستطيع هو عوضاً عن الله ، أن يقحم نفسه وأخته في الجحيم ، فيحرسها هناك إلى الأبد ويبقيها سليمة إلى الأبد وسط النيران الأزلية ولكنه عشق الموت ولم يعشق إلاّ الموت أكثر من أي شيء آخر ، فعشق وعاش متقصداً ومتوقعاً الموت ، كمن يعشق جسد حبيبته الطري الموالي المستسلم ولكن يحجم عنه متقصداً ، إلى أن يعجز عن تحمل المنع لا الإحجام ، فيلقي بنفسه ، هاجراً كل شيء غارقاً في النهر . لقد انتحر في كمبردج ماساشوستس ، في حزيران ١٩١٠ ، بعد زفاف اخته بشهرين ، منتظراً أولاً اتمام سنته الدراسية لكي يكون قد جنى كامل قيمة مادفع مقدماً من رسوم لا لأنه كان يحمل طيّ إهابه أجداده القدامى الذين عاشوا في كلودن وكارولاينا وكنتاكي ، بل لأن القطعة المتبقية من ميل كمبسن القديم التي بيعت لسداد نفقات زفاف اخته ودراسته سنة في هارفرد كانت الشيء الوحيد الذي كان له ، باستثناء اخته تلك ومشهد النار في موقد عريض كان أخوه الأصغر المعتوه منذ الولادة يحبه .

كاندس (كادي) : مَصيرها محتوم وهي تعلم ذلك ، وقد قبلت بقضائها

المحتوم دون أن تبحث عنه أو تفر منه ، أحبت أخاها رغماً عنه . ولم تحبه لشخصه فحسب ، بل أحبت فيه ذلك النبي المرير والحكم الذي لا تثنيه قوة أو رشوة عن حكمه على ما كان يعتبره شرف الأسرة وقضاءها المحتوم ، إذ حسب أنه يحب فيها ـ وهو في الواقع يمقت ـ مايعده وعاءً واهياً عليه يحمل كبرياء الأسرة وأداة تلوث ستجلب عليها العار . وليس هذا فحسب ، فقد أحبته لا بالرغم من عجزه عن الحب بل بدافع ذلك العجز ، مقتنعة بأنه يقدّر فوق كل شيء لا جسدها بل البكارة التي جُعلت في عهدتها والتي لم تعلق هي عليها أية قيمة : تلك الشُناجة اللحمية الواهية التي لم تكن في نظرها أكثر قيمة من زائدة معدنية علقت بمسمار . كانت تعلم أن أخاها أحب الموت أكثر من أي شيء آخر ولم تغر ، بل ما كانت لتعبأ لو هي ناولته السم الرمزي (ولعلها بقصدها واصرارها على الزواج إنما فعلت ذلك) . كانت حاملاً لشهرين من رجل آخر ، وسمت الجنين ذكراً كان أم أنثى ، (كونتن) باسم اخيها الذي كانت تعلم (مثلما يعلم هو) بأنه لا يفترق عن الميت بشيء ، عندما تزوجت (١٩١٠) شاباً مقبولاً جداً من أهل انديانا التقت مع أمها به في عطلة لهما صيف العام السابق في «فرنش ليك» طلقها ١٩١١ ، وتزوجت ١٩٢٠ من منتج سينمائي صغير ، هوليوود كاليفورنيا . طلقها باتفاق بينهما في المكسيك ١٩٢٥ . اختفت في باريس أيام الإحتلال الألماني ١٩٤٠ ، وهي مازالت جميلة ، ولعلها كانت ثرية أيضاً ، إذ كانت تبدو أصغر من عمرها الحقيقي ، وهو الثامن والأربعون ، بخمس عشرة سنة ، ولم يسمع أحد عنها شيئاً بعد ذلك .

ولكن كانت ثمة امرأة في جفرسن ، أمينة مكتبة الناحية ، وهي امرأة في حجم الفأر ولونه لم تتزوج قط ، درست في مدارس البلدة في الصف نفسه الذي درست فيه كاندس كمبسن ثم قضت بقية حياتها وهي تحاول أن تمنع كتباً مثل « عنبر إلى الأبد » بتجسداته المتلاحقة الرتيبة و« جيرغن » و« طوم جونز » من الوقوع في أيدي تلاميذ المدارس الثانوية الذين كانوا يطالونها

دون عناء من رفوفها الخلفية حيث كانت هي مضطرة إلى الصعود على صندوق لكي تخفيها عنهم . في أحد أيام ١٩٤٣ ، بعد اسبوع من الخبال يقارب التفتت والانهيار كان الناس فيه كلما دخلوا المكتبة يرونها دائماً وهي تسرع في اغلاق درجها ثم تدير المفتاح فيه (حتى باتت ربات الأسر من زوجات المصرفيين والأطباء والمحامين ، وقد درس بعضهن في صفها أيام الدراسة الثانوية ، فكن يجنن ويذهبن عصر كل يوم ومعهن نسخ من « عنبر إلى الأبد » وكتب « ثورن سميث » ملفوفة بحذر في جرائد ممفيس وجاكسن لئلا يراها أحد يعتقدن أنها على شفا المرض وربما فقدان العقل) . اغلقت باب المكتبة وأقفلته في منتصف العصر ، وقد شدت على حقيبة يدها تحت ابطها وفي خديها ، العديمي اللون عادة ، بقعتان محمومتان من التصميم ، وذهبت إلى دكان تجهيزات المزارعين حيث كان جاسن الرابع قد بدأ كاتباً وهو الآن صاحب المحل بصفته تاجراً للقطن ، واستمرت في خطوها خلال ذلك الكهف العتم الذي لا يدخله إلاّ الرجال ـ وهو كهف تزدحم على أرضه وجدرانه وتتدلى من سقفه المحاريث والأقراص وأطواق السلاسل والمذاري واللحم المقدد والأرسان والأحذية الرخيصة والدقيق والدبس ، وهو عتم لأن مايحتويه من بضائع لم يكن يعرض بل يحجب ، لأن الذين يجهزون فلاحي المسيسبي ، أو الزنوج منهم على الأقل ، لقاء سهم في الغلال كانوا يرفضون ، إلى أن يحين وقت جمع الغلال وتقدير قيمتها ، أن يُروهم ما قد يذكرهم بحاجاتهم ، فيجهزونهم لقاء الطلب المعين بما لابد لهم من احتياجه ـ وقد أخذت أمينة المكتبة طريقها إلى مملكة جاسن الخاصة به في المؤخرة : وهي حظيرة مسيجة مكتظة بالرفوف والفتحات المرقمة المليئة بايصالات الحلج ودفاتر الحساب ، ونماذج القطن المكسوة بالغبار والندف والخيوط تفوح منها رائحة هي مزيج من الجبن والنفط ودهان عدة الخيل والموقد الحديدي الضخم الذي ظل لمئة سنة خلت هدفاً لتافلي التبغ الممضوغ . وتقدمت من الحاجز العالي المنحدر الذي يقف وراءه جاسن ،

وبغير أن تنظر ثانية إلى الرجال المرتدين ثياب العمل الذي توقفوا بهدوء عن الكلام بل حتى عن المضغ عند دخولها ، وفي شيء من إغماءة اليأس فتحت حقيبتها وأخرجت منها شيئاً وضعته منشوراً على الحاجز ووقفت راجفة لاهثة . إذ راح جاسن يحدق به ـ صورة ، صورة فوتوغرافية ملونة يظهر أنها قصت من مجلة سيارة ـ صورة تفيض ترفاً وثراءً وضياء شمس ـ في خلفيتها مشهد كانبيريّ من الجبال والنخيل والسرو والبحر ، وسيارة رياضية مكشوفة قوية ثمينة تتلألأ بالكروم ، ووجه المرأة الحاسرة الرأس مؤطر بإيشارب ثمين ومعطف من جلد الفقمة ، وجه جميل لا يعرف له عمر ، قرير رخيّ كتبت عليه اللعنة ؛ وبجانبها رجل ضامر وسيم في سن الكهولة في زي جنرال ألماني بشاراته وشرائطه ـ والعانس الفأرية الحجم واللون راجفة راعبة لجرأتها ، تحملق عبر الصورة في وجه ذلك العازب العقيم الذي انتهت به تلك السلالة الطويلة من الرجال الذين ماخلوا يوماً من الكرامة والشمم حتى بعد أن جعلوا يفشلون بالمروءة وغدا الشمم فيهم في أكثره غروراً وشفقة على الذات : من ذلك المهاجر الذي اضطر إلى الفرار من مسقط رأسه وهو يكاد لا يحمل شيئاً سوى حياته ، والذي أبى رغماً عن ذلك ، الرضا بالهزيمة ، إلى الرجل الذي قامر بحياته وطيب سمعته مرتين وخسر مرتين ورفض القبول بذلك أيضاً ، وذلك الرجل الذي لم يكن لديه من عدة سوى ربع حصان صغير بارع ولكنه انتقم به لأبيه وجدّه السليبين وربح امارة ، وذلك الحاكم الشهم الألمعي والقائد العسكري الذي غامر ، على الرغم من اخفاقه في قيادة فئة من كرام الشجعان في المعركة بحياته أيضاً في ما أخفق فيه ، إلى ذلك المثقف المخمور الذي باع آخر ما تبقى من ميراثه لا ليشتري خمراً بل ليهب واحداً من أبنائه على الأقل فرصة في الحياة هي ، في رأيه ، خير الفرص .

قالت أمينة المكتبة همساً :« إنها كادي! يجب أن ننقذها! » فقال جاسن :« أي والله ، إنها كادي » . ثم جعل يضحك .

ووقف في مكانه يضحك فوق الصورة ، فوق الوجه الجميل القرير الذي تجعد وانثنى بسبب اقامته اسبوعاً في درج المنضدة وحقيبة اليد . وأدركت أمينة المكتبة سبب ضحكه ، وهو الذي ما خاطبته إلا بـ«السيد كمبسن» لاثنتين وثلاثين سنة ، منذ ذلك اليوم من عام ١٩١١ عندما أتت كاندس ، وقد لفظها زوجها ، بابنتها الطفلة إلى البيت وتركتها هناك ورحلت في القطار التالي وماعادت قط ثانية ، وحدست الطاهية الزنجية دلزي ، وكذلك أمينة المكتبة ، غريزياً بأن جاسن كان على نحو ما يستغل حياة الطفلة وعدم شرعيتها لإكراه الأم ، لا على البقاء بعيدة عن جفرسن بقية حياتها فحسب ، بل على تعيينه القوّام الوحيد بلا منازع على النقود التي ترسلها لإعالة ابنتها ، وابت أن تكلمه أبداً منذ ذلك اليوم عام ١٩٢٨ عندما زلقت الابنة على المزراب ونزلت عليه وهربت مع عامل السيرك .

وصرخت : «جاسن! يجب أن ننقذها! جاسن! جاسن!» .

وظلت في صراخها حتى عندما التقط الصورة بين الإبهام والسبابة ورمى بها عبر الحاجز في اتجاهها .

قال : «أهذه كاندس ؟ لا تضحكيني! هذه العاهرة لم تبلغ الثلاثين بعد . والأخرى الآن في الخمسين» .

وكانت المكتبة ماتزال مقفلة طوال النهار التالي أيضاً حين ذهبت الأمينة في الساعة الثالثة بعد الظهر ، خائرة القوى مجرَحة القدم ولكن شديدة العزم وهي لما تزل تشد حقيبة اليد تحت ابطها ، وولجت فناءً صغيراً منظماً في حي الزنوج من ممفيس ، وصعدت درج البيت الصغير المنظم وقرعت الجرس وفتح الباب وظهرت امرأة سوداء في مثل عمرها تنظر اليها بهدوء . «ألست فروني ؟» قالت أمينة المكتبة : «ألا تذكريني ؟ ـ مليسه ميك ، من جفرسن ـ» .

قالت الزنجية :«نعم . تفضلي وادخلي . تريدين ان تري امي» .

ودخلت الغرفة ، وهي غرفة نوم زنجية عجوز مرتبة ولكن مزدحمة ، تفوح

منها رائحة الشيوخ والعجائز والزنوج الهرمين ، حيث كانت الأم قد اقتعدت كرسياً هزازاً قرب الموقد ، وفيه ، رغم حزيران ، نار تتقد ـ امرأة كانت ضخمة فيما مضى ، في خامٍ نظيف حائل اللون وعمامة ناصعة حول رأسها فوق عينين عمشاوين تكادان ، فيما يبدو ، لا تبصران ـ ووضعت القصاصة المتثنية الحواف في اليدين السوداوين اللتين كانتا ، كأيدي النساء المتحدرات من عرقها ، ماتزالان مرنتين رهيفتي الشكل كما كانتا وهي في الثلاثين أو العشرين أو حتى السابعة عشرة من عمرها .

قالت أمينة المكتبة : « إنها كادي! إنها هي! دلزي ، دلزي! » .

فقالت الزنجية :« ماذا قال هو ؟ » وعلمت أمينة المكتبة من الذي تعنيه بـ« هو » ، ولم تعجب لمعرفة الزنجية العجوز بأنها (أعني أمينة المكتبة) ستعرف من الذي تعنيه بـ« هو » ، كما لم تعجب لمعرفة الزنجية العجوز في الحال بأنها قد ابتدأت بعرض الصورة على جاسن .

وصاحت : « ألا تعلمين ماذا قال ؟ عندما أدرك أنها في خطر ، قال إنها هي ، وكان حرياً بأن يقولها حتى لو لم تكن لدي صورة أريه إياها ولكنه حالما أدرك أن أحداً ما ، كائناً من يكون ، وليكن أنا ، يريد انقاذها ، يحاول انقاذها ، قال أنها ليست هي ، ولكنها هي بعينها! انظري إليها! » .

« انظري إلى عينيّ » ، قالت الزنجية . « كيف لي أن أرى هذه الصورة ؟ » .

فصاحت الأمينة : « نادي فروني! فستتعرف عليها! » غير أن العجوز كانت قد بدأت بطيّ القصاصة إلى تجعيداتها القديمة ، ثم ناولتها إياها .

وقالت : « لم يبق في عيني خير . لا أستطيع رؤيتها » .

وهذا كل ما هناك . في السادسة كانت أمينة المكتبة تصارع في شق طريقها خلال محطة الباص المزدحمة ، والحقيبة مشدودة تحت أحد ابطيها والنصف الخاص بالإياب من تذكرة الذهاب والإياب في اليد الأخرى ، وانجرفت إلى الرصيف الهادر على ذلك المد اليومي من بعض المدنيين

الكهول والعديد من الجنود والبحارة الذاهبين في سبيلهم إلى الإجازة أو الموت ورفيقاتهم من الفتيات الشريدات اللواتي كن لسنتين خلتا يعشن من يوم إلى يوم في عربات سكك الحديد والفنادق إن كنَّ محظوظات ، وفي الحافلات والباصات والمحطات والمداخل الكبرى وغرف الاستراحة العامة إن لم يكن محظوظات ، لا يتوقفن إلاّ لإسقاط مواليدهنّ في مستوصفات الإحسان أو مراكز الشرطة ويستأنفن السير مرة أخرى .

وصارعت الأمينة في شق طريقها إلى داخل الباص ، وهي أضأل من هناك بحيث لم تكن قدمها تمس أرض السيارة إلا فيما ندر ، حتى نهض أحدهم (رجل يلبس الخاكي لم تستطع أن تراه لأنها كانت قد شرعت بالبكاء) والتقطها جسدياً ووضعها على مقعد قرب النافذة ، حيث كان بوسعها وهي بعد مترعة العينين بالدموع أن تسرح النظر إلى المدينة الهاربة وهي تمر بها خطوطاً خطوطاً ثم تحتجب وراءها فتبلغ بيتها عماقريب ، آمنة في جفرسن حيث الحياة تضطرم بكل ما يستعصي على الفهم من عاطفة وهياج وحزن وعنف ويأس ، أما هنا فإنك في الساعة السادسة تستطيع أن تغلق عليها الغلافين فتتمكن حتى يد طفل لاوزن لها من وضعها ثانية بين قومها العديمي الملامح على الرفوف الأزلية الهاجعة وتدير المفتاح في القفل عليها طوال الليل الخالي من الأحلام ، وفكرت وهي تبكي بهدوء : أجل هذا هو الواقع ، لم ترد أن تراها لتعلم ما إذا كانت كادي أم غيرها ، لأنها تعلم أن كادي لا تريد أن تنقذ ، وليس لديها بعد أي شي يستحق الإنقاذ ، ولاشيء لديها يستحق الضياع تستطيع اضاعته .

جاسن الرابع : أول عاقل من آل كمبسن منذ ماقبل كلودن ولذا فإنه (وقد ظل أعزب فلم ينجب) ، آخرهم . منطقي عقلاني متمالك النفس بل وفيلسوف من الضرب الرواقي القديم : لا يعير الله أي تفكير مطلقاً ولا يحسب حساباً إلاّ للشرطة ، ولذا فإنه لا يخشى ولايهاب إلاّ تلك المرأة الزنجية ، عدوته اللدود مُنذ الولادة وعدوته المميتة منذ ذلك اليوم عام

١٩١١ عندما خدست ، بعلمها بالغيب ، بأنه على نحو ما يستغل عدم شرعية ابنة اخته الطفلة لابتزاز المال من أمها ، وهي الزنجية التي كانت تطبخ ما يأكله من طعام . دفع عن نفسه وافلح مع افراد آل كمبسن ، وليس ذلك فحسب بل افلح أيضاً في منافسته آل سنوبس الذين سيطروا على البلدة الصغيرة في أوائل القرن حين جعل آل كمبسن وآل سرتورس واشباههم يتلاشون منها (لم يكن واحداً من آل سنوبس بل هو جاسن كمبسن نفسه الذي قام حالما توفيت امه ـ وكانت ابنة اخته قد سبق وانزلقت على المزراب واختفت فلم يبق لدلزي اي من العصوين تلوح بها فوق رأسه ـ بتسليم أخيه الأصغر المعتوه لرعاية الدولة مخلياً البيت القديم بعد أن جزأ الغرف الفسيحة الرائعة إلى مادعاه بالشقق ، وباع المكان كله لريفي أنشأ نزلاً) ولم يكن ذلك بالأمر العسير لأنه كان يرى أن بقية أهل البلدة والدنيا ، بل والجنس البشري كله باستثناء نفسه ، ما هم إلاّ أفراد من آل كمبسن ، يعجز المرء عن فهمهم ولكنه لا يعجز عن التنبؤ بأنهم ليسوا في حال من الأحوال أهلاً للثقة وهو الذي ، بعد أن أنفقت النقود كلها التي حصلت من بيع المرعى على زفاف أخته ودراسة أخيه في هارفرد ، استخدم مداخراته الشحيحة من أجوره الزهيدة ككاتب في مخزن ، في الحاق نفسه بمدرسة في ممفيس حيث تعلم تصنيف القطن ، وبهذا أنشأ له عملاً تولى به ، عقب موت أبيه المخمور ، شؤون العائلة المتهافتة في البيت المتهافت ، متعهداً اخاه المعتوه من أجل أمهما ، مضحياً بالملذات التي هي لأعزب في الثلاثين حق عادل بل حاجة لازمة كيما تستطيع امه المضي في الحياة التي ألفتها فيما مضى ، يفعل ذلك لا لأنه كان يحب أمه بل لأنه (وهو الرجل العاقل أبدا) كان يخشى الطاهية الزنجية التي عجز عن اكراهها على ترك البيت حتى بعد أن توقف عن دفع أجورها الاسبوعية ، وهو الذي ، رغم هذا كله ، تمكن من توفير مايقرب ثلاثة آلاف دولار (٢٨٤٠ دولاراً و٥٠ سنتاً كما صرح ليلة سرقتها ابنة اخته) جمعها فلساً شحيحاً على فلس ، ودرهماً أليماً على درهم ، ولم يحفظ

ذخره ذاك في مصرف ما لأن المصرفي في نظره ليس إلاّ فرداً آخر من آل كمبسن ، بل خبأه في درج مقفول بمنضدة في غرفة نومه حيث كان يرتب ويغير فراشه بنفسه إذ كان يبقي باب غرفة نومه مقفولاً إلاّ إذا عبر منه ، وهو الذي ، بعد محاولة عشواء مخفقة من أخيه المعتوه على صفلة عابرة ، نصب نفسه وصياً على المعتوه دون أن يطلع أمه على ذلك ، وهكذا استطاع أن يخصي المسكين حتى قبل أن تدرك الأم أنه قد خرج من البيت ، وعقب موتها عام ١٩٣٣ استطاع أن يحرر نفسه إلى الأبد لا من أخيه المعتوه وبيته فحسب بل من المرأة الزنجية أيضاً ، وانتقل إلى مكتب ذي غرفتين في أعلى السلم فوق دكان التجهيز ، كان يحوي دفاتر حساب القطن ونماذجه ، حوله إلى غرفة نوم ومطبخ وحمام وفي آخر الأسبوع كانت تُرى داخلةً خارجةً امرأة بدينة عادية دمثة لطيفة الوجه نحاسية الشعر فارقت الشباب ، ترتدي قبعات كبيرة ومعطف فرو مزيف (إبان الموسم) ويراهما الناس معاً ، صاحبنا تاجر القطن الكهل والمرأة التي يسمونها ، ببساطة ، صديقته من ممفيس ، في دار السينما المحلية عشية السبت وصباح الأحد ويرونهما يصعدان الشقة حاملين أكياس الورق من لدن البقال وقد حوت الأرغفة والبيض والبرتقال وعلب الحساء ، أشبه بمن يعيش حياة زوجية عائلية أليفة ، إلى أن يقلها باص ساعة المغرب عائدة إلى ممفيس . لقد انعتق الآن واصبح حراً . فكان يقول : «في عام ١٨٦٥ حرر ابرهام لنكولن الزنوج من آل كمبسن . وفي عام ١٩٣٣ حرر جاسن كمبسن آل كمبسن من الزنوج» .

بنجامين : سمي لدى ولادته (موري) باسم خاله الوحيد الذي كان شاباً عزباً وسيماً شديد الخيلاء والبخترة بغير عمل ، يكاد يستدين المال من كل من يلقاه ، حتى من دلزي نفسها ،رغم أنها زنجية ، معللاً ذلك لها وهو يسحب يده من جيبه بأنها في نظره لا تفترق عن فرد من افراد عائلة أخته ، وليس ذلك فحسب بل إنها لتعتبر في نظر أي إنسان في أي مكان سيدة ذات حسب ونسب . عندما أدركت أمه في النهاية حقيقة أمره أصرت وهي تذرف

الدمع على تغيير اسمه ، فسماه أخوه كونتن من جديد بنجامين («بنيامين ، أصغر ابنائنا ، باعوه في مصر») .

وهو الذي ما أحب قط إلا أشياء ثلاثة : المرعى الذي بيع لدفع نفقات زفاف كاندس وارسال كونتن إلى هارفرد ، وأخته كاندس ، ووهج النار ، ولم يفقد أياً منها لأنه ما استطاع أن يتذكر اخته فما تذكر إلاّ فقدانها ؛ أما وهج النار فكان له شيئاً متلألئاً كالاستغراق في النوم ، وكان المرعى بعد أن بيع أفضل له منه قبل البيع لأنه يستطيع الآن مع «تي بي» أن يتتبع بمحاذاة السياج إلى ما لانهاية الحركات التي لا يعينه أنها أناس يضربون بعصي الغولف ، ويقتادهم «تي بي» إلى مجاميع من الحشيش أو الأعشاب حيث تبرز فجأة في يد «تي بي» كريات بيضاء تنافس بل وتقهر ما لم يكن يعلم أنه الجاذبية والقوانين الثابتة كلها عندما تطلق من اليد نحو الأرضية الخشبية أو جدار بيت الدخان أو الممشى الكنكريتي ، خُصي ١٩١٣ . أودع في مستشفى مجانين الولاية في جاكسن ١٩٣٣ . ومرة أخرى لم يفقد شيئاً لأنه ، كما هو شأنه مع أخته ، لم يتذكر المرعى بل تذكر فقدانه فقط ، وبقي وهج النار لديه في لألاء النوم .

كونتن : الأخيرة . ابنةكاندس . حرمت الأب قبل ميلادها بتسعة أشهر ، وحرمت الاسم عند ميلادها وقد كتب عليها ألاّ تتزوج لحظة قررت البويضة المنشقة جنسها ، وهي التي تعلقت يوم كانت في السابعة عشرة من عمرها ، وفي الذكرى الخامسة والتسعين بعد الألف والثمانمئة لليوم السابق لقيام سيدنا المسيح ، تعلقت بمزراب خارجة من نافذة الغرفة التي كان خالها قد حبسها فيها ظهراً ، مندفعة نحو النافذة المقفلة لغرفة نومه الخالية المقفلة وكسرت لوحاً من الزجاج واقتحمت النافذة ، وبمحراك خالها كسرت قفل المنضدة وفتحته وأخذت النقود (ولم تكن ٢٨٤٠ دولاراً و٥٠ سنتاً فقط ، بل كانت حوالي سبعة آلاف دولار) ، وهذا هو سر حنق جاسن ، ذلك الغضب الأحمر الذي لا يطاق ، الذي حدا به إلى الظن في تلك اليلة وفي

فترات أخرى (إذ جعل يعاوده عنيفاً دون هوادة لخمس سنوات طوال) أنه سيحطمه بغتة ، سيقتله فوراً كأنه رصاصة أو صاعقة : وأنه ، رغم أنه لم يسلب ثلاثة آلاف دولار حقيرة فحسب بل حوالي سبعة آلاف ، لايستطيع أن يفصح عن ذلك لأحد ، ولأنه قد سلب سبعة آلاف دولار بدلاً من ثلاثة آلاف فقط لم يكن قط ليتاح له أن يلقى تأييداً وتبريراً ـ فهو لا يريد عطفاً ـ من آخرين ساء حظهم فابتلوا بأخت عاهرة وابنة اخت عاهرة أيضاً ، ولم يكن زيادة على ذلك بمستطيع اللجوء حتى إلى الشرطة ؛ ولأنه فقد أربعة آلاف دولار لم تكن ملكه جميعاً لم يكن بوسعه أن يستعيد الآلاف الثلاثة التي كانت ملكاً خالصاً له إذ كانت الأربعة آلاف دولار الأولى ملكاً مشروعاً لابنة اخته بصفتها جزءاً من النقود التي كانت ترسلها أمها للعناية بها واعالتها طوال السنوات الست عشرة الماضية ، وليس ذلك فحسب ، بل أن النقود لم تكن موجودة رسمياً ، لأنه سجلها رسمياً كمبالغ مصروفة ومستهلكة في التقارير السنوية التي كان يقدمها لحاكم المقاطعة بصفته وصيّها والقوّام الشرعي عليها : فهو إذن لم يسلب سرقاته وحسب بل مدخراته أيضاً ، وما سلبته إياها إلاّ ضحيته ؛ لقد سلب أربعة آلاف دولار التي جازف بالسجن من أجل تجميعها ، وكذلك الآلاف الثلاثة التي جمعها بالحرمان والتضحية ، درهماً على درهم ، طوال مدة تقارب العشرين عاماً : وسالبته لم تكن ضحيته فقط بل كانت أيضاً طفلة ارتكبت فعلتها بضربة واحدة ، دون سابق تصميم أو خطة ، دون أن تعلم ، أو يعنيها أن تعلم ، مقدار ماسوف تجد عندما تكسر القفل وتفتح الدرج ، ولا يستطيع إلى هذا كله أن يلجأ إلى الشرطة طلباً للعون : وهو الذي كان يحترم الشرطة دائماً ، فلا يسبب لهم إزعاجاً ، ويدفع لسنين طويلة ما يستحق عليه من ضرائب تسمح لهم بأن يعيشوا في خمول ساديّ طفيلي ؛ وليس ذلك فحسب ، بل أنه لم يجرؤ علي مطاردة الفتاة بنفسه لأنه قد يمسك بها فتفضحه ، بحيث لم تبق له وسيلة يلجأ إليها إلا حلماً باطلاً جعل يؤرقه ويقلبه في عرقه في الليالي لسنتين وثلاث بل

وأربع بعد هذا الحادث ، حين كان ينبغي له أن ينسى : (وهو أن يمسك بها على حين غرة ، مفاجئاً إياها في الظلام ، قبل أن تنفق النقود كلها ، فيقتلها قبل أن يتاح لها أن تفتح فاها) . وانزلقت على المزراب نفسه في عتمة الغسق وهربت برفقة عامل السيرك الذي كان مداناً فيما سبق لزواجه من اثنتين . وهكذا اختفت ؛ فمهما تكن الحرفة التي قد ادركتها فإنها لم تكن لتأتي في سيارة «مرسيدس» مطلية بالكروميوم ، ومهما التقط لها من صور فإنها لن تحوي جنرالاً من أركان الجيش .

وهذا كل ماهنالك ، أما هؤلاء الآخرون فلم يكونوا من آل كمبسن . لقد كانوا سوداً :

«تي بي» : هو الذي كان في شارع بيل في ممفيس يلبس الثياب الجميلة الزاهية الرخيصة الجاسية التي خاطها خصيصاً له اصحاب المتاجر التي ما انصفت يوماً عاملاً في شيكاغو ونيويورك .

فروني : هي التي تزوجت أحد حمالي الدرجة الأولى من سكة الحديد وذهبت إلى مدينة سانت لويس للعيش فيها ثم عادت إلى ممفيس لتفتح بيتاً لأمها لأن دلزي رفضت أن تذهب إلى ماهو أبعد من ذلك .

لستر : رجل ، عمره ١٤ سنة ، لم يستطع أن يعني عناية تامة بمعتوه في ضعف عمره وثلاثة أضعاف حجمه ويقيه الأذى فحسب ، بل استطاع أن يسليه أيضاً طوال الوقت .

دلزي :

لقد تحملوا وبقوا .

نيسان

٧

١٩٢٨

من خلال السياج ، بين فسحات الزهور المتثنية ، كنت أراهم يضربون . كانوا يقتربون من العَلَم ومشيت أنا بمحاذاة السياج . كان لستر يبحث في العشب قرب شجرة الورد ، رفعوا العلم من مكانه ، وراحوا يضربون ، ثم أعادوا العلم إلى مكانه وذهبوا إلى المستوى ، فضرب أحدهم ثم ضرب الآخر ، ثم ابتعدوا ومشيت بمحاذاة السياج ، وجاء لستر من شجرة الورد ومشينا بمحاذاة السياج ، فتوقفوا وتوقفنا ونظرت من خلال السياج بينما راح لستر يبحث في العشب .

« هات يا كادي* » وضرب . وابتعدوا عبر المرعي فتمسكت بالسياج وجعلت أراقبهم وهم يبتعدون .

وقال لستر : « اسمعوه ياعالم . أليس عجيباً أنك في الثالثة والثلاثين من عمرك ، وتستمر على هذا النحو ، بعد أن ذهبت طيلة الطريق إلى البلدة واشتريت لك كعكة . كفاك أنيناً ، ألا تريد أن تساعدني في البحث عن ربع الدولار ذلك لكي أستطيع الذهاب إلى السيرك هذه الليلة » .

---

* الـ« كادي » هو الولد الذي يحمل عصي الغولف للاعبين . أما بالنسبة لبنجي فالكلمة اسم اخته التي يحبها ولايستطيع الكف عن حنينه إليها وبالتالي بكائه عليها . (المترجم)

كانوا يضربون قليلاً ، عبر المرعى . مشيت بمحاذاة السياج إلى حيث كان العلم يرفرف على الحشيش البراق والأشجار .

وقال لستر :«هيا لقد بحثنا هناك . لن يأتوا الآن ثانية . فلننزل إلى الغدير لنبحث عن الربع قبل أن يلقاه الزنوج » .

كان أحمر يرفرف على المرعى . وكان عصفور يميل ويترنح عليه .

فضرب لستر . ورفرف العلم على الحشيش البراق والأشجار وتمسكت أنا بالسياج .

قال لستر : « كفاك أنيناً ، هل أستطيع أن أجبرهم على المجيء إذا ما رفضوا ؟ إذا لم تسكت لن تقيم لك ماما حفلةً لعيد ميلادك أتعلم ما الذي سأفعله إذا لم تسكت ؟ سآكل تلك الكعكة كلها . وآكل الشموع أيضاً . نعم . آكل الثلاث والثلاثين شمعة كلها . هيا ، لننزل إلى الغدير . لابد أن أجد ربعي ، وقد نجد بعض تلك الكرات . أترى . هاهم هناك . هناك بعيداً . أترى » . جاء إلى السيارة وأشار بذراعه . « أتراهم أنهم لن يعودوا إلى هنا . هيا » . مشينا بمحاذاة السياج وبلغنا سياج الحديقة ، حيث كان ظلانا . كان ظلّي أعلى من ظل لستر على السياج ، ذهبنا إلى المكان المكسور ودخلنا منه .

قال لستر :«انتظر لحظة . عَلِقَتْ ثيابك بذلك المسمار مرة أخرى . إلا تستطيع أن تزحف خلال هذه الفتحة دون أن تعلق ثيابك بالمسمار » .

تركتني كادي وزحفنا خلال الفتحة . قال خالي موري يجب ألا يرانا أحد ، إذن علينا أن ننحني جداً ، قالت كادي . انحن يا بنجي . هكذا ، أترى . فانحنينا جداً وقطعنا الحديقة ، حيث كانت الزهور تصرّ وتخشخش إذ تمسنا . كانت الأرض صلبة . تسلقنا السياج حيث كانت الخنازير تشخر وتنخر . فقالت كادي . يخيل إليَ أنها حزينة لأن واحداً منها قد ذبح اليوم . كانت الأرض صلبة مخضوضة عقداء .

قالت كادي . ابق يديك في جيبك وإلا فإنهما تتجمدان . أتريد أن تتجمد يداك يوم عيد الميلاد...

قال فيرش : «البرد قارس في الخارج . يجب ألا تخرج إلى العراء» .

فقالت أمي : «ما الأمر الآن ؟» .

قال فيرش : «يريد أن يخرج إلى العراء» .

فقال خالي موري : «دعه يخرج» .

قالت أمي : «البرد قارس . خير له أن يبقى في الداخل . بنجامين ، كف عن ذلك» .

قال خالي موري : «لن يؤذيه الخروج» .

وقالت أمي :«اسمع يا بنجامين . إذا لم تكن عاقلاً ، ارسلتك إلى المطبخ» .

فقال فيرش : «ماما تقول لا تجعلوه يدخل المطبخ اليوم . إذ عليها أن تنهي طبخها الكثير» .

قال خالي موري : «دعيه يذهب ياكارولاين . ستمرضين قلقاً عليه» .

فقالت أمي : «أعرف ذلك . إني لأتساءل أحياناً أهو حكم الله عليَّ ؟» .

فقال خالي موري : «أعرف ، أعرف ، يجب أن تحافظي على قوتك ، سأهيئ لك كأساً من «التودي»» .

قالت أمي : «لن يزيد إلا من اضطرابي . ألا تعرف ذلك ؟» .

قال خالي موري : «بل إنه يحسن حالك . لفلفه جيداً ، ياولد وأخرجه لمدة ما» .

ثم ذهب خالي موري ، وذهب فيرش .

قالت أمي : «بالله عليك اسكت ، ها نحن نحاول أن نخرجك بأسرع ما نستطيع . لاأريدك أن تمرض» .

ألبسني فيرش نعلاً إضافياً فوق حذائي ومعطفاً وأخذنا قبعتي وخرجنا ، وكان خالي موري يضع الزجاجة مكانها في البوفيه في غرفة الطعام .

قال خالي موري : «أخرجه لنصف ساعة ، يا ولد ، وأبقه في صحن الدار» .

فقال فيرش : «نعم ياسيدي . نحن لا نسمح له أبداً بالابتعاد عن المكان» .

خرجنا . وكانت الشمس باردة وبراقة .

قال فيرش : «إلى أين أنت متوجه ، اتظن أنك ذاهب إلى البلدة ؟ »

مشينا خلال الأوراق المخشخشة .وكانت البوابة باردة . فقال فيرش : «خير لك أن تبقي يديك في جيبك . ما الذي ستفعله إذا تجمدتا على الباب ، لماذ لم تنتظرهم في البيت» . أدخل يدي في جيبي . وسمعته يخشخش بين الأوراق ، شممت البرد ، وكانت البوابة باردة .

هذا بندق . واه . انظر إلى أعلى تلك الشجرة . انظر إلى هذا السنجاب ، بنجي» .

لم أستطع أن أحس البوابة قط ، ولكنني استطعت أن اشم البرد البراق .

ـ «خير لك أن تضع يديك في جيبك» .

كانت كادي تمشي ثم جعلت تركض وحقيبة كتبها تقفز وتتأرجح وراءها .

وقالت كادي : «هالو ، بنجي» . وفتحت البوابة ودخلت وانحنت عليّ كانت رائحة كادي كرائحة أوراق الشجر . وقالت «أجئت لتستقبلني . أجئت لتستقبل كادي ، لماذا تركته يعرض يديه لهذا البرد يا فيرش ؟ » .

فقال فيرش : «قلت له أن يبقيهما في جيبه ، ولكنه يصر على التسمك بهذه البوابة» .

ـ «أجئت لتستقبل كادي ؟ » قالت وهي تفرك يديّ .«ماذا لديك ؟ ما الذي تريد أن تقوله لكادي ؟ » . كانت رائحة كادي كرائحة الشجر وكرائحتها حين تقول إننا نائمان .

قال لستر ، ما الذي تبكيه ؟ نستطيع أن نتفرج عليهم ثانية عندما نعود إلى الغدير . هاك . هاك . زهرة «جِمْسُن» . اعطاني الزهرة . مشينا خلال السياج ، إلى قطعة الأرض .

قالت كادي : «ما الذي لديك ؛ ما الذي تريد أن تقوله لكادي . هل هم الذي اخرجوه يا فيرش ؟» .

فقال فيرش : «لقد عجزوا عن ابقائه في البيت ، وبقي مصراً حتى سمحوا له بالخروج فجاء رأساً إلى هنا ، ليتطلع من خلال البوابة» .

قالت كادي :«ما الأمر . هل ظننت أن عيد الميلاد يكون حين أعود إلى البيت من المدرسة . أهذا ما ظننته ؟ . عيد الميلاد يقع بعد غد . سانتا كلوز ، بنجي ، سانتا كلوز ، هيّا ، لنركض إلى البيت وندفأ» . وأخذت بيدي وركضنا خلال الأوراق المهسهسة . وصعدنا الدرج راكضين من البرد البراق إلى البرد المعتم ، وكان خالي موري يعيد الزجاجة إلى مكانها في البوفيه ، ونادى كادي ، فقالت كادي :

«خذه إلى قرب النار يافيرش ، اذهب مع فيرش ، وسآتي بعد دقيقة» .

فقصدنا المدفأة وقالت أمي :

«أيشعر ببرد يا فيرش ؟» .

«لا» قال فيرش .

فقالت أمي : «انزع عنه المعطف والنعل الاضافي . كم مرة قلت لك ألا تدخله البيت قبل أن ينزع نعله الإضافي ؟» .

قال فيرش : «نعم ، سيدتي ، هس ، لا تتحرك» . ونزع نعليَ وفك أزرار معطفي ، فقالت كادي :

«انتظر يا فيرش . أماه ، ألا تسمحين له بالخروج ثانية . اريد له أن يرافقني» .

قال خالي موري : «الأفضل أن تتركيه هنا . حسبه خروجاً اليوم» .

قالت أمي : «أعتقد أن الأفضل لكليكما ألا تخرجا . فدلزي تقول أن البرد في ازدياد» .

قالت كادي : «أوه ، ماما» .

وقال موري : «كلامٌ فارغ . لقد قضت اليوم كله في المدرسة ، إنها

بحاجة إلى الهواء النقي . هيا اركضي يا كاندس» .

قالت كادي : «دعيه يأتي ، ياأماه أرجوك . وإلاّ بكى كما تعلمين» .

فقالت أمي : «إذن لماذا ذكرت الموضوع أمامه . لماذا دخلت هنا ، لتعطيه عذراً لاقلاقي من جديد كفاك خروجاً اليوم .اعتقد أن من الأفضل أن تجلسي هنا وتلاعبيه» .

قال خالي موري : «دعيهما يخرجان ياكارولاين ، لن يؤذيهما القليل من البرد . تذكري ، أن عليك أن تحافظي على قوتك» .

فقالت أمي : «أعرف . ما من أحد يدري كم أخشى عيد الميلاد . ما من أحد يدري ، فأنا لست من أولئك النسوة اللواتي يستطعن تحمل الأشياء . لشد ما أتمنى ، من أجل جاسن والأطفال ، لوكنت أقوى مما أنا» .

«عليك أن تفعلي ما بوسعك ولا تسمحي لهم بإقلاقك» . قال خالي موري ذلك وأردف : «والآن ، انصرفا كلاكما ، ولكن لا تتأخرا في الخارج ، وإلا قلقت ماما عليكما» .

فقالت كادي : «نعم ، خالي ، هيّا ، بنجي . سنخرج مرة أخرى» . ثم زررت معطفي ومشينا نحو الباب .

فقالت أمي : أستأخذين هذا الطفل دون نعليه الإضافيين . اتريدين أن تمرضيه وبيتنا مليء بالضيوف» .

فقال كادي : «لقد نسيت . حسبته لابساً نعليه» .

وعدنا . وقالت أمي : «يجب أن تفكري» . وقال فيرش : «والآن . لا تتحرك» . والبسني النعلين الإضافيين . «سأموت يوماً ما وعليك حينئذ أن تفكري عنه» . وقال فيرش : «والآن ، اخبط برجلك الأرض» . «تعال قبّل ماما يا بنجامين» .

أخذتني كادي إلى كرسي أمي ، فأخذت أمي وجهي بين يديها ثم ضمتني إليها .

وقالت : « طفلي المسكين » . ثم خلّتني . « اعتني به يا محبوبتي ، أنت وفيرش » .

قالت كادي : « نعم » وخرجنا ، فقالت :

« لا حاجة بك إلى الذهاب يا فيرش . سأبقيه معي قليلاً » .

فقال فيرش : « لابأس فأنا لن أخرج في هذا البرد للمتعة » .

ثم ذهب ، ووقفنا في المدخل وركعت كادي واحتوتني بذراعيها والصقت وجهها البارد البراق بوجهي وكانت رائحتها كرائحة الأشجار .

« أنت لست طفلاً مسكيناً . لا . فلديك كادي . أليست كادي عندك » .

قال لستر ، ألن تكف عن هذا الأنين والنشيج ، ألا تخجل من نفسك . إذ تصدر عنك هذه الأصوات ومررنا ببيت العربة ، حيث رأينا العربة . وكانت لها عجلة جديدة .

« ادخل ، ادخل ، واجلس بلاحركة حتى تأتي أمك » . قالت دلزي ذلك ودفعتني إلى داخل العربة . وأمسك تي بي بالعنان ، وقالت دلزي : « والله لا أدري لماذا لا يشتري جاسن عربة جديدة ، فهذه العربة ستغدو حطاماً تحتكم يوماً من الأيام . انظروا إلى هذه العجلات » .

وخرجت أمي وقد اسدلت نقابها على وجهها ومعها زهور .

قالت : « أين رسكوس » .

فقالت دلزي : « لِيُرح رسكوس ذراعيه اليوم . بوسع تي بي أن يسوق ولابأس بسياقته » .

قالت أمي : « أخاف . أو لا تستطيعون كلكم أن تهيئوا لي سائقاً للعربة مرة واحدة في الأسبوع ؟ يعلم الله أنني لا أطلب الكثير » .

قالت دلزي : « أنت تعلمين كما أعلم أنا أن الروماتيزم أثقل وطأة على رسكوس من أن يفعل أكثر مما ينبغي ياسيدة كارولاين ، فهيا تعالي واصعدي الآن ، تي بي لا يقل عن رسكوس مهارة في السياقة » .

قالت أمي : «أخاف أن اصعد ومعي الطفل» .

فارتفعت دلزي الدرجات وقالت : «أتسمين هذا طفلاً» وأخذت بذراع أمي . «إنه رجل بحجم تي بي . هيا اصعدي ، إن كنت ذاهبة» .

قالت أمي : «أخاف» . ونزلتا الدرج ودلزي تساعد أمي . فقالت أمي : «لعل هذا هو الأفضل لنا كلنا» .

قالت دلزي : «عيب والله أن تقولي ذلك . ألا تعلمين أن الذي قد يجعل «كويني» تسرع في ركضها يجب أن يكون أكثر من مجرد زنجي في الثامنة عشرة من عمره ، وهي أكبر سناً منه ومن بنجي معاً . وأنت يا تي بي ، افتح اذنيك واسمعني ، إياك أن تحاول أن تتسابق بكويني ، فإذا لم تسق وفق مشيئة السيدة كارولاين فسأسلط رسكوس عليك ، وهو ليس مشغولاً جداً بحيث يرفض ذلك» .

قال تي بي : «نعم» .

«أنا أعرف أن أمراً ما سيقع» . قالت أمي . «كفى يا بنجامين» .

«أعطه زهرة يحملها ، هذا ما يريد» . قالت دلزي ذلك ومدت يدها .

فقالت أمي : «لا ، لا ، ستبعثرينها كلها» .

قالت دلزي : «امسكي به سأخرج له واحدة» . وناولتني زهرة ثم ارتدت يدها عني .

قالت دلزي : «اذهبي ، هيا ، قبل أن تراك كونتن فتريد الذهاب أيضاً» .

قالت أمي : «أين هي» .

- «ذهبت إلى المنزل لتلعب مع لستر . هيا يا تي بي . سق العربة كما قال لك رسكوس» .

فقال تي بي : «نعم ، حاضر ، تحركي ياكويني» .

وقالت أمي : «كونتن . لا تدعيها تخرج» .

قالت دلزي : «طبعاً طبعاً» .

راحت العربة ترتج وتقضقض على الطريق الخاصة . وقالت أمي : « أخشى أن أذهب واترك كونتن ، الأفضل ألا أذهب يا تي بي » .

عبرنا البوابة فما عادت العربة ترتج . وضرب تي بي كويني بالسوط .

قالت أمي : « أنت ياتي بي » .

فقال تي بي : « علي أن أحركها . سأنشطها إلى أن نعود إلى العنبر » .

قالت أمي : « استدر وعد . أنا أخشى أن أذهب واترك كونتن » .

قال تي بي : « لا أستطيع الاستدارة هنا » . ثم اتسع الطريق .

قالت أمي : « ألا تستطيع الاستدارة هنا ؟ » .

قال تي بي : « طيب » . وبدأنا نستدير .

فقالت أمي وهي تمسك بي : « أنت يا تي بي » .

« لابد من أن أستدير على شكل ما . هاي ، كويني » . ووقفنا .

قالت أمي : « ستقلبنا » .

قال تي بي : « ما الذي تريدين أن تفعلي إذن ؟ » .

قالت أمي : « أنت تخيفني عندما تحاول أن تستدير » .

قال تي بي : « تزحزحي يا كويني » . وسرنا .

وقالت أمي : « أنا أعرف أنا ، دلزي ستجعل أمراً ما يقع لكونتن وأنا غائبة يجب أن نسرع في العودة » .

وقال تي بي : « تحركي يا كويني » . وضرب كويني بالسوط .

« أنت يا تي بي » . قالت أمي وهي تمسك بي . كنت أسمع حوافر كويني ، وراحت الأشكال البراقة تنزلق ناعمة نظيمة من على الجانبين وظلالها تنساب على ظهر كويني . واستمرت كذلك أشبه بأعالي العجلات البراقة . ثم توقفت تلك التي على أحد الجانبين عند العمود الأبيض الطويل حيث وقف الجندي . أما على الجانب الآخر فقد استمرت في انزلاقها ناعمة نظيمة ، ولكن بسرعة أقل .

قال جاسن : « ماذا تريدين » . وكانت يداه في جيبيه ووراء اذنه قلم .

قالت أمي : « إننا ذاهبون إلى المقبرة » .

فقال جاسن : « لابأس هل حاولت أن أمنعكم ، أهذا كل ما أردته مني ، أن تخبريني بذلك ؟ » .

قالت أمي : « أدري بأنك لن تأتي معنا . ولكن لو أتيت لازددت اطمئناناً » .

قال جاسن : « وممَ أنت خائفة . لن يؤذيك أبي أو كونتن » .

فوضعت أمي منديلها تحت نقابها ، وقال جاسن :« كفاك ياأماه ، أتريدين أن تجعلي هذا الأبله الكريه يشرع بالغياط وسط الميدان ؟ . سق يا تي بي » .

قال تي بي : « تحركي ياكويني » .

وقالت أمي : « هذا حكم الله عليَ ولكنني راحلة أنا أيضاً عما قريب » .

قال جاسن : « اسمعي » .

فقال تي بي : « هاي » .

قال جاسن : « يريد خالي موري أن يسحب خمسين دولاراً على حسابك . ما الذي تنوين أن تفعلي بخصوص ذلك » .

قالت أمي : « ولماذا تسألني ؟ . كلمتي غير مسموعة ، ولذا فإنني أحاول ألا أزعجك أنت أو دلزي . سأرحل عن هذه الدنيا عما قريب ، ثم يأتي دورك » .

قال جاسن ، « امش يا تي بي » .

فقال تي بي : « تحركي يا كويني » . وراحت الأشكال تسيل ، وبدت تلك التي على الجانب الآخر من جديد ، براقة سريعة ناعمة ، شبيهة باللحظة التي تقول فيها كادي أننا سننام .

قال لستر ، تبكي كالطفل الصغير . ألا تخجل ، دخلنا العنبر ، وكانت الحظائر كلها مفتوحة . وقال لستر : لا مهرة منقطة لديك للركوب ، كانت الأرض يابسة متربة ، وكان السقف يتساقط والثقوب المائلة ملأى بصفرة

دوارة . لماذا تريد الذهاب من هناك . أتريد أن تطيح برأسك إحدى تلك الكرات .

قالت كادي : «أبقِ يديك في جيبك ، وإلا تجمدتا ، أتريد أن تجمد يداك يوم عيد الميلاد ؟ »

مشينا حول العنبر . وكانت البقرة الكبيرة والبقرة الصغيرة واقفتين بالباب ، وكنا نستطيع أن نسمع برنس وكويني وفانسي تخبط الأرض داخل العنبر . وقالت كادي : «لو لم يكن البرد قارساً لركبنا فانسي . ولكننا لن نستطيع أن نبقى على ظهرها في هذا البرد» . ثم رأينا الغدير حيث كان الدخان يُنفث . فقالت كادي : «ذلك هو المكان حيث يذبحون الخنزير . نستطيع أن نمر به عند عودتنا ونراهم» . ونزلنا التل .

قالت كادي : «أتريد أن تحمل الرسالة ؟ هاكها» . وأخرجت الرسالة من جيبها ووضعتها في جيبي .«إنها هدية لعيد الميلاد ، يريد خالي موري أن يفاجئ بها المسز باترسن . وعلينا أن نسلمها إياها دون أن ندع أحداً يرانا . والآن ، لا تخرج يديك من جيبك» . ثم بلغنا الغدير .

قالت كادي : «لقد تجمد كل شيء . انظر» . وكسرت أعلى الماء وأمسكت بقطعة منه أمام وجهي . «جليد . وهذا دليل على شدة البرد» . أعانتني على العبور وصعدنا التل . «يجب ألا نخبر حتى ماما وبابا . أتدري ما أظن بها ؟ أخالها تحمل مفاجأة لماما وبابا والسيد باترسن جميعاً ، لأن السيد باترسن أرسل إليك بعض الحلوى . أتذكر يوم أرسل إليك السيد باترسن بعض الحلوى في الصيف الماضي» .

كان ثمة سياج وكانت الدالية يابسة والريح تخشخش فيها .

قالت كادي : «لست أرى لماذا لم يرسل خالي موري ، فيرش ، إن فيرش كتوم» . وكانت المسز باترسن تنظر من الشباك . فقالت كادي :«انتظر هنا . انتظر هنا ولا تتقدم سأرجع بعد دقيقة . اعطني الرسالة» . وأخرجت الرسالة من جيبي . «أبقِ يديك في جيبيك» . ثم

تسلقت السياج والرسالة في يدها ومشت بين الزهور البنية المخشخشة . وجاءت المسز باترسن إلى الباب وفتحته ووقفت هناك .

كان السيد باترسن يكسّر حطباً وسط الزهور الخضراء . توقف عن التكسير ونظر إلي . وجاءت المسز باترسن عبر الحديقة راكضة . فلما رأيت عينيها جعلت أبكي . وقالت يامعتوه ، قلت له ألا يرسلك بمفردك أبداً ثانية . اعطني إياها بسرعة . وهرول السيد باترسن وفي يده المعزقة ، واتكأت المسز باترسن على السياج وقد مدت يدها عالياً . كانت تحاول تسلق السياج ، وقالت اعطني إياها ، اعطني إياها وتسلق السيد باترسن السياج وأخذ الرسالة وعلق ثوب المسز باترسن بالسياج . ورأيت عينيها ثانية ونزلت التل راكضاً .

قال لستر : «ليس هناك إلا بيوت ونحن في سبيلنا إلى الغدير» .

كانوا في الغدير يغسلون الثياب . وكانت امرأة منهم تغني . جعلت اشم الثياب المرفرفة ، والدخان يهب فوق الغدير .

قال لستر : «ابق هنا ، لا شأن لك معهم هناك . هؤلاء القوم قد ضربوك ؛ لاشك» .

- «ماذا يريد أن يفعل» .

فقال لستر : «لا يعرف ماذا يريد أن يفعل . فهو يظن أنه يريد أن يذهب هناك ؛ حيث هم يضربون تلك الكرة . اقعد مكانك والعب بزهرة الجمسن . وإذا كان لابد لك من أن تنظر إلى شيء فانظر إلى أولئك الأطفال الذين يلعبون في الغدير . عجيب لماذا لا تحسن التصرف كبقية القوم ؟» .

فجلست على الضفة ، حيث كانوا يغسلون الثياب والدخّان يتصاعد أزرق اللون .

قال لستر : «أرأيتم ربعاً هنا ياجماعة ؟»

- «أي ربع ؟» .

قال لستر : «الربع الذي كان معي هذا الصباح ، فقدته في مكان ما ،

لقد سقط من هذا الثقب في جيبي . وإذا أنا لم أجده تعذر عليَ الذهاب إلى السـيرك هذه الليلة » .

ـ « من أين حصّلت ربعاً يا ولد ، أوجدته في جيب أحد القوم البيض إذ غافلتهم ؟ » .

فقال لستر : « حصلته حيث يكون التحصيل وفي المكان الذي جاءت منه أرباع كثيرة ، ولكن يجب أن أجد هذا الربع أما وجدتموه بعد ؟ »

ـ « أنا لن أبحث عن ربع لأحد . فلدي شغلي الشاغل » .

قال لستر : « هيا بربك . ساعدني في البحث عنه » .

ـ « أتظن أنه يعرف الربع لو رآه ؟ » .

قال لستر : « ولكنه يستطيع أن يساعدني في البحث . كلكم ذاهبون إلى السيرك هذه الليلة » .

ـ « لا تحدثني عن السيرك . فحالما أفرغ من هذا الطشت سأكون مرهقة بحيث لا أستطيع رفع يدي لأفعل أي شيء » .

قال لستر : « أراهن أنك ستكونين هناك . وأراهن أنك ذهبت هناك ليلة البارحة ، وأراهن أنكم ستكونون هناك حالما تفتتح تلك الخيمة » .

ـ « سيكون هناك ما يكفي من الزنوج دون أن أذهب أنا . كما حدث البارحة » .

ـ « نقود الزنوج لا تختلف عن نقود البيض ، ها » .

ـ « يعطي البيض الزنجي نقوداً لأنهم يعرفون أنهم سيسترجعونها حالما يطرق المكان رجل أبيض ومعه فرقة موسيقية ، فيعود الزنجي ويشتغل من جديد » .

ـ « أليس هناك من أحد يدفعك إلى حضور هذا السيرك » .

ـ « لاحتى الآن . لم أفكر في الأمر ، في الواقع » .

ـ « ماذا لديك ضد القوم البيض ؟ »

ـ « لا شيء لدي ضدهم . فأنا اذهب في سبيلي وأدع البيض يذهبون في

سبيلهم . هذا ولا يهمني هذا السيرك » .

- « في السيرك رجل يستطيع أن يعزف نغماً على منشار . إنه يعزف عليه كما لو كان بانجو » .

قال لستر : « لقد ذهبت أنت البارحة ، أما أنا فسأذهب اليوم إذا استطعت أن أجد أين أضعت ذلك الربع » .

- « ستأخذه معك ، أليس كذلك ؟ » .

فقال لستر : « أنا ، اتظن أنه يجب أن يكون معي أينما ذهبت . لقد حان له أن يشرع في العياط » .

- « وماذا تفعل عندما يشرع في العياط ؟ » .

قال لستر : « أجلده » . ثم قعد ورفع ثيابه . وراحوا يلعبون في الغدير .

قال لستر : « أوجدتم أية كرات يا جماعة ؟ » .

- « كلامك كبير جداً والله خير لك ألا تسمعك جدتك وأنت تتكلم على هذا النحو » .

توغل لستر في الغدير حيث كانوا يلعبون . ثم أخذ يبحث في الماء بمحاذاة الضفة .

« كان الربع معي حين أتيت هنا هذا الصباح » . قال لستر .

- « أين فقدته ؟ » .

- « من هذا الثقب هنا في جيبي » . واستمروا يبحثون في الغدير . ثم انتصبوا كلهم فجأة وتوقفوا وبعد ذلك أخذوا يتراشقون بالماء ويتعاركون في الغدير وقدالتقطها لستر فجلسوا القرفصاء في الماء وهم يصعدون عيونهم في التل من بين الشجيرات .

قال لستر : « أين هم ؟ » .

- « لا نستطيع أن نراهم بعد » .

وضعها لستر في جيبه . ونزلوا التل .

- « هل أتتكم كرة هنا ؟ » .

ـ « لابد أنها سقطت في الماء . ألم يرها أحد منكم أو يسمعها تسقط يا أولاد ؟ » .

فقال لستر : « لم اسمع شيئاً يسقط هنا . ولكني سمعت شيئاً يضرب تلك الشجرة في المرتفع هناك ولا أدري في اي اتجاه ذهبت » .

أنعموا النظر في الغدير .

ـ « عجيب انظروا بمحاذاة الغدير لقد سقطت هنا . ولقد رأيتها » .

فنظروا بمحاذاة الغدير . ثم عادوا فصعدوا التل .

قال الوِلد : « هل أخذت تلك الكرة ؟ » .

قال لستر : « وماذا أريد بها ؟ . أنا لم أر أية كرة » .

دخل الولد الماء ، وخاض فيه . ثم التفت ونظر إلى لستر ثانية واستمر نُزلاً في الغدير .

وقال الرجل وهو في أعلى التل : « ياكادي » فخرج الولد من الماء وصعد التل .

وقال لستر : « والآن اسمعوه ياعالم . بالله اسكت » .

ـ « ما الذي يبكيه ؟ » .

فقال لستر : « الله اعلم . من عادته أن يشرع فيه فجأة . منذ الصباح وهو على هذه الحال . لعل ذلك سببه أن اليوم عيد ميلاده » .

ـ « وما عمره ؟ » .

قال لستر : « ثلاث وثلاثون سنة . لقد أكمل الثلاث والثلاثين هذا الصباح » .

ـ « تقصد أن عمره ظل ثلاث سنوات مدة ثلاثين سنة » .

قال لستر : « هذا ماتقوله أمي . أنا لا أدري ولكننا على كل حال سنجعل في الكعكة ثلاثاً وثلاثين شمعة . وهي كعكة صغيرة تكاد لاتتسع للشموع . كفى بكاء . عد إلى هنا » . ثم أتى وامسك بذراعي ، وقال : « يا معتّوه أتريد لي أن أجلدك » .

ـ « أراهن أنك ستفعلها » .

ـ « لقد فعلتها . اسكت . ألـم أقل لك يجب ألا تصعد إلى هناك . سيطيرون رأسك بإحدى تلك الكرات . هيا » . وسحبني إلى الخلف . « اقعد » . فقعدت ونزع لستر حذائي وشمر عن ساقي . « والآن ، ادخل في هذا الماء والعب وحاول أن تكف عن هذا النشيج والأنين » .

فسكت ودخلت الماء وجاء رسكوس وقال تعالوا إلى العشاء وقالت كادي :

لم يحن وقت العشاء بعد . لن أجيء .

كانت مبللة . كنا نلعب في الغدير فقرفصت كادي وتبلل ثوبها وقال فيرش :

« ستجلدك أمك لأنك بللت ثيابك » .

فقالت كادي : « لن تفعل شيئاً من ذلك القبيل » .

فقال كونتن : « وكيف عرفت ذلك ؟ » .

قالت كادي : « لا يهمك كيف عرفت . كيف عرفت أنت ؟ » .

قال كونتن : « هي قالت . وفضلاً عن ذلك ، فأنا أكبر منك » .

قالت كادي : « عمري سبع سنوات . أنا أعرف » .

قال كونتن : « أنا أكبر من ذلك . فأنا اذهب إلى المدرسة . اليس كذلك يا فيرش ؟ » .

فقالت كادي : « سأذهب إلى المدرسة في العام المقبل ، عندما يحين موعدها . أليس كذلك يا فيرش ؟ » .

فقال فيرش : « تعرفين أنها تجلدك كلما بللت ثوبك » .

فقالت كادي : « ثوبي ليس مبللاً » . ووقفت في الماء ونظرت إلى ثوبها ، ثم قالت : « سأنزعه ، فينشف » .

قال كونتن : « لن تجرؤي » .

قالت كادي : « سأجرؤ » .

قال كونتن : « أفضل لك ألا تنزعيه » .

فاتجهت كادي نحوي ونحو فيرش وأدارت ظهرها وقالت :

« فك الأزرار » .

قال كونتن : « إياك يافيرش » .

قال فيرش : « إنه ليس ثوبي » .

فقالت كادي : « فك الأزرار يا فيرش . وإلا أخبرت دلزي بما فعلته أمس » . ففك فيرش الأزرار .

قال كونتن : « ويل لك لو نزعت ثوبك » . أما كادي فإنها نزعت ثوبها وألقت به إلى الضفة وعندها لم يبق عليها إلا قميصها الداخلي وسروالها ، وصفعها كونتن فزلقت وسقطت في الماء وعندما نهضت أخذت ترشق كونتن بالماء وكونتن يراشقها به ، وقد تراشق بعضه عليّ وعلى فيرش والتقطني فيرش ووضعني على الضفة . وقال إنه سوف يشي بكادي وكونتن ، فأخذ كونتن وكادي يرشقان فيرش بالماء فتوارى خلف شجيرة .

وقال فيرش : « سأخبر ماما بما فعلتما » .

فتسلق كونتن الضفة وحاول الإمساك بفيرش ، غير أن فيرش هرب راكضاً ولم يستطع كونتن الإمساك به . وعندما عاد كونتن توقف فيرش وصاح بأنه سيشي بهما ، فأجابته كادي بأنهما سيسمحان له بالعودة إذا لم يشِ بهما فوافق فيرش وسمحا له بالعودة .

قال كونتن : « أراضية أنت الآن ؟ . قد تجلدنا ماما كلينا الآن » .

قالت كادي : « لا يهمني ذلك فسأهرب » .

قال كونتن : « أجل ستهربين » .

قالت كادي : « سأهرب ولن أعود أبداً » . فجعلت أبكي .

فاستدارت كادي نحوي وقالت : « هس » . فسكتَ ثم راحا يلعبان في الغدير .وكان جاسن يلعب أيضاً . كان يلعب وحده على مسافة منا في الغدير . ودار فيرش حول الشجيرة وجاءني وحملني إلى الماء ثانية . كانت

مؤخرة كادي مبتلة مطينة ، وجعلت أبكي وجاءت وقرفصت في الماء .

وقالت : «هس ، هس . لن أهرب» . فسكتُ وكانت رائحة كادي كرائحة الأشجار في المطر .

قال لستر ، ما بك . ألا تستطيع أن تكف عن هذا الأنين وتلعب في الغدير مثل الناس ؟ .

لماذا لا تأخذه إلى البيت ؟ . ألم يوصوك بألا تخرجه من المكان ؟ .

فقال لستر ، مازال يظن أن هذا المرعى ملك لهم . لا أحد يستطيع أن يرى هذا المكان من البيت . على كل حال .

نحن نستطيع والناس لا يروق لهم النظر إلى معتوه . إنه يجلب الشؤم .

جاء رسكوس وقال تعالوا إلى العشاء وقالت كادي لم يحن وقت العشاء .

قال رسكوس : «بل حان . دلزي تقول لكم جميعاً تعالوا إلى البيت . جئ بهم يا فيرش» . ثم صعد التل حيث كانت البقرة تخور .

قال كونتن : «ربما جفت ثيابنا في طريقنا إلى البيت» .

فقالت كادي : «كلها غلطتك . أرجو أن تجلدنا ماما» . ولبست ثوبها وزررّه لها فيرش .

قال فيرش : «لن يعلموا انكما تبللتما . لا يبدو ذلك عليكما . إلا إذا وشينا بكما أنا وجاسن» .

قالت كادي : «أتشي يا جاسن ؟» .

قال جاسن : «أشي ؟ بمن ؟»

قال كونتن : «لن يشي . أليس كذلك يا جاسن ؟» .

قالت كادي : «أراهنك أنه سيشي بنا . سيخبر ماما» .

قال كونتن : «لن يستطيع فإنها مريضة . وإذا أبطأنا السير أظلمت الدنيا فلا يروننا» .

قالت كادي : «رؤيتهم إيانا أو عدمها لا تهمني . وسأخبرهم بنفسي . احمله إلى رأس التل يا فيرش» .

قال كونتن : «لن يشي بنا جاسن . أتذكر القوس والسهم اللذين صنعتهما لك ، يا جاسن ؟» .

قال جاسن : «انكسرا» .

قالت كادي : «ليقل مايشاء . لن يهمني . احمل موري إلى رأس التل يا فيرش» . فقرفص فيرش وركبت على ظهره .

قال لستر ، سأراكم جميعاً في السيرك هذه الليلة . هيا ياجماعة . لابد من أن نجد ذلك الربع .

قال كونتن : «إذا أبطأنا السير ، فستكون الدنيا قد أظلمت حين نصل البيت» .

قالت كادي : «لن ابطئ السير» . وصعدنا التل ، إلا أن كونتن لم يجئ وكان لا يزال في الغدير عندما بلغنا الموضع الذي نستطيع منه أن نشم رائحة الخنازير . لقد كانت تشخر وتشمشم في الجرن الذي في الزواية . ولحق بنا جاسن ويداه في جيبيه ، وكان رسكوس يحلب البقرة في مدخل العنبر .

وخرجت البقرات من العنبر وهي تقفز .

قال تي بي : «هيا صح ثانية . سوف أصيح أنا أيضاً . هووي» . وركل كونتن تي بي مرة أخرى . لقد ركله موقعاً إياه في الجرن حيث تأكل الخنازير وبقي تي بي هناك ، وهو يقول «يا الله كاد يقتلني . أرأيت ذلك الرجل الأبيض كيف ركلني في تلك المرة ، هووي» .

لم أكن ابكي ، ولكنني عجزت عن التوقف . لم أكن أبكي لكن الأرض لم تكن ثابتة ، وعندها جعلت أبكي . وظلت الأرض تنحدر والبقرات تصعد التل . وحاول تي بي النهوض فوقع ثانية وأخذت البقرات تنزل التل ، وأمسك كونتن بذراعي ومشينا نحو العنبر . ثم لم يكن العنبر هناك وكان علينا أن ننتظر إلى أن عاد . ولم أره يعود ، عاد من خلفنا ووضعني كونتن في الجرن

حيث كانت البقرات تأكل . فتشبثت به ، وإذا به هو أيضاً يبتعد فتشبثت به . ونزلت البقرات التل مرة أخرى عبر الباب . وعجزت عن التوقف وصعد كونتن وتي بي التل وهما يتشاجران . كان تي بي يتدحرج على التل وجرّه كونتن إلى أعلى التل وضرب كونتن تي بي وعجزت عن التوقف .

قال كونتن : « انتصب . ابق هنا . لاتتزحزح من هنا حتى أعود » .

قال تي بي : « أنا وبنجي سنعود إلى العرس . هووي » .

فضرب كونتن تي بي مرة خرى . ثم جعل يخبط تي بي بالحائط ، فلا يستطيع أن يقولها لشدة ضحكه وكففت عن البكاء ولكنني عجزت عن التوقف . وسقط تي بي عليّ وابتعد باب العنبر عنا ، ونزل التل وأخذ تي بي يتشاجر وحده وسقط ثانية وكان لايزال يضحك وعجزت عن التوقف وحاولت الوقوف فوقعت ، وعجزت عن التوقف .

وقال فيرش : « لقد فعلتها والله . أي والله فعلتها كف عن ذلك العياط » .

كان تي بي لايزال يقهقه . وهوى على الباب وهو يقهقه . وقال : « هووي . أنا وبنجي سنعود إلى العرس » .

قال فيرش : « هس . اين حصلت عليه ؟ » .

قال تي بي : « من القبو . هووي » .

قال فيرش : « هس ، هس . في أي مكان من القبو ؟ » .

قال تي بي : « أينما شئت » . وضحك ثانية . « أكثر من مئة زجاجة هناك . أكثر من مليون انتبه أيها الزنجي ، سأصيح » .

قال كونتن : « ارفعه » .

فرفعني فيرش .

قال كونتن : « اشرب هذا يا بنجي » . كان الكوب حاراً . « اسكت واشربه » .

فقال تي بي : « دعني أشربه أنا ، يا سيد كونتن » .

قال فيرش : «سد فمك أنت وإلا مزق بدنك السيد كونتن» . قال كونتن : «امسك به يا فيرش» .

فأمسكوا بي وإذا بشيء حار يجري على ذقني وقميصي وقال كونتن «اشرب» وأمسكوا برأسي . كان جوفي حاراً وبدأت من جديد . كانت بطني تصيح ، وكان شيء ما يعتمل في جوفي وبكيت أكثر وأمسكو بي إلى أن انقطع ذلك الشيء . ثم سكت . ولكنه كان ما يزال يدور ويدور ، ثم بدأت الأشكال . «افتح الحظيرة يا فيرش» . تباطؤوا . «افرش تلك الأكياس الفارغة على الأرض» . أخذوا يسرعون .

«والآن ، ارفع قدميه» . وساروا ناعمين يتوهجون وسمعت تي بي يقهقه ، وذهبت بصحبتهم صاعداً التل .

في أعلى التل وضعني فيرش على الأرض . وصاح وهو ينظر إلى أسفل التل «تعال هنا يا كونتن» . أما كونتن فكان مايزال واقفاً هناك قرب الغدير . عبر الظلال حيث الغدير .

وقالت كادي : «ليبق البوال هناك» وأخذت بيدي ومررنا بالعنبر وعبرنا البوابة وعلى الممشى القرميدي رأينا ضفدعاً اقعت في الوسط . وخطت كادي فوقها وسحبتني وراءها وقالت :

«هيا ياموري»

وبقيت مقعية هناك إلى أن نخسها جاسن باصبع رجله .

فقال فيرش : «ستسبب لك خالاً على جسمك» . ثم قفزت الضفدع وابتعدت .

قالت كادي : «هيا ، ياموري» .

قال فيرش : «لديهم ضيوف الليلة» .

قالت كادي : «وكيف عرفت ؟» .

قال فيرش : «لأن تلك الأنوار مضاءة كلها . في كل نافذة نور» .

قالت كادي : «بوسعنا أن نضيء الأنوار كلها إن شئنا دون أن يكون ثمة ضيوف» .

قال فيرش : «أراهنك على أنهم ضيوف . فخير لكم كلكم أن تدخلوا من الخلف وتصعدوا الدرج تسللاً» .

قالت كادي : «لا أبالي . سأدخل رأساً إلى الصالون حيث يجلسون» .

قال فيرش : «أراهنك على أن أباك سيجلدك لو أنت فعلت ذلك» .

قالت كادي : «لا أبالي . سأدخل الصالون . وسأتوجه رأساً إلى غرفة الطعام وأتناول عشائي» .

قال فيرش : «وأين ستجلسين» .

قالت كادي : «سأجلس في كرسي ماما ، إنها تأكل في فراشها» .

وقال جاسن : «أنا جوعان» . وسبقنا وراح يركض في الممشى وكانت يداه في جيبيه ووقع فذهب إليه فيرش وانهضه ، وقال : «لو أبقيت يديك خارج جيبيك لبقيت واقفاً على قدميك . فأنت لن تستطيع أن تخرجهما بسرعة لتمنع نفسك من السقوط ، لأنك سمين» .

كان أبي واقفاً قرب درج المطبخ .

قال : «أين كونتن» .

فقال فيرش : «إنه قادم في الممشى» . وكان كونتن قادماً ببطء ، وقميصه لطخة بيضاء .

قال أبي : «آه» . وسقط ضوء السلم عليه .

وقال جاسن : «تراشق كادي وكونتن بالماء» .

وانتظرنا .

فقال أبي : «صحيح ؟» ولما جاء كونتن قال أبي : «لكم أن تتناولوا العشاء في المطبخ هذه الليلة» . وكف عن الكلام ورفعني ووقع نور السلم عليَّ أنا أيضاً ، وأرسلت بصري نزلاً إلى كادي وجاسن وكونتن وفيرش . ثم اتجه أبي نحو السلم وقال : «ولكن عليكم بالهدوء» . قالت كادي : «لم الهدوء يا أبي ، أعندنا ضيوف ؟» .

قال أبي : «نعم» .

فقال فيرش : « ألم أقل لك أن هناك ضيوفاً » .

قالت كادي : « أبداً أنا الذي قلت لدينا ضيوف » .

قال أبي : « صه » فسكتوا وفتح أبي الباب وعبرنا الشرفة الخلفية ودخلنا المطبخ حيث وجدنا دلزي ووضعني أبي في الكرسي ودفعني إلى المائدة ، وعليها العشاء وقد تصاعد البخار منه .

قال أبي : « والآن ، أطيعوا دلزي . ويا دلزي لا تدعيهم يضجون أكثر مما ينبغي » .

قالت دلزي : « حسناً ياسيدي » وابتعد أبي ، ثم قال وهو خلفنا : « اطيعوا دلزي ، أفهمتم » .

وانحنيت بوجهي فوق طعام العشاء فانتشر بخاره على وجهي .

وقالت كادي : « أبي ليطيعوني أنا هذه الليلة » .

فقال جاسن : « لن أطيعك . بل سأطيع دلزي » .

قالت كادي : « بل عليك بإطاعتي ، إذا أمر بابا بذلك . أبي دعهم يطيعونني » .

قال جاسن : « أبداً . لن اسمع لك كلاماً » .

فقال أبي : « صه . اذن استمعوا لكادي ، كلكم . ويا دلزي ، دعيهم عندما يفرغون يصعدون السلم الخلفي » .

وقالت دلزي : « نعم ، سيدي » .

وقالت كادي : « أرأيت . عليك أن تستمع لما أقوله الآن » .

قالت دلزي : « اسكتوا . عليكم بالهدوء هذه الليلة » .

فهمست كادي : « ولماذا الهدوء هذه الليلة ؟ » .

قالت دلزي : « لا عليك ستعلمين عندما يشاء ربك » . احضرت قصعتي فارتفع منها البخار ودغدغ وجهي ، وقالت دلزي : تعال هنا يا فيرش » .

قالت كادي :« ومتى سيشاء ربي ؟ » .

فقال كونتن : « اليوم هو الأحد . ألا تعلمين شيئاً » .

فقالت دلزي : « ش ش ش ، ألم يأمركم السيد جاسن بالهدوء . هيا ، كلوا عشاءكم . وأنت يافيرش احضر له ملعقته » . ودخلت يد فيرش بالملعقة في القصعة ، وجاءت الملعقة إلى فمي . ودغدغ البخار باطن فمي . ثم توقفنا عن الأكل وجعل بعضنا ينظرإلى بعض ، وعندها سمعناها ثانية ، وجعلت أبكي .

« ماذا كان ذلك » . قالت كادي . ووضعت يدها على يدي .

قال كونتن : « تلك كانت أمي » . وارتفعت الملعقة وأكلت ثم بكيت من جديد...

قالت كادي : « صه » غير أنني لم أسكت وجاءت ولفت ذراعها حولي وذهبت دلزي وأغلقت كلا البابين فما عدنا نسمعها .

وقالت كادي : « صه صه » فسكت وأكلت لم يكن كونتن يأكل ، أما جاسن فكان يأكل .

قال كونتن : « تلك كانت أمي » . ونهض .

فقالت دلزي : « اجلس مكانك .عندهم ضيوف ، وأنت في هذه الثياب الموحلة ، وأنت يا كادي اجلسي مكانك وأنهي أكلك » .

قال كونتن : « لقد كانت تبكي » .

قالت كادي : « بل كان أحدهم يغني ، أليس كذلك يا دلزي ؟ » .

قالت دلزي : « انصرفوا إلى طعامكم ، كما أمركم أبوكم ستعلمون عندما يشاء ربكم » . فعادت كادي إلى كرسيها ، وقالت : « أما قلت لكم إنها حفلة » .

وقال فيرش : « لقد أكل كل ذلك » .

فقالت دلزي : « ناولني قصعته » . وابتعدت القصعة عني .

قالت كادي : « يا دلزي . كونتن لا يأكل عشاءه . أليس عليه أن يستمع لكلامي ؟ » .

قالت دلزي : « كل عشاءك ، يا كونتن ، عليكم كلكم أن تنتهوا وتخرجوا من مطبخي » .

قال كونتن : «لا أريد مزيداً» .

قالت كادي : «يجب أن تأكله عندما آمرك بذلك . أليس كذلك يا دلزي» .

تصاعد بخار القصعة إلى وجهي ، وغمست يد فيرش فيها الملعقة ودغدغ البخار باطن فمي .

قال كونتن : «لا أريد عشاء بعد . كيف يستطيعون أن يقيموا حفلة وأمي مريضة» .

قالت كادي : «سيقيمون الحفلة في الطابق الأسفل . وبوسعك أن تنزل إلى صحن السلم وتتفرج عليها وهذا ماسأفعله أنا عندما ألبس منامتي» .

قال كونتن : «كانت أمي تبكي . ألم تكن تبكي ، يا دلزي ؟» .

فقالت دلزي : «دوختني والله يا ولد بالأسئلة وعليَ أن أهيّئ العشاء لهولاء المدعوين كلهم حالما تنتهون من أكلكم» .

وبعد قليل انتهى حتى جاسن من أكله وأخذ يبكي .

فقالت دلزي : «والآن عليك أن تهجع» .

قالت كادي : «إنه يبكي كل ليلة منذ أن مرضت أمي وماعاد ينام معها . طفل بكّاء» .

قال جاسن : «سأشي بكم» .

واستمر في بكائه . فقالت كادي : «لقد وشيت بنا وانتهيت . ولم يبق لديك شيء تقوله عنا» .

وقالت دلزي : «عليكم كلكم أن تذهبوا إلى فراشكم» . وجاءت ورفعتني عن الكرسي ثم انزلتني ومسحت وجهي ويديّ بخرقة دافئة . «فيرش ، أتستطيع أن تصعد بهم السلم الخلفي بهدوء وأنت يا جاسن كفاك بكاءً» .

قالت كادي : «لم يحن الوقت للنوم بعد . فنحن لا نأوي لفراشنا في مثل هذا الوقت المبكر أبداً» .

فقالت دلزي : «ولكنكم ستأوون لفراشكم مبكرين هذه الليلة . لقد قال أبوك اصعدوا وناموا حالما تنتهون من العشاء . ألم تسمعيه ؟» .

قالت كادي : «ولكنه قال عليكم أن تستمعوا لكلامي» .

قال جاسن : «لن أستمع لكلامك أنا» .

قالت كادي : «بل يجب عليك أن تستمع . هيا . عليك أن تصدع بما آمر به» .

فقالت دلزي : «فيرش ، اسكتهم . ستلزمون الهدوء كلكم ، أليس كذلك ؟»

وقالت كادي : «ولماذا نلزم الهدوء هذه الليلة ؟» .

قالت دلزي : «أمك متوعكة والآن . اذهبوا كلكم مع فيرش» .

وقال كونتن : «قلت لكم إن أمي تبكي» . ثم حملني فيرش وفتح الباب المؤدي إلى الشرفة الخلفية فخرجنا وأغلق فيرش الباب .

وجعلت اتشمم فيرش وأحسه . «الزموا الهدوء ، كلكم . لن نصعد الدرج بعد . لقد أمر السيد جاسن أن نصعد رأساً وأمر بأن تطيعوني . لن استمع كلامك . قال عليكم كلكم أن تسمعوا مني . ألم يقل ذلك يا كونتن ؟» كنت أحس رأس فيرش ، وأسمعنا . «ألم يقل ذلك يا فيرش . نعم ، صحيح . اذن فانا اقول لنخرج الى العراء قليلاً . هيا بنا» . وفتح فيرش الباب وخرجنا .

ونزلنا الدرج .

قالت كادي : «اعتقد ان الافضل لنا ان ننزل الى بيت فيرش ، فنلزم الهدوء» . وانزلني فيرش من على صدره وأخذت كادي بيدي ومشينا في الممشى القرميدي .

قالت كادي : «هيا بنا . لقد راح ذلك الضفدع . طفر إلى الحديقة . ربما رأينا ضفدعاً آخر» . وجاء رسكوس بدلاء الحليب . ومرّ بنا أما كونتن فلم يرافقنا . لقد جلس على درجات المطبخ . ونزلنا إلى بيت فيرش .

وطاب لي أن اشتم بيت فيرش . كانت فيه نار وقد جلس تي بي القرفصاء في قميصه أمامها يحركها فتلتهب وتتوهج .

ثم نهضت وألبسني تي بي وذهبنا إلى المطبخ وأكلنا كانت دلزي تغني فشرعت بالبكاء فكفت وقالت :

« أبقوه بعيداً عن البيت » .

فقال تي بي : « لانستطيع أن نذهب في هذه الطريق » .

ولعبنا في الغدير .

وقال تي بي : « لا نستطيع أن نذهب هناك . ألا تعلم أن ماما قالت ذلك » .

كانت دلزي تغني في المطبخ فشرعت بالبكاء .

فقال تي بي : « هس هيا بنا . لنذهب إلى العنبر » .

كان رسكوس في العنبر يحلب البقرات . كان يحلب بإحدى يديه وينن ، وجلست بعض العصافير على عتبة العنبر ترنو إليه . وهبط أحدها ليأكل مع البقرات ، وجعلت أرقب رسكوس بينما راح تي بي يعلف كويني وبرنس . وكان العجل في زريبة الخنازير يحك ببوزه السلك ويخور .

قال رسكوس : « يا تي بي » . فقال تي بي نعم ، وهو في العنبر ورفعت فانسي رأسها فوق الباب لأن تي بي لم يكن قد علفها بعد . وقال رسكوس : « أسرع وأنجز شغلك هناك . فعليك أن تحلب هذه البقرات . ما عدت أقوى على استعمال يدي اليمنى » .

فجاء تي بي وطفق يحلب ، وقال :

« لماذا لا تراجع الطبيب ؟ » .

ـ « لا يستطيع الطبيب أن يفعل شيئاً في هذا المكان » . قال رسكوس .

قال تي بي : « وأية علة في هذا المكان ؟ » .

قال رسكوس :« هذا المكان مشؤوم ،عد بذلك العجل إلى مكانه حالما تنتهي » .

هذا المكان مشؤوم قالها رسكوس . كانت النار تعلو وتهبط خلفه وخلف فيرش ، وتنزلق على وجهه ووجه فيرش . وانتهت دلزي من وضعي في الفراش ، وكانت رائحة الفراش كرائحة تي بي فطابت لي .

قالت دلزي : « ماذا تعرف عن ذلك ، أي رؤيا رأيت ؟ » .

قال رسكوس : « لست بحاجة إلى رؤيا أليس علامة ذلك هذا النائم في الفراش . ألم تكن العلامة قائمة هنا ليراها الناس جميعاً طوال السنين الخمس عشرة هذه » .

فقالت دلزي : « افرض أن ذلك صحيح هل كان في ذلك أذى لك أو لعائلتك . فهذا فيرش يشتغل ، وفروني تزوجت فماعادت عالة عليك ، وتي بي قد كبر ليأخذ مكانك عندما يكون الروماتيزم قد نال منك » .

قال رسكوس : « اثنان لبيا نداء ربهما حتى الآن . وسيلحق بهما واحد آخر . لقد رأيت العلامة ، ورأيتها أنت أيضاً » .

فقال تي بي : « سمعت بوماً ينعب تلك الليلة . ورفض دان أن يأتي ليتعشى أيضاً . رفض أن يتخطى العنبر . وأخذ يعيط حالما هبط الظلام وقد سمعه فيرش » .

قالت دلزي : « سيلحق بهما أكثر من واحد آخر . ولكن أرني إنساناً لن يموت ، تبارك يسوع » .

فقال رسكوس : « ليس الموت كل ما هناك » .

قالت دلزي : « أعرف ما الذي يدور في ذهنك . ولن يكون في ذكرك ذلك الاسم إلا الشؤم . إلا إذا كنت ستساهره كلما انخرط في البكاء » .

قال رسكوس : « هذا المكان مشؤوم ، وقد أدركت ذلك أول الأمر ، وعندما غيروا اسمه لم يبق لدي أي شك » .

قالت دلزي : « كفاك لغواً » ومدت عليَ الأغطية وكانت رائحتها كرائحة تي بي . « اسكتوا كلكم إلى أن ينام » .

قال رسكوس : « لقد رأيت العلامة » .

قالت دلزي : «علامة قيام تي بي بكل أعمالك عنك» .

خذه يا تي بي وكونتن إلى البيت وليلعبوا مع ليستر حيث تستطيع فروني أن تعنى بهما ، ثم اذهب وساعد أباك .

انتهينا من الأكل فحمل تي بي كونتن ونزلنا إلى بيت تي بي فرأينا لستر يلعب بالتراب . فوضع تي بي كونتن على الأرض وجعلت هي أيضاً تلعب بالتراب . وكان لدى لستر بعض البكرات فتعارك هو وكونتن وأخذت كونتن البكرات فبكى لستر وجاءت فروني وأعطت لستر علبة من الصفيح ليلعب بها . ثم أخذت أنا البكرات فعاركتني كونتن وبكيت .

قالت فروني : «هس ألا تخجل من نفسك ، فتأخذ لعبة طفلة» وأخذت البكرات وأعادتها إلى كونتن . وقالت : «هس ، هس ، اسكت» .

وقالت فروني : «هس . أتريد من يجلدك ؟ أهذا ما تريده ؟»

ثم حملت لستر وكونتن . «تعال هنا» وذهبنا إلى العنبر . ورأينا تي بي يحلب البقرة ورسكوس جالس على الصندوق .

قال رسكوس : «ما به الآن ؟» .

قالت فروني : «يجب أن تبقيه هنا لقد عاد مشاجرة هذين الطفلين ثانية ، آخذاً اللعب منهما . ابق هنا مع تي بي ، ها ، وحاول أن تسكت قليلاً» .

وقال رسكوس : «نظف ضرعها جيداً لقد جلبت تلك البقرة فتية إلى أن جفت في الشتاء الماضي . فإذا حلبت هذه أيضاً حتى الجفاف لم يتبق لنا من حليب» .

كانت دلزي تغني .

قال تي بي : «هناك ، لا . ألا تعلم أن ماما قالت لا تذهبوا هناك» .

كانوا يغنون .

قال تي بي : «هيا بنا . لنذهب ونلعب مع كونتن ولستر . هيا» .

كان كونتن ولستر يلعبان في التراب أمام بيت تي بي ، وفي البيت نار تعلو وتهبط ، ورسكوس بسواده جالس إزاءها .

قال رسكوس : « وهذه هي الثالثة ، والحمد لله ، قلت لكِ منذ سنتين ، هذا المكان مشؤوم » .

قالت دلزي وهي تنزع ثيابي : « لما ذا لا تنزاح عنه إذن ؟ » عيّرت هذا المكان بالشؤم حتى جعل فيرش يفكر بممفيس . « ألا يكفيك ذلك ؟ » .

قال رسكوس : « هذا إن كان ذلك هو كل ما سيراه فيرش من شؤم » .

ودخلت فروني فسألتها دلزي :

« هل فرغتم ؟ » .

قالت فروني : « تي بي سينتهي بعد لحظة . والسيدة كارولاين تريدك أن تضعي كونتن في فراشها » .

قالت دلزي : « سآتي بأسرع ما أستطيع أما الآن لها أن تعلم أن ليست لي أجنحة » .

قال رسكوس : « هذا ما أقوله لك . مشؤوم هو المكان الذي يمتنعون فيه عن التلفظ باسم احدى بناتهم » .

قالت دلزي ، « هس . أتريد له أن يبدأ ؟ » .

قال رسكوس : ويربون طفلة دون أن يعلموها باسم امها » .

قالت دلزي : « لا تقلق نفسك بها . لقد ربيتهم جميعاً ، وأظنني أستطيع أن أربي واحدة أخرى ، فاسكت الآن ودعه ينام إن كان سينام » .

قالت فروني : « لقد تلفظ باسم . إنه لا يعرف اسم أحد » .

قالت دلزي : « اذكريه تري إن كان يعرف أم لا . اذكريه وهو نائم أراهن أنه يسمعك » .

قال رسكوس : « إنه يعرف اكثر مما يحسب الناس بكثير . لقد عرف أن ساعتهم قد دنت ولو كان مستطيعاً أن يتكلم لأخبرك متى تأتي ساعته أو ساعتك أو ساعتي » .

فقالت فروني : « ماما ، أخرجي لستر من ذاك الفراش ، فهذا الوالد يسحره » .

قالت دلزي : «اسكتي . أليس ثمة عقل في رأسك . لماذا تصغين إلى رسكوس . هيا يا بنجي ، إلى فراشك» .

دفعتني دلزي واضطجعت في الفراش وكان لستر قد سبقني إليه وغرق في النوم ، ثم أخذت دلزي قطعة طويلة من الخشب ووضعتها بيني وبين لستر ، وقالت : «نم على جنبك . لستر صغير وأنت لا تريد أن تؤذيه» .

قال تي بي ، لا تستطيع الذهاب الآن انتظر .

ونظرنا إلى الناحية الأخرى من ركن البيت وجعلنا نرقب العربات وهي تبتعد .

قال تي بي : «والآن هيا» وحمل كونتن وركضنا إلى زاوية السياج وتفرجنا عليهم وهم يمرون قال تي بي : «ها هو يضرب . أترى تلك التي فيها زجاج ؟ . انظر إليه إنه يقترب من الهدف أتراه ؟» .

قال لستر ، تعال سآخذ هذه الكرة إلى البيت ولن أضيعها ، العفو ، مولانا ، لن تأخذها أنت . فلو رآها هؤلاء الرجال إذا رؤوها معك لقالوا بأنك سرقتها ، اسكت ، اف ، لن تأخذها وما شأنك بها ، اتستطيع أن تلعب بالكرة ؟ .

كان تي بي وفروني يلعبان في التراب قرب الباب ، وقد وضع تي بي بعض اليراعات في زجاجة .

قالت فروني : «كيف خرجتم كلكم من الخلف ؟» .

قالت كادي : «عندنا ضيوف . وقد قال أبي أن على البقية هذه الليلة أن يطيعوني إذن عليكما أنت وتي بي أيضاً أن تطيعاني» .

قال جاسن : «أنا لن أطيعك وليس ضرورياً أن يطيعك تي بي وفروني بالتالي» .

قالت كادي : «سيطيعان لو أنا أمرتهما ، ولكن قد لا آمرهما» .

قالت فروني : «تي بي لا يطيع أحداً . هل بدأوا الجنازة» .

قال جاسن : «أية جنازة ؟» .

قال فيرش : « ألم تطلب إليك ماما ألا تخبريهم ؟ » .

قالت فروني : « حيث ينوحون . لقد ناحوا يومين كاملين على مس بيولا كلاي » .

كانوا ينوحون في بيت دلزي . وكانت دلزي تنوح وكلما ناحت دلزي قال لستر ، هس ، فنسكت وعندها شرعت أنا بالبكاء وصاح الكلب« بلو » من تحت سلم المطبخ ، ثم كفت دلزي عن النواح وكففنا .

قالت كادي : « أوه ، هؤلاء زنوج سود . أما الأناس البيض فلا يقيمون الجنائز » .

قال فيرش : « أوصتنا ماما بألا نخبرهم يا فروني » .

قالت كادي : « تخبرونهم بماذا ؟ » .

ناحت دلزي وإذ بلغت المكان جعلت أبكي وصاح « بلو » من تحت السلم ، وقالت فروني من النافذة يا لستر خذهم إلى العنبر لا أستطيع أن انجز الطبخ مع كل هذا الضجيج . وذلك الكلب أيضاً . أخرجهم من هنا .

فقال لستر ، لن أذهب هناك . قد ألقى أبي هناك . لقد رأيته ليلة البارحة في منامي وهو يلوح بذراعيه في العنبر .

قالت فروني : « ولم لا بربك فالبيض أيضاً يموتون . أوليست جدتك ميتة كأي زنجي ميت » . قالت كادي : « الكلاب ميتة . وعندما سقطت نانسي في الخندق رماها رسكوس بالرصاص وحطت عليها الصقور وعرتها » .

برزت العظام مستديرة إلى ضوء القمر من جوف الخندق والدوالي الداكنة في الخندق الأسود ، كأنما بعض الأشكال قد توقفت ، ثم توقفوا كلهم وأظلمت الدنيا ، وعندما توقفت لأبدأ من جديد سمعت أمي ، وأقداماً تهرول مبتعدة عني وشممت رائحتها . ثم جاءت الغرفة ، ولكن عينيَ أغمضتا وشممت رائحتها وهيأ تي بي ثياب النوم .

وقال : « ش ش ش » .

غير أنني كنت أشم رائحتها ورفعني تي بي وألبسني ثيابي على عجل .

قال : « اسكت يا بنجي . اننا ذاهبون إلى بيتنا . وأنت تريد الذهاب إلى بيتنا حيث نجد فروني ، ها . ش ش ش » .

شد سير حذائي وألبسني قبعتي وخرجنا . وكان في المدخل ضوء وعبر المدخل سمعنا صوت أمي .

قال تي بي : « هس ، بنجي . سنخرج بعد لحظة » .

ثم انفتح باب واشتدت رائحتها في أنفي ، وبرز رأس . لم يكن رأس أبي ، فقد كان أبي مريضاً .

ـ « أبوسعك أن تخرج به من البيت » .

قال تي بي : « هذا ما سأفعله » . وصعدت دلزي الدرج .

وقالت : « هس خذه إلى بيتنا يا تي بي ستهيئ له فروني فراشاً واعتنوا به جميعكم . اهدأ يا بنجي . اذهب مع تي بي » .

وراحت إلى حيث كنا نستطيع أن نسمع صوت أمي .

« الأفضل أن تبقوه هناك » . لم يكن المتكلم أبي وأغلق الباب ولكني كنت مأأزال أشم رائحتها .

ونزلنا السلّم وكان السلّم ينحدر إلى الظلام ، وأخذ تي بي بيدي ، وخرجنا من الباب ، من الظلام . ووجدنا دان جالساً في الحوش الخلفي وهو يولول .

قال تي بي : « لقد اشتم رائحتها . أهكذا اكتشفت أمرها ؟ » .

ونزلنا السلم ، حيث وجدنا ظلالنا .

وقال تي بي : « نسيت معطفك . كان ينبغي أن تلبسه . ولكنني لن أعود » .

وعاط دان .

فقا تي بي : « اسكت » . وتحركت ظلالنا ، إلا أن ظل دان لم يتحرك إلا ليولول كلما تحرك .

قال تي بي : «لا يمكنني أن آخذك إلى البيت وأنت تولول على هذا النحو . كان صوتك قبيحاً بما فيه الكفاية قبل أن يغدو كصوت الضفدع . هيا» .

مشينا الممشى القرميدي بطوله ، بصحبة ظلالنا . وكانت رائحة زريبة الخنازير كرائحة الخنازير نفسها . ووقفت البقرة في الحقل تنظر إلينا وهي تجتر . ودان يولول .

قال تي بي : «ستوقظ المدينة كلها . ألن تسكت ؟» .

ورأينا فانسي تأكل قرب الغدير . ولما بلغنا هناك سطع القمر على الماء . قال تي بي : «لا ، لا ، مولانا . هذا المكان قريب جداً ، لا نستطيع التريث هنا . هيا بنا . والآن ، انظر إلى حالك . لقد بللت ساقك كلها هيا هيا» . وكان دان يعيط .

وطلع الخندق من بين العشب الأغن . وبرزت العظام من بين الدوالي السوداء .

وقال تي بي : «والآن ولول واصرخ إلى أن تزهق روحك . أمامك الليل بطوله ومرعى بعشرين فداناً تولول فيهما» .

اضطجع تي بي في الخندق ، وجلست أنا أرقب العظام حيث راحت الصقور تأكل نانسي ، وهي ترفرف منطلقة من الخندق سوداء بطيئة ثقيلة .

قال لستر ، كانت معي عندما جئنا هنا من قبل وأريتك إياها . ألم ترها ؟ أخرجتها من جيبي هنا وأريتك إياها .

قالت كادي : «اتعتقد أن الصقور ستعري جدتي ؟ أنت مجنون» .

قال جاسن : «أنت بوالة» .

وشرع يبكي

قالت كادي :«أنت جحش» . وبكى جاسن ويداه في جيبيه .

قال فيرش : «جاسن سيصبح غنياً . إنه لا يني عن ادخار نقوده» .

وبكى جاسن .

قالت كادي : «أترى لقد أبكيته . هس ، جاسن . كيف تستطيع الصقور الدخول إلى حيث توجد جدتي . سيمنعها عنها بابا ، أتسمح أنت لصقر بتعريتك . اسكت» .

فسكت جاسن ، وقال : «قالت فروني إن تلك جنازة» .

فقالت كادي : «كذب إنها حفلة . فروني لا تعرف شيئاً عن ذلك يا تي بي ، إنه يريد يراعاتك فدعه يمسك بالزجاجة قليلاً» .

وناولني تي بي زجاجة الفراشات .

قالت كادي : «أراهنكم أننا لو ذهبنا إلى نافذة الصالون لرأينا شيئاً ما وحينئذ تصدقونني» .

قالت فروني : «أعرف ما الذي هناك . لا حاجة بي إلى أن أراه» .

قال فيرش : «خير لك أن تخرسي . يا فروني ستجلدك ماما» .

قالت كادي : «ما الأمر» .

قالت فروني : «الذي أعرفه أعرفه» .

قالت كادي : «هيا بنا لنذهب إلى مقدمة البيت» .

وبدأنا بالاتجاه نحوه .

وقالت فروني : «تي بي يريد يراعاته» .

فقالت كادي : «دعه يمسك بها فترة أخرى ، يا تي بي سنعيدها إليك» .

قالت فروني : «لم يمسكها أحد منكم» .

فقالت كادي : لو قلت أن بوسعكما أنت وتي بي المجيء معنا فهل تسمحان بإبقائها معه ؟»

قالت فروني : «وهل قال أحد أن علينا . أنا وتي بي أن نطيعك» .

قالت كادي : «وإذا قلت إنكما في حل من ذلك فهل تسمحان بإبقائها معه ؟» .

قالت فروني : «حسناً اتركها معه يا تي بي . ودعينا نذهب لنراهم يندبون» .

قالت كادي : «إنهم لا يندبون قلت لك إنها حفلة يا فيرش ، فكيف يندبون» .

قال فيرش : «مادمنا واقفين هنا . فلن نعرف الحقيقة» .

قالت كادي : «هيا بنا . فروني وتي بي في حل من أن يطيعاني أما الباقون فلا ، الأفضل أن تحمله يا فيرش . لقد بدأت الدنيا تظلم» .

فحملني فيرش وانعطفنا حول المطبخ .

عندما انعطفنا عند الزواية رأينا الأضواء تصعد الطريق وعاد تي بي إلى باب القبو وفتحه .

قال تي بي : أتعرف ما الذي هناك ، ماء الصودا . لقد رأيت السيد جاسن يصعد من هنا وكلتا يديه مليئة بها . انتظر هنا لحظة . وذهب تي بي وتطلع من باب المطبخ فقالت دلزي ، مالذي تتلصص عليه أين بنجي .

فقال : إنه في الخارج ، هنا .

قالت دلزي : اذهب واعتن به وابقه خارج المنزل .

فقال تي بي : نعم وأبعد ذلك الولد عن الأنظار حسبي ما لدي من شغل .

زحفت أفعى خارجة من تحت البيت وقال جاسن إنه لا يخاف الأفاعي وقالت كادي بل يخافها أما هي فلا تخافها وقال فيرش إنهما كليهما يخافان الأفاعي فقالت كادي أن لا تحدثوا ضجيجاً كما قال أبي .

قال تي بي لا حاجة بك إلى الشروع بالولولة .

أتريد شيئاً من هذا الشراب .

دغدغ الشراب أنفي وعيني .

وقال تي بي ، إن كنت لاتشربه فعلي به . حسناً هاكه . لنأخذ زجاجة أخرى مادام أحد ما لا يزعجنا . ولكن اهدأ يا بنجي .

وقفنا تحت الشجرة قرب نافذة الصالون وأنزلني فيرش عنه واضعاً إياي على العشب البليل . وكان الطقس بارداً والنوافذ تشع أضواء . وقالت

كادي : « إن أمي في تلك الغرفة وهي أبداً طريحة الفراش . وعندما تشفى سنذهب في سفرة معاً » .

قالت فروني : « ما أعرفه أعرفه » .

كانت الأشجار غنّاء ، وكذلك كان العشب .

قالت كادي : « والغرفة التالية هي الغرفة التي نمكث فيها إذ نمرض بالحصبة . أين تحصّبان أنت وتي بي ، يا فروني ؟ » .

قالت فروني : « نحصّب حيثما نكون » .

قالت كادي : « لم يبدأوا بعد » .

قال تي بي ، إنهم يتهيؤون للبدء . قف هنا ولاتتزحزح إلى أن احضر ذلك الصندوق لكي نستطيع أن نطال النافذة . لحظة لنكمل شرب هذا الشراب إنه يجعلني أشعر في داخلي كبوم الشقوق .

شربنا الشراب ودفع تي بي بالزجاجة من خلال المشبك إلى ما تحت البيت ، وذهب . كنت اسمعهم في الصالون وتشبّثت بالحائط بأصابعي المفتوحة . وجرَ تي بي الصندوق ، ووقع فأخذ يضحك . وبقي ملقى هناك يضحك ووجهه في العشب . ثم نهض وجرَ الصندوق إلى ماتحت النافذة ، محاولاً ألا يضحك .

قال تي بي : « أخشى أن أصيح . اصعدي أنت وانظري إن كانوا قد بدأوا » .

قالت كادي : « لم يبدأوا لأن الفرقة الموسيقية لم تأت بعد » .

قالت فروني : « ولكنهم لم يأتوا بفرقة موسيقية » .

قالت كادي : « وكيف عرفت ؟ » .

قالت فروني : « ما أعرفه أعرفه » .

قالت كادي : « أنت لاتعرفين شيئاً » . وذهبت إلى الشجرة وقالت : « ارفعني يا فيرش » .

قالت فروني : « ألم يُقل لك أبوك أن تبتعدي عن هذه الشجرة » .

قالت كادي : « كان ذلك من زمان . ولابد أنه قد نسي الموضوع ، وفضلاً عن ذلك ، لقد أمركم والدي بإطاعتي الليلة ، ألم يقل إن عليكم أن تطيعوني الليلة » .

قال جاسن : « لن أطيعك أنا . ولن يستمع إليك فروني وتي بي أيضاً » .

قال فيرش : « حسناً أنت التي ستجلدين لا أنا » . وذهب ورفع كادي بين أوراق الشجرة ، إلى أول فرع فيها . ونظرنا إلى مؤخر سروالها الملوث بالطين ثم لم نعد نستطيع رؤيتها . وسمعنا الشجرة تهسهس وهي تعلو وتنخفض .

وقال فيرش : « أنذرك السيد جاسن أنه سيجلدك إذا ما كسرت تلك الشجرة » .

فقال جاسن : « وسوف أشي بها أيضاً » .

ثم توقفت الشجرة عن الهسهسة والحركة . فنظرنا إلى الأغصان الساكنة .

وهمست فروني : « ما الذي ترين ؟ » .

رأيتهم . ثم رأيت كادي ، والزهور في شعرها ، في نقاب طويل كريح ساطعة . كادي كادي .

قال تي بي : « هس سيسمعونك . انزل بسرعة . » وسحبني . كادي . وتشبثتُ بالحائط بأصابعي المفتوحة . كادي . وسحبني تي بي » .

وقال : « هس . هس تعال هنا بسرعة » وجرني معه . كادي . صه ، يا بنجي أتريدهم أن يسمعوك ، هيا بنا . لنشرب المزيد من ذلك الشراب ثم نعود إلى هنا لو أنت سكتّ . لنذهب ونأخذ زجاجة أخرى وإلا عطنا كلانا ، بإمكاننا أن نقول إن دان هو الذي شربها . السيد كونتن يتباهى دائماً بشطارة كلبه ، وبإمكاننا أن نقول إنه كلب شراب أيضاً » .

هبط ضوء القمر على درجات القبو . وشربنا المزيد من الشراب .

قال تي بي : « أتعرف ما الذي أتمناه ؟ أتمنى لو يدخل دب باب القبو هذا . أتعرف ما أنا فاعل حينذاك ؟ سأذهب إليه وأقابله وأبصق في عينيه .

ناولني تلك الزجاجة لأسد فمي قبل أن أعيط » .

وسقط تي بي وأخذ يضحك ، وقفز باب القبو وضوء القمر مبتعدين عني وضربني شيء ما .

قال تي بي محاولاً ألا يضحك : «اسكت يا الله سيسمعوننا ، انهض انهض يا بنجي . أسرع » . وراح يخبط ويقهقه وحاولت أن انهض وصعدتْ الدرجاتُ التل ركضاً في ضوء القمر وسقط تي بي على التل في وسط ضوء القمر ، وجريت إزاء السياج وجرى تي بي ورائي وهو يقول : «اسكت اسكت » ثم سقط بين الزهور مقهقهاً وركضت وارتطمت بالصندوق ولكن عندما حاولت التسلق عليه تقلقل من تحتي فوقعت وأصيب رأسي من الخلف وأحدثت حنجرتي صوتاً ثم أحدثت الصوت ثانية وأقلعت عن محاولة النهوض ، وأحدثت الصوت مرة أخرى فشرعتُ بالبكاء . غير أن حنجرتي ظلت تحدث الصوت وما عدت أعرف أأنا أبكي أم لا ، وسقط تي بي عليَ مقهقهاً ، وظلت حنجرتي تحدث الصوت وركل كونتن تي بي وضمتني كادي بذراعيها ونقابها الساطع ، وما عدت أشم الأشجار وشرعت بالبكاء .

قالت كادي ، بنجي بنجي ، وضمتني بذراعيها من جديد ولكنني ابتعدت عنها . وقالت : « ما بك يا بنجي أهي هذه القبعة التي تزعجك ؟ » . ونزعت قبعتها وجاءت إليَ ثانية ، وابتعدت عنها .

وقالت : «بنجي ما الأمر ، ما االذي فعلته كادي» .

قال جاسن : « إنه لا يحب فستانك هذا الذي تتغاوين به . تحسبين أنك قد كبرت ، أليس كذلك ، وتحسبين أنك أفضل الناس جميعاً ، أليس كذلك . متغاوية » .

قالت كادي : «سدّ فمك أيها الوحش الصغير القذر . بنجي» .

قال جاسن : «ألأنك الآن في الرابعة عشرة تحسبين أنك قد كبرت . أليس كذلك . تحسبين نفسك شيئاً . أليس كذلك ؟ » .

قالت كادي : «هسْ ، يا بنجي ستزعج أمي » .

غير أنني لم أسكت ، وعندما ذهبت عني تبعتها ، ووقفت على الدرج وانتظرت . فوقفت أنا أيضاً .

فقالت كادي : « ما الأمر ، يا بنجي . قل لكادي ماذا تريد ، فتفعله . حاول » .

وقالت أمي : « كاندس » .

قالت كادي : « نعم ماما » .

قالت أمي : « لماذا تشاكسينه . أحضريه إلى هنا » .

وذهبنا إلى غرفة أمي حيث وجدناها تستلقي والمرض على فراش واحد وقد وضعت خرقة على رأسها .

قالت أمي : « ماذا بك يا بنجامين ؟ » .

قالت كادي : « بنجي » وجاءت مرة أخرى ، ولكنني ابتعدت .

فقالت أمي : « لابد أنك أصبته بأذى . لماذا لا تتركينه وشأنه ، فأنعم بشيء من الراحة . أعطيه الصندوق ثم أرجوك أن تذهبي وتتركيه وشأنه » .

وجلبت كادي الصندوق ووضعته على الأرض وفتحته . وإذا هو مليء بالنجوم ، إذا سكنتُ سكنتْ ، وإذا تحركتُ لمعتْ وشعشعتْ . وسكتُّ .

ثم سمعت كادي تمشي ، فبدأت من جديد .

فقالت أمي : « بنجامين . تعال هنا » . ولكنني مشيت نحو الباب .

فقالت أمي : « أنت يا بنجامين » .

قال أبي : « والآن ما الأمر أين ذاهب أنت ؟ » .

قالت أمي : « خذه إلى أسفل واعهد إلى أحد بالاعتناء به ، يا جاسن ألا تعلم أنني مريضة ومع ذلك فإنك... » .

وأغلق أبي الباب وراءنا .

نادى أبي : « تي بي » .

فرد تي بي من أسفل الدرج : « سيدي » .

قال أبي : « سيأتي بنجي إليك اذهب مع تي بي » .

وذهبت إلى باب الحمام وسمعت الماء .

صاح تي بي من أسفل الدرج : « بنجي »

سمعت الماء فجعلت أصغي إليه .

صاح تي بي من أسفل الدرج : « بنجي » .

وأصغيت إلى الماء .

ولم أستطع سماع الماء ، وفتحت كادي الباب .

وقالت : « يا بنجي » . ونظرت إليَّ ومشيت وضمتني بذراعيها .

وقالت : « أوجدت كادي ثانية أظننت أن كادي قد هربت ؟ » .

كانت رائحة كادي كالشجر .

ذهبنا إلى غرفة كادي ، وجلست هي أمام المرآة ثم أوقفت يديها ونظرت إليَّ .

وقالت : « ما الذي دهاك يا بنجي . بالله لاتبكِ . لن تذهب كادي . انظر إلى هذه » . ورفعت الزجاجة وفتحت سدادتها وأدنتها من أنفي . « طيبة . شم . زكية » .

ابتعدت عنها ولم أكف ، وأمسكت الزجاجة بيدها وهي تنظر إليَّ .

ثم وضعت الزجاجة وجاءت إلي وضمتني بذراعيها وقالت : « آه . أهذا إذن ما تريد . كنت تحاول أن تقولها لكادي ، ولم تستطع أن تقولها . أردت أن تقولها ، ولكنك لم تستطع ، أليس كذلك . طبعاً لن تفعلها كادي . طبعاً لن تفعلها كادي انتظر ريثما أرتدي ملابسي » .

وارتدت كادي ملابسها وأخذت الزجاجة ونزلنا معاً إلى المطبخ .

قالت كادي : « دلزي لقد جاءك بنجي بهدية » . وانحنت ووضعت الزجاجة في يدي . « ناولها لدلزي » وأمسكت كادي بيدي ومدتها وأخذت دلزي الزجاجة .

وقالت دلزي : « بارك الله فيك ، يا طفلي المحبوب . اتعطي دلزي زجاجة عطر . انظر يا رسْكوس ، انظر » .

كانت رائحة كادي كالشجر .

قالت دلزي : « بس ، بس ، لقد كبرت ولا يليق بك أن تنام مع الآخرين أنت ولد كبير الآن . عمرك ثلاث عشرة سنة . ففي سنك يجب أن تنام وحدك في غرفة خالك موري » .

كان خالي موري مريضاً عينه مريضة ، وفمه ، وكان فيرش يحمل إليه عشاءه على طبق .

قال أبي : « يقول موري إنه سيرمي هذا النذل بالرصاص . وقلت له من الأفضل ألا يذكر الأمر لباترسن مقدماً » . وراح يشرب .

قالت أمي : « جاسن » .

قال كونتن : « يرمي من ، يا أبي ، ولماذا يرميه خالي موري بالرصاص » .

قال أبي : « لأنه لم يستطع أن يتحمل نكتة صغيرة » .

قالت أمي : « جاسن كيف يهون عليك ذلك ، إنك والله لتستطيع أن تجلس في كرسيك وترى موري وهم يقتلونه بالرصاص في كمين ، وتضحك » .

قال أبي : « إذن خير لموري أن يبتعد عن الكمين » .

قال كونتن : « يرمي من ، بابا . من هو الذي يريد خالي أن يرميه » .

قال أبي : « لا أحد فأنا لا مسدس لديّ »

وأخذت أمي تبكي : « إذا كنت تستكثر على موري طعامك الذي يأكله . فلم لا تبدي رجولتك وتذكر له ذلك وجهاً لوجه ، أما أن تسخر منه أمام الأطفال ، وراء ظهره » .

قال أبي : « أنا لا أسخر منه ، طبعاً إني معجب بموري ، وهو عزيز عليّ من حيث حسّي بالسمو العنصري وما كنت لأستبدل موري بثوري حراثة أوَتعلم لماذا يا كونتن ؟ » .

قال كونتن : « لا يا أبي » .

قال أبي : « **Et ego in arcadia** ، لقد نسيت اللفظة اللاتينية بمعنى

« تبن » . لا . لا . إنني أمزح » . وجرع ثم وضع الكأس وذهب ووضع يده على كتف أمي .

قالت أمي : « ليس في الأمر نكتة فأهلي لا يقلون عن أهلك محتداً وشرفَ نسب . ولكن لمجرد أن موري عليل الجسم » .

فقال أبي : « بالطبع أن السقم هو السبب الأول للحياة . يخلقها المرض ، في العفن والفساد ، ليدفع بها إلى التفسخ والإنحلال . فيرش » .

قال فيرش من وراء مقعدي : « سيدي » .

-« خذ القارورة واملأها » .

قالت أمي : « وقل لدلزي أن تعالي وأصعدي بنجامين إلى فراشه » .

قالت دلزي : « أنت ولد كبير . ولقد سئمت كادي النوم معك . والآن اسكت لكي تنام » . ابتعدت الغرفة ولكنني لم أسكت وعادت الغرفة وأتت دلزي وجلست على الفراش وهي تنظر إليّ .

قالت دلزي : « ألن تكون ولداً عاقلاً فتسكت ، ها . لا ، لن تكون . إذن أتستطيع أن تنتظر لحظة » .

وذهبت . لم يكن في الباب شيء . وإذاً فيه كادي .

قالت كادي : « صه . ها قد جئت » .

فسكت وقلبت دلزي غطاء الفراش واندست كادي بين الغطاء والبطانية ولم تنزع عنها « الروب » .

وقالت : « والآن ها أنذا هنا » . وجاءت دلزي ببطانية نشرتها عليها وأدخلت حوافها تحت الفراش .

وقالت دلزي : « سينام في لحظة . لن أطفئ النور في غرفتك » .

قالت كادي : « حسناً » ووضعت رأسها لصق رأسي على المخدة ثم قالت : « تصبحين على خير يا دلزي » .

قالت دلزي : « تصبحين على خير ، ياحبيبتي » . واسودت الغرفة وكانت رائحة كادي كالشجَر .

رفعنا أنظارنا إلى الشجرة حيث كانت كادي .

فهمست فروني : «ما الذي تراه ، يا فيرش» .

قالت كادي وهي على الشجرة ش ش ش وقالت دلزي : «تعالوا هنا» وجاءت من حول منعطف البيت . «لماذا لم تصعدوا إلى فوق ، كما قال أبوكم ، بدلاً من التسلل إلى الخارج من وراء ظهري . أين كادي وكونتن» .

قال جاسن : قلت لها ألا تتسلق تلك الشجرة . سأشي بها والله» .

قالت دلزي : «من على الشجرة . أية شجرة» . وجاءت ورفعت بصرها إلى الشجرة ، ونادت : « كادي» . فجعلت أغصان الشجرة تضطرب من جديد .

قالت دلزي : «أنت يا شيطانة . انزلي من هناك» .

قالت كادي : «هس ، ألا تعلمين أن أبي أمرنا بالهدوء» .

وتدلت ساقاها أمام أعيننا ورفعت دلزي يديها وحملتها من على الشجرة .

قالت دلزي : «أما عندك عقل ، فتسمح لهم بالمجيء إلى هنا» .

ورد فيرش : «ما قدرتُ عليها» .

قالت دلزي : «ما الذي تفعلونه هنا . من طلب منكم أن تأتوا إلى البيت» .

قالت فروني : «هي التي طلبت إلينا» .

قالت دلزي : «ومن قال أن عليكم أن تطيعوها . هيا إلى البيت» .

فذهب فروني وتي بي . وعجزنا عن رؤيتهما وهما يبتعدان .

قالت دلزي : «أهنا في هذا العزاء وفي منتصف الليل» . وحملتني وذهبنا إلى المطبخ .

قالت دلزي : «تتسللون من وراء ظهري ، وأنتم تعلمون أن أوان نومكم قد فات» .

قالت كادي : «ش ش ش يا دلزي ، لا ترفعي صوتك علينا بالهدوء» .

قالت دلزي : « إذاً سدي فمك أنت واهدأي . أين كونتن » .

قالت كادي : « لقد غضب كونتن لأن طاعتي فرضت عليه فرضاً هذه الليلة . وهو لم يرجع بعد زجاجة اليراعات إلى تي بي » .

قالت دلزي : « أتصور أن تي بي يستطيع الحياة بدونها . فيرش اذهب وابحث عن كونتن لقد قال رسكوس أنه رآه ذاهباً في اتجاه العنبر » . وذهب فيرش ولم نعد نراه .

قالت كادي : « أنهم لا يفعلون شيئاً هناك مجرد جلوس على الكراسي وينظرون لا أكثر ولا أقل » .

قالت دلزي : « وهم ليسوا بحاجة إلى معونة منكم ليفعلوا ذلك » .

ومشينا حول المطبخ .

قال لستر أين تريد الذهاب . اتريد أن تعود لتتفرج عليهم وهم يضربون الكرة مرة أخرى . لقد انتهينا من البحث عنها هنا . اسمع . انتظر دقيقة ، انتظر هنا ريثما اعود وأجلب تلك الكرة . لقد خطرت ببالي فكرة .

كان المطبخ مظلماً . وكانت الأشجار سوداء على السماء . وجاء دان يخبط خبطاً من تحت الدرج وجعل يمضغ كاحلي . ومشيت حول المطبخ . حيث كان القمر . وجاء دان وهو يخبط ودخل في القمر .

وقال تي بي في المنزل : « بنجي » .

لم تكن شجرة الورد قرب نافذة الصالون مظلمة ، غير أن الأشجار الكثيفة كانت مظلمة . وكان العشب يئز في ضوء القمر حيث راح ظلي يمشي على العشب .

قال تي بي في المنزل : « أنت يا بنجي . أين اختفيت ، تريد التسلل . أنا عارف » .

عاد لستر وقال انتظر . اسمع . لا تذهب هناك . الآنسة كونتن وحبيبها هناك في الأرجوحة . تعال وامش من هذه الناحية . تعال هنا يابنجي .

كان ماتحت الأشجار مظلماً ورفض دان المجيء ، وبقي في ضوء القمر ثم رأيت الأرجوحة وشرعت بالبكاء .

قال لستر ، لا تقترب من هناك ، يا بنجي ألا تعلم أن الآنسة كونتن ستغضب عليك ؟ .

كان في الأرجوحة اثنان ، ثم واحد . وجاءت كادي تهرول ، بيضاء في الظلام .

وقالت : « كيف خرجت خفية . أين فيرش ؟ » .

واحاطتني بذراعيها وسكتُّ وتشبثتُ بفستانها وحاولت أن اسحبها بعيداً .

قالت كادي : « ما الذي تريده يا بنجي ؟ » . ثم صاحت « تي بي » .

فنهض الشخص في الأرجوحة وتقدم منا . وبكيت وشددت ثوب كادي .

قالت كادي : « بنجي . ما هذا إلا شارلي . ألا تعرف شارلي » .

قال شارلي : « أين عبده الأسود . لماذا يدعونه يسرح طليقاً » .

قالت كادي : « صه ، بنجي ، انصرف يا شارلي ، إنه لا يحبك . »
وانصرف شارلي ، وسكتّ ، وسحبت فستان كادي .

قالت كادي : « بنجي ، يا بنجي ، ألن تدعني أبقى هنا فترة للتحدث إلى شارلي ؟ » .

قال شارلي : « نادي ذلك العبد الأسود » .

ثم عاد . فاشتد بكائي وسحبت فستان كادي .

قالت كادي : « انصرف ياشارلي » . فجاء شارلي ووضع يديه على كادي ، فزاد بكائي وجعلت أعيط .

قالت كادي : « لا ، لا ، لا ، لا » .

قال شارلي : « إنه لا يستطيع الكلام يا كادي » .

قالت كادي : « أجننت » وأخذت تتنفس بسرعة « ولكنه يبصر لا ، لا ،

لا » . وجعلت كادي تكافح . وكلاهما يتنفسان بسرعة . « أرجوك ، أرجوك » همست كادي .

قال شارلي : « اصرفيه » .

قالت كادي : « سأصرفه خلّني » .

قال شارلي : « ألن تصرفيه ؟ » .

قالت كادي : « بلى خلّني » . وذهب شارلي ، وقالت كادي : « كفى لقد ذهب » . فسكتُّ وصار في بوسعي أن اسمعها وأحس نبض صدرها .

وقالت : « يجب أن آخذه إلى البيت » . وأخذت بيدي ثم همست : « إني قادمة » .

قال شارلي : « انتظري . نادي الزنجي » .

قالت كادي : « لا ، سأعود ، هيا بنا يابنجي » .

فهمس شارلي بصوت عال : « كادي » ومشينا « الأفضل لك أن تعودي . أتعودين » . وجلعنا أنا وكادي نركض وصاح شارلي« كادي » وركضنا إلى ضوء القمر ، في اتجاه المطبخ .

ونادى شارلي : « كادي » .

وبقينا أنا وكادي نركض ، وصعدنا ركضاً درجات المطبخ إلى الشرفة ، وركعت كادي في الظلام وأمسكت بي . وجعلت اسمع وأحس صدرها . وقالت : «لن أفعلها ثانية ، أبداً بنجي ، بنجي » .

وأخذت تبكي ، فبكيت ، وتعانقنا . وقالت : « هس ، لن أفعلها ثانية . » فسكتّ ، ونهضت كادي ودخلنا المطبخ وأشعلنا الضوء وتناولت كادي صابونة المطبخ وغسلت فمها عند المغسلة غسلاً عنيفاً . وكانت رائحة كادي كالشجر .

قال لستر قلت لك وأعدت القول ان ابتعد عن ذلك المكان . وجلسا منتصبين في الأرجوحة ، بسرعة ، وقد وضعت كونتن يدها على شعرها ، وكان رباطه أحمر .

وقالت كونتن . ياأبله يامعتوه ، والله سأخبر دلزي بأنك تدعه يتبعني أينا ذهبت . وسأجعلها تجلدك جلدة لا تنساها عمرك كله .

قال لستر : «لم استطع ايقافه هيا بنا . يا بنجي» .

قالت كونتن : «تستطيع ذلك طبعاًولكنك لم تحاول . لأنكما تتعقباني . هل ارسلتكما جدتي لكي تتجسسا عليّ» . وقفزت من على الأرجوحة .

«إذا لم تأخذه هذه اللحظة وتبقه بعيداً عني فسأجعل جاسن يجلدك» .

قال لستر : « أنا لاأقدر عليه حاول أنت أن ترغميه إن كنت تظنين أنك تستطيعين» .

قالت كونتن : «اخرس ألن تصرفه ؟»

قال : «آه ، دعيه يبقى» وكان رباطه أحمر والشمس حمراء عليه . «عينك عليّ يارجل» . وأشعل عود كبريت ووضعه في فمه . ثم أخرجه من فمه وهو مازال يشتغل وقال : أتريد أن تجرب» . فدنوت منه . وقال : «افتح فمك» ففتحت فمي ولكن كونتن ضربت عود الكبريت بيدها ، فسقط .

قالت كونتن : «لعنك الله . أتريد له أن يبكي ، ألا تعلم أنه سيظل يولول طيلة النهار . سأخبر دلزي عنك» . وراحت تركض .

فقال : «اسمعي ، يا فتاة . اسمعي . ارجعي . لن أداعبه» .

وركضت كونتن حتى بلغت البيت ودارت حول المطبخ .

وقال : «إذن ، أفسدت الأمور ، يارجل» .

فقال لستر : «إنه لا يفهم ما تقول . فهو أصم وأبكم» .

قال : «صحيح . منذ متى» .

قال لستر : «منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ، لقد ولد في مثل هذا اليوم لقد ولد معتوهاً . هل أنت أحد أعضاء جماعة السيرك» .

- «لماذا» .

- «لأني لا أتذكر أنني رأيتك في هذه الأماكن من قبل» .

ـ « حسناً وماذا تريد ؟ » .

ـ « لا شيء . سأذهب إلى السيرك هذه الليلة » .

نظر إليَّ .

وقال لستر : « هل أنت الرجل الذي يعزف نغماً على المنشار » .

ـ « ستكلفك معرفة الجواب ربع دولار » . قال ذلك ثم نظر إليَّ . « لماذا لايسجنونه في غرفة ما . لماذا جئت به إلى هنا » .

قال لستر : « ليس ذلك من شأني أنا لا أقوى عليه . كل ماهنالك هو أنني جئت إلى هنا ابحث عن ربع فقدته ، لكي استطيع الذهاب إلى السيرك الليلة . ولكن يظهر الآن أنني لن أنجح في الذهاب » .

جعل لستر يتأمل الأرض ، ثم قال : « أليس لديك ربع زائد ؟ » .

قال : « كلا ليس لديَّ ربع زائد » .

قال لستر : « إذن لابد لي من أن أجد الربع الآخر » . ووضع يده في جيبه ، وقال : « أولا تريد أن تشتري كرة غولف » .

ـ « كرة ماذا ؟ »

قال لستر : « كرة غولف ، ولا أريد لقاءها إلا ربعاً » .

ـ « ما الفائدة منها . ما الذي أفعله بها ؟ » .

قال : « حسبت أنها تفيدك . تعال هنا يارأس البغل . تعال هنا وتفرج عليهم وهم يضربون تلك الكرة . هاك ، شيئاً تلعب به بالإضافة إلى زهرة « الجمسن » تلك » . والتقطها لستر وأعطاني إياها . وكانت براقة .

ـ « من أين حصلت عليها ؟ » قال ذلك ، وهو يمشي ورباطه يبدو أحمر في ضوء الشمس .

قال لستر : « وجدتها تحت هذه الشجيرة . فظننت لبرهة أنها الربع الذي فقدته » .

وجاء وأخذها .

قال لستر : « هس ، سيعيدها عندما يفرغ من النظر إليها » .

ـ « أغنس مابل بكي » . قال ذلك وتطلع إلى البيت .

قال لستر : « هس ، إنه ينوي إعادتها » .

وأعطاني إياها فسكتُّ .

ـ : من جاء لرؤيتها الليلة الماضية .

قال لستر : « لا أدري إنهم يأتون كل ليلة . وهي تستطيع النزول من على تلك الشجرة وأنا لا أتعقب آثارهم » .

ـ « أقسم أن أحدهم قد خلف أثراً وراءه » . قال ذلك ونظر إلى البيت . ثم ذهب واضطجع على الأرجوحة ، وقال : « انصرف لا تزعجني » .

قال لستر : « تعال هنا . يكفيك ما سببت من فوضى . لابد أن الآنسة كونتن قد انتهت من الوشاية بك » .

وذهبنا إلى السياج ونظرنا من خلال فسحات الزهور المتثنية ، وراح لستر يبحث في العشب .

وقال : « كان معي وأنا واقف هنا » . ورأيت العلم يرفرف والشمس تنحدر على العشب الفسيح .

وقال لستر : « سيأتي الآخرون عما قريب . هناك الآن جماعة . ولكنها ذاهبة . تعال وساعدني في البحث عنه » .

وجعلنا نمشي بمحاذاة السياج .

قال لستر : « هس ، كيف أجعلهم يأتون إلى هذه الناحية ، وهم لا يأتون انتظر ، سيأتي بعضهم بعد لحظات . أنظر هناك أترى ؟ إنهم قادمون » .

ومشيت بمحاذاة السياج إلى البوابة ، حيث كانت الفتيات يمررن حاملات حقائب كتبهن . « اسمع يا بنجي » قال لستر « عد إلى هنا » .

ما الفائدة من تطلعك خلال البوابة ، قال تي بي ، لقد رحلت كادي وابتعدت في رحيلها تزوجت وغادرتك . ما الذي ترجوه من التشبث بالبوابة والبكاء والعويل . إنها لا تستطيع أن تسمعك .

وقالت أمي . ما الذي يريده يا تي بي ، ألا تستطيع أن تلاعبه وتهدئه .

فقال تي بي . يريد أن ينزل إلى هناك لينظر من خلال البوابة .

قالت أمي : لن اسمح له ، الدنيا ماطرة ، وعليك أن تلاعبه وتهدئه.. أنت يا بنجامين .

قال تي بي : لن يهدئه شيء فهو يظن أنه إذا نزل إلى البوابة عادت كادي إليه .

كلام فارغ قالت أمي .

سمعتهم يتحدثون . وخرجت من الباب فما عدت أسمعهم . ونزلت إلى البوابة ، حيث كانت الفتيات يمررن حاملات حقائب كتبهن ، كن ينظرن إلي مسرعات في سيرهن ، ورؤوسهن تستدير نحوي . وحاولت أن أقول غير أنهن تابعن السير ، وسرت بمحاذاة السياج محاولاً أن أقول ، فزدن من سرعتهن ثم جعلن يركضن وبلغت زاوية السياج ولم يكن لي مجال للمزيد من السير ، وتشبثت بالسياج ، متطلعاً وراءهن ومحاولاً أن أقول .

قال تي بي : «أنت يا بنجي . ما الذي تفعله بعد أن خرجت متسللاً . ألا تعلم أن دلزي ستجلدك ؟» .

قال تي بي : «ما الذي ترجوه من عويلك ونشيجك من خلال السياج ؟ لقد أفزعت أولئك الفتيات انظر إليهن . وهن يمشين على الجانب الآخر من الشارع»

قال أبي : «كيف خرج ؟ هل تركت البوابة دون إزلاج عندما دخلت يا جاسن ؟» .

قال جاسن : طبعاً لا . ألا تعلم أنني أعقل من أن أفعل ذلك

أتحسب أنني كنت أريد وقوع شيء كهذا . الله يعلم أن في هذه الأسرة من السوء ما يكفيها . وقد كان بوسعي أن أقولها لك طيلة الوقت . يخيل إلي أنك سترسله الآن إلى جاكسن . إلا إذا سبقتك المسز بيرجس بإطلاق النار عليه .

قال أبي : اسكت .

وقال جاسن : كان بوسعي أن أقولها لك طيلة الوقت .

كان الباب مفتوحاً عندما لمسته ، فأمسكت به في الأصيل . لم أكن أبكي وحاولت أن أكف ، وأنا أرقب الفتيات قادمات في الأصيل . لم أكن أبكي .

ـ « ها هو » .

ووقفن .

ـ « إنه لا يستطيع الخروج ، وهو على كل لن يوذي أحداً هيا » .

ـ « أنا خائفة خائفة سأقطع الشارع » .

ـ « إنه لا يستطع الخروج » .

لم أكن أبكي .

ـ « لا تكوني قطة خوافة امشي » .

وتقدمن في الأصيل لم أكن أبكي وأمسكت بالبوابة وتقدمن ببطء .

ـ « أنا خائفة» .

ـ «لن يؤذيك . إني أمر بهذا المكان كل يوم كل ما هنالك أنه يركض بمحاذاة السياج » .

وتقدمن وفتحت الباب ، فتوقفن واستدرن . كنت أحاول أن أقول شيئاً ، وأمسكت بها محاولاً أن أقوله ، فزعقت وأنا أحاول أن أقول وأحاول وجعلت الأشكال البراقة تتوقف وحاولت أن أخرج ، وحاولت أن أزيلها عن وجهي ، غير أن الأشياء البراقة تتحرك من جديد ، وترقى التل حيث وقعت عني ، وحاولت أن أبكي ولكنني عندما شهقت لم استطع أن أزفر ثانية لأبكي وحاولت ألا اقع من التل ووقعت من على التل في وسط الأشكال البراقة الدوامة .

قال لستر ، أترى يا معتوه . هاهي ذي جماعة قادمة فكف عن النشيج والأنين .

اقبلو صوب العلم ، فحمله بعيداً ، وضربت الجماعة اللاعبة ضربتها ، ثم وضع العلم مكانه .

قال لستر : « يا سيد » .

فالتفت أحد الجماعة وقال : « نعم » .

ـ « أتشتري كرة غولف ؟ » .

ـ « دعني أراها » . قال ذلك وأقبل نحو السياج ومد لستر له الكرة في يده خلال السياج .

فقال : « من أين لك هذه » .

قال لستر : « وجدتها »

قال : « أعلم ذلك ولكن أين . أفي كيس الغولف الذي يخص أحدهم ؟ » .

قال لستر : « وجدتها هنا في فناء الدار . أعطيك إياها بربع » .

قال : « وما الذي يجعلك تظن أنها كرتك ؟ » .

قال لستر : « لأنني وجدتها » .

قال : « إذن ابحث لك عن أخرى » . ووضعها في جيبه ومشى .

قال لستر : « لابد لي من أن أذهب إلى السيرك الليلة » .

قال : « صحيح » وذهب إلى المستوى وقال : « إليّ يا كادي » . وضرب .

وقال لستر : « أنت والله مشكلة . تولول عندما لا تراهم وتولول عندما تراهم . لماذا لا تسكت ؟ . ألا تحسب أن الناس يملون الإصغاء إليك طيلة الوقت . هاك . لقد أسقطت زهرة الجمسن » . التقطها وناولني إياها . « أنت بحاجة إلى زهرة جديدة فهذه قد استهلكت » . ووقفنا عند السياج نرقبهم .

قال لستر : « ذلك الرجل الأبيض صعب المعشر ، أرأيته يأخذ كرتي » . وتحركوا فتحركنا بمحاذاة السياج وبلغنا الحديقة ولم يبق لنا مجال للمزيد . فأمسكت بالسياج وتطلعت من بين فسحات الزهور . وانصرفوا .

قال لستر : «لا عذر لك في البكاء الآن .اسكت . فأنا الذي لدي ما أبكي عليه ، لا أنت . اسمع لماذا لا تمسك بهذه الزهرة ، وإلا رحت تولول من أجلها بعد لحظة» . وناولني الزهرة .«أين ذاهب أنت الان ؟»

كان ظلانا على العشب وقد أدركا الأشجار قبلنا ، وكان ظلي الأسبق إليها ثم وصلنا نحن إليها وإذا ظلانا قد اختفيا ، كان في الزجاجة زهرة فوضعت الزهرة فيها .

وقال لستر : «ألست رجلاً بالغاً وتلعب بزهرتين في زجاجة . أتعلم ما الذي سيفعلونه بك عندما تموت السيدة كارولاين سيرسلونك إلى جاكسن حيث ينبغي أن تكون . هذا ما يقوله المستر جاسن . حيث تمسك بالقضبان ليل نهار مع بقية المجانين وتبكي ويسيل لعابك على هواك ، أيروق لك ذلك ؟» .

ثم قذف لستر بالزهرتين بيده وقال : «هذا ما سيفعلونه بك كلما بدأت بالعياط» .

فحاولت أن التقط الزهرتين ولكن لستر التقطهما وابتعدتا عني فجعلت أبكي .

قال لستر : «عط ، عط أتريد ما تعيط من أجله ؟ . طيب . إذن خذها» . وهمس : «كادي . كادي ، عط ، هلم عط . كادي» .

نادت دلزي من المطبخ : «لستر» .

وعادت الزهرتان .

قال لستر : «صه هاك الزهرتين انظر ها هما في مكانهما كما من قبل والآن اسكت» .

قالت دلزي : «أنت يا لستر» .

قال لستر : «نعم . نحن قادمان . خربطت الدنيا . انهض» .

وشدني من ذراعي فنهضت وخرجنا من بين الشجر واختفى ظلانا .

قال لستر : «هس انظر إلى هؤلاء الناس كلهم وهم يرقبونك . هس» .

قالت دلزي : « تعال به هنا » . ونزلت الدرج .
وقالت : « ما الذي فعلت به ؟ » .
قال لستر : « لا شيء، فجأة بدأ يعيط » .
قالت دلزي : « كذاب . لقد فعلت به شيئاً . أين كنتما ؟ » .
قال لستر : « هناك تحت أشجار الأرز » .
قالت دلزي : « وأغضبت كونتن أيضاً . لماذا لا تبقيه بعيداً عنها ؟ ألا تعرف أنها لا تريد أن تراه في كل مكان تذهب إليه » .
قال لستر : « لديها قدر مالدي من وقت للعناية به ، أخالي هو أم خالها ؟ » .
قالت دلزي : « لا تجادلني ، يا عبداً أسود » .
قال لستر : « ما فعلت به شيئاً والله . كان يلعب هناك ، وإذا هو فجأة يصيح ويعيط » .
قالت دلزي : « هل كنت تعبث بمقبرته ؟ » .
قال لستر : « والله ما وضعت يدي على مقبرته » .
ـ « لا تكذب عليّ ، يا ولد » . وصعدنا الدرج إلى المطبخ . وفتحت دلزي باب الموقد وجرّت لي كرسياً فجلست عليه ،وأمسكت عن البكاء .
قالت دلزي ، لماذا أثرتها ؟ لماذا لم تبقه بعيداً عن ذلك المكان ؟ .
كان يتأمل النار ، لا أكثر ولا أقل ، قالت كادي ، وكانت أمي تذكر له اسمه الجديد ، لم نقصد قط أن نثيرها .
قالت دلزي ، صدقت ولكن هو في طرف البيت وهي في الطرف الآخر . دعي اغراضي وشأنها ولاتلمسي شيئاً إلى أن أعود .
قالت دلزي : « ألا تخجل من نفسك ، فتكايده » . ووضعت الكعكة على المائدة .
قال لستر : « أنا لم أكايده . كان يلعب بتلك الزجاجة الملأى بالأعشاب وفجأة بدأ بالعياط ، وقد سمعته أنت » .

سألت دلزي : «ألم تفعل شيئاً بزهوره ؟» .

قال لستر : «لم أضع يدي على مقبرته . ما لي ولألاعيبه . كل ماهناك هو أنني كنت أبحث عن ذلك الربع» .

قالت دلزي : «فقدته ، أليس كذلك ؟»

وأشعلت الشموع المغروسة في الكعكة .وكان بعضها صغيراً وبعضها كبيراً مجزأ أجزاء صغيرة . «قلت لك اذهب وخبئه . والآن اتصور أنك تريدني أن احصل لك على ربع آخر من فروني ؟» .

قال لستر : «لابد لي من الذهاب إلى السيرك ، وجد بنجي أم لم يوجد . إني أرفض أن أتعقبه طيلة النهار ثم طيلة الليل أيضاً» .

- «ستفعل كل ما يشاء هو أن تفعل ، يا عبداً أسود» .

قال لستر : «ألا أفعل ذلك دائماً ؟ الست دائماً أفعل مايشاء . ألست ، يا بنجي ؟» .

قالت دلزي : «اذن استمر في ذلك . كيف تأتي به هنا وهو يبكي ، وتثيرها هي أيضاً . تعالوا وكلوا هذه الكعكة قبل أن يأتي جاسن . فأنا لا أريد له أن يثب عليّ من أجل كعكة اشتريتها بنقودي ، وأنا اصنع الكعكة هنا ، وهو يحصي عليّ كل بيضة تدخل هذا المطبخ . دعه وشأنه الآن ، إلا إذا كنت لاتريد الذهاب إلى السيرك الليلة» .

وذهبت دلزي .

قال لستر : «أنت لا تستطيع أن تطفئ الشموع . انظر إليّ وأنا اطفئها» . وانحنى ونفخ خديه . وراحت الشموع . وشرعت بالبكاء .

فقال لستر : «هس . انظر الى النار ريثما أقطع الكعكة» .

جعلت أسمع الساعة ، وأسمع كادي واقفة خلفي ، وأسمع السقف . السماء مازالت تمطر . قالت كادي أكره المطر . أكره كل شيء . ثم استقر رأسها في حضني وإذا هي تبكي وقد امسكت بي . فجعلت ابكي ثم نظرت إلى النار ثانية وتحركت الأشكال الناعمة البراقة ثانية وأنا اسمع الساعة والسقف وكادي .

أكلت بعض الكعك . وجاءت يد لستر أخذت قطعة أخرى . وجعلت اسمعه يأكل . ونظرت إلى النار .

سلك طويل وقع على عرض كتفي . ذهب إلى الباب . وبعد ذلك اختفت النار . وبدأت بالبكاء .

قال لستر : «والآن علام العياط . انظر هناك» . كانت النار هناك . فسكتُ . فعاد يقول : «ألا تستطيع الجلوس والتأمل في النار هادئاً صامتاً كما أوصتك أمك ، ألا تخجل من نفسك ؟ . هاك قطعة أخرى من الكعك» .

قالت دلزي : «ما الذي فعلت له الآن ؟ أما تستطيع أن تتركه وشأنه أبداً ؟» .

قال لستر : «إنما كنت أحاول أن اسكته لكي لا يزعج السيدة كارولاين . ولكن شيئاً ما جعله يبكي من جديد» .

قالت دلزي : «وأنا أعرف ما هو اسم ذلك الشيء . سأجعل فيرش يتناولك بالعصا عندما يعود إلى البيت فأنت تتعمد إبكاءه . كنت تفعلها طيلة النهار . هل أنزلته إلى الغدير ؟» .

قال لستر : «كلا . كنا هنا في الحوش طيلة النهار ، كما قلت» .

وامتدت يده طلباً لقطعة أخرى من الكعك . فضربته دلزي على يده . وقالت : «مدها ثانية اقطعها من أصلها بسكين الجزار هذه .اقسم أنه لم يحظ بقطعة واحدة بعد» .

قال لستر : «بل أنه أكل حتى الآن قطعتين ، أي قدر ما أكلت أنا ، اسأليه ؟» .

قالت دلزي : «مد يديك ، مد يدك لترى» .

قالت دلزي : أي والله صحيح اتصور أن الدور الآن دوري للبكاء، وأتصور أن موري سيسمح لي أنا أيضاً بالبكاء عليه لفترة ما .

قالت كادي : إن اسمه الآن هو بنجي .

قالت دلزي : وكيف يكون ذلك ، هل استهلك الاسم الذي ولد به ؟ .

قالت كادي : اسم بنجامين قد ورد في التوراة وهذا الاسم خير له من موري .

قالت دلزي : وكيف يكون ذلك ؟ .

قالت كادي : أمي تقول انه خير له .

قالت دلزي : هه ، لن يسعفه الاسم في شيء ، لا ولن يؤذيه . والناس إنما يستجلبون الشؤم بتغيير الأسماء لقد كان اسمي دلزي منذمدة تسبق ما استطيع تذكره بكثير وسيبقى دلزي حتى بعد أن ينساني الناس بأمد طويل .

قالت كادي : ولكن كيف سيعرفون أنه دلزي . إذا كان قد نسي منذ أمد طويل يا دلزي ؟ .

قالت دلزي : سيكون مكتوباً في الكتاب يا حبيبتي .

قالت كادي : أتستطيعين أن تقرئيه ؟ .

قالت دلزي : لن أحتاج إلى ذلك ، سيقرؤونه لي ، وما عليَ إلا أن أقول : إني هنا .

وقع السلك الطويل على عرض كتفي ، وراحت النار ، وبدأت أبكي .

وتشاجر لستر ودلزي .

قالت دلزي : «رأيتك والله رأيتك» . وجرّت لستر من الزاوية وهي تهزه . «أتقول لا شيء يزعجه ، انتظر إلى أن يعود أبوك إلى البيت . يا ليتني كنت شابة كسابق عهدي ، لفصلت هاتين الأذنين عن رأسك . ويخطر لي الآن والله أن أسجنك في ذلك القبو وأقفل الباب عليك وأمنعك من الذهاب إلى ذلك السيرك هذه الليلة . أي والله» .

قال لستر : «آخ ، ماما ، آخ ، ماما» .

ومددت يدي إلى حيث كانت النار .

قالت دلزي : «ردّه . رده عن النار» .

وارتدت يدي ووضعتها في فمي وامسكت بي دلزي . وأنا مازلت اسمع

الساعة من خلال صوتي . ومدت دلزي يدها وراءها وضربت لستر على رأسه وصوتي يرتفع كل مرة .

قالت دلزي : «أحضر الصودا» . وأخرجت يدي من فمي . واشتد ارتفاع صوتي عندئذ وحاولت يدي الرجوع إلى فمي ، غير أن دلزي أمسكت بها . وارتفع صوتي ورشت الصودا على يدي .

وقالت : «اذهب إلى غرفة المؤونة وشق قطعة من تلك الخرقة المعلقة على المسمار ، هس ، هس . أتريد أن تجعل أمك تمرض مرة أخرى ؟ اسمع . تفرج على النار . ودلزي ستوقف الألم الذي في يدك في دقيقة . تفرج على النار» . وفتحت باب الموقد ونظرت إلى النار غير أن يدي لم تكف عن الشعور بالألم وأنا لم أكف . وكانت يدي تحاول أن تذهب إلى فمي ولكن دلزي أمسكت بها .

ولفت القماشة حولها . وقالت أمي :

«والآن ما الأمر ألا أستطيع حتى أن أمرض براحة ، أينبغي علي ان انهض من فراشي لأنزل إليه ، وهناك زنجيان بالغان يعتنيان به ؟» .

قالت دلزي : «إنه بخير الآن ، وسيكف بعد لحظة ، لقد حرق يده قليلاً لاغير» .

قالت أمي : «زنجيان بالغان موكلان به ، ومع ذلك تعودون به إلى البيت وهو يبكي ويصرخ . إنكم تحركونه عن قصد ، لأنكم تعلمون أنني مريضة» . وأتت ووقفت بقربي . وقالت : «اسكت حالاً ، هل أعددت له تلك الكعكة ؟» .

قالت دلزي : «لقد اشتريها فهي لم تخرج قط من غرفة مؤونة جاسن . لقد رتبت له عيد ميلاد» .

قالت أمي : «أتريدين له أن يتسمم بكعكة السوق الرخيصة تلك . أهذا ما تحاولين أن تفعليه . ألن تتاح لي دقيقة من الراحة والهدوء ؟» .

قالت دلزي : «اصعد إلى غرفتك واضطجعي ، سيتوقف ألمه بعد برهة فيسكت . استمعي إلي ؟» .

قالت أمي : «وأتركه هنا بينكم لتعرضوه لأذى آخر . وكيف يسعني أن أضطجع في غرفتي وهو يولول هنا ؟ بنجامين اسكت حالاً» .

قالت دلزي : «ليس لدينا مكان آخر نأخذه إليه . وليست لدينا الغرفة التي كانت لنا . وهو لا يستطيع أن يبقى خارجاً في فناء الدار يبكي حيث يراه الجيران كلهم» .

قالت أمي : «أعرف ، أعرف ، كلها غلطتي . سأرحل عنكم قريباً فتسير الأمور بينكم وبين جاسن على نحو أفضل» . وأخذت تبكي .

قالت دلزي : «كفي عن هذا البكاء يا هذه . ستحطمين نفسك ثانية اصعدي إلى غرفتك . سيأخذه لستر إلى المكتبة ريثما أهيئ عشاءه» .

وخرجت دلزي وأمي .

وقال لستر : «اسكت ، اسكت ، أتريد أن أحرق لك يدك الأخرى ؟ أنت لم تتأذ فاسكت» .

قالت دلزي : «هاك . كفاك بكاء» . وأعطتني الخف ، فسكتّ ، وقالت : «خذه إلى المكتبة ، وإذا سمعت صوته مرة أخرى جلدتك والله بنفسي» .

ذهبنا إلى المكتبة وأشعل لستر الضوء ، فاسودت النوافذ ، وبان المكان الطويل المظلم الذي على الحائط فذهبت ولمسته . كان يشبه الباب غير أنه لم يكن باباً .

وجاءت النار خلفي وذهبت إلى النار وجلست على الأرض ممسكاً بالخف . وارتفعت النار ، وتسلقت إلى الوسادة التي في كرسي أمي .

قال لستر : «اسكت . ألا تستطيع التوقف ولو للحظة ؟ ها قد أشعلت لك ناراً ، ولكنك لا تتفضل حتى بالنظر إليها» .

قالت كادي . اسمك بنجي . أتسمع . بنجي . بنجي .

قالت أمي . لا تقولي ذلك له . تعالي به هنا .

فرفعتني كادي من تحت الإبطين . وقالت :

انهض يا مو - أقصد يا بنجي .

قالت أمي . لا تحاولي أن تحمليه . ألا تستطيعين أن تقتاديه إليّ . أيعسر هذا على تفكيرك ؟ .

قالت كادي ، أستطيع أن أحمله . «دعيني أحمله يا دلزي» .

قالت دلزي : «أتستطيعين أن تحمليه وأنت بحجم البندقة ؟ البرغوث كبير عليك . فاذهبي وحافظي على الهدوء كما أمرك السيد جاسن» .

وفي أعلى الدرج بان نور . كان أبي هناك في قميصه وكانت نظرته تقول : «هس» . فهمست كادي :

«هل ماما مريضة ؟» .

وضعني فيرش عنه ودخلنا غرفة أمي . كان فيها نار ، تعلو وتهبط على الجدران . وفي المرآة كانت نار أخرى . وجعلت أشم المرض . كان رأس أمي معصوباً بقماشة . كان شعرها على الوسادة ، والنار لا تبلغها غير أنها كانت تلتمع على يدها حيث كانت خواتهما تتراقص .

قالت كادي : «تعال وقل لماما تصبحين على خير» . فذهبنا إلى فراشها وخرجت النار من المرآة . ونهض أبي عن الفراش ورفعني ووضعت أمي يدها على رأسي .

قالت أمي وعيناها مغمضتان : «ما الساعة ؟» .

قال أبي : «السابعة إلا عشر دقائق» .

قالت أمي : «لم يحن بعد وقت نومه ، سيفيق لدى طلوع الفجر ، وأنا لن استطيع تحمل يوم آخر كهذا اليوم» .

قال أبي : «هدئي من روعك» . ولمس وجه أمي .

قالت أمي : «أنا اعرف أنني لست إلا عبئاً عليك ، ولكنني راحلة عن قريب . وعندها ستخلص مما أسببه لك من عناء» .

قال أبي : «هس سآخذه إلى تحت» . ورفعني . «هيا بنا ، يا غلام لننزل إلى الأسفل قليلاً . ولكن علينا بالهدوء بعض الوقت لأن كونتن منهمك في دروسه» .

وذهبت كادي وانحنت بوجهها فوق الفراش ودخلت يد أمي ضوء النار وتراقصت خواتمها على ظهر كادي .

قال أبي : ماما مريضة ستضعك دلزي في فراشك ، أين كونتن ؟

قالت دلزي : ذهب فيرش ليأتي به .

وقف أبي يرمقنا ونحن نمر . وسمعنا أمي في غرفتها وقالت كادي : « هس » . وكان جاسن لايزال يصعد الدرج ويداه في جيوبه .

قال أبي : « عليكم أن تكونوا عاقلين كلكم هذه الليلة ، ولا تحدثوا أي ضجيج ، لكي لا تقلقوا راحة أمكم » .

قالت كادي : « لن نحدث أي ضجيج . لا تحدث أي ضجيج يا جاسن » . ومشينا على رؤوس أصابعنا .

كنا نسمع سطح البيت . وكنت أرى النار في المرآة أيضاً . ورفعتني كادي ثانية .

وقالت : « هيا بنا الآن . وبعد ذلك لك أن تعود إلى النار . هس » .

قالت أمي : « كاندس » .

قالت كادي : « هس يابنجي ماما تريدك لدقيقة . كن ولداً عاقلاً . ثم تستطيع أن تعود يا بنجي » .

وانزلتني كادي وسكتَ .

ـ « دعيه هنا ، ماما . وعندما ينتهي من النظر إلى النار ، فلك أن تخبريه إن شئت » .

قالت أمي : « كاندس » . فانحنت كادي ورفعتني .

وترنحنا معاً . وقالت أمي : « كاندس » .

قالت كادي : « هس مازلت تستطيع أن تراها . هس » .

قالت أمي : « تعالي به هنا . إنه أكبر من أن تحميله أنت . كفي عن المحاولة وإلا آذيت ظهرك . مامن إمرأة بأسرتنا إلا وفاخرت الدنيا بقوامها . أتريدين أن تشبهي الغسالات بقوامك » .

قالت كادي : «أنا لا أجده ثقيلاً عليّ . إني أستطيع أن أحمله» .

قالت أمي : «حسناً إذن ، أنا لا أريد أحداً أن يحمله . ابن خمس سنين . لا ، لا ، لا تضعيه في حضني . ليقف على قدميه» .

قالت كادي : «إذا أمسكت به ، سكت . هس ، ستعود بعد لحظة . هاك هذه وسادتك انظر» .

قالت أمي : «لا يا كاندس» .

قالت كادي : «دعيه ينظر إليها ، يهدأ ، قف دقيقة إلى أن أنزعها . هاك ، بنجي ، أترى» .

ونظرت إليها وسكت .

قالت أمي ، «أنت تبالغين في معاملته على هواه ، وكذلك أبوك . ولا تعلمين أنني أنا التي سأدفع الثمن فيما بعد . لقد دلل أبوك جاسن وأفسده على هذا النحو ، ثم استغرقه الإقلاع عن دلاله سنتين كاملتين ، وليست لدي شخصياً تلك القوة لإعادة تلك التجربة مع بنجامين» .

قالت كادي : «لا حاجة إلى إزعاج نفسك به . إذ يلذ لي أن أعنى به . أليس كذلك يا بنجي» .

فقالت أمي : «كاندس ، قلت لك ألا تدعيه ببنجي . حسناً إن أباك أصر على تسميتك بذلك اللقب السخيف* ولذا فإني لن أرضى باطلاق أي لقب عليه . الألقاب سوقية ولا يستخدمها إلا العوام ، بنجامين» .

وقالت أمي : «انظر إليّ» .

ثم قالت : «بنجامين» . وأخذت وجهي بين راحتيها وأدارته صوب وجهها .

وقالت : «بنجامين . يا كاندس خذي تلك الوسادة منه» .

قالت كاندس : «سيبكي» .

---

* تقصد تصغير «كاندس» إلى «كادي» . (المترجم)

قالت أمي : « خذي تلك الوسادة منه ، كما قلت لك . يجب أن يتعلم الطاعة » .

وابتعدت الوسادة .

قالت كادي : « هس يابنجي » .

قالت أمي : « اذهبي أنت واجلسي هناك . بنجامين » .

وأمسكت وجهي إزاء وجهها .

وقالت : « كفّ عن البكاء . كفّ عن البكاء » .

غير أنني لم أكف فضمتني أمي في ذراعيها وجعلت تبكي وبكيت .

ثم عادت الوسادة أمسكت بها كادي فوق رأس أمي ، وسحبت أمي إلى الوراء في الكرسي واتكأت أمي باكية على الوسادة الحمراء الصفراء .

قالت كادي : « هس . ماما . اصعدي إلى غرفتك واضطجعي لتستريحي في مرضك . سأذهب لآتي بدلزي » . واقتادتني إلى النار ونظرت إلى الأشكال الناعمة الوهاجة . وجعلت اسمع النار وسطح البيت .

وحملني أبي وكانت رائحته كالمطر .

وقال : « يا بنجي ، هل كنت اليوم ولداً عاقلاً ؟ » .

وكان جاسن وكادي يتشاجران في المرآة .

قال أبي : « اسمعي ياكادي » .

وتشاجرا ، ثم أخذ جاسن يبكي .

قال أبي : « كادي » . وجاسن يبكي . وقد توقف عن الشجار . ولكننا رأينا كادي ماتزال تتشاجر في المرآة . وانزلني أبي ودخل المرآة وتشاجر هو أيضاً فرفع كادي . وهي تصارع . وجاسن مطروح على الأرض يبكي . وفي يده مقص ، وأمسك أبي بكادي .

قالت كادي : « لقد قطَع دمى بنجي كلها . وسأشق حلقه » .

قال أبي : « كاندس » .

قالت كادي وهي تصارع وأبي ممسك بها : « سأشق حلقه . سأشق حلقه » .

وركلت جاسن ، فتدحرج إلى الزاوية خارجاً من المرآة . وأتى أبي بكادي إلى النار فكانوا كلهم خارج المرآة . ولم يبق فيها إلا النار . وكأنما نار في باب .

قال أبي : « كفى ، كفى . أتريدين لأمك أن تمرض في غرفتها » .

فكفت كادي وقالت : « لقد قطع كل الدمى التي صنعناها أنا وموري وبنجي ، لأنه حقير » .

قال جاسن : « لم أقطعها » . وقد اعتدل في جلسته وهو يبكي .

« لم أعرف أنها له . ظننتها جرائد قديمة » .

قالت كادي : « لابد أنك عرفت . ولكنك قطعتها » .

قال أبي : « هس . جاسن » .

وقالت كادي : « سأصنع لك دمى أخرى غداً . سنصنع دمى كثيرة . هاك الوسادة . انظر إليها » .

دخل جاسن .

قال لستر : قلت لك ألف مرة اسكت .

قال جاسن : ما الأمر الآن ؟

قال لستر : « إنه يرهق نفسه . لقد ظل على هذه الحال طيلة النهار » .

قال جاسن : « إذن لماذا لا تدعه وشأنه . وإذا عجزت عن اسكاته فعليك أن تأخذه إلى المطبخ . أمانحن فلا نستطيع أن نحصر أنفسنا في غرفة واحدة كما تفعل أمي » .

قال لستر : « ولكن جدتي تقول لاتدخلوه المطبخ حتى أهيئ العشاء » .

قال جاسن : « إذن لاعبه وأسكته ، أأعمل النهار بطوله ثم أعود إلى داري لأجدها داراً للمجانين ؟ » . وفتح الصحيفة وراح يقرأها .

قالت كادي . انظر إلى النار والمرآة والوسادة أيضاً . لا ضرورة لانتظارك حتى العشاء لكي تنظر إلى الوسادة . وجعلنا نسمع سطح البيت . ونسمع جاسن أيضاً يعيط ويصرخ من وراء الجدار .

قالت دلزي : « تعال يا جاسن . هل تركته وحده ؟ » .

قال لستر : « نعم » .

قالت دلزي : « أين كونتن كاد العشاء يحضر ؟ » .

قال لستر : « لا أدري لم أرها » .

فخرجت دلزي وقالت في البهو : « كونتن ياكونتن لقد حضر العشاء » .

جعلنا نسمع سطح البيت وكانت رائحة كونتن كالمطر ، أيضاً ، وقال ماذا فعل جاسن .

قالت كادي ، قطع دمى بنجي كلها .

فقال كونتن ، أوصت ماما بألا ندعوه ببنجي ، وجلس على البساط معنا ، وقال ليتها لا تمطر . إننا لانستطيع أن نفعل شيئاً في المطر . وقالت كادي ، كنت تتشاجر أليس كذلك .

فقال كونتن ، شجار بسيط .

قالت كادي ، إنه ظاهر عليك . وسيلاحظه أبي .

فقال كونتن ، لاأبالي ليتها لا تمطر .

قالت كونتن : « ألم تقل دلزي أن العشاء قد حضر ؟ » .

قال لستر : « نعم » ونظر جاسن إلى كونتن ثم عاد إلى قراءة صحيفته . ثم دخلت كونتن ، وقال لستر : « تقول أنه كاد يحضر » . وطفرت كونتن إلى كرسي أمي ، فقال لستر :

« سيد جاسن » .

قال جاسن : « ماذا ؟ » .

قال لستر : « أعطني ربعاً » .

قال جاسن : « لماذا ؟ » .

قال لستر : « لكي أذهب إلى السيرك الليلة » .

قال جاسن : « ألم تقل دلزي أنها ستأخذ لك ربعاً من فروني ؟ » .

قال لستر : « أخذت ربعاً منها ولكني فقدته وقد بحثنا أنا وبنجي عنه طيلة النهار ، اسأله » .

قال جاسن : « إذن استدن ربعاً منه . أما أنا فعلي أن أشتغل لقاء ربعي » . وأخذ يقرأ الصحيفة وتأملت كونتن النار . وكانت النار في عينيها وعلى فمها ، وكان فمها أحمر .

قال لستر : « حاولت أن أبعده عن ذلك المكان » .

قالت كونتن : « اخرس » فنظر إليها جاسن .

وقال : « ما الذي قلت لك بأنني سأفعله إن أنا رأيتك ثانية مع غلام السيرك ذلك ؟ » . وبقيت كونتن تتأمل النار . « أسمعت ما قلت ؟ » .

قالت كونتن : « نعم سمعت . لماذا لاتنفذ قولك إذن » .

قال جاسن : « طيب اطمئني » .

قالت كونتن : « أنا مطمئنة » وعاد جاسن إلى قراءة الصحيفة مرة أخرى .

جعلت أسمع سطح البيت ، ومال أبي إلى الأمام ونظر إلى كونتن ، وقال ، هالو ، من الذي غلب .

قال كونتن : « لا أحد أوقفنا المعلمون » .

قال أبي : « من كان . أخبرني . أرجوك ؟ » .

قال كونتن : « ما همني . كان كبيراً مثلي » .

قال أبي : « حسناً هلا أخبرتني بالسبب ؟ » .

قال كونتن : « لا شيء . قال إنه سيضع ضفدعاً في منضدتها . وإنها لن تجرؤ على ضربه » .

قال أبي : « أوه . هي . وبعد ذلك » .

قال كونتن : « نعم يا أبي وبعد ذلك ضربته » .

كنا نسمع سطح البيت والنار ونشيجاً خارج الباب .

قال أبي : « ومن أين له أن يحصل على ضفدع في تشرين الثاني ؟ » .

قال كونتن : « لا أدري » .

كنا نسمعهم .

قال أبي : « جاسن » وأخذنا نسمع صوت جاسن .

قال أبي : « جاسن تعال هنا ، كفاك بكاءً » .

قال أبي : « كفاك بكاءً . اتريد أن أجلدك مرة أخرى ؟ » .

وحمل أبي جاسن وأجلسه في الكرسي بقربه . وجاسن ينشج ، وسمعنا النار وسطح البيت وارتفع نشيج جاسن قليلاً .

قال أبي : « مرة أخرى ؟ » وسمعنا النار وسطح البيت .

قالت دلزي ، طيب تعالوا الآن إلى العشاء .

كانت رائحة فيرش كالمطر . وكانت رائحته ككلب أيضاً . وكنا نسمع النار وسطح البيت .

وسمعنا كادي تسرع بالمشي ووقف أبي وأمي بالباب ، الذي مرت به كادي ، مسرعة دون أن تنظر منه كانت تسرع بالمشي .

قالت أمي : « كاندس » فتوقفت كادي عن المشي .

قالت كادي : « نعم ، ماما » .

قال أبي : « اسكتي كارولاين » .

قالت أمي : « تعالي هنا » .

قال أبي : « اسكتي ياكارولاين . دعيها وشأنها » .

جاءت كادي إلى الباب ووقفت عنده تنظر إلى أبي وأمي وطارت عيناها إلي ، ثم عني ، فأخذت أبكي . وارتفع صوتي ونهضت . ودخلت كادي وظهرها إلى الحائط وهي تنظر إلي . واقتربت منها ، باكياً . فتشنجت لاصقة بالحائط . ورأيت عينيها . وارتفع صوت بكائي وجذبت فستانها . فمدت يدها ولكنني شددت ثوبها ، وسالت عيناها .

قال فيرش ، اسمك الآن بنجامين . أتدري كيف أصبح اسمك الآن بنجامين . سيجلعون منك لباناً* أزرق . وماما تقول في سالف الأيام غيّر جدك اسم أحد الزنوج واصبح قسيساً فلما نظروا إليه وجدوا أنه لبان

---

* اللبان : العلك .

أزرق أيضاً . ولم يكن لباناً أزرق من قبل . وعندما نظرت إليه امرأة حامل وجهاً لوجه في ضوء القمر والقمر بدر ، ولد ابنها لباناً أزرق أيضاً وفي إحدى الأماسي وقد انتشر في المكان زهاء عشرة أطفال من اللبان الأزرق يلعبون . لم يعد إلى البيت . ثم عثر عليه صيادو القنافذ في الغابة ، مُفترساً حتى العظم . أتعلم من الذي افترسه . أطفال اللبان الأزرق هؤلاء افترسوه .

كنا في البهو . وكادي مازالت تنظر إلي . ويدها على فمها فرأيت عينيها وبكيت . ثم صعدنا الدرج . ووقفت ثانية لصق الحائط ، وهي تنظر إليّ . وفتحت باب غرفتها غير أنني جذبت فستانها ، وذهبنا إلى الحمام ووقفتْ لصق الباب تنظر إليّ ثم غطت وجهها بذراعيها ودافعتُها وأنا أبكي .

قال جاسن : ما الذي تفعل له . لماذا لا تتركه وشأنه .

قال لستر : أنا لم أمسه . لقد ظل طيلة النهار على هذه الحال يلزمه جلد .

فقالت كونتن : ينبغي أن نرسله إلى جاكسن . فكيف يستطيع أحد أن يعيش في بيت كهذا .

قال جاسن : إذا لم يرق لك ، فالأفضل أن تخرجي منه .

قالت كونتن : « سأخرج منه ، اطمئن » .

قال فيرش : « انسحب إلى الوراء قليلاً ، لكي استطيع أن أجفف ساقي » . ودفعني إلى الوراء قليلاً . « إياك أن تبدأ بالعياط . مازال بوسعك أن تراها . وهذا كل ماعليك أن تفعل . فأنت لم تضطر إلى الخروج في المطر مثلي . لقد ولدت محظوظاً وأنت لا تعلم » . واستلقى على ظهره أمام النار .

قال فيرش : « اتدري كيف اصبح اسمك الآن بنجامين . امك فخورة بك جداً ، هذا ما تقوله ماما » .

قال فيرش : « إهدأ ودعني أجفف ساقي . وإلا فأنت تعلم ما أنا فاعل سأسلخ قفاك » .

كنا نسمع النار وسطح البيت وفيرش .

ونهض فيرش على عجل . وجرّ ساقيه . وقال أبي : « لابأس يا فيرش » .

قالت كادي : « سأطعمه أنا هذه الليلة . فهو يبكي أحيانا عندما يطعمه فيرش » .

قال دلزي : « خذ هذا الطبق إلى فوق ثم ارجع بسرعة وأطعم بنجي » .

قالت كادي : « ألا تريد أن تطعمك كادي ؟ » .

قالت كونتن ، أمن الضروري أن يضع ذلك الخف القذر على المائدة . لماذا لا تطعمونه في المطبخ . كأننا نأكل مع خنزير .

قال جاسن ، إن كنت لا ترضين عن طريقة أكلنا ، فخير لك ألا تقربي هذه المائدة .

تصاعد البخار من رسكوس . كان جالساً أما الطباخ ، وباب الفرن مفتوح وقد وضع رسكوس قدميه فيه وتصاعد البخار من الطبق .

ووضعت كادي الملعقة في فمي بسهولة ، وكان في داخل الصحن بقعة سوداء .

قالت دلزي ، لا ، لا لن يزعجكم ثانية أبداً .

وانخفضت المحتويات عن العلامة . ثم فرغ الطبق ، وراح . وقالت كادي : « إنه جائع هذه الليلة » . وعاد الطبق . وما عدت أرى البقعة فيه . ثم رأيتها وقالت كادي : « إنه ميت جوعاً هذه الليلة انظري كم أكل » .

قالت كونتن ، أجل سيفعلها . كلكم ترسلونه للتجسس عليّ . إنني أكره هذا البيت . وسأهرب .

قال رسكوس : « سيستمر المطر طيلة الليل » .

لقد هربت مدة طويلة فما تجاوز بك موعد الأكل .

قالت كونتن ، سترى كيف سأهرب .

قالت دلزي : « لا أدري ماأنا فاعلة لقد اشتد الألم في وركي الآن بحيث

أكاد لا أستطيع الحركة . وما ذلك إلا من صعود الدرج وهبوطه طيلة المساء » .

قال جاسن . لن أدهش . لا والله لن أدهش لأي فعل تفعلينه . والقت كونتن بفوطتها على المائدة .

قالت دلزي . لا تقل ذلك ياجاسن . وذهبت وأحاطت كونتن بذراعها اجلسي يا حبيتي . وليخجل من نفسه . إذ يرمي بوجهك ما هو ليس ذنباً من ذنوبك .

قال رسكوس : « هل حردت مرة أخرى » .

قالت دلزي : « اسكت » .

دفعت كونتن بدلزي عنها ونظرت إلى جاسن وفمها أحمر . وتناولت كأس مائها ورفعت ذراعها وهي تنظر إلى جاسن . فأمسكت دلزي بذراعها وتعاركا . وانكسرت الكأس على المائدة وسال الماء عليها ، وركضت كونتن .

قالت كادي : « مرضت أمي من جديد » .

قالت دلزي : « أي والله . طقس كهذا قد يمرض أي انسان . متى ستفرغ من أكلك يا ولد » .

قالت كونتن . لعنك الله ، لعنك الله . سمعناها تركض على الدرج ، وذهبنا إلى المكتبة .

واعطتني كادي الوسادة ، وجعلت أتأمل الوسادة والمرآة والنار .

قال أبي : « علينا بالهدوء أثناء انهماك كونتن بدورسه . ما الذي تفعله يا جاسن ؟ » .

قال جاسن : « لا شيء » .

- « ما رأيك إذن في أن تأتي هنا لتفعله ؟ » .

فخرج جاسن من الزاوية .

فقال أبي : « ما الذي تمضغه ؟ » .

قال جاسن : «لا شيء» .
فقالت كادي : «إنه يمضغ ورقاً مرة أخرى» .
قال أبي : «تعال هنا يا جاسن» .
فنفخ جاسن في النار ، فأزت واستقامت واسودت . ثم تحولت إلى رمادية ثم راحت . وكان أبي وجاسن يجلسون في كرسي أمي ، وعينا جاسن مغمضتان من الورم وفمه يتحرك ، كمن يتذوق ، ورأس كادي على كتف أبي ، كان شعرها كالنار وفي عينها نقط صغيرة من النار ، وذهبت فرفعني أبي إلى الكرسي أيضاً . واحتضنتني كادي ، وكانت رائحتها كالشجر .
كانت رائحتها كالشجر . كانت الزاوية مظلمة ، ولكن كان بوسعي أن أرى النافذة . جلست هناك القرفصاء والخف في يدي . لم يكن بوسعي أن أراه غير أن يدي كانتا تريانه وجعلت اسمع الليل هو يقدم ، ويداي تريان الخف وجلست هناك القرفصاء وأنا اسمع قدوم الظلام .
قال لستر ، أهذا أنت هنا ، انظر ما عندي . وأراني إياه أتعلم أين حصلته . الآنسة كونتن أعطتني إياه . كنت أعلم أنهم لن يبقوني في الخارج ما الذي تفعله في هذا المكان ، لقد ظننت أنك تسللت الى الخارج . ألم تشبع أنيناً وريلاً اليوم ، فجئت تختبئ في هذه الغرفة المهجورة لتتمتم وتدمدم . هيا معي إلى فراشك ، لكني استطيع الوصول هناك قبل البداية . أتحسب أنني سألاعبك طيلة هذه الليلة ، ستجد أنني قد ذهبت حالما تنفخ تلك الأبواق .
لم نذهب إلى غرفتنا .
قالت كادي : «هذه هي الغرفة التي ننام فيها اذ نمرض بالحصبة ، ما الداعي إلى نومنا هنا الليلة ؟» .
قالت دلزي : «ولماذا يهمك أين تنامون ، وأغلقت الباب ، وجلست وأخذت تنزع ثيابي . فبدأ جاسن يبكي . فقالت دلزي : «هس» .
قال جاسن : «أريد أن أنام مع ماما» .

قالت كادي : « ولكنهامريضة . لك أن تنام معهاعندما تشفى . أليس كذلك يا دلزي ؟ » .

فسكت جاسن ، فقالت دلزي : « هس ، هس » .

قالت كادي : « مناماتنا هنا . ولوامنا كلها . كأننا انتقلنا إلى بيت آخر » .

قالت دلزي : « فالبسوها إذن . فكي أزرار جاسن » .

ففكت كادي أزرار جاسن . فجعل يبكي .

قالت دلزي : « أتريد أن تجلد » فسكت جاسن .

نادت أمي وهي في البهو « كونتن » .

ماذا ، قالت كونتن من وراء الجدار . وسمعنا أمي تقفل الباب . وتطلعت من الباب . فدخلت وانحنت فوق الفراش وقبلتني على الجبين .

وقالت أمي ، بعد أن تضعه في الفراش ، اذهب إلى دلزي واسألها إن كان ثمة اعتراض على تهيئة قربة ماء حار لي . وقل لها إن هناك اعتراض على ذلك فإني سأحاول أن أقضي الليلة بدونها ، قل لها إنني أريد أن أعرف جوابها .

فقال لستر ، نعم ، هيا انزع بنطلونك .

دخل كونتن وفيرش ، وقد أشاح كونتن بوجهه ، قالت كادي : « ما الذي يبكيك » .

قالت دلزي : « هس . هيا ، انزعوا ثيابكم كلكم . أما أنت يا فيرش فتستطيع أن تذهب إلى البيت .

نزعت ثيابي ونظرت إلى نفسي . فجعلت أبكي . فقال لستر ، صه . من العبث أن تبحث عنهم لقد راحوا ، وإذا بقيت على هذه الحال فلن نقيم لك حفلة عيد ميلاد أخرى . وألبسني ثوبي ، فسكت ، ثم وقف لستر ووجهه نحو النافذة ، ثم ذهب إلى النافذة وتطلع منها إلى الخارج . وعاد إليّ وأخذ بذراعي وقال ها هي قادمة ، اسكت . فذهبنا إلى النافذة ونظرنا

منها . فرأيناها تخرج من نافذة كونتن وتتعلق بالشجرة وراقبنا الشجرة وهي تهتز . وسرى الإهتزاز سفلاً في الشجرة ثم خرجت ورأيناها تبتعد على العشب ثم ما عدنا نستطيع رؤيتها فقالت لستر هيا بنا لحظة . أتسمع الأبواق . عليك بالفراش قبل أن أتناولك برجلي .

كان هناك سريران استلقى كونتن على السرير الآخر وأدار وجهه نحو الجدار ووضعت دلزي جاسن إلى جانبه . ونزعت كادي فستانها .

قالت دلزي : « انظري إلى سروالك . احمدي الله على أن امك لم ترك » .

قال جاسن : « لقد وشيت بها وانتهيت » .

قالت دلزي : « لاشك أنك فعلت » .

قال كادي : « أترى ماذا جنيت بذلك يا نمام ؟ » .

قال جاسن : « ماذا جنيت ؟ » .

قالت دلزي : « لماذا لا تلبسين منامتك ؟ » وذهبت لتعين كادي على خلع قميصها وسروالها ، وقالت : « انظري إلى نفسك » . وطوت السروال وجعلت تفرك به مؤخرة كادي ، وقالت : « لقد نفذ الطين إلى جسمك ولكنك لن تنالي حماماً هذه الليلة » . ثم ألبست كادي منامتها وقفزت كادي إلى فراشها وذهبت دلزي إلى الباب ووقفت ويدها على الضوء ، وقالت « عليكم بالهدوء جميعاً ، أتسمعون » .

قالت كادي : « حسناً لن تدخل علينا ماما الليلة . ولذا فعليكم أن تستمروا في إطاعتي » .

قالت دلزي : « نعم و الآن ناموا » .

قالت كادي : « ماما مريضة ، هي وبابا ، كلاهما مريض » .

قالت دلزي : « هس ، ناموا ، ناموا » .

واسودت الغرفة ، فيما عدا الباب ، ثم أسود الباب . وقالت كادي « صه ياموري » واضعة يدها عليّ . فبقيت ساكتاً وصرنا نسمع أنفسنا . وجعلنا نسمع الظلام .

ثم راح الظلام ، ونظر أبي إلينا . نظر إلى كونتن وجاسن ثم جاء وقبل كادي ووضع يده على رأسي .

فقالت كادي : « هل ماما مريضة جداً ؟ » .

قال أبي : « كلا ، أتحسنين العناية بموري ؟ » .

قالت كادي : « نعم » .

وذهب أبي إلى الباب ونظر إلينا ثانية وبعد ذلك عاد الظلام ، ووقف أبي أسود في الباب ثم اسودّ الباب ثانية ، فأمسكت بي كادي وجعلت أسمع الجميع ، وأسمع الظلام وأخذت اشم شيئاً ما ، ثم جعلت أرى النوافذ ، حيث كانت الأشجار تغنّ . وبعدها بدأ الظلام بالزوال في أشكال وهاجة ناعمة . شأنه دائماً حتى حين كنت أغرق في النوم كما تقول كادي .

حزيران

٢

١٩١٠

عندما سقط ظل عارضة الشباك على الستائر ، كانت الساعة مابين السابعة والثامنة ، لقد أفقت إذن في الوقت المطلوب ثانية ، وأنا اسمع الساعة كانت تلك ساعة جدي ، وعندما أهداني إياها أبي قال :

كونتن ، إني اعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها . وإنه لمن المناسب إلى حد العذاب أن تستخدمها لتكسب النهاية المنطقية الحمقاء لاختبارات الانسان جميعها ، وهي التي لن تنسجم وحاجاتك الشخصية أكثر مما انسجمت وحاجات جدك أو أبيه . إني اعطيك اياها لا لكي تذكر الزمن ، بل لكي تنساه بين آونة وأخرى ، فلا تنفق كل مالك من نَفَس محاولاً أن تقهر الزمن لأن ما من معركة ربحها أحد ، قال أبي . لا بل مامن معركة حارب فيها أحد ، فالميدان لايكشف للمرء إلا عن حماقته ويأسه ، وما النصر إلا وهم من أوهام الفلاسفة والمجانين .

كانت الساعة مسندة إلى صندوق الياقة ، وبقيت مستلقياً اصغي إليها أي ، اسمعها . فأنا لا أحسب أن أحداً يصغي إلى الساعة عن قصد . وهل بك حاجة إلى ذلك ؟ إنك لتستطيع أن تغفل عن صوتها مدة طويلة ، وإذا هي في ثانية من «التكتكة» تخلق في الذهن استعراضاً طويلاً متسلسلاً متلاشياً للزمن الذي فاتك أن تسمعه . وكما قال أبي لكأنك ترى المسيح يمشي على

مدى أشعة الضوء المديدة الموحشة وكذلك مار فرنسيس ، ذلك القديس البار الذي كان يقول أيتها المنيّة يا أختي الصغيرة دون أن تكون له أخت .

ومن خلال الجدار سمعت رفّاص سرير «شريف» ، ثم نعليه وهما يشحطان على الأرض . فنهضت وذهبت إلى منضدة الزينة وتحسست بيدي صفحتها وأصبت الساعة ، فقلبتها على وجهها وعدت إلى الفراش ، غير أن ظل العارضة مازال هناك . وكنت قد تعلمت أن استدل به على الوقت بدقة تحدد حتى الدقيقة ، بحيث أضطر إلى أن أدير له ظهري وأنا أحس أن لي عيوناً كعيون الحيوانات التي كانت في مؤخر رؤوسها حين كان قذالها فوقها ، تحك وتضطرب . فالعادات التي تأسف لها دائماً هي عادات الكسل والخمول . أبي قال ذلك . وقال أن المسيح لم يصلب : إنما استهلكته قرقعة دواليب صغيرة ولم تكن له أخت .

وهكذا حالما أدركت أنني لا أستطيع أن أراه ، جعلت أتساءل عن الوقت ، وقال أبي أن التكهن المستمر بشأن وضع عقربين آليين على ميناءاعتباطي هو من دلائل وظيفة الذهن ليس إلا إفرازاً كالعرق . هكذا قال أبي وأنا أقول له : «لا بأس» . وأعجب ثم أعجب .

لو كانت السماء غائمة لنظرت إلى النافذة متأملاً ماقاله في عادات الكسل والخمول . قائلاً لنفسي سيطيب لهم في «نيو لندن» أن يظل الطقس كذلك . ولِمَ لا يظل . شهر العرائس ، الصوت اللاهث بـ طلعت راكضة من المرآة ، من العطر المكوّم . ورود . ورود السيد جاسن رتشموند كمبسن وعقيلته يعلنان زواج ـ ورود . لسن عذارى كبعض الزهور . قلت زنيت بإحدى محارمي ، يا أبي ، ورود ماكرة وهادئة باسمة . إذا التحقتَ بهارفرد لسنة واحدة ، ولم تذهب لرؤية سباق الزوارق ، فينبغي أن يعيدوا إليك بعض الرسوم . فليأخذها جاسن . دعه يقضي سنة في هارفرد .

وقف شريف في الباب وهو يلبس ياقته ، ونظارته تتألق وردية كأنما قد غسلها بوجهه . «أتتغيب عن محاضرة هذا الصباح ؟» .

ـ «أتأخرنا كل هذا التأخر ؟» .

فنظر إلى ساعته وقال : «بقي على موعد قرع الجرس دقيقتان» .

ـ «لم أعلم أننا تأخرنا كل هذا التأخر» .

كان مازال ينظر إلى الساعة وفمه يتكور . وقلت : «علي أن أهرول . لا استطيع أن اغيب عن محاضرة أخرى . وقد قال لي العميد في الأسبوع الماضي» .

وأعاد الساعة إلى جيبه . فأمسكت عن الكلام .

ـ «الأفضل أن تلبس سروالك وتركض» . قال ذلك وخرج .

نهضت وذرعت الغرفة وأنا اصغي إليه من خلال الجدار . فدخل غرفة الجلوس في اتجاه الباب وقال : «ألم تتهيأ بعد ؟»

ـ «لا أسرع أنت . سأصل في الوقت المحدد» .

وخرج وانغلق الباب . وابتعد وقع قدميه في الرواق . ثم جعلت اسمع الساعة من جديد . فأقلعت عن ذرع الغرفة ، وذهبت إلى النافذة وفتحت الستائر لأرقبهم وهم يركضون إلى الكنيسة . هم هم إذ يعاركون اردانهم الفضفاضة وهي هي إذ تعلو وتهبط ، حاملين الكتب نفسها ومرتدين الياقات المرفرفة نفسها منجرفين كالأسلاب على فيض الماء ، و«سبود» . هذا الذي دعا شريف بزوجي . دعه وشأنه قال شريف ، فإن كان كل مالديه من عقل لا يستحثه إلا على مطاردة الرخيصات القذرات . فماهمنا ؟ في «الجنوب» ينتابك الخجل إن كنت ذا عذرة . والصبية والرجال كلهم يكذبون بشأن ذلك . لأن البكارة أقل شأناً في نظر النساء ، هكذا قال أبي . وقال أيضاً أن الرجال هم الذين اخترعوا البكارة ، لا النساء . وقد قال أبي إنها كالموت : مجرد حالة يبقى فيها الآخرون . فقلت ولكن أتعتقد بأنها لا تهم ، فقال : هذا ما يحزننا من أي أمر مهما يكن ، لا البكارة وحدها فقلت : ولمَ لم يتفق أن أكون أنا الذي فقدت البكارة لا هي ؟ ، فقال : ذلك هو السبب في أن هذا أمر محزن أيضاً ؛ ما من شيء يستحق حتى التبديل والتغيير ، وقال شريف

إن كان كل ما لديه من عقل لا يستحثه إلا على مطاردة الرخيصات القذرات وقلت له : هل كانت لك أخت قط ؟ تكلم . تكلم .

كان «سبود» في وسطهم كالسلحفاة في طريق يعج بأوراق ميتة تجرفها الريح ، يمشي وياقته حول أذنيه مشيته الوئيدة المألوفة . كان طالباً في الصف المنتهي ، من أبناد كارولاينا الجنوبية ، وكان من دأب النادي الذي ينتمي إليه أن يتباهى بأنه لم يركض قط ذهاباً إلى الكنيسة وأنه لم يصلها يوماً في الوقت المحدد وأنه لم يغب يوماً طوال السنوات الأربع ولم يبلغ قط الكنيسة أو المحاضرة الأولى لابساً قميصاً على ظهره أو جورباً على قدمه . فهو في حوالي الساعة العاشرة يأتي إلى مطعم «طومبسن» فيتناول قدحين من القهوة ويجلس ثم يخرج جوربيه من جيبه وينزع حذائيه ويلبسهما ريثما تبرد القهوة ولدى الظهر تراه لابساً قميصاً وياقةً كغيره من الطلاب ، فكان الآخرون يمرون به راكضين ، غير أنه لم يسرع في خطوه قط ، وبعد لحظات كان الفناء خالياً .

هبط عصفور عبر نور الشمس وحط على عتبة النافذة ، ورفع رأسه إليَّ . كانت عينيه مستدير ة براقة . وكان يرقبني أولاً بعين . وإذا هو يرقبني بالأخرى وحنجرته تضخ بأسرع من أي نبض ، وبدأت الساعة تدق فأقلع العصفور عن نقل عينيه وراح يرقبني في ثبات بالعين نفسها إلى أن انتهت الدقات الرنانة كأنه كان يصغي إليها هو أيضاً . ثم رف عن العتبة وطار .

ومرت برهة قبل أن تكف الدقة الأخيرة عن الرنين . وبقيت في الهواء محسوسة أكثر منهامسموعة مدة طويلة . كأنما الأجراس كلها التي دقت فيما مضى بقيت ترن في أشعة الضوء الطويلة المحتضرة والمسيح ومار فرنسيس يتحدث عن اخته لأنها لوكانت مجرد السقوط إلى الجحيم ، لو كانت ذاك وانتهت . انتهت . لو كانت الأمور تنهي نفسها بنفسها . وما من أحد آخر سواها وسواي . لو أننا استطعنا أن نأتي إثماً مريعاً فيهربوا جميعاً

من الجحيم إلاّ أنا . قلت لقد زنيت بإحدى المحارم ياأبي أنا الذي فعلتها لا «دالتن ايمز» . وعندما وضع دالتن ايمز ، دالتن ايمز ، دالتن ايمز ، عندما وضع المسدس في يدي لم أفعلها . والسبب في احجامي هو أنه سوف يكون هو هناك وكذلك هي وكذلك أنا . دالتن ايمز دالتن ايمز دالتن ايمز . لو أننا استطعنا أن نأتي اثماً مريعاً . فقال أبي : وذلك أيضاً أمر محزن ، فالناس لا يستطيعون أن يأتوا إثماً على ذلك القدر من الروع بل انهم لا يستطيعون أبداً أن يأتوا إثماً مريعاً جداً فهم غداة الغد لايذكرون ما كان مريعاً اليوم ، فقلت يستطيع المرء أن يتنصل من كل شيء فقال : أيستطيع حقاً . ولسوف انظر إلى القرار وأرى عظامي المغمغمة والماء العميق كالريح ، كسقف من الريح ، ولن يستطيعوا بعد زمن طويل أن يتبينوا حتى العظام على الرمال البكر الموحشة . حتى يوم يقول الله «قوموا» لن يطفوا إلى السطح إلا المكواة . ليس الأمر أن تدرك ؛ أن لا شيء ثمة يسعفك ـ لا الدين ولا الكبرياء ولا أي شيء آخر . بل أن تدرك أنك لست بحاجة إلى أي عون . دالتن ايمز ، دالتن ايمز ، دالتن ايمز لو أنني كنت أمه مستلقية معرّضة الجسد ترفع نفسها ضاحكة ، أمسك بأبيه بيدي محجماً ، رانياً ، ناظراً إياه يموت قبل أن يحيا . وقفت في الباب دقيقة .

ذهبت إلى منضدة الزينة وتناولت الساعة ، ووجهها لمايزل إلى أسفل . وقرعت بلورها على زاوية المنضدة وأمسكت بحطام الزجاج في كف يدي وأفرغته في المنفضة ثم نزعت العقربين ووضعتهما في المنفضة ، وبقيت الساعة تدق . وجعلت وجهها إلى فوق ، لأرى الميناء الفارغ بما وراءه من دواليب دقيقة تتكتك ، غير عارف ما أفعل غير ذلك . والمسيح يمشي على بحيرة الجليل وواشنطن يرفض أن يكذب . لقد عاد أبي مرة من معرض سان لويس ومعه تميمة لجاسن : منظار صغير تحدق فيه بعين واحدة فترى ناطحة سحاب ، ودولاب هواء أشبه بالعنكبوت ، وشلالات نياغارا على رأس دبوس . ورأيت لطخة حمراء على الميناء . فأخذ ابهامي يتألم فوضعت

الساعة من يدي وذهبت إلى غرفة شريف وجلبت اليود وصبغت به الجرح ، وأخرجت بقية قطع الزجاج من الحواف بالمنشفة .

أخرجت طقمين من الثياب الداخلية ، مع الجوارب والقمصان والياقات والأربطة ، وحزمتها في حقيبتي الكبرى . لقد وضعت فيها كل شيء فيما عدا بدلتي الجديدة وأخرى قديمة وزوجي أحذية وقبعتين ، وكتبي . وحملت الكتب إلى غرفة الجلوس وكومتها على المنضدة ، تلك الكتب التي كنت احضرتها معي من البيت وتلك التي قال أبي كان السيد يُعرف فيما مضى بكتبه ، أما اليوم فيعرف بالكتب التي لم يُعدها لأصحابها ، وأقفلت الحقيبة وعنونتها . ودقت الساعة في ربع دورتها . فتوقفت وأصغيت إلى أن تلاشى الرنين .

استحممت وحلقت . وقد آلم الماء إصبعي قليلاً فصبغته ثانية . ثم ارتديت بدلتي الجديدة ولبست ساعتي وحزمت البدلة الأخرى والملحقات وآلة الحلاقة والفرش في حقيبتي اليدوية ، ولففت مفتاح حقيبتي الكبرى في ورقة وضعتها في غلاف كتبتُ عليه عنوان أبي ، وكتبت الرسالتين المقتضبتين وجعلت كلاً منها في غلافها .

لم يكن الظل قدانقشع كله عن شرفة المدخل ، فوقفت داخل الباب أرقب الظل يتحرك . فهو يكاد يتحرك مرئياً ، زاحفاً إلى الخلف ما هو داخل الباب ، دافعاً بالظل إلى داخل الباب . غير أنها كانت قد بدأت بالركض عندما سمعته وفي المرآة كانت تركض قبل أن أدرك ما هو . بسرعة ، وقد رفعت أذيالها على ذراعها خارجة من المرآة كسحابة ، ونقابها يدوّم في لمع مستطيلة وكعباها هشان منطلقان ، قابضة على ثوبها لصق كتفها باليد الأخرى . خارجة من المرآة . الروائح الورود الورود الصوت الذي ضوعت أنفاسه في أرجاء جنة عدن . ثم عبرتْ الشرفة ولم أستطع سماع كعبيها ثم اقتحمت ضوء القمر أشبه بسحابة ، وظل نقابها العائم يجري عبر العشب ، إلى وسط الجنير ، وانطلقت من ثوبها . ممسكة بنقاب الزفاف ،

إلى وسط الجنير حيث تي بي في الندى الله الله الشراب وبنجي تحت الصندوق يجأر . كان لأبي درع فضي في شكل ٧ على صدره الراكض .

قال شريف : «لم تأت إلى المحاضرة... ما هذا ، أعرس أم جنازة ؟» .

قلت : «لم أستطع» .

- «وكيف لم تستطيع بكل هذا الهندام والتزويق . ما الأمر ؟ أظننت أن اليوم الأحد ؟» .

فقلت : «لست أحسب أن الشرطة ستعتقلني لأنني ارتديت بدلتي الجديدة ذات مرة ؟» .

- «كنت أفكر في طلاب «الميدان»* هل جعلت تأنف من حضور المحاضرات أيضاً ؟» .

- «أريد أن آكل أولاً» . كان الظل قد انقشع عن الشرفة . فخطوت إلى ضوء الشمس ، لأجد ظلي ثانية ، ونزلت الدرجات وهو على عقبي ودق نصف الساعة ثم توقفت الرنات وتلاشت .

لم يكن الشماس في دائرة البريد أيضاً . ألصقت الطوابع على الغلافين ، وحولت أحدهما إلى أبي ووضعت رسالة شريف في جيبي الداخلي ، ثم تذكرت متى رأيت الشماس لآخر مرة . كان ذلك يوم منح الأوسمة ، وقد ارتدى بزة «جيش الجمهورية الأعظم» ، وسط العرض العسكري . فلو انتظرت بعض الشيء عند أي منعطف لرأيته في أي عرض عسكري قادم . فالعرض السابق جرى يوم عيد ميلاد كولومبس أو غاريبالدي أوغيرهما . لقد كان في فرقة كناسي الشوارع ، يلبس قبعة كالمدخنة ، ويحمل علماً ايطالياً طوله بوصتان ، وهو يدخن سيجاراً بين المكانس والمكارف ، غير أن آخر عرض له كان عرض «جيش الجمهورية الأعظم» . لأن شريف قال إذ ذاك :

«إليك به! انظر كيف جنى جدك على ذلك الزنجي المسكين» .

---

* ميدان هارفرد ، وهو القلب من مدينة كمبردج ، ماساشوست . (المترجم)

فقلت : «نعم إن بوسعه الآن أن يقضي اليوم تلو اليوم سائراً في الإستعراضات . ولولا ما جناه جدي لكان عليه أن يشتغل كالقوم البيض» .

لم أره في أي مكان الا انني لم اعرف قط زنجياً تراه عندما تريده ، حتى ولو كان من الذين يشتغلون ، ناهيك عن الذين ينعمون بخيرات الأرض دونما شغل . جاءت احدى سيارات الباص فاستقللتها إلى المدينة وذهبت إلى مطعم باركر وتناولت فطوراً طيباً وبينما كنت آكل سمعت الساعة تدق . فلابد للمرء ، ولاريب ، من ساعة واحدة على الأقل يفقد فيها شعوره بالوقت ، وهو الذي قضى زمناً أطول من التاريخ في محاولته الانسجام في سيره الآلي .

عندما انتهيت من افطاري اشتريت سيجاراً . قالت الفتاة أن الواحد من أفضل انواع السيجار يباع بخمسين سنتاً . فأخذت واحداًوأشعلته وخرجت إلى الشارع . ووقفت هناك وسحبت نفسين ، ثم أمسكته بيدي ومشيت باتجاه المنعطف . فمررت بنافذة ساعاتيّ ، ولكنني أشحت عنها قبل أن يفوت الأوان وعند المنعطف احاط بي اثنان من صباغي الأحذية ، كل من جانب يصيحان وينعقان ، كغرابين أسودين . فأعطيت أحدهما السيجار والآخر عشرة سنتات . فتركاني وشأني ، وراح صاحب السيجار يحاول بيعه للآخر بالسنتات العشرة .

كانت هناك ساعة كبيرة ترتفع شاهقة في ضياء الشمس . فخطر لي أن المرء إذا ما أعرض عن فعل شيء ما ، دفعه جسده بالحيلة إلى فعله ، وكأنه لا يعي . لقد جعلت أشعر بالعضلات في مؤخر عنقي ، ثم جعلت اسمع الساعة تتكتك في جيبي ، بعد لحظات حبستُ عني الأصوات الأخرى جميعها غير مبق إلا على الساعة التي في جيبي فاستدرت في الشارع عائداً إلى النافذة . وكان الساعاتي يعمل على المنضدة خلف النافذة . وكان بادي الصلع . وفي عينه منظرة انبوب معدني مسمر في وجهه . ودخلت .

كان المكان يضج بالتكتكة كالزيزان بين حشائش أيلول ، وسمعت

ساعة كبيرة على الحائط فوق رأسه . فرفع رأسه نحوي وعينه كبيرة غائمة دافقة وراء المنظرة ، أخرجت ساعتي وناولته إياها .

- «لقد كسرت ساعتي» .

فقلبها في يده ، وقال : «أي والله لقد كسرتها لابد أنك دست عليها» .

- «نعم ياسيدي أوقعتها عن المنضدة ودست عليها في الظلام . ولكنها مازالت تدور» .

فأعمل عدته في ظهرها وفتحها وسلط عليها عينه . «تبدو صالحة ولكن لا أستطيع التأكد حتى أفحصها . سأفحصها بعد الظهر» .

فقلت : «سآتي بها اليك فيما بعد قل لي من فضلك ، هل بين هذه الساعات التي في النافذة ساعة مضبوطة» .

فأمسك بساعتي في كفه وصوب نحوي عينه الغائمة الدافقة . فقلت : «لقد راهنت أحد الناس ونسيت نظارتي هذا الصباح»...

قال : «لا بأس . لا بأس» . ووضع الساعة عنه وقام نصف قومة عن مقعده ونظر عبر الحاجز . ثم رفع عينيه إلى الجدار . «إنها الـ» .

فقاطعته : «لا تقل لي ، أرجوك يا سيدي . ما عليك إلا أن تخبرني إن كانت إحداها مضبوطة» .

فنظر إلي ثانية واستوى على مقعده ورفع منظرته إلى جبينه ، فخلفت حلقة حمراء حول عينه ، ولما زالت بان وجهه بتمامه كأنه عار أجرد ، وقال : «ما الذي تحتفل به اليوم ؟ سباق الزوارق لن يكون حتى الأسبوع القادم . أليس كذلك ؟» .

- «بلى يا سيدي . هذا احتفال خاص . عيد ميلاد . هل بين ساعاتك ساعة مضبوطة» .

- «كلا . لأنها لم تنظم وتضبط بعد . فإن كنت تنوي شراء أحداها» .

- «كلا ياسيدي لست بحاجة إلى ساعة . ففي صالوننا ساعة كبيرة . وسأصلح هذه» . ومددت يدي .

«خير لك أن تبقيها لدي» .

«سأعيدها فيما بعد» . فناولني الساعة ووضعتها في جيبي . وما عدت أسمع صوتها بين أصوات الساعات الأخرى كلها . «شكراً جزيلاً أرجو ألا أكون قد بددت وقتك» .

«لا بأس . احضرها عندما تريد . أوليس الأفضل أن تؤجل احتفالك إلى أن نكسب سباق الزوارق ؟» .

«معقول جداً يا سيدي» .

وخرجت مغلقاً الباب على التكتكة . ولما ادرت وجهي نحو النافذة رأيته يرقبني من وراء الحاجز . كان في النافذة حوالي عشر ساعات ، عشرة أوقات مختلفة ، ولكن منها مالساعتي دون عقاربها من تأكيد جازم متناقض . الواحدة تناقض الأخرى . كنت اسمع ساعتي تتكتك في جيبي ، وإن لم يكن ثمة من يستطيع رؤيتها ، وإن لم يكن ثمة ما تستطيع قوله حتى لو أن أحداً رآها .

وهكذا قلت لنفسي أن آخذ تلك الساعة . لأن أبي قال إن الساعات تنخر الزمن . لقد قال أن الزمن ميت لا محالة مادام مفتتاً بدواليب صغيرة ؛ ولن تعود الحياة إلى الزمن إلا عندما تقف الساعة . كان العقربان ممتدين افقياً بانحراف طفيف ، أشبه بنورس يطعن الريح . وهما مثقلان بكل ما أسيت له كالهلال مثقلاً بالماء ؛ على حد قول الزنوج . لقد عاد الساعاتي إلى عمله ثانية مطأطئ الرأس فوق منضدته ، والأنبوب متسمر في وجهه وشعره مفروق في الوسط ، ويمتد الفرق فيه إلى البقعة الصلعاء ، كمستنقع مجفف في شهر كانون .

رأيت حانوت الأدوات الحديدية عبر الشارع . لم أكن أدري انكم تشترون المكاوي بالرطل .

فقال الكاتب : «وزن هذه عشرة أرطال» . غير أنها كانت أكبر حجماً مما توقعت . فأخذت اثنتين صغيرتين ، زنة كل منهما ستة أرطال ،

لأنهماتبدوان اشبه بحذائين مرزومين . وقد أحسست بهما ثقيلتين معاً ، غير أنني تذكرت من جديد ما قاله أبي عن النهاية المنطقية الحمقاء لتجربة الإنسان ، متأملاً في الفرصة الوحيدة التي اتيحت لي فيما يبدو لتطبيق ماتعلمته في هارفرد . قد أفعل ذلك بنهاية السنة التالية ، قائلاً لنفسي لعل المرء يحتاج إلى سنتين من الدراسة الجامعية قبل أن يجيد فعل ذلك .

لقد كانتا ثقيلتين في الهواء . جاءت الحافلة* فركبتها ، دون أن أرى اللافتة التي في مقدمتها كانت مليئة بالركاب ، وجلهم ممن يبدو عليهم اليسار يقرؤون الصحف . وكان المقعد الخالي الوحيد بالقرب من زنجي ، يلبس قبعة « دربي » وحذائين مصبوغين ، وقد أمسك بعقب سيجارة مطفأ . كنت اعتقد فيما مضى ان الجنوبي ينبغي عليه دائماً أن يكون شاعراً بوجود الزنوج ، ظاناً ان « الشماليين » يتوقعون منه ذلك فلما جئت الى الشرق** لاول مرة جعلت أردد لنفسي « عليك ألا تنسى ان تنظر اليهم كملونين لا كزنوج عبيد » ولو لم يتفق أنني ما ألفيت نفسي مع الكثير منهم ، لأضعت الكثير من الوقت والجهد قبل أن أعلم أن أفضل الطرق في النظر إلى الناس جميعاً ، البيض منهم والسود على السواء ، هي أن تنظر إليهم وفق نظرتهم إلى أنفسهم ، ثم تدعهم وشأنهم . وكان عند ذلك أن أدركت أن الزنجي ليس شخصاً بقدر ماهو ضرب من السلوك ، كأنه الانعكاس المقابل للأناس البيض الذين يعيش بينهم . ولكنني حسبت بادئ الأمر أن لابد لي أن افتقد وجود الكثيرين منهم حولي إذ خلت أن الشماليين يخالونني أفتقدهم ، غير أنني في الواقع لم أفتقد رسكوس ودلزي والآخرين حتى صباح ذلك اليوم في فرجينيا . أوقف القطار ، فأفقت ورفعت مظلة النافذة ونظرت إلى الخارج . كانت الحافلة تسد تقاطع السكة بالطريق ، حيث كان سياجان ابيضان

---

* الحافلة هنا ضرب من « الترام » وقد تكون واحدة من حافلات مقطورة معاً . (المترجم)

** يقصد بالشرق الساحل الشمال الشرقي من الولايات المتحدة . حيث توجد ولاية « نيو انجلند » وأهم مدنها بوسطن التي تقع بقربها مدينة كمبردج مقر جامعة هارفرد .

ينحدران مع التل ثم ينأيان سفلاً كقرن لم يبق من هيكله إلا بعضه ، وكان هناك زنجي راكباً بغلاً وسط الأخاديد المتصلبة ينتظر تحرك القطار . لم أعرف كم قضى في مكانه ذاك من وقت ، غير أنه امتطى بغله كاسياً رأسه بقطعة من بطانية ، فكأنهما قد بنيا هناك مع السياج والطريق ، أو مع التل ، كأنهما قد نحتا من التل نفسه ، كلافتة أقيمت هناك تقول : إنك بين أهلك من جديد . لم يكن تحته سرج ، فتدلت قدماه حتى كادتا تلامسان الأرض . أما البغل فكان أشبه بالأرنب . ورفعت النافذة .

وقلت :«اسمع يا عم هل هذه هي الطريق ؟» .

- « ماذا يا سيدي ؟ » نظر إلي ثم حل البطانية ونحاها عن أذنه .

قلت :« خذ هذا هدية لعيد الميلاد! » .

- « أي والله ان العيد قادم . لقد أمسكت بي ، أليس كذلك ؟ » .

- « سأخلي سبيلك هذه المرة » . وسحبت سروالي من السرير الصغير المعلق وأخرجت منه ربع دولار . «ولكن خذ الحذر في المرة التالية . سأعود وأمر من هنا بعد رأس السنة بيومين ، فخذ إذ ذاك الحذر» . وقذفت بالربع إليه من النافذة ، قائلاً : «اشترِ لك هدية لعيد الميلاد » .

فقال : «نعم يا سيدي» وترجل والتقط الربع وفركه على ساقه . «شكراً يا سيدي الشاب ، شكراً » ثم بدأ القطار يتحرك . فأخرجت رأسي من النافذة إلى الهواء البارد ، ونظرت إلى الخلف . لقد ظل واقفاً هناك قرب بغله الضامر الشبيه بالأرنب ، كلاهما رث ساكن غير نافد الصبر . وانعطف القطار في المنحنى ، والقاطرة تنفث نفثات ثقيلة قصيرة ، وتلاشيا عن الأنظار تلاشياً ناعماً ، وقد علتهما سيماء صبر رث لايعرف الزمن . هدأة سكونية لاتعرف القلق : إنه ذلك المزيج من العجز الصبياني المتهيئ والأمانة المناقضة لنفسها ، وهو مزيج يحنو عليهما ويدافع عنهما ، مزيج يحب حباً يخرج على العقل ويسلبهما على مهل ، ويراوغ المسؤولية والواجب بوسائل أجهر من أن تسمى حتى بالخديعة ولايؤخذ في السلب أوالمراوغة إلا بذلك

الاعجاب التلقائي الصريح بالمنتصر ، الذي يحسه المرء الكريم إزاء من يغلبه في مسابقة عادلة ، ويرافق ذلك كله تسامح كلف لا يتقاعس إزاء اطوار القوم البيض الغربية كتسامح الجد إزاء اطفال مزعجين ينضحون بكل مالايستطاع توقعه ـ وهو تسامح كنت قد نسيته . واذ جعل القطار ينساب خلال الفجوات الدافقة وإزاء التلاع الصخرية حيث كانت الحركة مجرد صوت مكدود من النافذة والعجلات مرسلة الانين والجبال الأزلية تتلاشى في الفضاء الكثيف ، ورحت طوال ذلك لايوم افكر ببيتنا وبلدتنا ، بالمحطة والقفراء والطين والزنوج واهل الريف يزدحم الميدان بهم شيئاً فشيئاً ، والمكان يعج بدمى القرود والعربات والحلوى في الأكياس والشموع الكبيرة ناتئة هنا وهناك ، فتتحرك أحشائي كما كانت تتحرك في المدرسة كلما دق الجرس .

لم أكن أشرع في العد حتى تدق الساعة ثلاثاً . ثم أروح أعد حتى الستين ، طاوياً أحد اصابعي ومفكراً بالأصابع الأربعة عشر الأخرى التي تنتظر أن اطويها ، أو الثلاث عشرة أو الاثنتي عشرة أو الثماني أو السبع ، إلى أن أدرك على حين غرة الصمت والأذهان واليقظة ، فأقول :«نعم ياست ؟» فتقول الست لورا :«اسمك كونتن ، أليس كذلك ؟» .

ويلي ذلك مزيد من الصمت والأذهان اليقظة القاسية والأيدي المنتفضة صمتاً . «قل لكونتن من اكتشف نهر المسيسبي ، يا هنري» . «دي سوتو» . ثم تذهب عني الأذهان ، وبعد برهة تساورني الخشية من أنني تأخرت عن الآخرين فأسرع في العد وأطوي اصبعاً آخر ، ثم أخشى أن أكون بالغت في السرعة فأبطئ ، ثم أخاف وأسرع في العد مرة أخرى . وهكذا لم أفلح يوماً في الخروج متكافئاً مع الجرس ، وطوفان الأقدام التي سرعان ما تتحرك ، شاعراً بتراب الأرض المشحطة ، والنهار كلوح زجاج أصابته ضربة حادة خفيفة ، فتتحرك أحشائي ، ساكناً في جلستي . متحركاً ساكناً في جلستي . وقفت في الباب دقيقة . بنجي يعيط . بنجامين ابن شيخوختي يعيط . كادي! كادي!

سأهرب . فجعل يبكي فذهبت ولمسته ، صه . لن أهرب . صه .
فسكت . يا دلزي .

إنه يشم ما تريدين أن تقوليه له عندما يريد . فلاحاجة به إلى الإصغاء أو الكلام .

أيستطيع أن يشم هذا الاسم الجديد الذي اطلق عليه ؟ أيستطيع أن يشم سوء الحظ .

ولِمَ يزعج نفسه بالحظ ؟ لن يؤذيه الحظ في قليل او كثير .

اذن لماذا غيروا اسمه إن لم يكونوا يحاولون اسعاف حظه ؟

وقف القطار ، وسار ، ووقف ثانية . فرحت أرقب من النافذة أعالي رؤوس السابلة تحت قبعات القش التي ما حالت ألوانها بعد . ثم كان هناك في القطار نساء يحملن السلال ، وبدأ عددالرجال المرتدين ثياب العمل يزيد على عدد الأحذية المصبوغة والياقات البيضاء .

لمس الزنجي ركبتي وقال : «العفو» فدفعت ساقي جانباً لأفسح له المجال المرور . وكنا الآن نسير بمحاذاة جدار اصم يرجع قرقعة السيارة إليها ، إلى النساء الرافعات سلالهن على الركب ورجل ملوث القبعة غرز في رباطها غليونه ، ثم جعلت أشم رائحة ما ، وفي فجوة في الحائط لمحت بريق ماء وساريتين ، ونورساً ساكناً في الفضاء كأنه قائم على سلك غير مرئي بين الساريتين ، وعندها رفعت يدي وتحسست من خلال سترتي الرسالتين اللتين كتبتهما . وعندما وقف القطار نزلت منه .

كان الجسر مفتوحاً لأحد المراكب ، وتجر المركب ساحبة تنخره على جانب من مقدمته ، والدخان يتصاعد منها ، أما المركب نفسه فكأنه ينساب دونما وسيلة تُرى ، وكان يقف في مقدمة المركب رجل عار حتى الخصر يلف حبلاً ، وجسمه ملوح بلون ورقة التبغ . وعند الدفة رجل آخر يلبس قبعة قش لاسقف لها . نفذت السفينة خلال الجسر منزلقة تحت الأعمدة العارية كطيف في رابعة النهار ، وفوق المؤخرة تحوم نوارس ثلاثة كالدمى . وعندما انغلق

الجسر عَبرَته إلى الضفة الأخرى واتكأت على السياج المشرف على بيوت الزوارق . كانت العوامة مهجورة والأبواب مغلقة .

فالمجذفون في مثل هذا الحين يخرجون عصراً ، ويستريحون قبل ذلك ، ظِل الجسر ، وظِل طبقات السياج وظلي مستلقياً على الماء ـ ما أسهل ما خدعته فما عاد يهجرني! خمسون قدماً على الأقل . فيا ليت لدي شيئاً أغمره به في الماء، ممسكاً به إلى أن يغرق ، وظل الطرد كحذائين مرزومين ملقى على الماء . يزعم الزنوج أن ظل الغريق يترقبه في الماء طيلة الوقت إلى أن يغرق . كان يتألق ويتلألأ ، كأنه يتنفس . والعوامة بطيئة كالتنفس أيضاً ، والأسلاب نصف مغمورة ، تنساب أعقابها نحو البحر وكهوف البحر ومغاوره . إن وزن الماء الذي يحل محله كيت يساوي كيت وكيت . النهاية المنطقية الحمقاء للتجربة الإنسانية كلها ، ومكواتان مسطحتان تزن كلتاهما ستة أرطال ، هما معاً أثقل من مكواة خياط فحمية واحدة . يا للتبذير الآثم ، كما تقول دلزي . لقد عرف بنجي أن جدتي ماتت . فبكى . لقد شم الواقعة . شمها .

عادت الساحبة نزلاً باتجاه التيار وهي تقص الماء اسطوانات طويلة تتدحرج وتهز العوامة أخيراً بترجيع مرورها ، وتترنح العوامة على الأسطوانة المتدحرجة ببقبقة وصريف طويل ناشز حينما انجر الباب وبرز رجلان يحملان قارباً صغيراً وضعاه في الماء وبعد برهة خرج جرالد بلاند ومعه المجاذيف كان يلبس سروالا من الفلانلة وسترة رمادية ، وقبعة قش صلبة . لقد قرأ هو أو قرأت أمه ذات مرة في مكان ما أن الطلاب في أوكسفورد يجذفون لابسين بنطلونات الفلانلة وقبعات القش الصلبة ، فكان أن اشتريا لجيرالد في أوائل آذار من إحدى السنين قارباً بمجذافين فغدا إلى النهر بالفلانلة والقبعة الصلبة . ورغم أن جميع الذين كانوا في دور الزوارق هددوه باستدعاء الشرطة ، إلا أنه استمر في تجذيفه . وقد جاءت أمه في سيارة مكتراة ، مرتدية بذلة من الفراء أشبه ببذلة مستكشف قطبي ، وودّعته في

ريح سرعتها خمسة وعشرون ميلاً في الساعة ، في غمرة قطيع من كتل الجليد المنسابة كالخراف القذرة . ومنذ ذلك الحين آمنت بأن الله ليس رياضياً وسيداً مهذباً فحسب ، بل إنه من ولاية كنتاكي أيضاً . ولما أقلع وابتعد حادت عن الطريق وانحدرت إلى النهر ثانية وراحت تسوق سيارتها ببطء بموازاته فقالوا . لو رأيتهما عندئذ لما حسبت أن الواحد منهما قد شاهد الآخر من قبل أبداً ، كأنهما ملك وملكة ، لا يتبادلان النظرات ، وهما منطلقان جنباً إلى جنب عبر ولاية ماساشوستس في مدارين متوازيين ككوكبين في الفضاء .

جلس في قاربه ، وأخذ يجذف . إنه يجيد التجذيف الآن ، ولابد له من ذلك . فقد زعموا أن أمه حاولت أن تصرفه عن التجذيف ليفعل شيئاً آخر لا يفعله ، أو يعجز عن فعله بقية طلاب صفه ، غير أنه ركب رأسه هذه المرة بعناد أن جاز لنا أن نصف بالعناد جلسته المتكررة تلك في أوضاع من سأم الأمراء ، بشعره الأصفر الجعد وعينيه البنفسجيتين وأهدابه الطويلة وملابسه النيويوركية ، وقد استرسلت أمه العزيزة في التحدث الينا عن خيول جيرالد وزنوج جرالد ونساء جرالد ، ولاريب في أن الآباء والأزواج من أهل كنتاكي حمدوا الله وشكروه ألف مرة عندما دفعت جرالد إلى كمبردج . وقد كانت لها شقة في المدينة ، كما كانت لجرالد أيضاً شقة ، عدا غرفتيه في الكلية . وقد وافقتْ على معاشرته إياي لأنني على الأقل ، كشفت عن حسٍ فيّ غير هادف بضرورة نبل التصرف مدفوعاً بكوني ولدت جنوبي خط ماسن وديكسن ، وكان ثمة نفر آخر تتمتع جغرافيته بالمؤهلات المطلوبة (الحد الأدنى منها) لقد غفرتْ له ذلك على الأقل ، أو غضتْ النظر عنه ، بيد أنها منذ أن التقت بسبود خارجاً من الكنيسة وقال إنها ليست من كرائم السيدات فكرائم السيدات لا يخرجن من بيوتهن في مثل تلك الساعة من الليل ، لم تستطع قط أن تغفر له أن له أسماء خمسة ، بما فيها لقب إحدى أسر الدوقات الانجليزية ، ويقيني أنها عزّت نفسها عندئذ باعتقادها بأن

رجلاً ما من آل مينغولت أو مورتيمار تمرد يوماً على أسرته وتورط مع ابنة حارس القصر . وذلك أمر جد محتمل ، سواء أكان من اختراعها أم لم يكن ، فلقد كان سبود بطل العالم في التسكع ، دون قيد أو شرط .

أضحى القارب الآن نقطة بعيدة ، والمجذافان يلتمعان في الشمس بانتظام ، كأن القارب يسيّر نفسه بالغمزات .

هل كانت لك اخت قط ؟ لا ، ولكن كلهن عواهر .

هل كانت لك اخت قط ؟ كانت لدقيقة . عواهر .

لاعاهرة وقفت في الباب دقيقة . دالتن ايمز . دالتن ايمز ، قمصان دالتن . كنت دائماً أظنها من الخاكي ، من خاكي الجيش ، إلى أن وجدت أنها من الحرير الصيني الثقيل أو من أجود اصناف الفلانلة لأنها تزيد من سمرة وجهه وزرقة عينيه . دالتن ايمز . لقد كاد يكون نبيل المحتد . من أثاث المسرح ورق مقوى ، فإذا ما لمسته ـ آه اسبست وليس بالبرونز تماماً ولكن لن تراه في البيت .

تذكر أن كادي أيضاً امرأة ولابد لها من أن تفعل ماتفعل لأسباب نسائية أيضاً .

لم لا تدعينه إلى البيت يا كادي ؟ لماذا تفعلين ماتفعله نساء الزنوج في المرعى والخندق والأحراش المظلمة متخفية عنيفة ملتهبة في الأحراش المظلمة .

وبعد مدة كنت أصغي إلى ساعتي وجعلت أحس الرسالتين تخشخشان خلال سترتي ، لصق السياج واتكأت على السياج أرقب ظلي ، وكيف خدعته ، ومشيت بمحاذاة السياج ، غير أن بدلتي أيضاًكانت قاتمة وبوسعي مسح يديَ وأنا أرقب ظلي ، وكيف أنني خدعته . ودخلت ظل رصيف المرفأ ثم سرت شرقاً .

هارفرد ابني الذي في هارفرد هارفرد هارفرد ذلك الطفل الأنمش الوجه التقته يوم العرض الرياضي حاملاً شرائط ملونة ، متلصصاً لصق السياج

محاولاً أن يدعوها إليه بالصفير ، كالجرو ، ولإخفاقهم في إغرائه بالدخول إلى غرفة الطعام اعتقدت أمي أن في حوزته تعويذة ما سحرية سيسلطها عليها حالما يختلي بها . ولكن أي نذل كان مستلقياً قرب الصندوق تحت النافذة منخرطاً في العويل بوسعه أن يأتي في سيارة «ليموزين» وفي عروته زهرة ، هارفرد يا كونتن هذا هربرت . ابني الذي في هارفرد . سيكون لك هربرت أخاً أكبر وقد وعد جاسن بوظيفة في المصرف .

يضج بالمرح ، لكأنه صنع من غشاء ملون ، كالسماسرة . وجهه كله أسنان أسنان بيضاء بغير ابتسام . لقد سمعت به هناك . كله أسنان ولكن بغير ابتسام . هل ستسوقين أنت ؟

اركب ياكونتن .

هل ستسوقين أنت .

إنها سيارتها ألست فخوراً بأن أختك الصغيرة تملك أول سيارة في المدنية هدية من هربرت . مر زمن ولويس يعطيها دروساً كل صباح ألم تبلغك رسالتي يتشرف السيد جاسن ريتشموند كمبسن وعقيلته باعلان زواج كريمتهما كاندس من السيد سدني هربرت هد في الخامس والعشرين من نيسان عام ألف وتسعمئة وعشرة في جفرسن مسيسبي . يستقبلون المهنئين في منزلهم اعتباراً من أول آب رقم كذا وكذا شارع ساوث بند انديانا . وقال شريف ألن تفتح حتى الرسالة ؟ ثلاثة أيام . ثلاث مرات . السيد جاسن ريتشموند وعقيلته . من الغرب جاء الفتى لوخنفار على متن جواده قبل أوانه ، أليس كذلك ؟

أنا من الجنوب . ألست مضحكاً .

أجل كنت أعلم أنها في مكان ما من الريف .

ألست مضحكاً . خير لك لو تلتحق بالسيرك .

التحقت به ألا ترى كيف اعميت عيني بسقاية براغيث الفيل . ثلاث مرات فتيات الريف هؤلاء . يستحيل عليك حتى الحديث عنهن ، على كل ،

لم يحقق بايرون امنيته ، والحمد لله على ألا تضرب رجلاً يلبس نظارة .
ألن تفتح حتى الرسالة ؟ كانت ملقاة على المنضدة وشمعة تحترق على كل زاوية من الغلاف وقد شد برباط زهري ملوث وزهرتان اصطناعيتان على ألا تضرب رجلاً يلبس نظارة .

قرويون مساكين لم يسبق لهم أن رأوا سيارة وأكثرهم يزمرون ويزمرون كاندس إذن رفضتْ أن تنظر إليَ سيحيدون عن السبيل رفضت أن تنظر إليَ سيغضب أبوك إن أنت أصبت أحدهم بأذى لاريب في ضرورة اقتناء والدك لسيارة ، اكاد آسف لمجيئك بها ياهربرت لقد تمتعت بها جداً . طبعاً هناك العربة ولكن كلما أردت الخروج بها وجدت أن السيد كمبسن قد أمر السود بأن يقوموا بمهمة أجازف برأسي إن أنا عارضتها وهو يصر على أن رسكوس تحت تصرفي طيلة الوقت ولكنني أعلم معنى ذلك فما أكثر ما يسرف الناس بالوعود لالشيء إلا ليرضوا ضمائرهم أهكذا ستعامل طفلتي الصغيرة ياهربرت ولكنني أعلم أنك لن تفعل إن هربرت يدللنا جميعاً ياكونتن لقد أفسدنا هل كتبت إليك أنه سيعين جاسن في وظيفة في مصرفه عندما ينتهي جاسن من دراسته الثانوية ولسوف يصبح جاسن مصرفياً ممتازاً فهو الوحيد بين أبنائي الذي يتمتع بحس عملي والفضل في ذلك يعود إليَ فهو يحمل خصائص أهلي أما الآخرون فكلهم كآل كمبسن جاسن هيأ الطحين . كانا يصنعان الطيارات الورقية على الشرفة الخلفية ويبيعانها الواحدة بخمسة سنتات ، هو وابن باترسن . وكان جاسن أمين الصندوق .

لم يكن في هذه الحافلة زنوج ، والقبعات التي لم تكلح بعد تسيل مارة بنا تحت النافذة . سيذهب إلى هارفرد . لقد بعنا مرعى بنجي كان مستلقياً على الأرض وهو يعيط . لقد بعنا مرعى بنجي لكي يتمكن كونتن من الذهاب إلى هارفرد أخ لك أخوك الصغير .

عليك بسيارة لقد افادتك جداً ألا تظن ذلك يا كونتن ها أنا أدعوه بكونتن في أول لقاء فقد سُمعت عنه الكثير من كاندس .

ولِمَ لا فأنا أريد أن يكون أولادي أكثر من مجرد أصدقاء نعم كاندس وكونتن أكثر من مجرد صديقين أبي لقد فحشت لشد ما يؤسفني الأخ أو أخت لك لا أخت لا أخت لا أخت لك لا تسل كونتن فهو والسيد كمبسن يشعران بضرب من الإهانة كلما اتيح لي من القوة مايكفيني للنزول والجلوس على المائدة إني أعيش على أعصابي الآن وسأدفع ثمن ذلك عندما ينتهي كل هذا وتأخذ أنت طفلتي الصغيرة مني كان لأختي الصغيرة لا . لو كنت أستطيع أن أقول أماه ، أماه .

لا أظن أن السيد كمبسن يستطيع اللحاق بالسيارة إلا إذا استسلمت لمن يراودني فأخذتكِ أنت عوضاً عنها .

آه ياهربرت أتسمعين ياكاندس رفضت أن تنظر إليَّ زاوية الفك العنيدة الناعمة لاترد الطرف ولكن لاتغاري فهو يتملق امرأة عجوزاً ابنة ناضجة متزوجة لا استطيع التصديق .

كلام فارغ فأنت تبدين فتية ، إنك أوفر شباباً من كاندس ، اللون في خديك كصبية ، وجه لائم دامع رائحة من كافور ودموعٍ صوت يبكي وئيداً خافتاً وراء الباب المضاء بالشفق ومن زهر العسل شذا بلون الشفق أنزلوا من على درج مخزن السطح حقائب فارغة صوتها كالتوابيت الأرض المالحة لم يلق الموت في الأرض المالحة .

قبعات كلحت ولا قبعات . لن استطيع بعد ثلاث سنوات أن ألبس قبعةً مستحيل . في خبر كان . فهل سيكون ثمة قبعات يومئذ وأنا غير موجود ، ولاهارفرد كذلك . فهناك كما قال أبي يتشبث أسمى ما في الفكر بالقرميد الميت العتيق كما تتشبث المتسلقات الميتة . لا هارفرد يومئذ . بالنسبة إليَّ ، على كل حال . مرة أخرى . أعمق حزناً من قبل مرة أخرى أعمق الأحزان حزناً . مرة أخرى .

كان سبود مرتدياً قميصاً . صحيح إذن . حين أرى ظلي ثانية ، إن أنا لم أنتبه ، وهو الذي خدعته وأغرقته في الماء سأطأ ثانية ظلي الصلد الأصم .

ولكن لا أخت ، وماكنت لأفعلها . لن أسمح لأحد بالتجسس على ابنتي ماكنت .

أنى لي أن أسيطر على أي منهم وقد علمتهم دائماً ألا يحترموني ورغباتي أنا أعرف أنك تزدري أهلي ولكن هل في ذلك مايبرر تعليم أولادي أولادي أنا التي شقيت في ولادتهم وتربيتهم ألا يحترموني جعلت أدوس عظام ظلي على الكنكريت بعقبي الصلبين ثم إذا بي اسمع الساعة ولمست الرسالتين من خلال سترتي .

لن اسمح لأحد لا لك ولا لكونتن بالتجسس على ابنتي مهما ظننت أنها فعلت .

ولكنك على الأقل توافق على أن هناك مايبرر مراقبتها .

ماكنت ماكنت . أعلم أنك لن تفعليها وماكنت لاتكلم بهذه الحدة غير أن النساء لاتحترم الواحدة منهن الأخرى ولاتحترم نفسها .

ولكن لماذا فعلت وبدأت الدقات ترن حالما وطأت ظلي . إلا أنها إعلنت ربع الساعة ، ولم تقع عيني على« الشماس » في اي اتجاه نظرت . أكنت ، أكان بوسعي .

إنها لم تقصد ذلك فتلك طريقة النساء في كل ما يفعلن وما ذلك إلا لأنها تحب كادي .

مصابيح الشارع تنحدر على التل ثم تصعد في اتجاه المدينة . ومشيت على بطن ظلي . وبوسعي أن أمد يدي إلى ماوراءه . شاعراً بأن أبي خلفي فيما وراء ظلام الصيف وشهر آب المترع بالصرير مصابيح الشارع أنا وأبي نحمي النساء بعضهن من بعض ومن أنفسهن نساؤنا هذه حال النساء إنهن لا يتعلمن أيُ بشر نحن لقد فطرن على خصب في الريبة عملي يؤتي بين الحين والحين غلالاً وهن في الغالب على حق إن بينهن وبين الشر وشائج وقربى يزودنه بما ينقصه ويسحبن أطرافه غريزياً حولهن كأغطية الفراش ساعة سباتهن مخصبات له الذهن حتى يقضي الشر وطره

وجد أم لم يوجد رأيته قادماً بين اثنين من طلاب السنة الأولى . ولم يكن بعد قد استعاد نفسه من نشوة الاستعراض ، إذ حياني تحية ضابط رفيع الرتبة .

فوقفت وقلت : « أريد أن أراك لدقيقة » .

- « تراني أنا ؟ لابأس . سأراكم فيما بعد أيها الصحب ، » قال ذلك ، واقفاً ومستديراً إلى الوراء ، « كانت فرصة سعيدة للتحدث إليكم » . هذا هو« الشماس » بنصه وفصه . اسمعتهم يتحدثون عن الذين هم سيكولوجيون بالفطرة ؟ لقد قيل أن قطاراً ما لم يفته في مستهل العام الدراسي طوال اربعين سنة ، وأن بوسعه أن يتبين ابناء الجنوب من النظرة الأولى . لم يخطئ يوماً في ذلك وإذا سمعك تتكلم ذكر لك من أية ولاية أنت . وكان له زي خاص يستقبل فيه القطارات كأنه ، بكل ما فيه من رقع ، من ثياب كوخ العم طوم .

فيقول وهو يأخذ حقائبك : « نعم ياسيدي ، من هنا ياسيدي الشاب عال ، عال . يا ولد! تعال هنا وخذ هذه الحقائب » .

وعندها ترى جبلاً زاحفاً من الأمتعة يترنح في اتجاهك ، كاشفاً عن صبي أبيض يناهز الخامسة عشرة فيضيف إليه « الشماس » حقيبة أخرى كيفما اتفق ويسوقه أمامه . « إياك أن تسقطها يا ولد . نعم يا سيدي الشاب . ما عليك ألا أن تعطي الزنجي الشيخ رقم غرفتك ، فتجد امتعتك فيها حالما تبلغها » .

ومنذ تلك اللحظة وحتى يتم اخضاعك له تلقاه دوماً داخل غرفتك أو خارجها ، موجوداً في كل مكان ، دائم الثرثرة ، ويتحول اسلوبه بالتدريج ويغدو شمالياً كلما تحسن هندامه حتى تجد في النهاية . اذ يكون قد عصرك واستنفذ ضرعك وتكون أنت قد أدركت ما تورطت فيه ، أنه يناديك باسمك ، كونتن أو اي اسم آخر ، وعندما تراه ثانية تلفيه لابساً بدلة مستعملة من محلات « بروكس » وقبعة تحمل شارة أحد نوادي جامعة « برونستون » أعطاه اياها احدهم فظل يردد جازماً دمثاً إنها جزء من حزام ابرهام لنكولن العسكري . وقبل اعوام اشاع البعض انه يوم ظهر في الجامعة

لأول مرة ـ والله يعلم من أين جاء ـ كان خريج مدرسة اللاهوت . فلما أدرك معنى ذلك لذت له القصة حتى اخذ يروجها بنفسه ، الى أن جعل يعتقد ، ولاريب ، أنه خريج مدرسة اللاهوت فعلاً . مهما يكن من أمر ، فإنه راح يروي النوادر السخيفة الطويلة عن أيام تلمذته ، متحدثاً دونما كلفة عن اساتذة راحلين مسمياً إياهم بأسمائهم الأولى ، ولم تكن هذه الاسماء عادة صحيحة . بيد أنه كان للعديد من الطلاب الجدد السذج المستوحشين صديقاً وناصحاً ودليلاً . ويخيل إلي أنه بصغائر حيله واخاديعه ونفاقه لم يزكم الأنوف أكثر مما فعل غيره من البشر .

قال وهو يحدق فيّ من بقايا هالته العسكرية . «لم أراك لثلاثة أيام أو أربعة . أكنت مريضاً ؟» .

ـ «كلا إني بخير . كنت أدرس . ولكنني رأيتك» .

ـ «صحيح ؟» .

ـ «في الاستعراض قبل أيام» .

ـ «آه ، الاستعراض . تماماً كنت فيه . أنا لااكترث لمثل هذه الأمور ، كما لايخفى عليك ، ولكن الشباب يروق لهم أن أرافقهم ، القدامى منهم . فالسيدات يطلبن ظهور القدامى كما تعلم . وهل يرفض الكريم لهن طلباً ؟»

فقلت : «ويوم عطلة المهاجرين أيضاً ؟ لعلك كنت يومها تستجيب إلى طلب اتحاد النساء المسيحيات لمكافحة المسكرات ؟» .

ـ «يومها ؟ فعلت ذلك من أجل زوج ابنتي . إنه يريد أن يعمل عضواً في قوات المدينة . كناساً . وأنا اقول له أن كل مايعوزه هومكنسة ينام عليها . أرأيتني إذن ؟»

ـ «نعم ، في المرتين» .

ـ «أقصد في بزتي كيف بدوت ؟»

ـ «رائعاً بل كنت أروع مظهراً من كل الآخرين . ينبغي أن يجعلوك جنرالاً ياشماس» .

فمس ذراعي مساً خفيفاً وقد رقت يده وحفيت كما تفعل أيدي الزنوج ، وقال : «اسمع . بيني وبينك فقط . اقول لك هذا لأننا ، أنا وانت ، من جماعة واحدة ، في اليوم الأبيض واليوم الأسود على السواء» .

وانحنى نحوي قليلاً وهو سريع الكلام وعيناه زائغتان عني . «لدي من وسّطته في الأمر . انتظر حتى السنة القادمة . انتظر . ثم انظر أين يكون مكاني من المسيرة . لاحاجة بي لأن اخبرك كيف أنوي أن اتدبر الأمر . ماعلي إلا أن أقول ، من يعش ير ياصاح» . وهنا نظر إليّ وربت على كتفي وتأرجح إلى الوراء على عقبيه وهو يهز برأسه . «نعم ياسيدي وهل كنت لانضم إلى الديمقراطيين لغير غاية ؟ صهري موظف في المدينة ، وأنا أي والله ياسيدي . إن كان مجرد الانضمام إلى الديمقراطيين يهيء عملاً لابن الزانية هذا... أما بخصوصي : فما عليك إلا أن تقف عند ذلك المنعطف بعد سنة واحدة اعتباراً من أمس الأول ، لترى»

«إن شاء الله . انك أهل لذلك ياشماس . والآن وقد تذكرت»

واخرجت رسالة من جيبي . «خذ هذه إلى غرفتي وغداً أعطها لشريف سيكون لديه مايعطيك . ولكن لاتأخذها حتى الغد . تذكر» .

فأخذ الرسالة وتفحصها . «إنها مغلقة» .

- «نعم وقد كتب في داخلها : غير صالحة للاستعمال حتى الغد» .

فقال : «احم» . ونظر إلى الغلاف وقد زم بشفتيه .«هل قلت أن لديه مايعطيني إياه ؟»

- «نعم هدية اقدمها لك» .

نظر إلي والغلاف ابيض في يده السوداء ، في الشمس . كانت عيناه لمّاعتين بنّيتين بلا قزحية ، وفجأةً رأيت فيه رسكوس يرقبني من وراء افانين البيض التي يتظاهر بها الشماس من بزّة عسكرية ومماحكة سياسية واسلوب هارفردي ، عديمَ الثقة ، خفي النفس ، عيي اللسان ، عميق الاسى . وقال : «أرجو ألا تكون هذه نكتة تفعلها بزنجيك الشيخ ؟» .

نظر إلي والغلاف ابيض في يده السوداء ، في الشمس . كانت عيناه لمّاعتين بنّيتين بلا قزحية ، وفجأةً رأيت فيه رسكوس يرقبني من وراء افانين البيض التي يتظاهر بها الشماس من بزّة عسكرية ومماحكة سياسية واسلوب هارفردي ، عديمَ الثقة ، خفي النفس ، عيي اللسان ، عميق الاسى . وقال : «ارجو الا تكون هذه نكتة تفعلها بزنجيك الشيخ ؟ »

- «انت تدري انها ليست كذلك . وهل نكث بك يوماً رجل من الجنوب ؟» .

- «صدقت والله . انهم قوم طيبون . ولكن من المستحيل العيش معهم» .

فقلت : «وهل جربت ذلك يوماً ؟» غير ان رسكوس اختفى . وعاد الشماس مرة اخرى الى الذات التي لقّن نفسه منذ زمن طويل ان يتلبّسها أمام اعين العالم ، بما فيها من تحذلق وزيف لا يبلغان حد الخشونة .

- «سأصدع لما تريد يا صاح» .

- «ليس قبل الغد ، تذكر» .

- «أكيد . مفهوم يا صاح . ولكن -» .

فقلت : «آمل» . وارسل بصره نحوي ، كريم النفس ، عميق الابعاد . وفجأةً مددت له يدي وتصافحنا ، وقد اشتد به الوقار من علياء حلمه العسكري البَلديّوي . «انك رجل طيب يا شماس . آمل... انك كنت عوناً للكثير من الشباب ، هنا وهناك» .

فقال : «لقد حاولت ان اعامل الناس كلهم كما ينبغي . فأنا لا اضع فوارق اجتماعية حقيرة فيما بينهم . الانسان في نظري انسان أينما وجدته» .

- «ارجو ان تجد دوماً من الاصدقاء بعدد من صادقت» .

- «انهم شباب ، أنسجم معهم ، فلا ينسونني» . قال ذلك وهو يلوّح بالرسالة . ثم وضعها في جيبه وزرّر سترته . وقال : «اي والله . ان لي اصدقاءَ طيبين» .

وبدأت الرنّات مرة اخرى ، معلنة نصف الساعة . فوقفت في بطن ظلي واصغيت إلى الدقات متناسقةً وادعةً ونور الشمس ، بين الاوراق الصغيرة الرقيقة الساكنة . متناسقةً آمنةً خليّة البال فيها ما في الاجراس دوماً من رنّة الخريف حتى إبّان شهر العرائس . مستلقياً على الارض تحت النافذة وهو يعيط القى عليها نظرة واحدة فعرف . من افواه الاطفال . مصابيح الشوارع وتوقفت الرنّات . وعدت ادراجي إلى دائرة البريد وأنا اطأ ظلي مقحماً اياه في الرصيف . تنحدر التل ثم تصعد نحو المدينة كفوانيس عُلِّق بعضها فوق بعض على جدار . وقال ابي إنها لحبها كادي تحب الناس لنقائصهم . وجلس خالي موري منفرج الساقين امام النار وعليه ان ينقّل يده زمناً يؤمّن له ان يبلغ شراب عيد الميلاد . واستمر جاسن في ركضه ووقع ويداه في جيبيه وبقي ملقى هناك كالطير المنتوف الى ان اوقفه فيرش على قدميه . لم لا تبقي يديك خارج جيبيك عندما تركض لكي تظل واقفاً على قدميك مديراً رأسه في المهد مديراً اياه عبر ظهره . وقالت كادي لجاسن ان فيرش يقول ان السبب في ان خالي موري لا يشتغل هو انه كان في طفولته يدير رأسه وهو في المهد .

رأيت شريف آتياً يجرجر قدميه على الممشى ، بدينَ الجد ، ونظارته تتألق تحت الاوراق الجارية كبركتين صغيرتين .

- «لقد اعطيت الشماس ورقة ببعض الاشياء . قد لا اكون في غرفتي بعد ظهر اليوم ، فإياك ان تعطيه شيئاً حتى صباح الغد » .

- «لا بأس» . ونظر اليّ . «بربك ما الذي تريد فعله اليوم ، وقد تهندمت وتزينت وهمت على وجهك مطبقاً مراسيم اشبه بمقدمة مراسيم الارملة الهندية التي ستضحي بنفسها على قبر زوجها ؟ هل ذهبت لمحاضرة علم النفس هذا الصباح ؟ »

- «لن افعل شيئاً اليوم . حتى الغد » .

- «ما هذا الذي تحمله ؟ » .

ـ «لا شيء . حذاء نعلته عند الاسكافي . لا شيء حتى الغد ، اتسمع ؟»

ـ «طيّب ، طيّب . وبالمناسبة ، هل اخذت رسالة لك كانت على المنضدة هذا الصباح ؟»

ـ «كلا» .

ـ «انها هناك . من سميراميس* اتى بها السائق قبل العاشرة» .

ـ «لا بأس . سآخذها . ترى ما الذي تريده الآن ؟»

ـ «حفلة موسقية اخرى ، فيما اظن . للآلات النحاسية . تمتي تاتا جرالد بلا... ضربة اقوى على الطبل يا كونتن! احمد الله على انني لست بجنتلمان» . وانصرف عني محتضناً كتاباً ، بدين العزم ، مشوّه الشكل قليلاً . مصابيح الشوارع اتظن ذلك لان احد اسلافنا كان حاكماً وثلاثة منهم كانوا قواداً عسكريين ولم يكن كذلك احد من اسلاف امي .

ايّ حيٍ خيرٌ من اي ميت ولكن ما حي أو ميت خير من اي حي او ميتٍ آخر أما في ذهن أمي فقد تم وانتهى . انتهى . ثم تسممنا كلنا انك تخلط بين الإثم والاخلاق . والنساء لا يفعلن ذلك وامك انما تفكر في الاخلاق اما ان كانت هذه الاخلاق إثماً ام لا فشيء لم يخطر لها ببال .

يجب ان اذهب يا جاسن احتفظ انت بالآخرين اما انا فسآخذ جاسن وأذهب إلى مكان لا يعرفنا فيه احد لكي يتاح له ان ينشأ وينسى كل هذا لا يحبني احد من الآخرين ولا هم احبوا شيئاً قط وقد ابتُلوا بشيمة آل كمبسن شيمة الانانية والكبرياء الزائفة وجاسن هو الوحيد الذي تعلق به قلبي دون وجل .

كلام فارغ ان جاسن بخير وقد فكرت انك حالما تتحسنين صحةً قد تذهبين برفقة كادي الى «فرنش ليك» .

واترك جاسن هنا ولا احد حوله إلاك وهؤلاء السود .

---

* يقصد بهذه التسمية الساخرة المنزل بلاند ، ام جرالد . (المترجم)

سوف تنساه وحينئذ يكف الناس عن أقاويلهم لم يلقَ الموت في الارض السبخاء .

جاءت الحافلة ووقفت ، والاجراس لا تزال تدق نصف الساعة . فركبتُها وسارت ثانية غامرةً صوت نصف الساعة . لا : ثلاثة الارباع . على كل ، ستستغرق عشر دقائق . أن تترك هارفرد حلم أمك أن مرعى بنجي قد بيع لكي

ما الذي جنيت حتى أُرزق اولاداً كهؤلاء . أما كفاني بينجامين عقاباً حتى تتمرد ابنتي عليّ انا امها التي من اجلها عانيت وقاسيت ومن اجلها حلمت وخططت وضحيت ونزلت الى وادي الموت ولكنها منذ أن فتحت عينيها لم تعرني يوماً بالاً دون انانية وغالباً ما أنظر إليها فأتساءل اهي حقاً ولدي الا جاسن فهو لم يسبب لي لحظة من الحزن او الالم منذ أن حملته بين ذراعيّ لقد ادركت آنئذ أنه سيكون فرحي وخلاصي وقلت حسبي ببنجامين عقاباً جزاء ما اقترفت من ذنوب قلت انه عقابي لتنازلي عن كبريائي وزواجي من رجل يعتبر نفسه اسمى شرفاً مني اني لا أتذمر لقد احببته اكثر من الآخرين جميعاً شعوراً بواجبي بالرغم ان جاسن راح يجرجر قلبي وحشاي طيلة الوقت غير اني ارى الآن انني لم أنل كفايتي من العذاب أرى الآن ان عليّ ان أجازى على خطاياك بالاضافة الى خطاياي ما الذي فعلتَه ما الذي جنيتَه ، ما الآثام التي اقترفها اسلافك ذوو الحسب والنسب ، الآثام التي يقع عليّ انا الآن قصاصها غير انك ستقف دونهم محامياً فمن شأنك دوماً أن تجد الاعذار لمن هم من دمك باستثناء جاسن فهو المذنب الوحيد لان في عروقه من دماء باسكوم باستثناء اكثر مما فيها من دماء كمبسن في حين أن ابنتك انت ابنتي الصغيرة طفلتي العزيزة ليست بأفضل من ذلك . أيام كنت صبية ما كنت لسوء طالعي الا من آل باسكوم ولكنهم انشؤوني على ان اعتقد ان ليس للمرأة طريق وسط فهي اما شريفة او غير شريفة فلما كنت احتضنها طفلةً بين ذراعي لم يخطر ببالي قط ان ابنةً لي ستسمح لنفسها بالذي تدريه

أنت . بوسعي ان انظر الى عينيها وأدرك ولقد تحسب انها ستعترف ولكنها لا تعترف بشيء لانها انطوانية تنام على اسرارها انت لا تعرفها اما انا فأعرف اموراً فعَلَتْها اوثر الموت على الادلاء بها إليك أهكذا اذن لك ان تستمر في انتقاد جاسن واتهامي بأني أحضّه على مراقبتها كأن ذلك جرم مني في حين ان ابنتك لها ان أنا أعلم لا تحبه وانك توهم نفسك بأنك ترى فيه اخطاء ليست فيك أجل إهزأ منه كما هزئت دائماً من موري لن تؤلمني اكثر مما آلمني اولادك حتى اليوم ولسوف أموت ويبقى جاسن وليس له من يحبّه ويحنو عليه ويقيه هذا كله وإني لأنظر إليه كل يوم وقلبي واجف خشية ان أرى دم آل كمسبن قد اخذ يظهر فيه أخيراً وأخته تتسلَّل من البيت لتقابل هذا الذي ما اسمه وهل وقعت عليه عيناك قط او لن تتيح لي ان اعرف على الأقل من هو لا من أجلي انا فانني لن اطيق رؤيته بل من اجلك انت لحمايتك انت ولكن من يقوى على محاربة الدم الفاسد ولن تدعني أحاول وعلينا ان نجلس مكتوفي الأيدي في حين راحت تمرّغ اسمك في الاوحال وتسمّم الهواء الذي يتنفسه اولادك يجب عليك يا جاسن أن تدعني ارحل عنكم فما عدت أتحمل هذا دع لي جاسن واحتفظ انت بالآخرين انهم ليسوا مثله من لحمي ودمي غرباء لا قربى ولا صلة بيننا وأنا اخافهم واخشاهم فبوسعي ان آخذ جاسن فنذهب الى حيث لا يعرفنا أحد ولسوف آخرّ ساجدة على ركبتيّ وأصلي واطلب الغفران لذنوبي لعله ينجو من هذه اللعنة وأحاول ان انسى وجود الآخرين .

ان كانت تلك ثلاثة أربع الساعة ، فما بقي إلا زهاء عشر دقائق . وكانت إحدى الحافلات قد سارت قبل لحظات ، والناس يتجمعون في انتظار التالية . سألت أحدهم ، غير انه لم يعرف إذا كانت ثمة أخرى ستسير قبل الظهر لأنك قد تحسب ان سكان الضواحي . وهكذا كانت الاولى بعد ذلك حافلة ترام . فركبتها . بوسعك ان تحس الظهيرة . ترى ايحسّها أيضاً عمال المناجم في أحشاء الارض . ومن هنا الصافرات : لأن الذين يعرقون ، وان

أنت ابتعدتَ عن العرق بعداً كافياً فلن تسمع الصافرات وفي ثماني دقائق تكون قد ابتعدت بقدر ذلك البعد عن العرق في بوسطن . كان أبي يقول إن الانسانَ مجموعُ نكباته . ولقد تظن يوماً ان النكبات قد سئمت ، ولكن الزمن هو نكبتك قال ابي . نورس معلقٌ على سلكٍ غير مرئي مجرورٌ عبر الفضاء . انك لتحمل رمز خيبتك معك الى الآبد . وعندها يكون الجناح أكبر قال أبي ولكن من يستطيع العزف بالقيثارة .

كلما وقفت الحافلة سمعت ساعتي ، ولكن لم يتكرر ذلك كثيراً وكانوا قد بدأوا يأكلون من يريد العزف الأكل مسألة الأكل في دخانلك من الفضاء الى الفضاء والزمن مضطرب مشوّش المعدة تقول الظُهر والدماغ يقول ساعة الأكل لا بأس ترى ما الساعة وما همني . كانوا ينزلون . وما عادت الحافلة تكثر من الوقوف ، وقد أخلاها الأكل .

ثم مرت . نزلتُ ووقفت في ظلي وبعد لحظات جاءت حافلة ركبتها وعدت إلى محطة ما بين المدن . كانت هناك حافلة مهيأة للسير ، ووجدت فيها مقعداً قرب النافذة ورقبتها وكأنها تتمزق إلى نتفٍ من مساكن رخوة تعلو وتهبط ، ثم إلى شجر . وبين الحين والآخر كنت أرى النهر فأقول لشدّ ما سيلذّ لهم في «نيو لندن» اذا كان الطقس جيداً وزورق جرالد بكل وقار يصعد الضحى المتألق وتساءلت ترى ما الذي تريده تلك العجوز وقد أرسلت إليّ رسالتها قبل العاشرة هذا الصباح . أية صورة لجرالد دالتن إيمز آه أسبست أطلق النار عليه كونتن أكون أنا في خلفيتها .صورةٌ فيها فتيات . فالنساء لهنّ صوته دائماً يعلو اللغط والضجيج يوحي بالقربى بينهن والشر ، بينهن والاعتقاد بأن ليس في الدنيا امرأة أهل للثقة ، ولكن بعض الرجال سذج لا يعرفون كيف يحمون أنفسهم . فتيات عاديات . أقرباء بعيدون وأصدقاء للعائلة أضفى عليهم مجرد كونهم معارف لا أكثر ضرباً من الالتزام العشائري يحتّمه كرم النفس . وصاحبتنا جالسة هناك تقول لنا أمام وجوههم جميعاً أليس من المؤسف ان يتمتع جرالد بكل ما في الاسرة من جميل

القسمات يكون الرجل عادة في غنى عنها ، بل خير له ان يكون بدونها ، أما الفتاة فهي ضائعة بدونها . وتروي لنا أخبار نساء جرالد بنبرة المستحسن الراضي عن نفسه ، بنبرة كونتن أطلق النار على هربرت أطلق النار على صوته من خلال أرض غرفة كادي . «عندما كان في السابعة عشرة من عمره قلت له يوماً : أليس من المؤسف ان يكون لك فم كهذا الفم الذي يجب ان يتحلى به وجه فتاة . او تعرفون والستائر قد حنت على الاصيل على شذى شجرة التفاح وخلف رأسها الاصيل وذراعاها خلف رأسها مجنَّحان بالكيمونو والصوت الذي تنفس في ارجاء جنة عدن وعلى الفراش ثياب تحت الانف ترى فوق التفاحة ماذا قال ؟ وعمره سبعة عشر عاماً ، تذكروا» . قال : «كثيراً ما يتحلى به وجه فتاة» . وصاحبنا جالس هناك في أوضاع ملكية يرقب اثنتين أو ثلاثاً من خلال أهدابه . وهن يتدفقن كسنونوات تسفّ لصق أهدابه . وقد قال شريف إنه دائماً هل ستُعنى ببنجي وابي .

خير لك الا تتكلمي عن بنجي وأبي هل همّك أمرهما يوماً ؟ .

عدني .

لا تقلقي عليهما انك ذاهبة في خير حال .

عدني إني مريضة عليك أن تعدني يتساءل من الذي اخترع تلك النكتة إلا انه كان دائماً يعدّ المسز بلاند امرأة حافظت على حسنها وقوامها رغم انف السنين وقال إنها تهيىء ابنها جرالد لغواية احدى الدوقات يوماً ما . اما هي فقد دعت شريف بذلك الفتى الكَنَدي السمين ومرتين رتبت لي زميلاً جديداً يقاسمني غرفتي دون استشارتي ، ومرة بأن أغيّر الغرفة ، والأخرى...

فَتَح البابَ في الأصيل ، ووجهه أشبه بيقطينة مطبوخة .

- «جئت أودعك أحرّ الوداع . ولئن يفرّق القدر العاتي بيننا فإني لن أحب احداً سواك . ابداً» .

- «ما الذي تتكلم عنه ؟»

- «اني اتكلم عن القدر مرتدياً ثماني ياردات من الحرير المشمشي

ويحمل من المعدن ارطالاً اكثر مما كان يحمله رفيق المراكب والمالك الأوحد للمرحاض المشّاء بلا منازع في الاتحاد الجنوبي المرحوم » . ثم أخبرني كيف انها ذهبت إلى رقيب الجامعة وطلبت إليه ان يخرجه من غرفتي وكيف ان الرقيب ابدى من العناد ما جعله يصرّ على استطلاع رأي شريف اولاً . فاقترحتْ عليه ان يرسل في طلب شريف على الفور لسؤاله ، ولكنه رفض ، ولذا فإنها منذ ذلك اليوم لم تخاطب شريف بلطف قط . وقال شريف : «ان من مبادئي ألا اغلظ القول في امرأة ، غير ان لتلك المرأة من اساليب العواهر ما ليس لأية سيدة في هذه الاصقاع والولايات المستقلة ذات السيادة » . والآن رسالة على المنضدة سُلّمت باليد ، أمر زاهي اللون معطّر بالأوركيد ولو علمتْ انني كدت امرّ تحت النافذة وانا اعرف بوجودها هناك دون سيدتي العزيزة لم يتح لي بعد ان اتسلّم رسالتك الكريمة غير انني استميحك العذر سلفاً عن الحضور اليوم او البارحة او غداً او عندما اذكر كيف يقذف جرالد بزنوجه على الدرج وكيف ان الزنجي توسّل ان يسمح له بالتخرج من مدرسة اللاهوت ليكون على مقربة من السيد جرالد وكيف انه جرى طيلة الطريق الى المحطة بمحاذاة العربة وعيناه طافحتان بالدموع حين رحل فيها السيد المحترم جرالد فاني سأنتظر حتى ذلك اليوم أما النكتة الاخرى عن الزوج الذي يعمل في المنشرة فإنه جاء الى باب المطبخ وبيده بندقية صيد فنزل جرالد وعضّ البندقية شطرين وأعادها اليه ومسح يديه بمنديل من حرير ورمى بالمنديل في نار الموقد لم اسمعها إلا مرتين .

اطلق النار عليه من خلال الـ رأيتك تدخل هنا فاغتنمت الفرصة وجئت اليك لعلنا نتعارف وندخن سيجاراً معاً .

شكراً إني لا أدخن .

صحيح لا بدّ ان الامور قد تغيّرت منذ ان كنت هناك ، أتسمح لي بأن اشعل سيجاري ؟

تفضل .

شكراً لقد سمعت لست احسب ان امك تعترض ان انا وضعت عود الكبريت وراء الحاجز الكثير عنك فقد كانت كاندس تتحدث عنك طيلة الوقت ونحن في فرنش ليك حتى جعلت اغار منك وقلت لنفسي من هو كونتن هذا ؟ لا بد لي من ان أرى ما شكل الحيوان هذا وذلك لأن الغيرة نالت مني أترى حالما رأيت الفتاة ولا اكتمك انه لم يخطر ببالي قط انها انما تتحدث عن أخيها ولكن ما كانت لتتحدث عنك اكثر مما تحدثت حتى لو كنت الرجل الوحيد في الدنيا ولن يكون الزوج فيها ألن تغيّر رأيك وتدخن .

أنا لا أدخن .

اذن فلن أصر بالرغم من ان هذا تبغ فاخر يكلفني خمسة وعشرين دولاراً لكل مئة بالجملة لي صديق في هافانا أجل لا بد ان في الجامعة تغيرات كثيرة وانا دائماً اكرر الوعد لنفسي بزيارتها ولكنني لسبب ما لا افعل لقد أمضيت عشر سنين منذ ان بدأت حياة العمل ولا يسعني ان اترك المصرف في أثناء الدراسة وعادات المرء تتبدّل وما يبدو للطالب امراً خطيراً كما تعلم أخبرني عن امور الحياة هناك .

لن اخبر ابي وامي ان كان هذا ما ترمي إليه .

لن تخبر لن تخبر ، آه اهذا ما تقول اود ان تعلم انه لا يهمني في كثير او قليل ان اخبرتهما او لم تخبرهما فأنا أعلم ان شيئاً من هذا القبيل امر مؤسف غير انه ليس جريمة تتعقبها الشرطة فلست انا الاول ولا الأخير انما كنتُ سيء الحظ وقد تكون انت اوفر حظاً مني .

تكذب .

لا تغضب لست احاول جعلك تدلي بشيء لا تريد الادلاء به لم أقصد اية اساءة بالطبع وشاب فتي مثلك يعتبر مثل هذا الامر اخطر بكثير مما سوف تعتبره انت بعد خمس سنوات .

ليس لي الا اسلوب واحد في النظر الى الغش والخديعة ولا أحسب ان هارفرد ستعلمني غير ذلك .

حوارنا خير من مسرحية لا بد انك جعلت المؤلـ طيّب لا بأس انت على حق لا حاجة الى اخبار والديك والذي فات مات ها ولماذا نسمح انا وانت لأمر طفيف كهذا بالوقوف حجر عثرة بيننا اني اودك يا كونتن ويروق لي مظهرك فأنت لا تشبه هؤلاء الصقعاء الآخرين ويسعدني ان عرى الالفة ستتوثق بيننا وقد وعدت أمك بأنني سأساعد جاسن ولكنني اود لو اعينك انت ايضاً لا شك في ان جاسن سيكون في خير حال هنا أما بالنسبة الى شاب مثلك فليس في هذه الخرابة مستقبل لك .

شكراً ارجوك ان تقصر همك على جاسن فهو يليق بك أكثر مني .

انا آسف لما حدث ولكن الفتى الذي كنتُه حينئذ لم تكن لي أم كأمك تلقنني المبادئ الرفيعة ولسوف يؤلمها الأمر دونما ضرورة إن هي علمت به انك على حق لا حاجة بنا وينطبق هذا على كاندس ايضاً بالطبع .

قلت أبي وأمي .

انظر انظر إليّ أتظن انك تقوى على الصمود طويلاً إزائي .

اني في غنى عن الصمود طويلاً ان كنتَ قد تعلمتَ القتال في المدرسة جرّب تعرف مقدار صمودي .

ما الذي تقصده يا

جربْ تعرف

رباه السيجار ما الذي ستقوله امك لو رأت حَرْقاً على رف موقدها ولكن لم يحدث شيء اسمع يا كونتن اننا على وشك الوقوع في امر سنندم كلانا عليه وانا اودك لقد وددتك حالما رأيتك وقلت لا بد انه شاب ممتاز مهما يكن الامر والا فان كاندس لن تعجب به هذا الاعجاب لقد مضت عليّ عشر سنين وانا في خضمّ الحياة وستجد ان الامور حينئذ ليست على ما تتصوره من الأهمية والخطورة فلنأتلف انا وانت بهذا الشأن نحن ابناء هارفرد يخيل اليّ انني لن اعرفها لو زرتها الآن انها للشاب خير مكان في الدنيا وقد قررت ان ارسل ابنائي اليها واتيح لهم فرصة افضل مما اتيح لي انتظر لا تذهب

ولنبحث هذا الموضوع ان الشاب يؤمن بهذه الافكار وحسناً يفعل فإنها تفيده وهو في طور الدراسة وتقوّم خلقه وتحافظ على التقاليد هذا في المدرسة ولكنه حالما يتركها ليدخل عالم الناس عليه ان يحصل على ما يريد بأبرع السبل التي يملكها لأنه سيجد ان الآخرين كلهَم لا يحاولون الا الشيء نفسه مضحين بكل شيء، آخر تعال اذن ولنتصافح ونتناسَ ما فات من اجل والدتك تذكر حالتها الصحية هيا اعطي يدك وانظر إلى هذه لقد خرجت تواً من الدير أترى ما انقاها لم يشُبها بعد اي غَضَنٍ أو تثنٍ هاك

خذ نقودك الى حيث ألقت

لا لا اسمع هيا انني الآن من افراد الاسرة ولا تحسب انني اجهل شعور شاب مثلك له غرامياته الكثيرة ويصعب عليه ان يستخرج القرش من ابيه اعرف ذلك كله ألم اكن طالباً ايضاً ومنذ زمن ليس بالطويل اما الآن فانني مقبل على الزواج وغير ذلك ولا سيما في الجامعة هيا لا تكن احمق واسمع حالما تتاح لنا فرصة لحديث جاد سأخبرك عن ارملة صبية في المدينة

ذاك ايضاً سمعته ابقِ نقودك القذرة لنفسك

اعتبرها دَيْناً اذن اغمض عينيك دقيقة تجد انك اغنى بخمسين

ابعد يديك عني وارفع سيجارك من على الرف

اذهب اذن وأخبر من تشاء ولنر النتائج الباهرة لو لم تكن غبياً مغفلاً لأدركت انني طوّقتهم في وضع يستحيل على اخ فجّ مثلك التدخل فيه لقد اخبرتني امك من اي صنف انت وقد انتفخ رأسك كبرياءً ادخلي ادخلي ياعزيزتي انا وكونتن قد بدأنا نتعارف ونتحدث عن هارفرد اتريدينني اترى كيف انها لا تستطيع بُعداً عن رَجُلها

اخرج لدقيقة يا هربرت اريد التحدث الى كونتن

تعالي ادخلي لنثرثر سوية ونتعارف كنت اقول لكونتن

ارجوك هربرت اخرج للحظة

لا بأس اذن يظهر انك تريدين ان تري اخاك مرة اخرى ها

وارفع سيجارك عن الرف

اصبت كالعادة يا صاح اذن عليَ بالخروج وليتحكموا بكِ ما دام ذلك من حقهم ولكن يا كونتن بعد اليوم الذي ما بعد غد سيترتب عليك ان تقول للزوج ارجوك ومن فضلك أليس كذلك علي بقبلة يا حلوتي

كف عن ذلك وفّره لليوم الذي يلي الغد

عند ذاك سأصرّ على الفائدة ايضاً لا تسمحي لكونتن بفعل شيء لا يستطيع انجازه وبالمناسبة هل رويت لك يا كونتن قصة الببغاء التي كانت مُلكاً لأحدهم انها قصة محزنة ذكّرني بها فكّر بها باي باي الى اللقاء في مجلة الفكاهة

إذن

إذن

ما الذي تحاوله الآن

لا شيء

انك تتدخل بشؤوني ثانية الم يكفك التدخل في الصيف الماضي ؟

كادي انك محمومة انك مريضة تدوخين لماذا

اني أدوخ وكفى . ولن اسأل لماذا

اطلق النار على صوته خلال الـ

لا هذا النذل الحقير يا كادي

كان النهر بين الحين والحين يتألق وراء الاشياء فيما يشبه الالَقَ الخاطف عبر الظهيرة وبعدها . بعد الظهيرة بكثير ، وان كنّا قد مررنا به وهو ما يزال يجذفّ ضد التيار في جلالٍ شامخ ازاء وجه الله الآلهة . أحسن . الآلهة . والمجذافان البليلان يحملانه في غمزات وهاجة واكفٍ نسائية . مملاقٌ منافق . مملاق ان لم يكَن زوجاً فانه ليتجاهل الله . ذلك النذل الحقير يا كادي وراح النهر يتألق وراء منحنى خاطف طويل

اني مريضة يجب ان تعدني

مريضة وما مرضك

مريضة ولا استطيع أن استشير أحداً بعد ولكن عدني

إن يكونا بحاجة الى عناية فما ذلك إلا بسببك ما مرضك تحت النافذة سمعنا الحافلة تغادر المكان الى المحطة ، قطار الساعة ١٠ : ٨ . للعودة بأبناء العم . رؤوس . يزيد من نفسه رأساً رأساً ولكن لا حلاّقين . فتيات المانيكيور . كان لدينا يوماً حصان أصيل . في الاسطبل نعم ، أما تحت السرج فجرو ليس الآ . لقد اطلق كونتن النار على أصواتهم جميعاً من خلال أرض غرفة كادي

وقفت الحافلة ونزلت الى وسط ظلي . كانت ثمة طريق تقطع سكّة الحافلة . ومظلّة خشبية تحتها رجل يأكل شيئاً من كيس ورقٍ ، ثم تعدّت الحافلة نطاق السمع . كانت الطريق تفضي الى الاشجار حيث يمتد الفيء ، غير أن اوراق حزيران في نيوانجلند لا تزيد كثافة عن اوراق نيسان في بلدتي في مسيسبي . ووقعت عيني على مدخنة عالية . فأدرت اليها ظهري ووطئتُ ظلي في التراب . كان فيَّ شيء رهيب وفي بعض الليالي كنت أراه يكشّر لي اراه من خلالهم يكشّر لي من خلال وجوههم لقد راح الآن وأنا مريضة

كادي

لا تمسني انما عدني فقط

ان كنت مريضة فلن تقدري

بلى أقدر وبعد ذلك تعتدل الأمور ولن يكون لذلك أهمية لا تدعهم يرسلونه الى جاكسن عدني

اني اعدك يا كادي كادي

لا تمسني لا تمسني

ما شكله يا كادي

ما هو

هذا الذي يكشر لك من خلالهم

كنت ما زلت ارى المدخنة العالية . هناك الماء ينساب الى البحر والكهوف الآمنة . تتساقط آمنة وعندما يقول الله «انهضوا» لا ترتفع الا المكواتان . عندما كنا انا وفيرش نقضي النهار كله بالصيد لم نكن نأخذ معنا غداءً ، وفي الثانية عشرة كنت اجوع . فأبقى جائعاً حتى الواحدة واذا بي فجأة قد نسيت حتى انني ما عدت جائعاً . مصابيح الشوارع تنزل التل ثم سمعت الحافلة تنزل التل . وذراع الكرسي مسطح بارد ناعم تحت جبيني وشجرة التفاح تنحني على شعري فوق ثياب الجنة تُري بالانف انك محمومة وقد شعرت بها امس كأنك جالسة قرب الموقد

لا تمسني

لن تستطيعي ذلك ان كنت مريضة يا كادي . ذلك النذل الحقير . لا بد لي من الزواج من رجل ما . ثم اخبروني ان العظم يجب كسره ثانية .

واخيراً ما عدت ارى المدخنة . وجعلت الطريق تحاذي حائطاً تنحني عليه الاشجار ، وعلى الاشجار رذاذ من نور الشمس . كان الحجر بارداً . فاذا مشيت قربه احسست برودته . غير ان ريفنا ليس كهذا الريف . ففي مجرد التمشي في مجاليه شيء يصعب تحديده ، ضرب من الخصب الساكن العنيف المشبع ابداً كمن جوع الى الخبز . دافقاً من حولك ، لا مستغرقاً في التأمل وحاضناً كل حجر شحيح . كأنه مُكره على التذرع بالحيل لتفي الخضرة بحاجة الاشجار كلها ، وحتى زرقة الفضاء البعيد ليست كهذه السعادة العميقة اللون . اخبروني ان العظم يجب كسره ثانية فصرخت أعماقي يقول آه آه آه وبدأت أعرق . ما همني فأنا اعرف ما تعنيه الساق المكسورة كل ما تعنيه لن تكون شيئاً ذا بال فكل ما علي هو ان ابقى في البيت لمدة اطول بقليل لا غير وعضلات فكي آخذة بالخدر وفمي يقول انتظر انتظر لحظة من خلال العرق وآه آه آه خلف أسناني وابي لعنة الله على هذا الحصان لعنة الله على هذا الحصان انتظر غلطتي . كان يأتي كل

صباح بمحاذاة السياج حاملا سلة في اتجاه المطبخ ويجر عصاه على السياج وكل صباح أجرّ نفسي الى النافذة وساقي في جبيرة الجبس وأقذفه بقطعة فحم فتقول دلزي ستحطم نفسك ألست أعقل من ان تفعل ذلك ولم تمر بعد اربعة ايام منذ كسرتها . انتظري سوف اعتاد عليها في لحظة انتظري لحظة سوف .

حتى الصوت يبدو كأنه ينقطع في هذا الهواء ، كأنما الهواء منهوك القوى لطول ما حمل من اصوات . ان صوت الكلب أبعد مدى من صوت القطار ، في الظلام على الاقل . وكذلك اصوات بعض الناس . والزنوج . فلويس هاتشر لم يستعمل قط بوقه رغم انه كان يحمله مع ذلك المصباح العتيق . قلت : « متى نظفت ذلك المصباح لآخر مرة ؟ » .

ـ « نظفته قبل مدة . أتذكر عندما جرفت مياه ذلك الفيضان اناساً كثيرين هناك ؟ نظفته في ذلك اليوم بعينه . فقد كنا انا وعجوزتي جالسين امام النار تلك الليلة فقالت : يا لويس ، ما الذي ستفعله عندما يبلغنا الفيضان ؟ فقلت : اي والله صدقتِ . فالأفضل ان انظف ذلك المصباح . وهكذا نظفته تلك الليلة » .

قلت : « ولكن ذلك الفيضان كان في بنسلفانيا . وما كان بامكانه ان يبلغ هذا المكان » .

فقال : « هذا ما تظنه انت . فالماء يعلو ويفيض في جفرسن كما في بنسلفانيا . والناس الذين يقولون ان الماء لا يستطيع ان يبلغ هذا المكان هم الذين تجدهم في النهاية عائمين متشبثين بسقائف البيوت » .

ـ « هل خرجتما تلك الليلة ، انت ومرتا ؟ » .

ـ « ذلك ما فعلناه . نظفت المصباح ثم قضينا بقية الليل اناوهي على قمة تلك التلة التي وراء المقبرة . ولو كنت اعرف بوجود قمة اعلى منها لذهبنا اليها » .

ـ « ومنذ ذلك اليوم لم تنظف المصباح ؟ » .

- «ولماذا أنظفه ما دمت لا احتاج اليه ؟» .
- «تقصد الى ان يأتينا فيضان آخر ؟» .
- «لقد خلّصنا من ذلك الفيضان ؟» .

فقلت : «دع عنك هذا يا عم لويس» .

- «اي والله يا سيدي ، أنت تذهب في سبيلك وانا أذهب في سبيلي . ان يكن كل ما علي ان افعله للخلاص من مياه الفيضان هو تنظيف هذا المصباح ، فلن أخاصم أحداً» .

فقال فيرش : «العم لويس لا يصطاد شيئاً بضوء ينير له الطريق» .

- «يا ولد ، كنت اصطاد القنافذ في هذه البقاع أيام كانوا يغرقون الصئبان في رأس أبيك بالنفط» . قال لويس . «وامسك بها ايضاً» .

فقال فيرش : «صحيح . أتصور ان العم لويس اصطاد من القنافذ أكثر مما اصطاده أي رجل آخر في هذا البلد» .

قال لويس : «اي والله . عندي الكثير من الضوء لرؤية القنافذ . وما سمعت أحدها يتذمر . صه! هناك هو . هُوِي! هيا يا كلبي ، عليك به!» ونجلس بين الاوراق اليابسة الهامسة همساً رفيقاً مع ونيد تنفسنا في الانتظار ونيد تنفس الأرض وتشرين العديم الريح ، ورائحة المصباح الخبيثة تلوث الهواء الرقيق الهش ، مصغين الى الكلاب وصدى صوت لويس يتلاشى بعيداً . لم يرفع صوته قط ، غير اننا كنا في الليالي الساكنة نسمعه حتى من شرفتنا الامامية . واذا ما استدعى كلابه كان صوته أشبه بالبوق الذي يحمله معلّقاً على كتفه ولا يستعمله ، الا انه أكثر صفاء ورخامة كأنه جزء من الظلام والسكون ، يتلولب خارجاً منه داخلاً فيه من جديد . هو وووو... هو وووو... هو وووو هوووووووووو... لا بد لي من الزواج من رجل ما

هل عرفت رجالاً كثيرين ياكادي

لا اعرف الكثيرين هل ستعنى ببنجي وابي

اذن ألا تعلمين من ابوه أيعلم هو

لا تمسني ارجوك هل ستعنى ببنجي وابي

بدأت أشعر بالماء قبل ان ابلغ الجسر . كان الجسر من حجر رماديّ ، مطحلب ، بقّعته الرطوبة البطيئة حيث دبت فطريات العفن . وكان الماء تحته صافياً ساكناً في الظل ، يهمس ويقوقئ . حول الحجر في دوامات متلاشية من سماء تدور وتدور . كادي ذلك

لا بد لي من الزواج من رجل ما لقد أخبرني فيرش عن رجل خصى نفسه . توغل في الاحراش وفعلها بموسى وهو جالس في خندق . بموسى مكسورةٍ . وقذف بهما الى الخلف من فوق كتفه وفي الحركة نفسها انقذفت انشوطة الدم المترجرجة خلفاً وما تحلقت . ولكن ليست هذه هي المسألة . ليست المسألة فقدانهما . بل هي ان اولد بدونهما ولقلت حينئذٍ آه تلك لغة صينية وأنا لا أعرف الصينية . وقال أبي : ذلك لأنك أعذر ، الا ترى ؟ والنساء لسن أبداً عذارى . فالعفة حالة سلبية ولذا فإنها تناقض الطبيعة . الطبيعة هي التي تؤلمك وليست كادي فقلت هذه محض كلمات فقال وكذلك البكارة . فقلت انت لا تدري ، وليس بوسعك ان تدري فقال اجل . في اللحظة التي ندرك فيها ان المأساة وافتنا لا جديدة بل كرداء مستعمل .

كان بوسعي ان أرى سُفُلاً الى عمق بعيد حيث يقع ظل الجسر ، ولكن دون ان أرى القاع . اذا تركت ورقة خضراء في الماء مدةً طويلة وجدت بعد زمن ان النسج يتلاشى وأن الألياف الدقيقة تتماوج بطيئة بطء حركة النوم . وفُلاً يمسّ بعضها بعضاً مهما تتشابك في الأصل ، مهما تكن في الأصل قريبة من العظام . ويوم يقول الله « قوموا » لربما تطفو العينان أيضاً الى السطح خارجتين من أعماق الهدأة والنوم ، لتشاهدا النور والجلال . وبعد لحظات تطفو المكواتان . لقد اخفيتهما تحت نهاية الجسر وعدت واتكأت على الافريز .

لم استطع ان أرى القاع ، ولكن بصري ، كان ينفذ عميقاً في حركة الماء قبل ان تكلّ العين ، واذا بي أرى ظلاً طافياً كسهم بدين متأصل في

التيار . وكان الذباب يحوّم فوق سطح الماء داخلاً ظل الجسر خارجاً منه .
يا ليت هناك جحيماً وراء ذلك : اللهب النقي وكلانا اكثر من ميت .
وعندها لن يكون لك سواي سواي أنا ثم كلانا وسط الإشارات والرعب
وراء اللهب النقي لقد تضخم السهم بغير حركة ، وفي تدويرة سريعة التقمت
السمكة ذبابةً تحت السطح بتلك النزاكة العملاقية التي تراها في فيل يلتقط
فستقة . وانسابت الدوامة المتلاشية مع السيل ثم رأيت السهم ثانية ، ورأسه
في التيار ، وهو يترنح ترنحاً لطيفاً مع حركة الماء الذي كان الذباب فوقه
يتمايل ويتوازن . دون غيرنا أنا وانت حينئذ وسط الاشارات والرعب
يُسَوِّرنا اللهب النقي

واستكانت السمكة ، رقيقة لا تبدي حراكاً بين الظلال المترنحة . وجاء
ثلاثة اولاد يحملون السنانير إلى الجسر واتكأنا كلنا على الافريز وتأملنا
السمكة . لقد كانوا يعرفونها . إنها من شخصيات المحلّة .

ـ «لقد مضى عليهم وهم يحاولون ان يصيدوا تلك السمكة خمس
وعشرون سنة . وفي بوسطن حانوت يقدّم سنّارة قيمتها خمسة وعشرون
دولاراً لكل من يستطيع صيدها» .

ـ «لماذا لا تصيدونها انتم اذن ؟ ألا تودّون لو تحصلون على سنارة
قيمتها خمسة وعشرون دولاراً ؟» .

فقالوا : «نعم» . واتكأوا على الافريز وهم ينظرون إلى السمكة . وقال
احدهم : «ليتني استطيع» .

قال الثاني : «لن آخذ السنارة ، بل النقود» .

فقال الاول : «لن يقبلوا بذلك . بل يجعلونك تأخذ السنّارة» .

ـ «ابيعها اذن» .

ـ «لن تحصل بها على خمسة وعشرين دولاراً» .

ـ «سآخذ المبلغ الذي يتيسر ، اذن . فأنا بهذه السنارة أتمكن من
صيد العديد من السمك بقدر ما اتمكن من صيدها بذات الخمسة والعشرين

دولاراً» . ثم راحوا يتحدثون عما سيفعلونه بالخمسة والعشرين دولاراً . وكلهم يتحدثون في آن واحد ، بأصوات ملحاحة متناقضة لجوج ، جاعلين من الخيال إمكاناً ، ثم احتمالاً ثم حقيقة لا تُدحض ، شأن الناس جميعهم عندما تتحول مشتهياتهم ألفاظاً .

قال الثاني : «سأشتري حصاناً وعربة» .

فقال الآخران : «صحيح ؟»

- «اي والله . فأنا أعرف مكاناً أستطيع شراءهما منه بخمسة وعشرين دولاراً . أعرف صاحب المكان» .

- «من هو ؟» .

- «ولم السؤال ؟ باستطاعتي ان اشتريهما بخمسة وعشرين دولاراً» .

فقال الآخران «انه يهرف بما لا يعرف . كلام في كلام» .

فقال الولد : «أهذا ما تظنان ؟» واستمرا في الهزء منه وهو لا يقول شيئاً . واتكأ على الافريز يتأمل السمكة التي انهكها ، واذا الأصوات فجأة تفقد المرارة والصراع ، كأن الآخرين اقتنعا هما ايضاً بأنه قد أسر السمكة وابتاع العربة والحصان ، وبدت فيهما تلك السجية من سجايا البالغين ، سجية الاقتناع بأي شيء بمجرد التظاهر بالاستعلاء الصامت الوقور . وليخيل إلي ان الناس ، لشدة ما يستهلكون انفسهم وغيرهم الفاظاً ، ينسجمون مع منطقهم حين يعزون الحكمة الى الشفتين المطبقتين ، فانتابني الشعور لبرهة بأن الاثنين الآخرين جعلا يبحثان حثيثاً عن وسيلة ما يسيطران بها عليه ، ويسلبانه عربته وحصانه .

فقال الاول : «لن تحصل على خمسة وعشرين دولاراً لقاء تلك السنارة . اراهنك على ما شئت» .

قال الثالث فجأة : «لم يصد تلك السمكة بعد» . ثم صاحا معاً : «اترى ؟ ماذا قلت لك ؟ ما اسم صاحب المكان ؟ اتحداك بأن تذكره . لا وجود لمثل هذا الرجل» .

فقال الثاني : «اوه ، اسكت! انظر . ها هي قد عادت ثانية» . واتكأوا على الافريز ، بلا حراك ، متماثلين ، وسنانيرهم الهيفاء نازلة ، متمائلة أيضاً ، في ضوء الشمس . ونهضت السمكة دونما عجلة ، ظلاً باهتاً يترنح ويتضخم ، وتلاشت الدوامة ثانية منسابة مع السيل . وتمتم الاول : «يا الله» .

وقال : «لن نحاول ان نصيدها مرة اخرى . ولنراقب اهل بوسطن وهم يحاولون» .

- «وهل هي السمكة الوحيدة في هذا الماء ؟» .

- «نعم . فقد هَزَمت الاسماك الاخرى كلها . ولكن افضل اماكن الصيد هي هناك ، عند «الدوامة»» .

فقال الثاني : «لا ، ابداً . افضل منها بمرتين المكان الذي عند طاحونة بيغلو» . وتلا ذلك جدل حول افضل امكنة الصيد ، اقلعوا عنه فجأة ليرقبوا السمكة وهي ترتفع ثانية ودوامة الماء الصغيرة تمتص شيئاً من السماء . فسألتهم عن المسافة الى اقرب بلدة . فأخبروني .

- «ولكن اقصر طرق الحافلات في الاتجاه الآخر» . قال الثاني وهو يشير بيده الى الطرف القصي من الطريق : «الى اين انت ذاهب ؟» .

- «لا مكان . انني اتمشى» .

- هل أنت من طلاب الجامعة ؟

- «نعم . أتوجد في تلك البلدة مصانع ؟» .

- «مصانع ؟» وحدّقوا بي .

وقال الثاني : «كلا» . وتأملوا ثيابي . «أتبحث عن عمل ؟» .

قال الثالث : «وطاحونة بيغلو ، أليست مصنعاً ؟» .

- «اي مصنع ؟ انه يسأل عن مصنع حقيقي» .

فقلت : «مصنع له صافرة . لم اسمع بعد صفارة تعلن الساعة الواحدة» .

فقال الثاني : «آه . في قبة الكنيسة الاتحادية ساعة ، تستطيع ان تعرف الوقت منها . الا تحمل انت ساعة على طرف سلسلتك هذه ؟ » .

ـ «لقد كسرتها هذا الصباح» . وأريتهم ساعتي . ففحصوها جادّين .

وقال الثاني :

ـ «ما زالت تشتغل . ما ثمن ساعة كهذه ؟ » .

فقلت : «انها هدية . اعطاني اياها ابي يوم تخرجت من الثانوية» .

قال الثالث : «أكنديّ انت ؟ » وكان شعره احمر .

ـ «كندي ؟ » .

قال الثاني : «انه لا يتكلم مثلهم . فقد سمعتهم يتكلمون . انه يتكلم كما يفعلون في حفلات المغنين الملونين» .

فقال الثالث : «ألا تخشى أن يضربك ؟ » .

ـ يضربني ؟ » .

ـ «قلتَ انه يتكلم كالملونين» .

ـ «كفاك كلاماً! بوسعك ان ترى برج الكنيسة عندما تصعد ذلك التل» .

فشكرتهم . «أرجو لكم التوفيق . ولكن لا تصيدوا صاحبتنا التي في هذا الماء . ألا تستحق أن تترك وشأنها ؟ » .

فقال الأول : «وهل هناك من يستطيع صيدها ؟ » واتكأوا على الافريز ، وهم يرسلون النظر إلى أعماق الماء ، وسنانيرهم الثلاث كخيوط مائلة ثلاثة من نار صفراء تلتمع في الشمس . ومشيت على ظلي ، مقحماً إياه بقدمي في بُقَع أفياء الشجر ثانية . كان الطريق ينعطف صعداً عن الماء ، ويقطع التلَ ، ثم ينحدر في تعاريج وهو يحمل العين والذهن قُدُماً في نفق أخضر ساكن تحت قبة تعلو الاشجار وعينَ الساعة المستديرة . جلست على قارعة الطريق . كان العشب يبلغ الكاحلين ، كثاً . والظلال الملقاة على الطريق ساكنة كأنها قد رسمت عليه بأقلام مائلة من ضوء الشمس . ولكن لم يكن

ذاك إلا قطاراً تلاشى بعد قليل وراء الأشجار صوته الطويل ، ثم جعلت اسمع ساعتي واسمع القطار يتلاشى ، كأنه يجري خلال شهر آخر أو صيف آخر في مكان ما ، مهرولاً تحت النورس المتوازن في الفضاء، وكل ما يهرول . إلا جرالد . فهو أيضاً سيبدو جليلاً وقوراً وهو يجذف في أبهة الوحيد الفريد عبر الظهيرة ، الى ما وراء الظهيرة ، صاعداً الفضاء الوهاج المستطيل كشيء مؤلّه ، راقياً الى أبدية وسنانة حيث يكون هو والطير دون غيرهما ، أحدهما بلا حراك والآخر في انطلاقة مجذافية ونيدة كأنها القصور الذاتي بعينه ، والدنيا ضئيلة تحت ظلّيها الواقعين على الشمس . يا كادي ذلك النذل الحقير ذلك النذل الحقير يا كادي .

جاءتني أصواتهم من على التل والسنانير النحيلة الثلاث كخيوط متزنة من نار جارية . ونظروا اليَّ اذ مرّوا بي ، غير مبطئين .

فقلت : «لست أراها ؟» .

فقال الأول : «لم نحاول ان نصيدها . لن يستطيع أحد ان يصيدها» .

قال الثاني مشيراً : «تلك هي الساعة ، بوسعك ان تعرف الساعة اذا دنوت منها قليلاً» .

قلت : «نعم . لا بأس» . ونهضت . «اذاهبون انتم الى المدينة ؟» .

قال الأول : «اننا ذاهبون الى «الدوامة» للصيد» .

قال الثاني : «ولن نصيد شيئاً هناك» .

- «هل الافضل اذن ان نذهب الى الطاحونة ، حيث الكثيرون يتراشقون بالماء ويُفزعون الاسماك ؟» .

- «لن نصيد شيئاً عند الدوامة» .

قال الثالث : «لن نصيد سمكاً في اي مكان اذا لم نذهب» .

فقال الثاني : «لست ادري والله ما فائدة الكلام عن الدوامة . لن نصيد سمكة واحدة هناك» .

قال الاول : «لا حاجة بك الى الذهاب هناك ، انت لست مربوطاً بي» .

قال الثالث : «لنذهب الى الطاحونة ونسبح » .

قال الاول : «لن اذهب الا الى الدوامة للصيد ، فافعل ما تشاء » .

قال الثاني للثالث : «بالله قل لي ، متى سمعت احداً اصطاد سمكة عند الدوامة ؟» .

فقال الثالث : «لنذهب الى الطاحونة ونسبح » .

اخذت القبة تحتجب رويداً وراء الاشجار ، وميناء الساعة المستدير لما يزل بعيداً . وسرنا معاً في الظلال الرقشاء حتى بلغنا حديقة وردية بيضاء ، تعج بالنحل . فقد بدأنا نسمع الطنين .

وقال الثالث : «لنذهب الى الطاحونة ونسبح » . كان قرب الحديقة ممر يتفرع عن الطريق . فأبطأ الولد الثالث سيره ثم توقف . اما الاول فاستمر في سيره ، ونَدْفُ من الشمس ينزلق على السنارة عبر كتفه الى ظهر قميصه . قال الثالث : «هيا بنا » . فتوقف الولد الثاني ايضاً . ولماذا لا بد لك من زواج يا كادي .

اتريدني ان اقولها اتظن اذا قلتها انها

قال : «لنذهب الى الطاحونة . هيا بنا » .

واستمر الولد الاول في سيره ، دون ان تحدث قدماه الحافيتان صوتاً إذ تقعان على التراب الرقيق وقعاً انعم من وقع اوراق الشجر . اما في الحديقة فقد كان طنين النحل اشبه بريح تلملم نفسها ، او بصوت بلغ ما دون الذروة شدةً فأبقاه سحر ما مستمراً وهو دون ذروته بقليل . كان العمر يمتد بمحاذاة الحائط وقد انعقدت فوقه الأزهار في قناطر وجزآته ، ويتلاشى في الشجر . ونور الشمس هابط فيه ، متقطعاً لاهثاً . والفراشات الصفر تنتفض في الفيء كندف من الشمس .

وقال الولد الثاني : «لماذا تريد الذهاب الى الدوامة ؟ لك ان تصيد السمك عند الطاحونة اذا شئت » .

فقال الثالث : «آه ، فليذهب » . وتبعا الولد الاول بنظراتهما . ونور

الشمس ينزلق متقطعاً عبر كتفه الماشية ، ويتألق على سنارته كالنمل الأصفر .

قال الولد الثاني : « كني » . **قلها لابيك ارجوك سأقولها اني ناسلُ ابي لقد اخترعته وخلقته انا اياه قلها له انها لن تكون لانه سيقول لم اكن ثم انت وانا محب الاطفال أطفالي**

وقال الولد : « هيا ، هيا بنا . لقد بدأوا يسبحون » . وتبعا الولد الاول بنظراتهما ، ثم قالا فجأة : « طيّب ، اذهب ، اذهب يا مدلّل امه . اذا ذهب للسباحة ابتّل رأسه ، فيأكلها علقة في البيت » . ودخلا الممر وسارا ، والفراشات الصفر تتهابط حولهما في الظل .

ذلك لانه ليس ثمة اي شيء آخر بل اعتقد ان ثمة شيئاً آخر ولكن لعلني واهم ومن ثم انا انك ستجد حتى الظلم يكاد لا يكون اهلاً لما تعتقد انك اياه لم يعرني اي اهتمام ، مشدود الحنك وقد اشاح الوجه قليلاً تحت قبعته المكسّرة .

وقلت : « لماذا لا تذهب للسباحة معهما ؟ » **ذلك النذل الحقير يا كادي**

هل كنت تحاول ان تتشاجر معه هل كنت

كذّاب ووغد لئيم يا كادي طردوه من عضوية ناديه لغشّه في لعب الورق وقاطعوه اجتماعياً وامسكوا به متلبساً بالغش في امتحانات نصف السنة وطردوه

وماذا يهمني من كل ذلك لن ألعب معه الورق

قلت : « أتفضل صيد السمك على السباحة ؟ » وتضاءل طنين النحل ، وان بقي مستمراً ، كأنه بدلاً من ان ينتهي الى الصمت ، ازداد الصمت بيننا ، كماء يرتفع . وانعطف الطريق ثانية وأصبح شارعاً على جوانبه حدائق وارفة الظلال تتوسطها بيوت بيضاء . **كادي ذلك النذل الحقير أبوسعك ان تفكري بابي وبنجي وتفعليها وبي**

وهل هناك ما أفكر به سوى ذلك هل هناك ما فكرت به سوى ذلك لقد حاد الولد عن الشارع . ثم تسلّق سياجاً دون ان ينظر الى الخلف وقطع مرج الحديقة الى احدى الاشجار ورمى بالسنارة عنه وتسلّق الى فرع الشجرة وقعد هناك مديراً ظهره الى الطريق واستقرت الشمس الرقشاء بلا حراك أخيراً على قميصه الابيض . فكرت به سوى ذلك لا استطيع حتى البكاء لقد متُّ في السنة الماضية وقد قلت لك ذلك من قبل غير انني لم اعرف حينئذ معنى ما قلت لم اعرف ما الذي كنت اقول بعض الايام في أواخر آب في بلدتنا شبيه بهذا ، اذ يكون الهواء رقيقاً لاهثاً كهذا الهواء ، يشوبه حزن وتوق وحنين . وما الانسان إلا مجموع تجاربه المناخية ، قال أبي . وما الانسان إلا مجموع ما تشاء . معضلة من معضلات الخواص المشوبة وقد استمرت رتيبةً إلى صفرٍ لا يتبدل : حرب سجال بين التراب والشهوة . اما الآن فانني أعلم انني ميتة

اذن لماذا عزمت اسمعي بوسعنا ان نذهب انا وانت وبنجي الى مكان لا يعرفنا فيه أحد حيث كانت العربة يجرّها حصان أبيض تقرع حوافره التراب الرقيق ، والعجلات العنكبوتية تدمدم دمدمة رقيقة هشّة ، وهي تصعد التل تحت رداء يتماوج من الورق . دردار . دردار .

بماذا بنقود رسومك الجامعية بالنقود التي تأتت لقاء المرعى الذي باعوه لكي تستطيع الذهاب الى هارفرد ألا ترى ان عليك ان تكمل الدراسة وان لم تكملها لم يبق له شيء

المرعى الذي باعوه كان قميصه بلا حراك في فرع الشجرة ، في الظل المنتفض . وكانت العجلات عنكبوتية ، والحوافر تحت منخفض العربة تطّرد رشيقة كحركات سيدة تطرّز منديلاً ، تتضاءل دونما تقدم كمن يقلّد الركض على خشبة المسرح . ثم انعطف الشارع مرة أخرى . ورأيت القبة وإصرار الساعة الغبي المستدير . المرعى الذي باعوه

يقولون ان ابي سيموت بعد سنة ان لم يكفّ عن الشرب وهو لن

يكفَ عنه لأنه لن يستطيع لأنّ لأنني منذ الصيف الماضي وعندئذ يرسلون بنجي الى جاكسن لا استطيع البكاء لا أستطيع حتى البكاء وقفت في الباب دقيقة وسرعان ما راح يسحب ثوبها ويولول وصوته تتقاذفه الجدران أمواجاً وقد جعلت تتقلص لصق الحائط أصغر فأصغر وقد ابيضَ وجهها وغدت عيناها كإبهامين مغروزين فيه الى أن دفع بها الى خارج الغرفة وصوته تتقاذفه الجدران جيئةً وذهاباً كأن اندفاعه لن يدعه يتوقف كأنه لا مكان له في عالم الصمت يولول

اذا فتحت الباب دقَ جرسُ دقة واحدة وحسب ، دقة رفيعة صافية خفيضة في العَتَمة النظيفة التي فوق الباب ، كأنه قد قيس وكُيِّف لاطلاق تلك الرنّة الخفيفة الصافية الوحيدة خشية أن يهترئ الجرس أو يتطلب انفاقاً لصمت كثير عند استعادتها اذا ما فُتح الباب على فَوْح الخبز الحار الجديد ، طفلة لها عينان كعيني دبّ دميةٍ وضفيرتان كالجلد المصقول .

ـ « مرحباً يا أختاه » . كان وجهها أشبه بكوب من الحليب فيه قطرتان من القهوة في الفراغ الدافئ العذب . « هل من أحد هنا ؟ » .

غير انها اكتفت بالتحديق فيّ الى ان انفتح باب دخلت منه السيدة . فوق الحاجز حيث صُفَّت الأشكال المحمّرة اللذيذة وراء الزجاج وجهها الأشيب الأنيق بشعرها الخفيف المشدود من جمجمتها الشيباء الأنيقة ، ونظارتها بحوافها الشهباء راكعة مقبلة كشيء معلق بسلك ، كصندوق نقد في متجر . لقد بدت وكأنها أمينة مكتبة ، كشيء استقر بين رفوف معفَرة من الحقائق المرصوفة المنفصلة عن الواقع منذ بعيد ، وها هو يجفّ ويتهافت في أمنٍ ودعة ، كنسمة من ذلك الهواء الذي يرى الظلم يقع .

ـ « اثنتين من هذه ، لطفاً ، يا سيدتي » .

فأخرجت من تحت الحاجز ورقة مربعة اجتُزئت من صحيفة ووضعتها على الحاجز ورفعت الكعكتين . وراحت الفتاة الصغيرة ترنو اليهما بعينين جامدتين لا تغمضان كزبيبتين طافيتين في كوب من القهوة الخفيفة يا أرض

«الكايك» يا وطن «الطرب»* . راحت ترنو الى الخبز ، واليدين الشهباوين الانيقتين وحول السبّابة اليسرى خاتم ذهبي عريض ، والسُلاميات الزرقاء .

- «هل تخبزون أنتم كل ما تبيعون ، يا سيدتي ؟» .

فقالت : «سيدي ؟» هكذا : سيدي ؟ كما يقولونها على المسرح : سيدي ؟ «خمسة سنتات . أي شيء آخر ؟» .

- كلا يا سيدتي . لا أريد شيئاً آخر . انما السيدة هنا تريد شيئاً» . لم تكن طويلة بحيث تستطيع ان ترى من فوق الخزانة ، فذهبت الى نهاية الحاجز ونظرت الى الفتاة الصغيرة .

- «أأنت أتيت بها هنا ؟» .

- «لا يا سيدتي . فقد كانت هنا عندما دخلت» .

فقالت : «يا قليلة الحياء» . خرجت من وراء الحاجز ، غير انها لم تمس الفتاة الصغيرة . «ألديك شيء في جيوبك ؟» .

فقلت : «لا جيوب لها . لم تفعل شيئاً ، بل كانت واقفة هنا ، في انتظارك» .

- «لمَ لم يدق الجرس اذن ؟» وحدجتني بنظرة غضبي . ما كان ينقصها سوى مجموعة من المفاتيح ولوح أسود وراءها ٢×٣= ٥ . «قد تخفيه تحت ثوبها ولن يعرف به أحد . اسمعي يا طفلة ، كيف دخلتِ ؟» .

لم تقل الطفلة شيئاً . نظرت الى المرأة ثم قذفتني بنظرة سوداء سريعة ونظرت الى المرأة ثانية . قالت المرأة : «هؤلاء الأجانب!» ، ثم أردفت : «كيف استطاعت الدخول دون ان يدق الجرس ؟»فقلت : «لقد دخلتْ عندما فتحت أنا الباب . فدقَ مرة واحدة لكلينا . وهي لن تستطيع ان تطال شيئاً من هنا ، على كل حال . ولا أحسبها تفعل ذلك حتى لو استطاعت . أليس كذلك يا أختاه ؟» .

---

* Wop,Kike من الكلمات التي يطلقها الامريكيون الذين يغلب فيهم الدم الانجلوسكسوني . على الفئات الاخرى في امريكا . احتقاراً يقصد بالاولى الهنود الحمر وبالثانية الايطاليون . (المترجم)

ونظرت الفتاة الصغيرة اليّ كمن يتأمل ويتكتمّ . «ماذا تريدين ؟ خبزاً ؟» .

فمدّت قبضتها ، وفتحتها عن قطعة نقد صغيرة ، رطبة قذرة ، والقذارة الرطبة قد انحفرت في لحمها . كانت قطعة النقد لزجة دافئة ، تشممتُ رائحتها المعدينة .

- «من فضلك يا سيدتي ، ألَديك رغيف بخمسة سنتات ؟» .

ومن تحت الحاجز أخرجت قطعة ورق مربعة اقتطعت من صحيفة ووضعتها على الحاجز ولفت بها رغيفاً من الخبز . فوضعتُ قطعة النقد ، مضيفاً اليها قطعة أخرى ، على الحاجز وقلت : «وكعكة أخرى من هذه ، من فضلك يا سيدتي» .

فتناولت كعكة أخرى من الخزانة وقالت : «أعطني تلك الرزمة» . فأعطيتها إياها ، ففكّتها ووضعت فيها الكعكة الثالثة والتقطت قطعتي النقد ، ووجدت في صدريتها فلسين ناولتني اياهما ، فأعطيتهما الفتاة الصغيرة . وفي الحال انغلقت أصابعها عليهما ، رطبةً حارةً ، كالديدان .

فقالت المرأة : «أستعطيها تلك الكعكة ؟» .

قلت : «نعم . لاريب ان رائحة فطائركم تلذّ لها بقدر ما تلذ لي» .

تناولتُ الرزمتين وأعطيت الخبز الى الفتاة الصغيرة ، والمرأة الشهباء بلون الحديد من وراء الحاجز ترقبنا بيقين صارم . وقالت «انتظري دقيقة» . ثم ذهبت الى مؤخرة الحانوت وانفتح الباب ثانية وانغلق . وبقيت الفتاة ترنو اليّ وقد أمسكت بالخبز لصق ثوبها الوسخ .

قلت : «ما اسمك ؟» فصرفت عينها عني ، غير أنها ما انفكّت بلا حراك . وكأنها لا تتنفس . وعادت المرأة ، وفي يدها شيء مضحك المنظر حملته كأنه جرذ مدلّل ميّت .

وقالت : «هاك» . فرفعت الطفلة عينها اليها . «خذيها!» قالت المرأة وهي تنخز بها الفتاة الصغيرة . «منظرها غريب ، ولكنك لن تعرفي الفرق

عندما تأكلينها . هاكِ . انا لا استطيع ان اقف هنا النهار كله » . فأخذتها الفتاة وهي ما زالت تنظر إليها . ومسحت المرأة يدها بصدريتها . وقالت : « يجب أن اصلح هذا الجرس » .

وذهبت الى الباب وفتحته بعنف ، فرنّ الجرس الصغير مرّة واحدة ، خافتاً صافياً غير مرئي . وسرنا نحو الباب وظهر المرأة المتطلع .

وقلت : « شكراً لك على الكعكة » .

فقالت وهي تحدّق في العَتَمة حيث الجرس يرنّ : « هؤلاء الأجانب! خذ نصيحتي وابق بعيداً عنهم يا فتى » .

قلت : « نعم . هيا يا أختاه » . وخرجنا « شكراً يا سيدتي » .

واغلقت الباب ثم فتحته بعنف ثانية ليطلق الجرس رنّته الهزيلة الوحيدة وقالت « أجانب! » وعينها مصوبة إلى الجرس .

ومشينا . وقلت : « والآن ، ما رأيك في شيء من الدندرمة ؟ » بدأت تقضم الكعكة العقداء . « أتحبين الدندرمة ؟ » فلمحتني بنظرة سوداء ساكنة وهي تمضغ . « هيّا بنا » .

وأتينا إلى الحانوت ، وأخذنا شيئاً من الدندرمة : وهي تتشبّث بالرغيف . وقلت : « لماذا لا تضعينه عنك ، فتأكلي براحة ؟ » وهممت بأخذه منها . غير أنها تمسكت به وهي تمضغ الدندرمة كأنها « توفي » ، والكعكة المعضوضة على الطاولة . وراحت تأكل الدندرمة على رسْلها ، ثم انكبّت على الكعكة من جديد ، وهي تدير بصرها بين خزائن الزجاج . ولما أتيت على دندرمتي ، خرجنا .

قلت : « اين تسكنين ؟ » .

عربة ـ تلك العربة ذات الحصان . ولكن الدكتور بيبدي سمين . مئة وخمسون كيلوغراماً . فاذا ركبت معه صاعدين التل ، تشبثت بها . اطفال . المشي اسهل من التشبث صعوداً على التل . هل راجعت الطبيب هل راجعت يا كادي

لا حاجة لا استطيع السؤال الآن سيسهل الأمر فيما بعد لن يكون ذا بال

لأن النساء رهيفات غامضات قال ابي . دقة توازن القذارة الحيضية بين قمرين متوازنة . قال بُدورٌ صفراء كبدر الحصاد ردفاها فخذاها . خارج خارجهن دائماً ولكن . صفراء . أسفل القدمين كأنما من كثرة المشي . فاعلم اذن ان رجلاً ما ان كلّ هذه الغوامض المتعجرفات خفية . بكل ما في دواخلهن اشكال دماثة ظاهرية حسبها لمسة واحدة لكي . عفن سائل كأشياء غريقة طافية كمطاط مُلىء مترهلاً اختلط عليّ شذا زهر العسل .

ـ « أليس الأفضل ان تأخذي خبزك الى البيت ؟ » .

ونظرت إليّ وهي تمضغ هادئة على رسلها ؛ وعلى فترات نظيمة تنزلق انتفاضة صغيرة على حنجرتها . ففتحتُ رزمتي وأعطيتها احدى الكعكات . وقلت : «استودعك الله» .

ومضيت في سبيلي . ثم التفتُ الى الخلف ، واذا هي ورائي . «اتسكنين في هذا الاتجاه ؟» لم تقل شيئاً . وسارت الى جانبي ، تحت المرفق مني ، وهي تأكل . ومضينا معاً . والهدوء شامل لانكاد نرى أحداً في الطرق **اختلط عليّ شذا زهر العسل ولكانت ستخبرني ألا ادعني اجلس هناك على الدرج لأسمع بابها الأصيل ينصفق لاسمع بنجي ما برح في بكائه العشاء وعندها لا بد لها من النزول وقد اختلط به زهر العسل** وبلغنا المنعطف .

فقلتْ : «عليّ أن اسير في هذا الاتجاه . وداعاً» . فتوقفت هي أيضاً . ابتلعت آخر لقمة من الكعكة الكبيرة ثم بدأت تلتهم الكعكة الصغيرة ، وعيناها عبر الكعكة ترمقاني . «وداعاً» . قلت لها ، وانعطفت في الشارع ومضيت ، ولكنني سرت الى المنعطف التالي قبل ان أقف .

وقلت : «في أي اتجاه بيتك ؟» أشرت بيدي الى الشارع . غير انها نظرت الي ولم تجب . «أم في ذاك ؟ لا شك تسكنين قرب المحطة ، حيث توجد القطارات . أليس كذلك ؟» فظلت تنظر الي ، وادعةً غامضةً . كان الشارع خالياً في كلا اتجاهيه وعلى الجانبين حدائق هادئة ومنازل أنيقة بين

الشجر ، ولكن دونما اي بشر الا في المكان الذي تركناه . فاستدرنا وعدنا ادراجنا . ورأينا رجلين جالسين في مقدمة أحد المخازن .

ـ «هل هنا من يعرف هذه الفتاة ؟ لقد تعلقت بي ولا استطيع ان أعرف منها أين تقيم» .

فما عادا ينظران الي ، بل نظرا اليها .

وقال أحدهما : «لعلها من احدى هذه العائلات الايطالية الجديدة» . كان يلبس معطفاً رسمياً صَدِئاً . «لقد رأيتها من قبل . ما اسمك يا صغيرة ؟» فألقت عليهما نظراتها السوداء للحظتين ، وفكّاها في حركة مستمرة . وابتلعت ما في فمها دون ان تكفَّ عن المضغ .

قال الآخر : «لعلها لا تتكلم الانجليزية» .

قلت : «ارسلوها لتبتاع خبزاً . فلا بد انها تتكلم قليلاً» .

قال الأول : «ما اسم ابيك ؟ بيت ؟ جو ؟ اسمة جون ، هه ؟» وتناولت لقمة اخرى من كعكتها .

فقلت : «ماذا أفعل بها ؟ تتبعني أينما أذهب . وعليَّ ان اعود الى بوسطن» .

ـ «أمن الجامعة أنت ؟»

ـ «نعم يا سيدي . ويجب ان اعود» .

ـ «اصعد في هذا الشارع وسلّمها لآنسْ ، مفوض الشرطة ، ستجده عند اسطبل مؤجر الخيل» .

فقلت : «أعتقد ان هذا ما يجب ان افعله . يجب ان أتخلص منها على نحو ما . شكراً جزيلاً . هيا بنا يا أختاه» .

وسرنا في الشارع على الجانب المظلل ، حيث كانت ظلال الواجهة المتقطعة ترتمي في عرض الطريق . ولما بلغنا اسطبل مؤجر الخيل لم نجد المفوض هناك ، بل رجلاً جالساً على كرسي مائل في الباب المنخفض العريض الذي يهبّ منه نسيم معتم قرير عابق بالنشادر على الحظائر

المصطفّة ، قال لي انْ راجع دائرة البريد ، لانه هو ايضاً لا يعرف الطفلة .

ـ «هؤلاء الأجانب . لا أميّز الواحد منهم عن الآخر . حاول ان تأخذها عبر السكك الى حيث يقيمون ، فلعلك تجد من يطالب بها» .

فذهبنا الى دائرة البريد ، التي كانت في الطرف الذي خلّفناه من الشارع . ورأيت صاحب المعطف الرسمي يفتح صحيفة بين يديه .

وقال : «لقد خرج آنس من البلدة قبل لحظات . أتصور ان افضل ما تفعله هو ان تذهب الى ما وراء المحطة وتمرّ بتلك البيوت المبنية قرب النهر . ستجد هناك من يعرفها» .

فقلت : «انك على حق . هيا بنا يا اختاه» . واقحمتْ آخر قطعة من الكعكة في فمها وابتلعتها . فقلتُ : «أتريدين اخرى ؟»فنظرت الي وهي تمضغ ، وعيناها سوداوان ، لا ترفّان ، حميمتان . فأخرجتُ الكعكتين من الرزمة وناولتها احداهما وعضضت الاخرى . وسألت عابر سبيل اين المحطة . فدلني عليها . «هيا بنا يا اختاه» .

بلغنا المحطة وعبرنا السكك إلى النهر . كان على النهر جسر ويتلو النهر شارع من البيوت الخشبية الخليطة أدارت الظهر للنهر : شارع أشعث ، ولكنه غزير التنويع طلق الحيوية . وفي وسط ارض مهملة محاطة بسياج مكسّر كثير الثغرات وقفت عربة معوجّة عتيقة وبيت ملوّج تدلّى من إحدى نوافذه العليا لباس فاقع الحمرة .

قلت : «أيشبه هذا بيتكم ؟» فنظرت إلي من فوق الكعكة «هذا ؟» قلت مشيراً بيدي : فبقيت تمضغ ، ولكن خيل الي انني اتبين في وجهها ضرباً من الايجاب ، مستسلماً اشد منه تواقاً . وقلت : «هذا البيت ؟ تعالي اذن» . ودخلت البوابة المكسورة . والتفتّ اليها وقلت : «هنا ؟ أيشبه هذا بيتكم ؟» .

فهزت رأسها هزات سريعة وعينها عليّ وهي تقضم النصف المتبقي من حلواها الرطبة . وتقدمنا على ممشى من بلاط محطم مرصوف كيفما اتفق ،

تخترقه حشانش قشيبة خشنة ، يؤدي إلى شرفة المدخل المحطّمة . كل ما يحيط بالبيت ساكن بلا نأمة ، واللباس الورديّ يتدلى من النافذة العليا لا تنوشه أية ريح . وثمة مقبض خزفي لجرس سحّاب يتصل بحوالي ست اقدام من سلك معدني ، على انني أعرضت عن سحبه وقرعت الباب . أما الفتاة الصغيرة فقد كانت الحافة من قشرة الكعكة في فمها الماضغ .

فتحت امرأة الباب . ونظرت إليّ راحت تخاطب الفتاة الصغيرة بالإيطالية بسرعة بنبرة متصاعدة ، تلتها وقفة استفهامية . ثم خاطبتها ثانية ، والفتاة تنظر إليها من فوق قشرة الكعكة وهي تقحمها في فمها بيد قذرة .

فقلت : «تقول إنها تسكن هنا . صادفتها في المدينة . هل هذا الخبز لكم ؟»

فأجابت المرأة : «ما أتكلم» . وخاطبت الفتاة الصغيرة مرة أخرى . والفتاة تنظر اليها ولا تجيب .

ـ «لا تسكن هنا ؟» قلت ذلك واشرت الى الفتاة ثم اليها ، ثم الى البيت . فهزت المرأة رأسها نفياً ، وهي تتكلم بسرعة . وجاءت الى حافة الشرفة واشارت الى الطريق وهي تتكلم .

فهززت رأسي بعنف أنا ايضاً ، وقلت : «تعالي أريني ؟» وأخذت بذراعها وانا الوّح بيدي الأخرى في اتجاه الطريق . وانطلقت في كلام سريع وهي تشير . «تعالي اريني» ، قلت ، محاولاً ان اقتادها على الدرج .

«سي ،سي» ، قالت وهي تتمنع ، وتدلني بيدها . فهززت رأسي مرة أخرى .

«شكراً ، شكراً ، شكراً» . ونزلتُ الدرج وسرت نحو البوابة لا راكضاً ولكن حثيث الخطى . ولما وصلت البوابة وقفت ونظرت اليها برهة . كانت قد أتت على الكعكة ، فراحت تزجيني نظرتها السوداء الحميمة . ووقفت المرأة على الشرفة ترقبنا .

وقلت : «تعالي اذنْ . يجب ان نعثر على بيتكم ان عاجلاً او آجلاً» .

ومضينا وهي تسير تحت مرفقي . وبانت المنازل كأنها خالية كلها ، وما من أحد يُرى . ضربٌ من انعدام النَفَس تتصف به البيوت المقفرة . غير انها لم تكن كلها مقفرة ولا ريب . هذه الغرف المختلفة كلها ، لوكان بوسعك ان تسلخ عنها الجدران فجأة يا سيدتي ، ابنتك ، لطفاً . لا يا سيدتي ، والله ، ابنتك . كانت تسير وتحت مرفقي ضفائرها المشدودة اللامعة ، ثم ادركنا آخر المنازل ، وانعطف الطريق غير مرني وراء جدار شاهق ، متبعاً النهر . وطلعت المرأة من البوابة المحطمة وعلى رأسها شال امسكت بطرفيه تحت ذقنها . وانعطف الطريق خالياً مقفراً ، وعثرت على قطعة نقد أعطيتها الفتاة الصغيرة . ربع دولار . وقلت : « وداعاً يا أختاه » . وركضت .

ركضت سريعاً ولم التفت الى الخلف . وقبل ان ينعطف الطريق التفتّ . فرأيتها واقفة في الطريق ، قداً صغيراً ، ممسكة بالرغيف لصق ثوبها الصغير الوسخ ، وعيناها ساكنتان ، سوداوان ، لا ترفّان . واستمررت في الركض...

وتفرع درب عن الطريق فدخلته ، وبعد قليل تباطأت من الركض الى المشي السريع . وكان الدرب يمتد ما بين مبانٍ خلفية ـ منزل غير مصبوغة فيهاالكثير من تلك الثياب الملونة المُجْفِلة منشوراً على الحبال ، وعنبر مهدّم الظهر ، يتداعى ويتفسخ بهدوء وسط اشجار الحدائق الحثلة غفلت عنها يد التقليم وخنقتها الاعشاب ، وردية بيضاء غنّاء بالنحل وبشعاع الشمس . والتفتُّ الى الوراء ، فوجدت المدخل الى الدرب خالياً . فازددت بطئاً في السير ، وظلي يعيّن لي خطوي ، وهو يجرّ برأسه بين الاعشاب التي تحجب السياج .

وتناهى الدرب إلى بوابة ذات قضبان ، وتلاشى في العشب ، صائراً إلى مجرد ممر جرّحه العشب الجديد . فتسلقت البوابة الى حرش صغير عبرته إلى حائط آخر ، فسرت بمحاذاته وظلي الآن على عقبيّ . لقد انتشرت الدوالي والمتسلقات حيث نتوقع في بلدنا ان نرى زهر العسل . فآتي وآتي

بخاصة في عتمة الغسق اذا ما أمطرت ، فيختلط عليّ زهر العسل بالغسق
كأنه لا يكفيني وحده ، ولا يرهقني وحده . لماذا سمحتِ له بتقبيل
لم اسمح له بل ارغمته ولما رأتني قد غضبت ما رأيك في ذلك هه وقد
برزت طبعة يدي الحمراءُ على وجهها كأنك اضأت نوراً تحت يدك وتألقت
عيناها

لم اصفعك بسبب القُبَل . مرافق الفتيات في الخامسة عشرة قال ابي
انك تبلع طعامك كأن في حلقك عظمة سمك ما الذي بينك وبين كادي على
طرفي المائدة ولا تنظران الي . بل لأن الذي قبلك حقير من حقراء المدينة
صفعتك أتفعلينها ثانية ألعلك تقولين الآن افتتان طارئ . ويدي تبرز على
وجهها . ما رأيك في ذلك هه واليدان تبحثان في شعرها المغروس في الـ .
وسيقان الاعشاب تنطبع متقاطعة في البشرة والرعشة واليدان تبحثان في
شعرها . قولي انه افتتان طارئ قوليها

على كل انا لم أقبّل فتاة قذرة كنتالي دخل الجدار في الظل ، ثم ظلي ،
خدعته ثانية . كنتَ قد نسيت ان النهر ينعطف بموازاة الطريق . فتسلقت
الحائط ، واذا هي ترقبني وانا اقفز ، ممسكة بالرغيف لصق ثوبها .

وقفت في وسط الاعشاب وتبادلنا النظرات .

- «لمَ لم تخبريني انك تقيمين في هذه الناحية ، يا اختاه ؟» كان الرغيف قد
جعل يمزق الصحيفة ببطء ، فهو الآن بحاجة إلى ورقة جديدة . «تعالي اذن
وأريني بيتكم» . لا فتاة قذرة كنتالي . كان المطر يهطل ونحن نسمعه يضرب
السطح ، ويتنهد خلال الفراغ الشاهق الزكي ، فراغ العنبر .

أهنا ؟ متحسساً اياها

لا هنا

أهنا ؟

لم يكن المطر غزيراً ولكن لم نكن نسمع الا السطح ولكأنه دمي او
دمها

ودفعتْ بي الى اسفل السلّم وهربتْ راكضة كادي
أهنا كان موقع الاذى عندما كادي وهربتْ أهنا
اوه سارت وقمة رأسها الشبيه بالجلد تحت مرفقي ، والرغيف يمزّق الصحيفة ويبرز منها .

«اذا لم تصلي إلى البيت بسرعة فإن رغيفك هذا سيصبح بلا ورقة تلفُّهُ ، فماذا تقول لك ماما عندها ؟ » اراهن انني استطيع ان احملك
لن تستطيع فأنا ثقيلة
هل انصرفت كادي هل ذهبت الى البيت لا يرى العنبر من بيتنا هل حاولتِ يوماً ان تَري العبنرَ من
الذنب ذنبها دفعتني هزبت
استطيع حملك جزّبي
آه دمها او دمي آه ومضينا نسير في التراب الرقيق ، واقدامنا صامتة كالمطاط في التراب الرقيق واشعة الشمس تتكسر بين الاغصان . وشعرت بأن الماء يجري من جديد سريعاً آمناً طيَ الظلال الخفية .

ـ «اما بيتكم فبعيد جداً والله . يظهر انك بارعة جداً اذ تستطيعين ان تذهبي من هذا المكان البعيد الى المدينة وحدك» . كأنك ترقص وانت جالس هل رقصت يوماً وانت جالس ؟ كنا نسمع المطر ، وجرذاً في حظيرة ، والعنبر خال من الخيل . كيف تمسك بالفتاة عند الرقص
آه
كنت امسك بها هكذا ما كنت تحسبيني في مثل هذه القوة أليس كذلك
آه آه آه آه
امسكت اكون هكذا اقصد اسمعتِ ما قلتُ قلتُ
آه آه آه آه
واستمر الطريق ، ساكناً مقفراً ، والشمس تشتد انصباباً وتكسراً .

وكانت ضفائرها عند اطرافها مربوطة بمِزَقٍ من قماش قرمزي . وجعلت إحدى زوايا الرزمة ترفرف قليلاً وهي تسير ، وقد برز انف الرغيف سافراً . ثم وقفت وقلت :

«اسمعي . اتقيمين في هذا الطريق لم نمر ببيت واحد طوال ميلٍ كامل» .

فأزجت اليّ نظرتها السوداء الكتومة الحميمة .

«اين تقيمين يا اختاه ؟ اتقيمين في المدينة التي تركناها وراءنا ؟» في مكان ما من الآجام كان عصفور ، فيما وراء شعاع الشمس المتكسّر النادر .

«سيقلق عليك أبوك . الا تظنين انه سيجلدك لانك ما عدت الى البيت مباشرة بهذا الخبز ؟» .

وعاد العصفور الى سقسقته غير مرني ، صوتاً وتير النبرة ، عديم المعنى ، عميقه ، ينقطع كمن تنزل به ضربة من سكين ، ثم يعود ، وذلك الاحساس بالماء يجري سريعاً آمناً في اماكن خفية ، تحس به ولا تراه ولا تسمعه .

«أوه يا أختاه» . لقد تدلى نصف الجريدة التي لُف فيها الخبز . «لا فائدة من هذه الآن» . ومزقتها والقيت بها على جانب الطريق . «هيا بنا ، نعد الى المدينة . ولنعد بمحاذاة النهر» .

وتركنا الطريق ، بين الطحالب نمت ازاهير شاحبة صغيرة ، والاحساس بالماء مكتوماً ، غير مرني . امسكت اكون هكذا أقصد كنت امسك هكذا وقفت في الباب تنظر إلينا ويداها على وركيها

انتَ دفعتني الذنب ذنبك وقد آذيتني ايضاً

كنا نرقص ونحن جلوس اقسم أن كادي لا تستطيع الرقص جالسة كفى كفى

كنت انفض ما عَلق بمؤخرة ثوبك من قش .

أبعد يديك القبيحتين عني ان الذنب ذنبك دفعتني وأوقعتني وأنا غاضبة منك

لا أبالي وراحت تنظر إلينا ، إبقي على غضبك ذهبَتْ وبدأنا نسمع الصيحات وطرطشة الماء ؛ ورأيت جسماً اسمر يلتمع لحظة .

إبقي على غضبك . اخذ قميصي يبتل وكذلك شعري . عبر السطح وانا اسمع السطح عالياً رأيت نتالي تعبر الحديقة في المطر المنهمر . تبللي ، ارجو ان تصابي بذات الرئة امضي الى بيتك يا وجه البقرة . وقفزت بكل ما اوتيت من عزم في حمأة الخنازير وارتفع الطين الأصفر الى خصري نتن الرائحة وما برحتُ اغوص إلى ان وقعت وتمرغت فيه . «اتسمعينهم يسبحون يا اختاه . اتمنى لو كنت اسبح مثلهم» . لو كان لدي الوقت لذلك . عندما يتاح لي الوقت لذلك . وسمعتُ ساعتي . كان الطين ادفأ من المطر اما رائحته فكريهة . كان ظهرها مداراً إليّ فذهبت ووقفت امامها . اتعلمين ما الذي كنت أفعله ؟ فأدارت ظهرها فذهبت امامها والمطر يتغلغل في الطين الذي سطح قميصها الداخلي من خلال ثوبها ، نتن الرائحة . كنت اعانقها ، هذا ما كنت افعله . فادارت ظهرها فذهبتُ امامها . اقول لك كنت اعانقها .

وما همني ما كنت تفعله ؟

الا يهمك ألا يهمك سأجعله يهمك . وضربتني على يدي لابعدها عنها ولكنني لوثتها بالطين باليد الاخرى لم اشعر بصفعة يدها البليلة ومسحت بعض الطين عن ساقي ولطخت به جسمها الصلب البليل المدبر عني وسمعت اصابعها تغور في وجهي ولكنني لم اشعر بذلك حتى حين غدا المطر حلو المذاق على شفتيّ

لقد رأونا هم اولاً ، وقد برزوا من الماء رؤوساً واكتافاً . وصاحوا بنا ، وكان احدهم مقرفصاً فنهض وقذف بنفسه بينهم . كانوا اشبه بالسمامير والماء يتضارب حول ذقونهم ، وهم يصيحون .

«ابعد تلك الفتاة عن هنا! لماذا تأتي بفتاة الى هذا المكان ؟ ابعدها عن هنا!» .

ـ «لن تؤذيكم . كل ما نريده هو ان نتفرج عليكم قليلاً» .

فقرفصوا في الماء ، وتجمعت رؤوسهم معاً وهم يرقبوننا ، ثم تفرقوا وانطلقوا نحونا يقذفوننا بأكفّهم . فابتعدنا عنهم مسرعَين .

ـ «لن تؤذيكم يا شباب ، والله لن توذيكم» .

ـ «انصرف يا ابن هارفرد!» كان ذلك الولد الثاني ، ذلك الذي حلم بالعربة والحصان على الجسر . «ارشقوهما بالماء يا رفاق!»

فقال آخر : «لنخرج ونرم بهما في الماء . انا لا اخشى ايه فتاة» .

ـ «ارشقوهما! ارشقوهما!» وانطلقوا نحونا وهم يقذفوننا بالماء وتراجعنا وهم ما زالوا يصيحون «ابتعدا! ابتعدا!»

وانصرفنا . أما هم فتجمعوا تحت الضفة مباشرة ، وقد انتظمت رؤوسهم اللماعة في صف إزاء المياه المتلألئة . ومضينا وقلت لها : «ليست السباحة من شأننا ، ألا توافقين ؟» والشمس ترسل ضياءها خلال الأفنان إلى الطحالب المنبثة هنا وهناك ، انها المدحلة . «مسكينة ، ما انت الا فتاة» . وبين الطحالب زهيرات اصغر من كل ما رأيت من أزاهير في حياتي . «ما انت الا فتاة ، يا مسكينة» . أتينا الى ممرّ ينحني بمحاذاة الماء ، ثم غدا الماء ساكناً من جديد ، مظلماً ساكناً سريع الجريان . «فتاة لا غير ، يا اختي المسكينة» . **على الحشيش البليل اضطجعنا لاهثين والمطر كالطلقات الباردة على ظهري . أيهمك الآن اتبالين الآن .**

رباه اننا والله في ورطة انهض . حيثما وقع المطر علي جبيني بدأت اشعر بوخز مؤلم ونزلت يدي عن جبيني حمراء تسيل منها خطوط وردية في المطر . اتؤلمك

طبعاً تؤلمني ماذا تظنين

لقد حاولت ان أفقأ عينيك رباه رائحتنا نتنة فلنحاول ان نغتسل في الغدير

«ها قد بلغنا المدينة مرة أخرى يا اختاه . عليك الآن ان تذهبي إلى البيت . فعليَ انا ان اعود الى المدرسة . آترين كم تأخرنا ؟ ستذهبين الى البيت ، أليس

كذلك ؟ » غير انها ما زادت على ان نظرت اليّ نظرتها السوداء الكتومة الحميمة ، والرغيف شبه عارٍ في قبضتها لصق صدرها . « لقد تبلل . لقد احسنّا فعلاً بأننا ابتعدنا عنهم في اللحظة المناسبة » . وأخرجتُ منديلي وحاولت فعلاً ان امسح الرغيف ، غير ان قشرته جعلت تتساقط ، فتوقفت : « ليجفّ وحده إذن أمسكي به هكذا » . وبدا كأن الجرذان قد اكلت منه . والماء يرتفع ويرتفع حول المؤخرة المقرفصة والطين المنضو يطفو نتناً ويحبب وجه الماء المثرثر كدهنٍ اندلق على طبّاخ حار . قلت لك سأجعلك

لا أبالي قيد أنملة بما تفعل

بعد ذلك سمعنا الركض فتوقفنا عن السير والتفتنا الى الوراء ورأيناه قادماً يركض في الممر ، والظلال الأفقية تنتفض على ساقه .

« انه مستعجل . فالافضل ـ » ثم رأيت رجلاً آخر ، رجلاً كهلا يركض ثقيلاً وبيده عصا ، وصبياً عارياً من خصره فما فوق ، ممسكاً ببنطلونه وهو يركض .

قالت الفتاة الصغيرة : « هذا هو جوليو » ، واذ ذاك لمحت وجهه الايطالي وعينيه وهو يغير عليّ . وسقطنا ارضاً كلانا . كانت يداه تلكمان وجهي وهو يقول شيئاً ما ويحاول علي ما اظن ان يعضني ، ثم رفعوه عني وأمسكوا به ثائر الصدر يلوّح بذراعيه ويصرخ فأمسكوا بذراعيه فحاول ان يركلني الى ان جروّه عني . اما الفتاة الصغيرة فراحت تزعق وتبكي محتضنة الرغيف بين ذراعيها . في حين جعل الصبي العاري الصدر يندفع وينطنط ، ممسكاً ببنطلونه ، واقامني احدهم في اللحظة التي رأيت فيها ولداً آخر عارياً من الرأس حتى القدم يركض قادماً من منعطف الممر الوادع ثم يحوّل اتجاهه فجأة ويطفر الى الحرش ، ووراءه ملابس متصلبة كأنها الخشب . وما زال جوليو في صراع مع الممسكين به . وقال الذي اقامني : « ها ، الآن ، وقعت في قبضتنا » . وكان يلبس صدرية دون معطف ، عليها شارة معدنية . وفي يده الأخرى يمسك بعصا صقلية عقداء .

قلت : «انت آنس ، اليس كذلك ؟ كنت ابحث عنك . ما الامر ؟ »
فقال : «انذرك بأن كل ما تقوله سيستخدم ضدك . فقد القيت القبض عليك» .
- «سأقتله» ، قال جوليو ، وهو يكافح الممسكين به . والفتاة الصغيرة تبكي وتعيط على هواها ممسكة بالخبز . «انت سرقت اختي» قال جوليو . «اتركوني يا جماعة» .
فقلت : «سرقت اخته ؟ عجيب . لقد مضى عليّ -» .
قال آنس : «اسكت! قل ما لديك للسكواير» .
فقلت : «سرقت اخته ؟» وانتزع جوليو نفسه من الآخرين وأغار عليّ ، غير ان المفوض تلقّاه وكافحه قبل ان استطاع الآخرون ان يمسكوا بذراعيه . فتركه آنس وهو يلهث . وقال :
«اجنبي لعين! والله ليخطرن ببالي ان ألقي القبض عليك انت ايضاً بتهمة التهجم والتعدي» . ثم التفت اليّ ثانية وقال : «اترافقنا بغير مقاومة أم اضع الاصفاد في يديك ؟» فقلت : «ارافقكم بغير مقاومة . اي شيء ، عساني ان ارى احداً - ان اخلص من - سرقتَ اخته . سرقت اخته -»
قال آنس : «لقد انذرتك . انه ينوي ان يتهمك بتعدٍ جرميّ عن سابق اصرار . وانتم ، هناك ، اجعلوا تلك الصبية تكف عن هذا الصياح» .
«آه» ، قلت ذلك ، ثم اخذت اقهقه . ومن بين الدغل برز ولدان آخران بشعر اشعث وعيون مستديرة وكلاهما يزرر قميصاً جعل يندى على كتفيه وذراعيه ، وحاولت ان اكفَ عن القهقهة ، ولكنني لم أفلح .
- «خذ الحذر يا آنس اعتقد انه مجنون» .
وقلت : «يجب ان ان أكـ أكـ أكفَ . ستنتهي بعد لحـ لحظة . قبل قليل قالت اه اه اه» ، قلت وانا اقهقه «دعوني اجلس قليلاً» . وجلست وهم يرقبونني ، والفتاة الصغيرة بوجهها المخطّط بالدمع والرغيف الهضيم ، والماء يجري سريعاً آمناً فيما تحت الممرّ . وبعد قليل غاض الضحك ، غير ان

حنجرتي رفضت ان تكف عن محاولة الضحك ، كمن يقيء بعد ان فرغت معدته .

قال آنس : « ها يا فتى ، سيطر على نفسك » .

فقلت مضيقاً على حنجرتي : « نعم » . وكانت ثمة فراشة صفراء اخرى ، كأن ندفةً من الشمس قد تهاوت . وبعد برهة لم تكن بي حاجة للتضييق على حنجرتي ، فنهضت . « انا مستعد . اين نمضي ؟ »

وسرنا على طول الممر ، والآخرون يرقبون جوليو والفتاة الصغيرة والصبية الذين في المؤخرة . واستمر الممر بمحاذاة النهر حتى الجسر . فعبرناه وعبرنا السكك الحديدية ، والناس يقفون بالأبواب ليشاهدونا والمزيد من الصبية يظهرون من حيث لا ادري الى ان تضخم الجمع الى ما يشبه المسيرة . ورأيت امام الحانوت سيارة كبيرة ، ولكنني لم أتبيّن من فيها الى ان قالت المسز بلاند :

« هه ، كونتن! كونتن كمبسن! » ثم رأيت جرالد ، وسبود في المقعد الخلفي متكئاً على مؤخر عنقه ، وشريف . اما الفتاتان فلم اعرفهما .

قالت المسز بلاند : « كونتن كمبسن! » .

ـ « مساء الخير » ، قلت رافعاً قبعتي . « لقد القوا القبض عليّ . يوسفني انني لم اتسلّم رسالتك . هل اخبرك شريف ؟ » .

قال شريف : « القبض عليك ؟ اسمحوا لي » . قال ذلك ، وانتزع نفسه وخطا من فوق اقدامهم ونزل من السيارة . واذا هو يرتدي بنطلوني الفلانة ، وكأنه قد صمّم له . لم اتذكر نسيانه . ولم اذكر ايضاً كم ذَقناً لدى المسز بلاند . اما اجمل الفتاتين فقد كانت جالسة قرب جرالد في المقدمة ، ايضاً . وراحت كلتاهما ترقبني من وراء نقابها في ضرب من الاشمئزاز الرقيق . « من الذي ألقي القبض عليه ؟ » قال شريف : « ما هذا ، يا سيد ؟ »

وقالت المسز بلاند : « جرالد ، اصرف هؤلاء الناس عنا! وانت يا كونتن ، ادخل هذه السيارة » .

فخرج جرالد . أما سبود فلم يتزحزح من مكانه .

وقال شريف : «ما الذي فعله ، يا كابتن ؟ هل نهب قنّ الدجاج ؟ »

قال آنس : «اني انذرك ، هل تعرف السجين ؟ »

- «هل اعرفه! اسمع -»

- «اذن بوسعك ان تصحبنا الى «السكواير» . انك تعرقل سير العدالة . هيا بنا» . وهزني من ذراعي .

فقلت : «استودعكم الله . يسرني انني رأيتكم جميعاً ، ويؤسفني انني لست معكم» .

فقالت المسز بلاند : «اسمع يا جرالد» .

فقال جرالد : «انظر يا حضرة الضابط» .

- «انذركم بأنكم تتدخلون بشؤون ضابط من ضباط القانون . فإن كان لديكم ما تقولونه ، فتعالوا الى مركز السكواير واعترفوا بمعرفتكم للسجين» . ومضينا . اشبه بمسيرة على رأسها انا وآنس . وسمعتهم يتحدثون عني وسبود يكرر الاسئلة ، ثم قال جوليو بالايطالية شيئاً بلهجة العنف فالتفتُ الى الخلف ورأيت الفتاة الصغيرة واقفة على الرصيف تزجي إليَ نظرتها الغامضة الحميمة .

ونهرها جوليو صائحاً : «اذهبي الى البيت! سأسلخ جلدك بالضرب» .

وسرنا في الشارع ، وانعطفنا الى حديقة ، في الطرف القصيَ منها مبنىً من القرميد أبيض الحواشي ، ذو طابق واحد . وصعدنا الممر الصخري الى الباب ، حيث أوقف آنس الجمع كله عدانا وأمرهم بالمكوث في الخارج . ودخلنا إلى غرفة خاوية تعبق برائحة التبغ العتيق ، فيها موقد حديدي في وسط هيكل خشبي مليء بالرمل ، وعلى الجدار خريطة ذابلة وشعار للبلدية اكفهرّت الوانه . ووراء منضدة نالت منها الخدوش وتراكمت عليها الورقات كان رجل بلبدة ضارية من الشعر الأشيب يتطلع الينا من فوق نظارته الفولاذية .

قال : « ضبطتموه اذن ، يا آنس ؟ » .

- « ضبطناه يا حضرة السكواير » .

ففتح كتاباً ضخماً علاه الغبار وأدناه منه وغمس ريشة قذرة في محبرة بدت كأنها مليئة بتراب الفحم .

وقال شريف : « اسمع يا سيد » .

قال السكواير : « اسم السجين ؟ » فذكرته . فدوّنه ببطء في كتابه ، والريشة تصرّ بالتأني الوجيع على الورق .

قال شريف : « اسمع يا سيد ، اننا نعرف هذا الشخص . اننا ـ » .

قال آنس : « نظام في المحكمة! » .

فقال سبود : « اسكت يا رجل . وليقضِ الأمرَ على طريقته .وهو لن يفعل إلاّ ذلك ، على كل حال » .

قال السكواير : « عمرك ؟ » فأخبرته . ودوّن ذلك وفمه يتحرك أثناء الكتابة . « عملك ؟ » فأخبرته ، فقال « من طلاب هارفرد ، ها ؟ » وصعد عينيه فيّ ، منحنياً بعنقه قليلاً ليستطيع الرؤية من فوق نظارته . لقد كانت عيناه صافيتين جامدتين ، كعيني العنز . « ما الذي تنويه بمجيئك هنا لخطف الاطفال ؟ » .

فقال شريف : « انهم مجانين يا سيدي السكواير . من قال ان هذا الولد يريد خطف ـ » .

فجاء جوليو بحركة شرسة وصاح : « مجانين ؟ ألم أقبض عليه ؟ الم أره بعينيَّ هاتين ـ » .

قال شريف : « انك تكذب ، فأنت لم ـ » .

صاح آنس : « النظام ، النظام! » .

وقال السكواير : « اخرسوا جميعاً اذا لم يسكتوا ، يا آنس ، فاطردهم » . فسكتوا . ونظر السكواير الى شريف ، فسبود ، فجرالد . وقال لسبود : « أتعرف هذا الشاب ؟ » .

فأجاب : «نعم يا سيدي . انه من أبناء الريف الذين يدرسون هنا . ولا يضمر شراً لأحد . واعتقد ان المفوض سيجد ان الامر كله غلطة . ان اباه من قسس الكنيسة» .

قال السكواير : «ها ، ما الذي كنت تفعله بالضبط ؟» فأخبرته وهو يرقبني بعينيه الشاحبتين الجامدتين . «ما رأيك في ذلك يا آنس ؟» .

قال انس : «جائز... قبّح الله هؤلاء الأجانب!» .

فقال جوليو : «أنا امريكي . لدي الاوراق» .

ـ «أين الفتاة ؟» .

قال آنس : «ارسلها الى البيت» .

ـ «هل وجدتها فزعة ؟» .

ـ «كلا ، الى ان هاجم جوليو السجين . ولقد كانا يسيران معاً بمحاذاة النهر ، في اتجاه المدينة . فأخبرنا عنهما بعض الصبية الذين كانوا يسبحون» .

قال سبود : «انها غلطة يا سعادة السكواير . ان من دأبه دائماً ان يجتذب الأطفال والكلاب . ولا يستطيع لذلك رداً» .

فتنحنح السكواير ، وأرسل بصره خارج النافذة برهة من الزمن ، وكلنا نرقبه . وسمعت جوليو يحكّ نفسه . ثم عاد السكواير بعينيه الينا .

ـ وأنت الواقف هناك ، أمقتنع أنت بأن أذى ما لم يلحق بالفتاة ؟»

فأجاب جوليو : «لا أذى حتى الآن» .

ـ «هل تركت عملك لتبحث عنها ؟» .

ـ «طبعاً تركت عملي . ورحت أركض . أبحث هنا وأبحث هناك ، ثم قال لي رجل انه رآه يعطيها شيئاً تأكله ، فذهبت معه» .

فتنحنح السكواير وقال : «اعتقد ، يا بني ، انك مدين لجوليو لقاء تركه عمله» .

فقلت : «نعم يا سيدي . بكم ؟» .

ـ « بدولار » .

فأعطيت جوليو دولاراً .

وقال سبود : « حسناً . ان كان هذا كل ما هناك ، فقد أطلقتم سراحه سعادتكم ؟ » .

غير ان السكواير لم ينظر اليه . « كم قطعت من المسافة بحثاً عنه ، يا آنس ؟

ـ « ميلين اثنين على الأقل . واستغرقنا البحث حوالي الساعتين قبل ان ضبطناه » .

قال السكواير : « ها » ، وأطرق زمناً ، وابصارنا شاخصة اليه ، بغرّته الخشنة ونظارته المنزلقة الى طرف أنفه . وقد ألقى الشبّاك شكله الأصفر ليتنامى بطيئاً على الأرض ، يبلغ الجدار ويتسلقه . وذرات الغبار تدوّم وتتهاوى . « ستة دولارات » .

فتساءل شريف : « ستة دولارات ؟ ولماذا ؟ » .

فقال السكواير : « ستة دولارات » . ونظر إلى شريف برهة ثم الي من جديد .

قال شريف : « اسمع » .

قال سبود : « كفى! اعطها اياه ، يا صاح ، ولنخرج من هنا .إن السيدات في انتظارنا . ألديك ستة دولارات ؟ » .

قلت : « نعم » . واعطيته ستة دولارات .

فقال : « رفعت الجلسة » .

قال شريف : « خذ إيصالاً بالمبلغ . خذ ايصالاً موقعاً بالمبلغ » .

فألقى السكواير نظرة غير مغضبة على شريف ، وقال دون ان يرفع صوته : « رفعت الجلسة » .

فقال شريف : « والله العظيم اذا لم ـ » .

« تعال هنا » . قال سبود آخذاً بذراعه . « طاب مساؤكم ايها

القاضي .وشكراً جزيلاً» . وما كدنا نخرج حتى علا صوت جوليو عنيفاً ، ثم انقطع . أما سبود فقد حدجني بنظرة استفهام من عينيه البنيتين ، مع شيء من الجمود . وقال : «عليك بعد اليوم يا صاح بمطاردة الفتيات في بوسطن» .

وقال شريف : «يا غبي! ما بالك تسرح في هذه الأماكن وتعابث هؤلاء المهاجرين الايطاليين الملاعين ؟» .

وقال سبود : «هيا بنا . لقد عيل صبر السيدات» .

كانت المسز بلاند تتحدث إلى الفتاتين ، وهما الآنسة هومز والآنسة دينجرفيلد . فانقطعتا عن الاصغاء اليها ونظرتا الي ثانية باشمئزاز رقيق مستطلع ، وقد رفعت كلتاهما نقابها عن أنفها الأبيض الدقيق وعيناها في هروب وغموض تحت النقاب .

فقالت المسز بلاند : «يا كونتن كمبسن ، ما الذي ستقوله والدتك ان هي سمعت بهذا ؟ من الطبيعي ان يتورط الشاب بين الحين والآخر ، اما ان يلقي القبض عليه شرطي من شرطة الريف وهو يمشي على قدميه.. ما الذي حسبوا انه فعل ، يا جرالد ؟» .

قال جرالد : «لا شيء» .

ـ «كلام فارغ . قل لي انت ، يا سبود» .

قال سبود : «حاول ان يختطف تلك الفتاة الصغيرة القذرة ، غير انهم ضبطوه قبل فوات الاوان» .

قال المسز بلاند : «كلام فارغ» ، إلاّ ان صوتها تلاشى وحملقت فيّ برهةً ، وشهقت الفتاتان معاً بصوت متناغم . «هراء» ، قالت المسز بلاند بحيوية مفاجئة . «تصرّفٌ كهذا ليس إلا من شيم هؤلاء الشماليين الجهلة المنحطين . هيا اركب السيارة يا كونتن» .

وجلسنا أنا وشريف على مقعدين صغيرين ينطويان . وأدار جرالد محرك السيّارة ثم صعد اليها وسرنا .

فقالت المسز بلاند : « والآن يا كونتن ، اخبرني ما حكاية هذه المهزلة » . فرويت لهم ما جرى ، وقد احدودب شريف وشاط غضبه على مقعده الصغير ، وعاد سبود الى الاتكاء على مؤخر عنقه قرب الآنسة دينجرفيلد .

فقال سبود : « والنكتة في ذلك هي أن كونتن كان يخدعنا طيلة هذه المدة . فقد أوهمنا طيلة هذه المدة بأنه الشاب المثالي الذي ما من انسان الا ويستطيع أن يأتمنه على ابنته ، الى ان فضحت الشرطة ألاعيبه الخسيسة » .

قالت المسز بلاند : « كفاك ثرثرة يا سبود » . وسارت السيارة بنا الى نهاية الشارع وعبرنا الجسر ومررنا بالمنزل الذي كان اللباس الوردي يتدلى من نافذته . « هذا ما يحيق بك حين لا تقرأ رسالتي . لماذا لم تأتِ لتأخذنا ؟ فالسيد مكنزي* يقول انه اعلمك بها » .

ـ « أجل . وقد أردت ذلك ، غير انني لم اعد الى الغرفة قط » .

ـ « لولا السيد مكنزي لأبقيتنا جالسين هناك في انتظارك الى ما لا نهاية . فلما أعلمنا بأنك لم تعد ، بقي لدينا مكان خال ، فطلبنا اليه ان يصحبنا . يسرنا جداً ان تكون راكباً معنا يا سيد مكنزي » .ولكن شريف لم يقل شيئاً ، وقد كتّف يديه وحملق في الفضاء عبر قبعة جرالد . انها قبعة السياقة في انجلترا . هذا ما قالته المسز بلاند . ومررنا بذلك المنزل ، وثلاثة منازل اخرى ، وفناء آخر وقفت عند بوابته الفتاة الصغيرة . ولا خبز بيدها الآن ، وكأن وجهها مخطط بمسحوق الفحم . فلوحت لها بيدي ، غير انها لم تستجب ، اللهم الاّ بأن ادارت رأسها ببطء والسيارة تمر بها ، ملاحقةً ايانا بعين لا ترفّ . ثم جعلنا نسير قرب الجدار ، وظلالنا تسير بمحاذاة الجدار ، وبعد قليل مررنا بقطعة من صحيفة ممزقة ملقاة على قارعة

---

* اي « شريف » . (المترجم)

الطريق فأخذت أقهقه من جديد . لقد أحسست بالقهقهة في حلقي فأرسلت بصري بعيداً أصوّبه نحو الاشجار حيث يتهاوى نور ما بعد الظهيرة ، مفكّراً بما بعد الظهيرة وبالعصفور وبالأولاد يسبحون . ورغم ذلك عجزت عن كبتها وعندها ادركت ان انا بالغت في محاولة كبتها فانني سأنخرط في البكاء وفكّرت في انه لا يسوغ لي ان اظل ذا عذرة ، وحولي العديدات ممن يتجوّلن في الظلال الوارفة ويتهامسن فتتردد أصواتهن الانثوية الناعمة في الاماكن الظليلة وتتناثر الكلمات مع العطور واللحاظ التي تحسّها ولا تراها ، ولكن ان كان فعلها بهذا اليسر فهي ليست بذات بال واذا لم تكن بذات بال ، لِمَ أراني واذا المسز بلاند تقول : « كونتن ؟ أمريض هو يا سيد مكنزي ؟ » ثم لمست يد شريف المكتنزة ركبتي وجعل سبود يتحدث وأمسكت عن محاولة كبتها .

«ان كانت تلك السلة في طريقه ، يا سيد مكنزي ، أرجوك ان تضعها الى جانبك . لقد أحضرت سلة فيها نبيذ لأنني اعتقد أن الشباب المهذبين يجب ان يشربوا النبيذ ، رغم ان أبي ، جدّ جرالد » تفعل ذلك أفعلتَ ذلك يوماً في العتَمة الشهباء بصيص من نور ويداها متشابكتان

قال سبود : «نعم ، عندما يتاح لهم . ها ، يا شريف ؟ » ركبتاها وجهها محدّقة بالسماء وشذا العسل يكسو وجهها وحنجرتها

قال شريف : «والبيرة كذلك» . ولمست يده ركبتي ثانية . فحركت ركبتي ثانية . كمسحة رقيقة من صبغ ليلكي وهي تتحدث عنه واضعة

قال سبود : «انت لست مهذباً» . اياه بيننا الى ان اضطرب شكل ما لها لا بالأسود

قال شريف : «لا . اني كندي» . تتحدث عنه والمجذافان يتقدمان به غمزاً غمزاً القبعة مصنوعة للسياقة في انجلترا والزمن كله دافق تحتنا وقد غامت صورتهما ممتزجين بعداً ووهجاً وإلى الابد لقد كان في الجيش وقد قتل رجالاً

قالت الآنسة دينجرفيلد : «اني أعبد كندا . انها بلد رائع» .

قال سبود : «هل شربت عطراً قط» . **بوسعه ان يرفعها بيد واحدة الى كتفه ثم يركض بها ويركض**

قال شريف : «كلا» . **ويركض الوحش ذو الظهرين وهي قد غامت صورتها بعداً في المجذافين الغامزين وتركض خنازير يوبيليوس تركض ازواجاً ملتحمة في جماع من الداخل كم رجلاً يا كادي**

قال سبود : «ولا أنا» . **لست ادري اكثر مما ينبغي انتابني شعور رهيب ابي لقد اقترفت هل فعلت ذلك قط لم نفعل ذلك لم نفعل ذلك أفعلنا ذلك.**

«... وجدُ جرالد كان من دأبه ان يجمع النعناع بنفسه قبل الفطور ، والندى ما زال يلتمع عليه . وما كان ليسمح حتى لويلكي ان يضع يده عليه اتذكر يا جرالد بل يجمعه بنفسه ويهيء شرابه بنفسه . وكان حريصاً على شرابه هذا حرص العانس ، فيقيس ويزن كل شيء بموجب وصفة يحفظها في دماغه . ولم يحظ احد بهذه الوصفة منه الا رجل واحد ؛ كان ذلك» **فعلناها وكيف يمكنك تجاهلها انتظري لحظة اخبرك بالتفاصيل ان ما فعلناه جريمة جريمة رهيبة لا يمكن سترها اتحسبن انك تستطيعين سترها ولكن تريث يا كونتن يا مسكين انك لم تفعلها أفعلتها وسأروي لك ما حدث سأخبر ابي اذن فلنقل اننا قد فعلناها لانك تحب ابي اذن لا بد لنا من الذهاب إلى حيث الاشارات والرعب واللهب النقي وسأجعلك تقولين اننا فعلناها اني اقوى منك وسأجعلك تدركين اننا فعلناها فقد ظننت انهم الفعلة ولكنه انا اسمعي لقد خدعتك طيلة هذا الوقت لقد كنت انا لقد حسبت انني في البيت حيث زهر العسل اللعين محاولا جهدي ان أصرف عن خاطري الارجوحة وأشجار الأرز والفورات الجوامح الخفية واللهات المشتبك واجتراع اللهاث الأهوج الوحشي والـ نعم نعم نعم نعم** «آبداً وصار يشرب النبيذ هو أيضاً ، ولكنه كان يقول دوماً ان سلة النبيذ ما الكتاب الذي قرأته

ذلك الذي فيه جرالد يجذف في بذلة الخمر جزء لا بد منه لسلة النزهة لدى كل شاب مثقف» هل أحببتهم يا كادي هل أحببتهم **كلما لمسوني كنت أموت**

وقفت هناك لحظة وفي اللحظة التالية كان يصرخ ويسحب فستانها ودخلا البهو وصعدا الدرج وهو يصرخ ويدفع بها على الدرج الى باب الحمام وأوقفها وظهرها الى الباب وذراعها يغطّي وجهها ويصرخ ويحاول دفعها الى الحمام ولما جاءت الى العشاء كلن تي بي يطعمه فبدأ من جديد أنيناً اول الأمر الى ان لمسته وعندها انفجر صارخاً فجمدت مكانها وعيناها كفأرين في مأزق . وبعد ذلك كنت أركض في العتمة الشهباء العابقة بالمطر وعطور الزهور كلها أطلقها الهواء الدافئ الرطب والزيزان تصرصر في العشب تعيّن لي خَطْوي مع جزيرة صغيرة من الصمت ترافقني ونظرت اليّ الفرس فانسي من وراء السياج رقشاءَ كلحاف منشور فقلت لنفسي لعن الله ذلك الزنجي الاسود لقد نسي ان يطعمها ونزلتُ التل راكضاً في ذلك الفراغ من الزيزان كنَفَسٍ يهب على وجه مرآة كانت مضطجعة في الماء ورأسها على اللسان الرملي والماء يجري حول ردفيها كان في الماء شيء من النور وتنورتها المنقوعة تصفق برفق على كشحيها مع حركة الماء في مويجات ونينة تسير الى لا مكان وتجدد نفسها بحركتها فوقفت على الضفة ونشقت زهر العسل على فجوة الماء وبدا الهواء كأنه يهمي رذاذاً من زهر العسل وصرصرة الزيزان مادة بوسعك ان تستشعرها بكل جارحة في جسدك .

اما زال بنجي يبكي

لا ادري نعم لا ادري

مسكين بنجي

قعدت على الضفة كان الحشيش ندياً ثم وجدت ان حذائي قد تبلل اخرجي من هذا الماء . أمجنونة انت ولكنها لم تبد حراكاً ووجهها غمامة بيضاء يؤطّرها شعرها فيميزها عن غمامة الرمال

اخرجي هيا

جلست منتصبة الصدر ثم نهضت وتنورتها تصفق على جسَمها وتقطر ماء وصعدت الى الضفة وثيابها تصفق وجلست

لم لا تعصرينها اتريدين ان تصابي بالزكام

نعم

وراح الماء يغرغر عبر اللسان الرملي جارياً في الظلام الى ما بين أشجار الصفصاف متماوجاً في المكان الضحضاح كقماشة مشدودة تعكس شيئاً من النور كدأب الماء

لقد قطع بحار الدنيا كلها

وجعلت تتحدث عنه وقد احتضنت ركبتيها البليلتين ورفعت وجهها في الضوء الأشهب شذا زهر العسل ورأيت نوراً في غرفة امي وغرفة بنجي حيث كان تي بي يضعه في فراشه

أتحبينه

وامتدت يدها ولم أتحرك ونزلت يدها باحثة على ذراعي الى ان امسكت بيدي مفتوحةً لصق صدرها وقلبها يضرب

كلا كلا

هل جعلك اذن جعلك تفعلينها لا بأس انه اقوى منك وهو غداً سأقتله قسماً بالله سأقتله ولا حاجة بنا الى اعلام ابي حتى ما بعد ذلك وبعد ذلك فاننا انا وانت ولن نُعلم احداً نستطيع ان نأخذ النقود المخصصة لدراستي ونلغي تسجيلي في الجامعة انك تكرهينه يا كادي تكرهينه أليس كذلك ؟

أمسكت بيدي لصق صدرها وقلبها يضرب فاستدرت اليها وقبضت على ذراعها

كادي انك تكرهينه اليس كذلك ؟

ودفعت بيدي صعداً الى حنجرتها واذا قلبها يضرب هناك

مسكين كونتن

اتجه وجهها نحو السماء والسماء منخفضة منخفضة جداً حتى بدت روائح الليل وأصواته كلها كأنها احتشدت تحت خيمة لم يُحسن شدها ولا سيما زهر العسل فقد تغلغل في تنفسي وكسا وجهها وعنقها كالطلاء ودمها ينبض نبضاً عنيفاً تحت يدي ولمّا كنت متكئاً على ذراعي الأخرى فقد جعلت ترتج وتنتفض وكان علي إن اشهق لاستمد شيئاً من الهواء من زهر العسل الأشهب الكثيف .

نعم إني أكرهه وارضى بالموت من أجله وقد مت من أجله واني لأموت من أجله مرة أخرى كلما .

عندما رفعت يدي كنت مازلت احس كي العساليج والاعشاب المتشابكة في كف يدي .

مسكين كونتن

وانحنت على ذراعيها ويداها مقفلتان حول ركبتيها

انت لم تفعلها قط اليس كذلك... ؟

لم أفعل ماذا ؟

ما فعلته انا

بلى بلى مرات عديدة مع فتيات كثيرات

عندها جعلت أبكي ولمستني يدها ثانية وجعلت أبكي ووجهي على قميصها الرطب ثم استلقت على ظهرها وانطلقت نظراتها بمحاذاة رأسي نحو السماء فرأيت مداراً من البياض تحت بؤبؤ عينها وفتحت سكيني أتذكرين يوم ماتت جدتي وجلست انت في الماء بسروالك .

نعم

ووضعت رأس سكيني على حنجرتها

لن تستغرق الا ثانية فقط ثم اطعن حنجرتي اطعن حنجرتي بعدها

لا بأس أتستطيع أن تطعن حنجرتك بنفسك

نعم فالشفرة طويلة لا بد أن بنجي قد نام الآن

نعم

لن تستغرق الا ثانية وسأحاول الا أؤلمك

حسناً

اغمضي عينيك

لا إن وضعتها هكذا عليك أن تضغط بعزم أشد

المسيها بيدك

ولكنها لم تتحرك وكانت عيناها مفتوحتين باتساع تنظران بمحاذاة رأسي إلى السماء

كادي اتذكرين كيف جعلت دلزي تصيح بك لأن سروالك اتسخ بالطين لا تبك

لست ابكي يا كادي

ادفعها الا تريد أن تدفعها

اتريدينني ان ادفعها

نعم ادفعها

المسيها بيدك

لا تبك مسكين كونتن

ولكنني لم استطيع الكف عن البكاء فأمسكت برأسي عند صدرها الصلب الرطب وجعلت اسمع قلبها ينبض بثبات وبطء وما عاد يضرب كالمطرقة والماء يثرثر بين اشجار الصفصاف في الظلام والهواء يهب حاملاً امواجاً من زهر العسل والتوت ذراعي وكتفي تحتي

ما هذا ما هذا الذي تفعله

واجتمعت عضلاتها فجلستُ منتصباً

سكيني لقد اسقطتها

فاستوت في جلستها

ما الساعة ؟

لست أدري

ووقفت على قدميها وجعلت ابحث في الأرض

اني ذاهبة دعها حيثما تكن

واحسستها واقفة هناك واشتممت ثيابها الرطبة شاعراً بها هناك

اتركها لعلك تجدها غداً هيا بنا .

انتظري قليلاً سأجدها

أتخشى تركها

هاقد وجدتها لقد كانت هنا طيلة الوقت

صحيح هيا بنا

فنهضت وتبعتها وصعدنا التل والزيزان تصمت أمامنا

من المضحك أنك تجلس فتسقط شيئاً فتصر على البحث عنه في كل مكان

الاشهب لقد كان اشهب مثقلاً بطلّ يشع نحو السماء الشهباء فالاشجار البعيدة

قاتل الله زهر العسل هذا ليته يكفّ

كنت تحبه

وعبرنا القمة ومضينا في اتجاه الأشجار واصطدمت بي ومالت علي .

وكان الخندق ندبة سوداء على العشب الرمادي واصطدمت بي ثانية ونظرت الي ومالت عليّ وبلغنا الخندق

لنذهب من هنا

لماذا . ؟

لنجد أما زال بوسعنا أن نرى عظام نانسي لقد نسيت ان اذهب هناك لرؤيتها منذ زمن بعيد أذهبت أنت

تواشجت على أرض المكان في الظلام الدوالي والاشواك

كانت عظامها هنا بالضبط من المستحيل ان تتبينها .

كف يا كونتن
ضاق الخندق ثم انتهى ويممت نحو الاشجار
كف يا كونتن
كادي
ووقفتُ أمامها ثانية
كادي
كف عن ذلك
فأمسكت بها
انني أقوى منك
لم تتحرك ولكنها كانت رغم سكونها صلبةً غير منتسلمة
لن اعاركك كفى خير لك أن تكف
كادي لا يا كادي
لا خير يرجى من ذلك الا تعلم لا خير يرجى خلّ سبيلي
وتساقط زهر العسل في رذاذ واستطعت ان اسمع الزيزان ترقبنا في دائرة حولنا وتراجعت ودارت حولي صوب الاشجار
عد الى البيت لا حاجة بك إلى المجيء
واستمررت في سيري
لماذا لا تعودإلى البيت
قاتل الله زهر العسل هذا
وبلغنا السياج فزحفتْ خلاله وزحفتُ خلاله وعندما انتصبتُ من انحناءتي رأيته يبرز من بين الأشجار قادماً نحونا في عتمتنا الشهباء طويل القامة مسطَح الشكل ساكناً يتحرّك وكأنّه لا يتحرّك وسارت اليه .
هذا كونتن اني مبتلة جسمي كله مبتل لن اشدد عليك ان كنت لا تريد ظلاهما ظل واحد وارتفع رأسها فوق رأسه ازاء السماء وارتفع رأساهما لن اشدد عليك ان كنت لا تريد .

ثم لا رأسان وعبق الظلام بفوح المطر والعشب الرطب والاوراق الخضلة والضوء الأشهب يتساقط رذاذاً كالمطر ويتصاعد زهر العسل في امواج نديّة وانا ارى وجهها اشبه بغمامة على كتفه وامسك بها بذراع واحدة كأنها لا تكبر الطفل ومدّ يده

تشرفنا

وتصافحنا ثم وقفنا هناك وظلها سامق ازاء ظله ظلٌ واحد

ما الذي ستفعله يا كونتن

سأمشي قليلاً سأذهب من خلال الآجام الى الطريق وأعود من خلال المدينة

واستدرت عنهما ومضيت

ليلة سعيدة

كونتن

فوقفت

ماذا تريدين

في الآجام كانت الضفادع في نقيق تستروح المطر في الجو وصوتها كلُعب صناديق الموسيقى التي يصعب نصبها وزهر العسل

تعال هنا

ماذا تريدين

تعال هنا يا كونتن

فعدت ولمست كتفي منحنية بظلها بغمامة وجهها منحنية من ظله السامق فتراجعتُ

خذي الحذر

اذهب الى البيت

لست نعساناً سأتنزه قليلاً

انتظر عند الغدير

أريد أن امشي

سأكون هناك عاجلاً انتظرني انتظرني

لا سأمضي من خلال الآجام

ولم التفت الى الوراء وضفادع الاشجار لم تعرني اهتماماً والضوء الاشهب كالطحالب في الاشجار يهمي رذاذاً ولكن المطر يأبى ان يهطل وبعد قليل انعطفت وعدت الى طرف الغابة وحالما وصلت هناك بدأت أتشمم زهر العسل من جديد وصار بمقدوري ان ارى الأضواء على ساعة المحكمة ووهج المدينة وميدانها على السماء واشجار الصفصاف المظلمة بمحاذاة الغدير والاضواء في نوافذ غرفة أمي والنور في غرفة بنجي ما زال مضاءً ، وانحنيت عابراً خلال السياج ومضيت عبر المرعى راكضاً وركضت على الحشيش الأغبر بين الزيزان ورائحة زهر العسل تشتد وتشتد وكذلك رائحة الماء ثم جعلت ارى الماء في لون زهر العسل الاغبر وارتميت على الضفة ووجهي لصق الأرض لكي لا اشتم زهر العسل فلم اشمّه ثم بقيت ملقى هناك اشعر بالأرض تخترق ثيابي واصغي إلى الماء وبعد قليل تناقص لهاثي وبقيت ملقى هناك وانا أقول لنفسي اذا لم احرّك وجهي كنت في غنى عن اللهاث وشمّه ثم ما عدت افكّر في شيء وجاءت تمشي على الضفة ووقفت وأمّا أنا فلم اتزحزح

الساعة متأخرة اذهبي الى البيت

ماذا

اذهبي الى البيت الساعة متأخرة

لا بأس

حفّت ثيابها ولمّا لم اتحرّك كفت عن الحفيف

استذهبين كما قلت لك

لم اسمع شيئاً

كادي

نعم سأذهب ان كنت تريدني ان أذهب

فجلست واذا هي جالسة على الأرض واصابعها متشابكة حول ركبتيها
اذهبي الى البيت كما قلت لك
نعم سأفعل كل ما تريدني أن أفعله كل ما تريدني نعم
لم تكن تنظر الي فأمسكت بمنكبها وهززتها هزاً عنيفاً
اخرسي
وهززتها
اخرسي اخرسي
نعم
ورفعت وجهها وعندها ادركت انها لم تكن حتى تنظر إلي ورأيت تلك الحلقة البيضاء
انهضي
وسحبتها واذا بها متهالكة مرتخية فرفعتها واوقفتها على قدميها
هيا امضي
الم يكن بنجي قد انقطع عن البكاء عندما تركته
امضي
وقطعنا الغدير وبدا السطح ثم شبّاك الطابق الأعلى
انه نائم الآن
اضطررت الى التوقف لأحكم اغلاق البوابة اما هي فظللت تسير في الضوء الأشهب رائحة المطر ولكن المطر يتأبّى علينا وزهر العسل آخذٌ بالتسرّب من سياج الحديقة آخذٌ ودخلت هي الظل وجعلت اسمع قدميها
كادي
وعند الدرج وقفت ولم أعد اسمع قدميها
كادي
فسمعتُ قدميها ولمستها بيدي لادافئة ولا باردة فثيابها ما زالت رطبة بعض الشيء ما زالت

أتحبينه الآن

لا تتنفسُ إلا ببطء بعيد بعيد

كادي أتحبينه الآن

لا ادري

خارج الضوء الأشهب ظلال الاشياء اشبه بأشياء ميتة في ماءٍ آسن

ليتك تموتين

اتريد لي ذلك استدخل

اتفكرين به الآن

لا ادري

اخبريني بماذا تفكرين اخبريني

كفاك كفاك يا كونتن

اخرسي اخرسي أتسمعين اخرسي اخرسي

لا بأس اذن سأكف ولكننا سنحدث ضوضاء هنا

سأقتلك أتسمعين

لنخرج ونذهب الى الارجوحة سيسمعونك هنا

لست ابكي اتقولين انني ابكي

كلا اسكت والا ايقظنا بنجي

ادخلي انت البيت ادخلي

لا تبكِ اني فتاة فاسدة وليس الذنب ذنبك

لعنة حلّت علينا وليس الذنب ذنبنا هل الذنب ذنبنا ؟

صه هيا اذهب الى فراشك

لا تستطيعين ارغامي لقد حلّت علينا اللعنة

وأخيراً وقعت عيني عليه وهو يدخل دكان الحلاق نظر الى الخارج فسرتُ نحوه وانتظرت .

لقد مضى يومان او ثلاثة وانا ابحث عنك

اتريد أن تراني
سأراك
لفّ السيجارة بسرعة بحركتين واشعل عود الكبريت بإبهامه
لا نستطيع الحديث هنا ما رأيك في ان نلتقي في مكان ما
سآتي الى غرفتك أنازل أنت في الفندق... ؟
لا ليس ذلك بالمكان المناسب اتعرف ذلك الجسر الذي على النهر وراء الـ
نعم حسناً
في الساعة الواحدة اتفقنا
نعم
وانصرفت
أنا ممتن لك
انظر
فوقفت والتفتُ الى الوراء
هل هي بخير
وبدا كأنّ قميصه الخاكي مصنوع من البرونز
ألعلها في حاجة إلي
سأكون هناك في الواحدة
لقد سمعتني آمر تي بي بسرج «برنس» وراحت ترقبني ولا تكثر من الأكل ثم جاءتني
ما الذي تريد أن تفعل
لا شيء أليس لي ان اركب الحصان قليلاً حين اشاء
لقد عزمتَ على فعلة ما فما هي
ليس ذلك من شأنك يا بغي يا بغي
كان تي بي ينتظرني وقد هيّأ برنس عند الباب الجانبي
لا أريده قررت ان أُمشي

وسرت في طريقنا الخاصة إلى البوابة وانعطفت في الممر ثم أخذت اركض وقبل وصولي الجسر رأيته متكئاً على الافريز وقد عقل الحصان بين الشجر ارسل نظره من فوق كتفه ثم ادبر ولم يرفع بصره إلى أن وطأتُ الجسر فوقفت ورأيت بين يديه قطعه لحاء يكسر منها قطعاً ويسقطها من على الافريز في الماء

جئت لأقول لك غادر المدينة

فكسر قطعة من اللحاء على مهل وأسقطها في الماء بعناية وتبعها بعينيه والماء يسيل بها على متنه

قلت يجب أن تغادر المدينة

فنظر إلي

هل ارسلتك هي إليّ

أنا أقولها لك غادر المدينة لا ابي ولا احد أنا أقولها

اسمع أجّل هذا الأمر قليلاً اريد أن أعرف إن كانت بخير أم أنهم يضايقونها في البيت

تلك مسألة لا داعي لازعاج نفسك بها

ثم سمعت نفسي أقول اعطيك مهلة لمغادرة المدينة حتى غروب الشمس فكسر قطعة لحاء وأسقطها في الماء ثم وضع اللحاء على الافريز ولفّ سيجارة بتينك الحركتين السريعتين وقذف بعود الكبريت فوق الافريز

وما الذي ستفعله إن أنا لم أغادر المدينة

سأقتلك لا تحسب لمجرد انني ابدو لك كالصبي

وانطلق الدخان في نافورتين من منخريه عبر وجهه

كم عمرك

فانتابتني رجفة ويداي على الافريز وفكرت في انّه سيعرف السبب إن أنا أخفيتهما

امهلك حتى أول الليل

اسمع يا صاح ماسمك أليس بنجي هو المعتوه وأنت

كونتن

فمي نطق بها أما أنا فلم أقلها قط .

امهلك حتى غروب الشمس

كونتن

وأسقط رماد السيجارة يحكّها متمهلاً على الافريز لقد فعل ذلك بعناية وعلى مهل كأنّه يبري قلماً وكفّت يداي عن الارتجاف

اسمع من العبث ان تتألم للأمر هذا التألم كله ليس الذنب ذنبك يا ولد فلو لم اكن أنا لكان غيري .

هل كانت لك اخت قط هل كانت لك اخت ؟

كلا ولكن كلهن عواهر .

فضربته وتغلبت يدي المبسوطة على الحافز الى قبضها عند وجهه غير أن يده تحرّكت بسرعة يدي وطارت السيجارة في اتجاه الماء ولما هويت بيدي الأخرى أمسك بها أيضاً قبل أن تبلغ السيجارة الماء امسك بكلتا يدىّ في قبضته الواحدة وانخطفت يده الأخرى نحو ابطه تحت سترته ونور الشمس وراءه يتهاوى ووراء الشمس عصفورٌ يغنّي وتبادلنا النظرات والعصفور يغنّي ثم اطلق يديّ .

اسمع

وأزاح اللحاء عن الافريز مسقطاً اياه في الماء فغاص ثم طفا وحمله السيل معه واستقرّت يده على الافريز والمسدّس فيها لا يشدّ عليه وانتظرنا

لن تقدر أن تصيبه الآن

كلا

وبقي اللحاء طافياً يتناءى به الماء وران السكون على الآجام وسمعت العصفور مرّة اخرى ثم الماء واذا النار تنطلق من المسدّس دون أن يصوّبه بالمرة فاختفى اللحاء، ثم ارتفعت قطع منه الى السطح وعامت وانتشرت وبعد

ذلك اصاب قطعتين اخريين منها ولن تكن القطعة الواحدة أكبر حجماً من قطعة النقد الفضية .

اعتقد أن في ذلك الكفاية .

ثم انتزع الاسطوانة ونفخ في الفوهة مطلقاً غشاوة رقيقة من الدخان ثم حشا الحجيرات الثلاث من جديد وسدّ الاسطوانة وناولني المسدّس من مقبضه

لماذا أنا لن أحاول منافستك في الرمي ؟

ستحتاج إليه قياساً على ما قلت وأنا اعطيك هذا المسدّس لأنّك رأيت الآن ما يستطيع فعله .

اني ارفض مسدسك .

وضربته وبقيت محاولاً جهدي ان اضربه بعد أن أمسك بكلا معصمي وحاولت من جديد وبعدها رأيته وكأنني انظر اليه من خلال زجاجة ملونة وجعلت اسمع دمي ثم صار بوسعي أن أرى السماء ثانية والأغصان ازاءها والشمس تتهاوى من بينها وهو ممسك بي من قدمي .

اضربتني

لم استطع سماع الجواب

ماذا ؟

نعم كيف تشعر

لا بأس خلني

فخلاّني فاتكأت على الافريز

أتشعر أنك بخير ؟

دعني وشأني اني بخير

اتستطيع أن تصل إلى البيت وانت على هذا الحال ؟

انصرف دعني وشأني

خير لك ألا تحاول السير على قدميك خذ حصاني

لا عليك اذهب عنّي
بوسعك ان تترك له الحبل على الغارب وتطلقه فيعود وحده الى الاسطبل
دعني وشأني اذهب ودعني وشأني
واتكأت على الافريز انظر الى الماء وسمعته يحل الحصان ويمتطيه ويبتعد وبعد قليل ما عدت اسمع شيئاً سوى الماء ثم العصفور من جديد فتركت الجسر وقعدت أرضاً مسنداً ظهري الى شجرة ووكأت رأسي عليها واغمضت عيني ووقعتْ من بين الأوراق رقعةٌ من الشمس حطّت على عينيّ فتزحزحت مبتعداً حول الشجرة
وسمعت العصفور ثانية والماء واذا كل شيء يبدو كأنّه ينسرح عنّي وما عدت أشعر بشيء قط وكدت أشعر بالهناءة بعد هاتيك الأيام والليالي كلها وزهر العسل يتصاعد من طيات الظلام لينفذ إلى غرفتي حيث كنت أحاول أن أنام حتّى بعد أن أدركت إثر ذلك بقليل انّه لم يضربني وانه كذب عليّ بشأن ذلك من اجلها أيضاً وانني إنّما أغمي عليّ كما يغمى على امرأة ولكن لم يعد حتى لذلك أهمية لدي وجلست هناك لصق الشجرة ونديف الشمس يتراوح على وجهي كأوراق صفراء علقت بعودها مصغياً إلى الماء غير مفكّر بشيء حتى عندما سمعت الحصان مسرعاً نحوي جلست هناك مغمض العينين وسمعت حوافره تدق الارض وتبث التراب مهسهساً واقداماً تركض ويديها المهرولتين اللاهثتين
مجنون يا مجنون هل أنت في أذى ؟
ففتحت عيني ويداها تهرولان على وجهي .
لم أعلم في أي اتجاه الى أن سمعت المسدّس لم أعلم أين لم يخطر ببالي أنّه واياك ركضت عثرت لم يخطر ببالي أنّه سوف
وأمسكتْ بوجهي بين يديها صادمةً رأسي بالشجرة
كفى كفى
فقبضتُ على معصميها

لا تفعلي ذلك لا تفعلي ذلك

كنت اعرف انّه لن يؤذيك كنت أعرف

وحاولت أن تصدم رأسي بالشجرة

قلت له ألاّ يكلّمني ثانية أبداً قلت له

وحاولت أن تخلّص معصميها من قبضتي

خلّني

كفاكِ إني أقوى منكِ كفاك

خلّني يجب أن ألحق به فأسأله خلّني كونتن أرجوك أن تخليني أرجوك

وفجأة كفّت وارتخى معصماها

نعم بوسعي أن أخبره وبوسعي أن أجعله يصدّق في ايّة لحظة شئت أجعله كادي

لم تكن قد ربطت برنس ولعله يخبّ كدأبه عائداً إلى البيت اذا خطر له ذلك

في اية لحظة شئتُ فإنّه يصدقني

أتحبينه يا كادي ؟

ماذا قلت ؟

وتأملتْ في واذا عيناها تفرغان من كل شيء وتبدوان كعيون التماثيل خاويتين وادعتين لا تبصران

ضع يدك على حنجرتي

وأخذتْ يدي ووضعت راحتي على حنجرتها

والآن اذكر اسمه

دالتن ايمز

فأحسست دفقة الدم الأولى هناك وراح الدم يدفق في نبض قوي متسارع .

اذكره مرة اخرى .

ودارت بوجهها نحو الاشجار حيث تتهاوى الشمس وحيث العصفور اذكره مرّة اخرى

دالتن ايمز

وظل دمها في دفقٍ نابض مستمر يضرب نبضه كفّ يدي .

راح يسيل لمدة طويلة ، غير أنني شعرت أن وجهي بارد فاقد الحياة ، وكذلك عيني ، وجعل الجرح في اصبعي يؤلمني من جديد . وسمعت شريف يدير المضخّة ، ثم عاد بالطبق تترجرج فيه دائرة من الأصيل ، وقد اصفرّت حواشيه كنفاخة ذابلة ، ثم انعكاس صورتي . فحاولت أن أرى وجهي فيه .

وقال شريف : «هل توقّف الدم ؟ أعطني المنديل» . وحاول أن يجرّه من يدي .

فقلت : «انتبه . بإمكاني أنا أن اوقفه . نعم ، لقد كاد يتوقّف» .

وغمست المنديل ثانية مكسّراً النفاخة . فتلوّث الماء بالمنديل . «ليت لي منديلاً نظيفاً» .

قال شريف : «انك احوج إلى قطعة من اللحم* النيئ وعينك على هذه الحال . ستجد والله ان عينك ستسود غداً . ابن الزانية» .

ــ «هل أوجعته ؟» وعصرت المنديل وحاولت أن أنظف صدريتي من قطرات الدم .

قال شريف : «لن تستطيع أن تنظفها ، يجب أن ترسلها إلى الغسيل ، هيا ، ضعه على عينيك ، لماذا لا تضعه على عينيك ؟»

فقلت :«بإمكاني أن أنظفها من بعض القطرات» . ولكنني لم أفلح كثيراً . «كيف تبدو ياقتي الآن ؟» .

قال شريف : «لا أدري . ضع المنديل على عينك . اسمح لي» .

ـ «أرجوك . بإمكاني أن أضعه بنفسي . هل آذيته ؟» .

---

* من الاقوال الشائعة في امريكا ان العين اذا لكمت امكن علاجها بقطعة من الـ «ستيك» النيء . (المترجم)

- «ربّما ضربته أنت . لعلني التفت عنك أو أن عيني طرفت في تلك اللحظة . غير أنه أشبعك لكماً لم يترك مكاناً في جسدك لم يهو عليه بالكلمات . ولماذا نازلته بقبضتيك ، يا غبي ؟ كيف تشعر ؟» .

قلت : «بخير . أما من شيء أستطيع به تنظيف صدريتي ؟» .

- «ألن تنسى ثيابك اللعينة ؟ اخبرني عن عينيك . هل تؤلمك ؟» .

فقلت : «أنا بخير» كان كل شيء حول يبنفسجياً ساكناً والسماء خضراء آخذه بالتعسجد فيما وراء أعلى الدار وريشة من الدخان تتصاعد من المدخنة دون أية ريح . ثم سمعت المضخة ثانية ، فرأيت رجلاً يملأ دلواً وهو يرقبنا عبر منكبه المنهمك في الضخ . وعبرت امرأة عتبة الباب دون أن تنظر إلينا . وسمعت بقرة تخور في مكان قريب .

قال شريف : «هيا ، لا تهتم لثيابك وضع منديلك على عينيك ، سأرسل بذلتك في الصباح الباكر إلى الغسيل» .

- «حسناً . يؤسفني انني على الأقل لم أنزف بعضاً من دمي عليه» .

فقال شريف : «ابن الزانية» .

خرج سبود من المنزل وهو يتحدّث إلى المرأة ، فيما أعتقد ، وعبر فناء الدار . وحدّق فيّ بعينيه الجامدتين المتسائلتين .

وقال وهو ينظر إليّ : «والله يا صاح انك لا تتورّع عن شيء في طلب متعتك . الخطف أولاً ، ثم الشجار . وما الذي تفعله أيام العطل ؟ أتحرق بيوت الناس ؟» .

قلت : «أنا بخير . ماذا قالت المسز بلاند ؟» .

- «لقد أقامت القيامة على رأس جرالد لأنّه أدماك . وسوف تقيمها على رأسك عندما تراك ، لأنك هيأت له ذلك . وهي لا تعترض على الشجار ، إنّما الدم هو الذي يزعجها . يخيّل إليّ أنّك فقدت بعضاً من الاعتبار الذي تحمله لك لأنك لم تحسن حقن دمك . كيف تشعر ؟» .

قال شريف : «طبعاً ، فإن أنت أخفقت أن تكون من آل بلاند ، فعليك

بالمنزلة الثانية وهي أن تزني بأحد منهم أو ان تسكر وتقاتله ، تبعاً للظروف » .

قال سبود : « بالضبط . ولكنني لم أعرف أن كوتتن كان سكراناً » .

قال شريف : « لم يكن سكراناً . وهل لا بد لك من السكر لتعزم على ضرب ابن الزانية هذا » .

ـ « بعد أن رأيت ما الذي حل بكوتتن ، لا بد لي من سكر كثير قبل أن أحاول ضربه . أين تعلّم الملاكمة ؟ » .

قلت : « منذ زمن وهو يتردد على مايك يومياً » .

فقال سبود : « صحيح ؟ وهل كنت تعلم ذلك عندما ضربته ؟ » .

قلت : « لست ادري . اجل كنت أعلم » .

وقال شريف : « بللها ثانية . أتريد ماءً نظيفاً... ؟ » .

قلت : « لا بأس بهذا الماء » . وغمست القماشة مرة أخرى ووضعتها على عيني . « تمنيت لو كان عندي ما انظّف به صدريتي » . وسبود ما زال يرقبني .

فقال : « بربّك قل لي ، لماذا ضربته ؟ ما الذي قاله ؟ » .

ـ « لست أدري . لست أدري لماذا ضربته » .

ـ « ما رأيتك إلاّ وأنت تقفز فجأة وتقول : هل كانت لك يوماً أخت ؟ تكلّم ! ولما قال كلاّ ، ضربته . وقد لا حظت أنك بقيت تحدّق فيه دون أن تنتبه لما يقوله أي منّا إلى أن قفزتَ وسألته إن كانت له أخت » .

فقال شريف : « كان كالعادة يتباهى بنسائه . كما يفعل دائماً أمام الفتيات ، بحيث لا يفهمن بالضبط مالذي يقوله . وكل هذا الغمز واللمز والكذب وهذه الحكايات الكثيرة التي لا تُعقل . كان يروي لنا عن فتاة اتفق معها في احدى قاعات الرقص في اتلانتيك سِتي على اللقاء فلم يذهب للقائها بل مضى الى الفندق وآوى الى فراشه وكيف انه بقي مستلقياً فيه آسفاً لانتظارها إياه ، دون ان يذهب اليها ويمنحها ما تشتهيه . ويتكلم عن جمال

الجسد وعواقبه الوخيمة ، وكيف أن النساء يقاسين من جراء ذلك دون أن يعرفن ما يفعلن سوى الاستلقاء على ظهورهن . يعني ان ليدا تكمن بين الشجيرات ، وتتأوه وتئن شوقاً للإوزة . ابن الزانية . والله لكنت اضربه بنفسي . ولو كنت مكانك لانتزعت سلة النبيذ واهويت بها عليه » .

قال سبود : « آهٍ . نصير النساء ! انك ياصاح لا تثير الاعجاب فحسب ، بل الاشمئزاز أيضاً » . ورماني بنظرته المتسائلة الجامدة وقال : « يا إلهي ! »

قلت : « إنـي أسفة لضربه . ولكن كيف أبدو ؟ أأستطيع بحالي هذه ان أذهب وأصالحه ؟ » .

قال شريف : « ماذا ، أتعتذر ؟ فليذهب وامّه الى الشيطان . أما نحن فنريد الذهاب الى المدينة » .

قال سبود : « ليعد اليهما لكي يدركا أنه يقاتل مقاتلة السيد المهذب ، اعني يقهر كما يُقهَر السيد المهذب » .

قال شريف : « وهو على هذه الحال ؟ وثيابه كلها ملطخة بالدم ؟ » .

قال سبود :« طيب ، طيب . أنت أدرى » .

فقال شريف : « لا يمكنه الذهاب لابساً قميصه الداخلي . فهو ليس من طلاب السنة الأخيرة بعد . هيا ، لنذهب الى المدينة » .

فقلت : « ليس ضرورياً أن ترافقني . عد الى نزهتك » .

قال شريف : « دعنا منهم . هيا بنا » .

قال سبود : « وماذا أقول لهم ؟ أأقول لهم انكما أنت وكونتن تشاجرتما أيضاً ؟ » .

قال شريف : « لا تقل لهم شيئاً . وقل لهاأن مهلة اختيارها انتهت عند غروب الشمس . هيا بنا يا كونتن . لأسأل تلك المرأة أين محطة الـ » فقلت : « كلا ، لست براجع الى المدينة » .

فتوقف شريف ونظر الي . وبالتفاتته بدت الزجاجتان في نظارته كقمرين أصفرين صغيرين .

ـ «ما الذي ستفعله ؟» .

ـ «لست براجع الى المدينة الآن . فخير لك ان تعود الى نزهتك مع الجماعة . وقل لهم انني رفضت العودة لاتساخ ثيابي» .

فقال : «اسمع . ما الذي ببالك ؟» .

ـ «لاشيء . انني بخير . فعد بصحبة سبود .وسأراك غداً» . ومضيت عبر الفناء نحو الطريق .

وقال شريف : «أتعرف أين المحطة ؟» .

ـ «سأجدها . سأراكم كلكم غداً . وقل للمسز بلاند انني آسف لافساد نزهتها عليها» . وقفا يرقبانني ، فسرت من حول البيت الى الطرف الآخر حيث كان ممر صخري يؤدي الى الطريق ، وعلى الجانبين منه ورود . ومن خلال البوابة سرت الى الطريق التي تنحدر على التل في اتجاه الآجام ، واستطعت أن أتبين السيارة واقفة على جانب الطريق .

غير أنني صعدت التل ، والضياء يشتد كلما ارتقيت وقبل ان أبلغ القمة سمعت سيارة ، فجاءني صوتها من بعيد عبر الشفق فوقفت واصغيت اليها . فتناءت وماعدت أستبين صوتها ، إلا أن شريف كان واقفاً على الطريق أمام المنزل ، موجهاً بصره نحوي ، والضياء الأصفر خلفه كغشاء من الصباغ على سطح المنزل . فرفعت له يدي ومضيت الى أعلى التل ، مصغياً الى السيارة . ثم اختفى المنزل ووقفت في الضياء الأخضر الأصفر وصوت السيارة في ارتفاع ، وحالما بدأ بالتضاؤل توقف بالمرّة . فانتظرت ريثما سمعته من جديد ، ثم عدت الى سيري .

وإذ جعلت أهبط الطرف الآخر من التل بدأ الضياء يتضاءل ببطء ، ولكن دون أن يتغير نوعاً ، كأنني أنا الذي أتغير لا الضياء ، أتغير وأتضاءل رغم أنه كان المقدور قراءة صحيفة حتى عند تغلغل الشارع بين الأشجار . وسرعان ما جئت الى زقاق دخلته ، أشد عتمة وانغلاقاً من الطريق ، ولكنه اذ أفضى الى موقف الترام ـ مظلة خشبية اخرى ـ فإن الضياء كان عين الضياء

السابق . بل ان الدنيا بعد الزقاق بدت أشد وهجاً ، كأنني اخترقت الليل في الزقاق فانتهى بي الى الصباح مرة أخرى . وسرعان ما جاءت الحافلة ، فركبتها ، ومن فيها يتلفتون للنظر الى عيني ، ووجدت لي مقعداً في الجانب الأيسر .

كانت أنوار الحافلة مضاءة ، فلم أستطع وهي تسير بين الشجر ان أرى شيئاً سوى وجهي وامرأة في الطرف المقابل بقبعة حطت على قمة رأسها ، وفيهاريشة مكسورة ، ولكن حالما خرجنا من بين الشجر صرت أرى الشفق من جديد ، وهو النور الذي يوهم المرء بأن الزمن قد توقف ردحاً والشمس معلقة دون حافة الأفق بقليل ، ثم مررنا بالمظلة التي كان ذلك الشيخ تحتها يأكل من الكيس ، والطريق يمتد ويمتد تحت الوان الاصيل الى الاصيل ، وفيّ حسٌ بأمواهٍ تجري في الأبعاد سريعة آمنة . وبعد ذلك استأنفت الحافلة سيرها ، ومجرى الهواء يشتد شيئاً فشيئاً خلال الباب المفتوح الى أن جعل الهواء يجري خلال الحافلة كلها مثقلاً بعبق الصيف والظلام باستثناء عبق زهر العسل . فرائحة زهر العسل ، فيما اعتقد ، أكثر الروائح حزناً . وأنا اذكر العديد منها . الوسطار احداها . ففي الايام الماطرة اذا لم تكن امي من المرض بحيث تضطر الى الابتعاد عن النوافذ كنا نلعب تحتها . واذا ما مكثت أمي في الفراش ألبستنا دلزي ثياباً عتيقة وسمحت لنا بالخروج في المطر المنهمر لأنها ترى ان المطر لا يؤذي الأحداث . اما إذا لم تكن أمي في الفراش فقد كنا دائماً نشرع في اللعب على الشرفة الى أن تقول ان ضوضاءنا لا تطاق ، فنخرج عندئذ ونلعب تحت عريشة الوسطار .

هنا رأيت النهر لآخر مرة هذا الصباح ، حوالي هذا المكان ، وجعلت أشعر بأن ثمة وراء الأصيل مياهاً ، ورائحة . عندما كانت الأزهار تتفتح في الربيع ويهمي المطر ينتشر الشذا في كل مكان ولا يلحظ المرء ذلك بوضوح في بعض الأحيان ولكن اذا ما امطرت السماء بدأت الرائحة في التسرب الى الدار عند الأصيل وعند الأصيل إما أن يشتد المطر أو ان في وهج الأصيل

شيئاً يجعل الشذا حينئذ اقوى رائحة الى ان أجدني مستلقياً غلى فراشي وأنا اقول متى ستكف ، متى ستكف . وإذا دخل الهواء من الباب حمل رائحة الماء كنفسٍ رطب مستمر ، وكنت أحياناً أنوّم نفسي وأنا أعيد وأكرر ذلك الى أن اختلط زهر العسل به وأمسى كل ذلك يرمز الى الليل والقلق ولكأنني استلقيت لا نائماً ولا يقظاً أرسل بصري في أرجاء رواق طويل ضياؤه شبه ضياء أشهب غدت فيه الاشياء المستقرة كلها ظلالاً وتناقضات وكل ما فعلته ظلال وكل ما شعرت به وعانيته يتلبس شكلاً مرئياً شكساً مهرجاً يهزأ دونما داع وكلها تضج بانكار المعنى الذي كان ينبغي ان تؤكد عليه وأقول لنفسي أكون لا أكون من كان لم يكن من .

كنت اشتم منحنيات النهر وراء الغسق وشاهدت آخر النور مستلقياً وادعاً على منحسرات المياه كشظايا مرآة محطَمة ، تبدأ وراءها أنوار ترتعش في الجو الشاحب الصافي كفراشات محومة ترى من بعيد . بنجامين ابنُ شَيْـ.لشد ما كان يلذ له أن يجلس ازاء تلك المرآة . ملجأ لن يخذله ، يلطف فيه الصراع ويسكن وينتهي الى ونام بنجامين ابن شيخوختي أبقوه رهينةً في مصر . أيا بنجامين . كانت دلزي تقول : كان ذلك بسبب كون امّه اشد كبرياء وأنفهم ن أن ترضى به . لقد كانوا يقتحمون حيوات البيض على هذا النحو في قطرات سوداء جديدة فجائية تفرز حقائق البيض لبرهة من الزمن في حقيقة لا تقبل الجدل كما تحت مجهر ، ولكنهم في الأوقات الاخرى ليسوا إلا أصواتاً تضحك حين لا ترى أنت ما يُضحك ، ودموعاً تهل حين لا ترى انت مبرراً للدموع . وإنهم ليراهنون على عدد النادبين في جنازة ما ، أفردي هو أم زوجي . واحتشد بهم يوماً مبغى في ممفيس فأصيبوا بنشوة دينية جامحة فانطلقوا عراةً إلى الشارع . وللسيطرة على واحد منهم كان لا بد من تعاون ثلاثة من الشرطة عليه . أجل يا يسوع يا يسوع الصالح يا إنساناً طيباً يا يسوع .

وقفت الحافلة ، فنزلت منها وهم ينظرون الى عيني . ولما جاءت حافلة الترام التالية كانت مليئة ُ. فوقفت عى الدكّة الخلفية .

قال الجابي : «في الأمام مقاعد خالية» . فنظرت الى داخل الحافلة ولم أجد مقاعد على الجانب الأيسر .

فقلت : «لست ذاهباً بعيداً . سأقف هنا» .

قطعنا النهر . أعني الجسر المنحني في قنطرة ونيدة شهقت في الفضاء . بين الصمت والعدم حيث الأضواء ـ الصفر والحمر والخضرـ ترتعش في صفاء الجو ، مكررة نفسها .

قال الجابي : «الأفضل أن تذهب الى الأمام وتجلس» .

فقلت : «لم يبقَ لي الا القليل فأنزل . عمارتان فقط» .

ونزلت قبل أن نبلغ دائرة البريد . في مثل هذا الوقت يكونون قد تجمعوا للأنس في مكان ما ، واذا بي اسمع ساعتي وأتهيأ لسماع رنات الساعة ولمست رسالة شريف من خلال سترتي ، وظلال الدردار المعضوضة تجري على يدي . وحالما دخلت الفناء انطلقت الساعة برناتها ومضيت والنغمات تتصاعد كالمويجات في بركة ماء وتمر بي وتمضي ، وأنا أقول أية ساعة إلاّ ربعاً ؟ لا بأس . اية ساعة إلا ربعاً ؟

كانت نوافذنا مظلمة . والمدخل خالياً . وقدسرت بمحاذاة الحائط الأيسر عند دخولي ، غير أنه كان خالياً : فيما عدا سلم الدرج يصعد وينعطف الى عالم من الظلال من أصداء الأقدام عبر الأجيال الحزينة اشبه بغشاوة من غبار تكسو الظلال ، توقظها قدماي كالغبار ، ثم تعود وتستقر كالغشاوة من جديد .

استطعت أن ارى الرسالة قبل أن أشعل الضوء ، مسندةً الى كتاب على المنضدة لكي أراها حال دخولي ، تسميه بزوجي ! ثم قال سبود انهم ذاهبون الى مكان ما ، ولن يعودوا الا متأخرين ، فتحتاج المسز بلاند الى فارس آخر . ولكنني كنت رأيته لو عاد ولن يحصل على حافلة الا بعد ساعة أخرى لأنها تعدت السادسة . فأخرجت ساعتي وأصغيت اليها وهي تدقدق ، غير عارف أنها عاجزة حتى عن الكذب . ثم وضعتها على الطاولة وميناؤها الى

الأعلى وتناولت رسالة المسز بلاند ومزقتها طولاً وعرضاً وأسقطت القطع في سلة المهملات ونزعت سترتي وصدريتي وياقتي ورباطي وقميصي . لقد تلوث الرباط أيضاً ، ولكن الزنوج..لعله حين يرى زخرفة الدم يقول انه الرباط الذي كان يلبسه المسيح . ووجدت البنزين في غرفة شريف فنشرت الصدرية على المنضدة ، وفتحت زجاجة البنزين .

أول سيارة في المدينة فتاة فتاة رائحة البنزين ماكان جاسن يتحملها قط تدفعه إلى الغثيان ثم جن جنونه لأن فتاة فتاة ماكان له أخت ولكن بنجامين بنجامين ابن أحزاني لو أن لي أماً فأستطيع أن أقول أماه أماه استهلكت الصدرية الكثير من البنزين ، ثم لم أعد أعلم أهي اللطخة ما زالت في مكانها أم أنه البنزين . لقد بُعث الألم في جرحي ثانية ولذا فإنني عندما ذهبت لأغتسل علقت الصدرية على كرسي وانزلت سلك الكهرباء لكي يجفف النور لطخة البلل . ثم غسلت وجهي ويدي ، غير أنني حتى في تلك اللحظة اخذت اشتم رائحته في الصابون لاسعة تقبض الخيشومين بعض الشيء . وبعد ذلك فتحت الحقيبة واخرجت منها القميص والياقة والرباط ووضعت فيها الثياب المدماة ، وارتديت ثيابي ، وفيما أنا أفرشَ شعري دقت الساعة النصف . ولكن ثمة حتى الثلاثة الارباع ، الا إذا افترضت غير مشاهد على **الظلام الدافق الا وجهه ولا ريشه مكسورة الا إذا كان اثنان منهم ولكن لا اثنان كهؤلاء ذاهبين إلى بوسطن في الليلة نفسها ثم وجهي وجهه للحظة خاطفة عبر الاصطدام حين برزت من أحشاء الظلام نافذتان مضاءتان في هرب صلب صدام راح وجهه ووجهي أكاد لا أرى رأيت هل رأيت دون وداع مظلة الموقف خالية من الاكل والطريق خالٍ في الظلام في الصمت والجسر منحن نحو الصمت والظلام والنوم والماء آمن سريع دون وداع**

اطفأت النور ودخلت غرفة نومي ، بعيداً عن البنزين ، لكن رائحته ما زالت تضرب انفي ، ووقفت عند النافذة والستائر تتحرك طالعةً على رسلها من الظلام تلمس وجهي ،كمن يتنفس في نومه ، فيسترسل بها تنفسها عودة

إلى الظلام ، مخلفة عليَ لمساتها . بعد أن صعدوا إلى فوق استلقت أمي في كرسيها ، والمنديل المشبّع بالكافور على فمها . ولم يتحرّك أبي بل ما انفك جالساً بقربها ويدها في يده والصراخ مستمر رتيباً كأنه حرم مكاناً في عالم الصمت عندما كنت صغيراً كان في أحد كتبنا صورة ، لمكان مظلم لاينفذ فيه إلا شعاع واحد من نور باهت يقع على وجهين طالعين من الظلام أتعلم ما الذي كنت أفعله لو كنت ملكاً ؟ لم تتخيل نفسها قط ملكة أو جنية بل ملكاً أو مارداً أو جنرالاً . لاقتحمت ذلك المكان واخرجتهما منه وجلدتهما مزقت الصورة من الكتاب ، وفرحت بذلك . فقد كان علي ان ارجع اليها الى أن أصبح الكهف امي نفسها هي وأبي الى فوق في النور الباهت يداً بيد ونحن ضانعون في مكان تحتهما محرومين حتى شعاع النور . ثم جاء زهر العسل . فإذا ما أطفأت النور وحاولت النوم اقتحم عليَ حجرتي في أمواج تلجب وتعلو حتى أُكره على اللهاث لسحب نفسٍ من الهواء من خلالها حتى أُكره على النهوض والخبط بحثاً عن طريقي كما كنت أفعل أيام صغري . ترى اليدان لمساً مشكلتين في الذهن الباب الذي لا يرى الباب الآن لا شيء ترى اليدان انفي يرى البنزين ، والصدرية على المنضدة ، والباب والرواق ما زال خاوياً من أقدام الأجيال الحزينة كلها طلباً للماء . إلا أن العينين بلا بصر صرّتا كالأسنان غير منكرة بل شاكة حتى في انعدام الألم كاحل ساق ركبة وانسياب إفريز الدرج الخفي الطويل حيث الكبوة في الظلام مليئة بنوم أمي أبي كادي جاسن موري الباب لست بخائف ولكن أمي أبي كادي جاسن موري سبقوني بعيداً في نومهم سأنام سريعاً وأنا الباب الباب الباب كان خالياً أيضاً . الأنابيب والخزف الأبيض اللماع ، والجدران الهادئة الملونة ، وعرش التأمل كنت قد نسيت الكوب ، ولكن بوسعي تستطيع اليدان أن تريا الأصابع المستبردة عنق الأوزة الذي لا يرى حيث أقل من عصا موسى ملمس الكوب غير يقين لا للقرع العنق الأهيف البارد يقرع المعدن الزجاج الكوب ملىء طافح يبرّد الكوب الاصابع

يجرف النوم فيبقى طعم النوم النديّ في صمت الحنجرة الطويل عدت أدراجي في الرواق ، موقظاً في الصمت الأقدام الضائعة في أفواج هامسة ، الى البنزين والساعة تكرر اكذوبتها الهوجاء على المنضدة المظلمة . ثم الستائر وهي تتنفس من أعماق الظلام على وجهي ، مخلفة أنفاسها على وجهي ربع ساعة بعده وبعدها لن أكون . آمنُ الألفاظ جميعاً آمن الالفاظ واعمقها سلاماً Sum Fui Non Son في مكان ما ذات يوم سمعت أجراساً . في مسيسبي أو ماساشوستس . كنت لا أكون . ماساشوستس أو مسيسبي .

لدى شريف زجاجة في حقيبته . ألن تفتحها على الأقل يتشرف السيد جاسن رتشموند كمبسن وعقيلته بإعلان ثلاث مرات . ثلاثة أيام . ألن تفتحها على الأقل زواج كريمتهما كاندس بأن الخمر تعلم المرء الخلط بين الوسائل والغايات . أنا أكون . اشرب . ما كنت . فلنبع مرعى بنجي لكي يتمكن كونتن من الذهاب الى هارفرد وأتمكن أنا من دق عظامي بعظامي . سأموت في . افي سنة واحدة قالت كادي ؟ . لدى شريف زجاجة في حقيبته . سيدي انني لن أحتاج الى مال شريف فقد بعت مرعى بنجي وبوسعي أن أموت في هارفرد قالت كادي في كهوف البحر ومغاوره تؤرجحني المياه الصاعدة النازلة في امان ودعة لأن هارفرد مضيق بحري رائع وهل أربعون فداناً من الأرض ثمن باهظ لقاء مضيق بحري رائع ؟ مضيق رائع ميت لسوف نستبدل مرعى بنجي بمضيق ميت رائع . ستكفيه مدة طويلة لأنه لا يستطيع سماعها إلا إذا استطاع شمها حالما جاءت الى الباب أخذ يبكي لقد كنت أظن طيلة الوقت أنه أحد أجلاف المدينة الذين كان أبي يعابثها بالحديث عنهم الى أن . لم آبه له أكثر مما أبهت لأي سمسار غريب عنا أو أي حسبت أنها من قمصان الجيش واذا بي فجأة أدرك أنه لم يعتبرني قط مصدراً ممكناً للأذى ، بل أنه كان يفكر بها وهو ينظر الي ينظر الي من خلالها كمن خلال قطعة زجاج ملون . لمَ هذا التدخل منك بشؤوني وأنت أدرى بأن لا خير يرجى من ذلك أوَليس الافضل أن تترك ذلك لأمي وجاسن

هل جعلت أمي جاسن يتجسس عليك ما كنت لأرضى .

أما النساء، فإنما يستخدمن شرائع الشرف التي يتمسك بها الآخرون وما ذلك إلا لأنها تحب كادي وتبقى في الطابق الأسفل حى عند مرضها لئلا يهزأ ابي من أخيها موري قدام جاسن وكان أبي يقول ان خالي موري اضعف علماً بالكلاسيكيات من ان يجازف بالفتى الضرير الخالد بنفسه وكان الأحرى به أن يختار جاسن لأن جاسن لا بد أن يقع في عين الخطأ الذي كان خالي موري سيقع فيه وهو لن يسبب له لكمة على العين وابن باترسن كان اصغر من جاسن أيضاً وباع كلاهما الطيارات الواحدة بخمسة سنتات الى أن اختلفا حول الأمور المالية فوجد جاسن له شريكاً آخر أصغر منه سناً أيضاً . صغيراً جداً لأن تي بي قال أن جاسن مازال أميناً للصندوق غير أن أبي قال وما حاجة خالي موري الى العمل وهو الأب الذي يستطيع أن يعيل خمسة زنوج أو ستة لا يفعلون شيئاً مطلقاً فيما عدا القعود على مؤخراتهم وأقدامهم مغروزة في الموقد فلا ريب أن بوسعه أيضاً أن يؤوي ويطعم موري بين الحين والحين ويعيره بعض النقود لكي يبقى إيمان أبي بانحدار أسلافه من أعلى عليين حاراً لا يتزعزع وعندها تنخرط أمي في البكاء وتقول إن ابي يعتقد أن اسرته أشرف من أسرتها وأنه يسخر من خالي موري لكي يلقننا تكرار أقواله . لقد عجزت عن أن ترى أن أبي كان يلقننا أن البشر جميعاً ماهم إلا تراكمات متوالية دمى محشوة بالنشارة قذف بها من أكوام القمامة حيث القيت الدمى السابقة كلها والنشارة تنز من جروح في جوانب لم تمت من أجلي . لقد مرّ علي زمن كنت فيه أتصور الموت رجلاً كجدّي أو صديقاً له ، صديقاً حميماً له منزلة خاصة لديه أشبه بتصورنا منضدة جدي وقد حظر علينا لمسها فلا نرفع حتى صوتنا بالكلام في الغرفة التي توجد فيها فكنت أتصورهما دائماً معاً في مكان ما ينتظران قدوم الكولونيل سرتورس ليجالسهما ينتظران في مكان شاهق يعلو أشجار الارز والكولونيل سرتورس في مكان ارفع من مكانهما وقد أرسل بصره بعيداً إلى شيء يحدق فيه وهما

ينتظران انتهاءه من التحديق فيه ونزوله إليهما وجدّي مرتدٍ بذته العسكرية وبوسعنا أن نسمع دمدمة حديثهما من وراء أشجار الارز وهما في حديث دائم وجدّي هو المصيب دوماً .

بدأت الأرباع الثلاثة تدق . وجاءت الرنة الأولى موزونة وادعة ، آمرةً بهناءته ، تفرغ الصمت الواني للرنة التالية أجل لو أن الناس يستطيعون تغيير بعضهم البعض على ذلك النحو إلى الأبد يمتزجون معاً كلهيب يندلع برهةً ثم ينطفيء محمولاً على الظلام الأزلي القرير عوضاً عن البقاء هناك ساعياً في ألا أفكر بالأرجوحة حتى طفقت أشجار الأرز كلها تبث ذلك العطر الميت النفّاذ الذي كان بنجي يمقته أشد المقت . وحسبي أن أتخيل الأشجار الملتفة لأتصوّر أنني اسمع الهمسات والفورات الخفية وأنشق نبض الدم اللاهب في الجسد الفاضح الأهوج فأرقب بجفنين أحمرين الخنازير المطلقة أزواجاً تهرول مجامعةً إلى البحر وهو* لقد فرض علينا أن نبقى يقظين لنرى الشر يفعل فترة ما في حين أنه ليس دوماً وأنا لا حاجة بالرجل الشجاع الى ذلك الوقت كله وهو اتحسب تلك شجاعة وانا اي والله يا أبي ألا توافقني وهو كل انسان هو المحكَّم في فضائله وقولك في أن تلك شجاعة أم لا أشد خطورة من الفعل نفسه بل من أي فعل والا فإنك لست جاداً وأنا أنت لا تصدق انني جاد وهو بل إني اعتقد أنك من الجد بحيث لا تفزعني والا لما وجدت نفسك مدفوعاً الى التذرع بالقول لي بأنك زنيت بإحدى المحارم وانا ما كذبت في ذلك ما كذبت وهو لقد أردت ان تحول قطعة من حماقة الانسان الطبيعي الى هول تطرده عنك فيما بعد بالصدق وأنا ما اردت الا أن أعزلها عن العالم الصاخب . فيضطر إلى الهزيمة منا بالضرورة وحينئذ يكون صخبه وكأنه لم يكن وهو . هل حاولت أن تجعلها تفعلها وانا لقد خشيت ذلك لقد خشيت أن ترضخ وعندها ما كان يرجى منها أي خير ولكن لو استطعت أن أقول لك

* لا بد من القول أن هذين الضميرين . هو وأنا . يعيّنان القائل في الحوار التالي دون ان يقطعان سيل الذكريات المتداعية . (المترجم)

أننا فعلناها لكان الأمر كذلك ولما كان الآخرون عندئذ كذلك الجزء فيروح العالم بهديره عنا وهو وهذا الآخر انك لست تكذب الآن أيضاً غير انك ما زلت أعمى لا تبصر ما في نفسك . وذلك الجزء من الحقيقة العامة وسياق الاحداث الطبيعية واسبابها الذي يقع ظله على جبين كل انسان حتى ينجي انك لا تفكر بما هو محدود انك تتأمل في تأليهِ ما تصبح فيه إحدى الحالات الذهنية المؤقتة أمراً متناغماً يعلو الجسد ويعي نفسه والجسد معاً . الجسد الذي لن يتخلى عنه تمام التخلي حتى الموت لن تعرفه وأنا مؤقتاً وهو أنك لا تستطيع أن تتحمل الظن بأن هذه لن تؤلمك يوماً ما كما تؤلمك الآن لقد جعلنا ندرك سرها يبدو أنك تعتبرها مجرد تجربة يشيب لها شعرك بين عشية وضحاها كما يقولون دون أن تغير شيئاً من مظهرك فترفض أن تفعلها في مثل هذه الحالة إنها مقامرة والغريب في الأمر أن الانسان الذي تحبل به أمه صدفة وكل نَفَس من حياته رميةٌ من نرد مغشوش ضده يرفض مجابهة تلك المقامرة الأخيرة التي يعلم سلفاً الا مفرّ له من مجابهتها دون اللجوء إلى ذرائع تتراوح بين العنف والتحايل الحقير وهي ذرائع لن تخدع طفلاً من الاطفال وإذا به يوماً لشدة اشمئزازه يجازف بكل شيء في رمية عشواء واحدة من ورقة لعب ليس هناك من يفعل ذلك وهو في أول هوج اليأس أو تقريع الضمير أو الفجيعة إنما يفعلها عندما يدرك أن لا عب النرد المغلق الجهم لا يقيم وزناً ليأس أو تقريع ضمير أو فجيعة وأنا مؤقتاً وهو ما أصعب ما يصدق المرء حين يعلم أن العشق أو الاسى سند يشتريه دونما خطة أو هدف فتنتهي مدته شاء أم أبى فيستعاد بغير اخطار سابق لاستبداله بأي من السندات التي يتفق أن تصدرها الآلهة في تلك الآونة لا لن تفعل أنت ذلك الى أن تقتنع بأنها حتى هي لم تكن ربما جديرة باليأس وأنا أنا لن أفعل ذلك مطلقاً لا أحد يعرف ما أعرفه أنا وهو يخيل الي أنه من الأفضل أن تذهب الى كمبردج في الحال ولعلك تذهب في إجازة الى ولاية « مين » لمدة شهر ولن يكون ذلك فوق طاقتك إن أنت حرصت على مالك وفي ذلك فيما أرى خير لك

لقد لأم الحرص على الفلس جراحات لم يلأم مثلها المسيح وأنا أفرض جدلاً أنني أدركت ما تعتقد أنني سأدركه هناك في الاسبوع القادم او الشهر القادم وهو عليك أن تذكر اذ ذاك ان ذهابك الى هارفرد حلم ساور أمك منذ ساعة ولادتك وليس في آل كمبسن من خيب أمل امرأة وأنا مؤقتاً ولسوف يكون ذلك خيراً لي ولكل أفراد العائلة وهو كل انسان هو المحكم في فضائله ولكن لا تسمحن لإنسان بتقرير ما هو الصالح لأي انسان آخر وأنا مؤقتا وهو تلك أحزن الكلمات كلها ما من شيء سواها في الدنيا وليس ذلك باليأس الى أن يحين الوقت ولا يحين الوقت الى ان كان

دقت الرنة الأخيرة . وأخيراً بطل رنينها وسكن الظلام من جديد ، فدخلت غرفة الجلوس وأضأت النور . وقد خفت رائحة البنزين حتى كدت لا أعيها .

وفي المرآة ما عادت اللطخة تستبان ـ لا بقدر الرضة السوداء على عيني ، على كل حال ارتديت سترتي فخشخشت رسالة شريف من خلال القماش ، فأخرجتها وتفحصت العنوان ، ودسستها في جيبي الجانبي . ثم أخذت الساعة إلى غرفة شريف ووضعتها في درجه وعدت الى غرفتي وأخرجت منديلاً نظيفاً واتجهت نحو الباب . ووضعت يدي على مفتاح النور . وعندها تذكرت أنني لم أفرّش أسناني ، فكان عليَّ أن أفتح الحقيبة ثانية . فوجدت فرشاة أسناني ووضعت عليها قليلاً من معجون شريف وخرجت وفرشت أسناني . ثم عصرت الفرشاة ما استطعت لتجفيفها وأعدتها الى الحقيبة وسددتها ، واتجهت الى الباب مرة اخرى . وقبل أن أطفىء النور تلفّت حولي لأرى إن كان هناك شيء آخر ، فأدركت أنني نسيت قبعتي . لقد كان علي أن أمر بدائرة البريد ولا بد أن التقي ببعضهم هناك فيحسبوا انني من طلاب « ميدان هارفرد » الذين يتظاهرون بأنهم في سنتهم الأخيرة . وقد نسيت ان أفرشها هي أيضاً ، ولكن لما كان لدى شريف فرشاة ، لم اضطر الى فتح الحقيبة مرة اخرى .

نيسان

٦

١٩٢٨

عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم ، هذا ما أقوله أنا . وقلت احمدي الله إن كان هربها من المدرسة هو كل ما يقلقك ، وأنا أقول أنه خير لها ألف مرة أن تكون في ذلك المطبخ في هذه اللحظة من أن تكون فوق ، في غرفتها ، تلطخ وجهها بالأصباغ وتنتظر ستة من الزنوج ، العاجزين عن مغادرة كراسيهم والوقوف على أقدامهم الا إذا وازنهم وعاء مليء بالخبز واللحم ، ليهيئوا لها الفطور . فقالت أمي :

«أما أن تعتقد سلطات المدرسة ان لا سيطرة لي عليها ، وانني لا استطيع ـ» .

فقلت : «بالضبط . وهل استطعت يوماً ؟ لم تحاولي يوماً ان تفعلي بها شيئاً . فكيف لك أن تبدأي وقد فات الاوان ، وقد بلغت السابعة عشرة من عمرها ؟» .

فراحت تتأمل في ذلك مدة ثم قالت :

«اما أن يعتقدوا... ما كنت اعلم أن لديهم ورقة تقرير باسمها . فقد اخبرتني في الخريف الماضي انهم اقلعوا عن استعمال التقارير هذا العام . والآن يخابرني الاستاذ جنكن بالتلفون ليقول ان تغيبت مرة واحدة اخرى فعليها ان تترك المدرسة. كيف تفعل ذلك ؟ أين تذهب ؟ انك في البلدة

طوال النهار : أما كنت تراها لو أنها كانت تتسكع في الشوارع ؟ »

قلت : « بلى . لو كانت تتسكع في الشوارع . ولكنني لا احسب انها تهرب من المدرسة لتفعل شيئاً تستطيع أن تفعله جهراً أمام الناس » .

قالت : « ماذا تعني ؟ » .

قلت : « لا أعني شيئاً . أجبتك على سؤالك ، لا أكثر ولا أقل » .

فبدأت تبكي من جديد ، وتقول كيف أن لحمها ودمها انتصبا أمامها ليصبا عليها اللعنة .

قلت : « انت التي سألتني » .

فقالت : « لست اعنيك انت . انك الوحيد من دونهم كلهم الذي لا أجد فيه غضاضة علي أو مسبة لي » .

فقلت : « طبعاً ، لم يتح لي الوقت لأكون ذلك . لم يتح لي الوقت للذهاب الى هارفرد ككونتن أو للشرب حتى يطمرني التراب كأبي .

كان علي أن أشتغل ، ولكن بالطبع إن كنت تبغين مني أن أتعقبها وأرى ماالذي تفعله ، فما عليَّ إلا أن أتخلى عن المخزن وأجد وظيفة أعمل فيها ليلاً . وعندها استطيع أن أراقبها أثناء النهار ولك أن تستخدمي بن في دورة الليل » .

قالت وهي تبكي على الوسادة : « أنا أعرف أنني مصدر إزعاج لك وعبء عليك » .

قلت : « لا بد أنني أعرف ذلك بعد أن كررته على مسمعي ثلاثين سنة كاملة . وحتى بن لا بد أن يكون عارفاً ذلك الآن . اتريدين لي أن أقول لها شيئاً حول الموضوع ؟ »

فقالت : « وهل ترى اية فائدة ترجى من ذلك ؟ »

قلت : « لن ترجى أية فائدة إن أنت نزلت للتدخل بيننا في اللحظة التي أبدأ فيها . فإذا كنت تريدين لي أن أسيطر عليها ، أخبريني بذلك ولا تتدخلي . فكلما حاولتُ ، أقحمت نفسك ، وراحت هي تضحك منك ومنّي » .

قالت : « تذكّر أنها من لحمك ودمك » .

قلت : « طبعاً . هذاما أفكر به ، دون غيره ـ اللحم ، وقليل من الدم ، لو أتيح لي مأربي . إذا تصرف المرء تصرف الزنوج ، فلا بد من معاملته معاملة الزنوج ، وليكن من يكون » .

فقالت : « إنني أخشى أن يحتد غضبك عليها » .

فقلت : « أنت لم توفقي في اسلوبك معها ، أفتريدينني أن أفعل شيئاً بهذا الشأن أم لا ؟ قرري . يجب عليّ الذهاب الى عملي » .

قالت : « أنا أعلم أنك تكد وتكدح في سبيلنا ، أو تدري لو اتيح لي تحقيق ما أشتهيه لكان لك مكتب تذهب اليه ، وساعات دوام تليق برجل هو سليل آل باسكوم ، لأنك من آل باسكوم ، رغماً عن اسمك . وأنا أعلم لو أن أباك استطاع التكهن بأن ـ » .

فقلت : « له الحق والله في أن يخطىء التكهن بين الحين والحين ، كغيره من البشر ، من آل زيد كانوا أم عبيد » . فجعلت تبكي ثانية . وقالت : « أتُسمعني هذا الكلام المُر عن أبيك المرحوم »...

فقلت : « طيب ، طيب . ليكن ما تشائين . ولكن ما دمت لا مكتب لي ، فعلي بالسعي إلى مالدي ، اتريدين لي أن أقول لها شيئاً ؟ »

فقالت : « أخشى أن يحتد غضبك عليها » .

قلت : « حسناً اذن ، لن أقول لها شيئاً » .

فقالت : « ولكن لا بد لي من فعل شيء ما . أما أن يعتقد الناس أنني اسمح لها بالتغيب عن المدرسة والتسكع في الشوارع أو أنني عاجزة عن منعها عن ذلك... جاسن ، جاسن ، كيف ترضى كيف ترضى بتركي رازحة تحت هذه الأعباء كلها ؟ » .

قلت : « هدئي روعك ، والا مرضت من جديد . لمَ لا تحبسينها في غرفتها طيلة النهار ، أو تسلمينها إليّ فتقلعي عن القلق بشأنها ؟ » .

قالت : « لحمي ودمي ، » وبكت ، فقلت :

ـ « لا بأس ، سأعنى بأمرها . كفاك بكاءً » .

فقالت : « لا تحتد غضباً . وتذكّر ، إن هي إلا طفلة » .

فقلت : « لا ، لا » . وخرجتُ وأغلقت الباب .

فصاحت : « جاسن » غير أنني لم أجب . ومضيت في البهو ، فقالت من وراء الباب : « جاسن » ولكنني نزلت الدرج . ولم يكن في غرفة الطعام أحد ، ثم سمعتها في المطبخ ، تحاول جعل دلزي تعطيها كوباً آخر من القهوة ، فدخلت المطبخ .

وقلت : « هذا الذي ترتدينه هو زي المدرسة ، ولا شك ، هه ؟ أم أن اليوم عطلة ؟ » .

قالت : « أرجوك يا دلزي نصف كوب فقط » .

قالت دلزي :« لا والله . لن أعطيك قهوه بعد ، عيب أن تشربي أكثر من كوب واحد ، وما أنت إلا فتاة في السابعة عشرة من العمر ، فضلاً عما تقوله السيده كارولاين . هيا اذهبي ، وارتدي لباس المدرسة ، لتستطيعي ان تذهبي راكبة مع جاسن . أتريدين أن تتأخري ثانية ؟ » .

فقلت : « أبداً ! وسوف نتأكد من ذلك تواً » . فنظرت إلي ، والكوب في يدها . وأرجعت شعرها مشطاً عن وجهها ، وقد زلق « الكيمونو » عن كتفها . وقلت : « ضعي ذلك الكوب من يدك وتعالي هنا قليلاً » .

فقالت : « لماذا ؟ » .

قلت : « تعالي . ضعي ذلك الكوب في المغسلة وتعالي هنا » .

فقالت دلزي : « ما الذي انتويته الآن يا جاسن ؟ » .

قلت : « لعلك تظنين أنك تستطيعين أن تتخطيني كما تتخطين جدتك وكل فرد آخر في هذا البيت . ولكن ستجدين أنك مخطئة . سأمهلك عشر ثوان لكي تضعي ذلك الكوب من يدك كما قلت لك » .

فصرفت عينيها عنّي ونظرت إلى دلزي . وقالت : « ما الساعة الآن يا دلزي ؟ عندما تنقضي الثوان العشر ، صفري . نصف كوب فقط يا دلزي ، أر ـ »

فأمسكت بها من ذراعها ، فأسقطت الكوب وتحطم على الأرض ،

وانتفضت إلى الوراء وهي تنظر إلي ، غير أنني بقيت ممسكاً بذراعها . ونهضت دلزي عن كرسيها وقالت : «اسمع ياجاسن»

قالت كونتن : «خلّ سبيلي . وإلا صفعتك» .

فقلت : «أتصفعينني ، أحقاً تصفعينني ؟» ورفعت كفها علي ، فقبضت على يدها تلك أيضاً ، وأمسكت بها كالقطة البرية وقلت : «أتصفعينني ، أحقاً تصفعينني ؟»

قالت دلزي : «اسمع يا جاسن !» وجررت بها إلى غرفة الطعام ، وانحل الكومينو مرفرفاً حولها : عارية تقريباً والله . وجاءت دلزي تتدحرج ، فاستدرت ورفستُ الباب إغلاقاً في وجهها .

وقلت : «اياك أن تدخلي هنا» .

واتكأت كونتن على المائدة ، وشدت ثوبها ، وأنا أنظر اليها .

قلت : «والآن ، أريد أن أعرف ماالذي ترمين إليه بهربك من المدرسة والكذب على جدتك وتزوير اسمها على تقريرك واقلاقها حتى المرض . ما الذي ترمين إليه ؟» .

فلم تنبس بكلمة ، وهي ترفع طرف الكيمونو الى ما تحت ذقنها ، وتسحبه بشده حولها ، ناظرة إلي . لم تكن قد صبغت نفسها بعد فبدا وجهها وكأنه قد مُسح مسحاً بخرقة عتيقة . وامسكتها من رسغها بعنف وقلت : «ما الذي ترمين إليه ؟» .

فقالت : «ليس ذلك من شأنك ، أفهمت ؟ خلّ سبيلي» .

واذا دلزي بالباب تقول : «اسمع يا جاسن» .

قلت دون أن التفت اليها : «اخرجي من هنا ، كما قلت لك !» وعدت أقول : «أريد أن أعرف أين تذهبين عندما تهربين من المدرسة . انك تبتعدين عن الشوارع ، والا لكنت رأيتك . من الذي تهربين معه أو من أجله ؟ أتختبئين في الغابة مع أحد هؤلاء القذرين اللماعي الرؤوس ؟ اهناك تذهبين ؟» .

« قبحكَ الله » . قالت وهي تكافح ، غير أنني بقيت ممسكاً بها :
« قبحك الله ، قبحك الله ! »

فقلت : « سأريك الآن . ربما استطعت أن تفزعي عجوزاً كجدتك ، ولكن سأريك في يد من وقعت الآن » . وأمسكت بها بيد واحدة ، ثم كفّت عن العراك وراحت ترقبني وعيناها تتسعان وتكفهران .

قالت : « ومالذي ستفعله الآن ؟ » .

ـ « انتظري إلى أن اخرج هذا الحزام ، فتعرفي ، » قلت وأنا اسحب حزامي ، وعندها قبضت دلزي على ذراعي .

وقالت : « جاسن ! اسمع ياجاسن ! الا تخجل من نفسك ؟ »

وقالت كونتن : « دلزي ، دلزي » .

قالت دلزي : « لن أدعه ، لا تخافي يا حبيبتي » . وتشبثت بذراعي ، ثم سحبت حزامي وانتفضت طليقاً منها وقذفت بها عنّي . فارتطمت بالمائدة . لقد طعنت في السن حتى عسرت عليها الحركة . ولكن لا بأس : لا بد لنا من اناس في المطبخ يأكلون الطعام الذي لا يستطيع الصبية تهريبه .

وجاءت تتدحرج بيننا وحاولت ابعادي مرة أخرى . وقالت : « اضربني ، ان كان عليك أن تضرب أحداً لكي تهدأ . اضربني أنا » .

فقلت : « أتظنين أني لن أضربك ؟ »

فقالت : « أعرف أنك لن تتورع عن أي رجس من عمل الشيطان » .

ثم سمعت أمي على الدرج . كان يجب أن أعلم أنها لن تحجم عن التدخل ، فأفلتّها ، فارتطمت متراجعة بالحائط ، وهي تمسك بالكيمونو لئلا ينفتح عليها .

وقلت : « لا بأس . سأؤجل الأمر قليلاً . ولكن اياك أن تظنّي أنك تستطيعين التخلّص منّي . أنا لست امرأة عجوزاً ولا زنجية شمطاء نصف ميتة . يا ساقطة يا لعينة » .

فقالت : « دلزي ، يا دلزي أريد أمي » .

فذهبت اليها دلزي وقالت : « لا تخافي . لن تحط يده عليك ما دمت هنا » . ونزلت أمي الدرج .

وقالت : « جاسن . دلزي » .

قالت دلزي : « لا تخافي . لن أدعه يمسّك » . ووضعت يدها على كونتن . فقذفت بها عنها ، وقالت :

ـ « قبحك الله من زنجية شمطاء » . وركضت نحو الباب .

وقالت أمي من على الدرج : « دلزي » وصعدت كونتن الدرج ركضاً ، مارةً بها . فقالت أمي : « يا كونتن . أنتِ يا كونتن » . . واستمرت كونتن في الركض وسمعتها تصل إلى الأعلى فتدخل البهو ، ثم انصفق الباب .

كانت أمي قد توقفت ، ثم نزلت وقالت : « دلزي » .

فقالت دلزي : « نعم ، نعم . إني قادمة » . ثم قالت : « اذهب وهيئ تلك السيارة لكي تأخذها فيها إلى المدرسة » .

فقلت : « لا تقلقي . سآخذها إلى المدرسة ، وسأتأكد من أنها تبقى هناك . لقد شرعت في هذا الأمر ، ولسوف استمر به حتى النهاية » .

قالت أمي من على الدرج : « جاسن »

قالت دلزي : « متجهة نحو الباب : « هيا اذهب ، أتريدها أن تبدأ هي أيضاً ؟ إني قادمة يا ست كارولاين » .

ولما خرجت كنت أسمعهما على الدرج ، ودلزي تقول : « عودي إلى فراشك . ألا تعلمين أنك لم تشفي تماماً لتغادري الفراش ؟ عودي الآن وسوف أتأكد من أنها تذهب إلى المدرسة هذه المرة » .

خرجت من الباب الخلفي لأخرج السيارة بسوقها إلى الوراء ، ثم اضطررت أن أعود فأذهب إلى مقدمة البيت بحثاً عنهم حتى وجدت بعضهم .

وقلت : « ألم أقل لك أن تركّب ذلك الإطار في مؤخرة السيارة ؟ » .

فقال لستر : «لم أجد الوقت لذلك . فليس هناك من يعنى به إلى أن تفرغ أمي عملها في المطبخ» .

قلت : «طبعاً . اطعم جيشاً من الزنوج لكي يتبعوه ويهتموا بأمره ، أما إذا أردت تغيير اطار سيارتي ، فإن علي أن أفعل ذلك بنفسي» .

فقال : «لم أجد أحداً اتركه معه» . ثم جعل يئن ويريل .

فقلت : «خذه إلى خلف المنزل . لماذا تتركه هنا حيث يراه الناس ؟» وطردتهما قبل أن يبدأ بالعياط العالي . ألا يكفينا يوم الأحد حين يمتلئ ذلك الحقل اللعين بأناس ، لا مشاكل لديهم وليس في عهدتهم زنوج ستة لابد من اطعامهم ، يضربون كرة صغيرة جيئة وذهاباً وفي كل اتجاه فيركض طالعاً نازلاً بمحاذاة السياج ويصرخ ويعيط كلما رآهم إلى أن يخطر لهم أن يتقاضوني أجور الغولف ، وعندها سيتحتم على أمي ودلزي أن تأتيا بمقبض أو اثنين من مقابض الأبواب الكروية وعصا معكوفة من عصي المشي وتتدبرا الأمر ، إلا إذا اضطررت أنا إلى اللعب ليلاً في ضوء فانوس . ولعلهم حينئذ يرسلوننا جميعاً إلى مستشفى المجاذيب في جاكسن . ويعلم الله أنهم ، إذا ماوقع ذلك ، سيحتفلون بالمناسبة ؟

عدت إلى الكراج ، والإطار هناك مسند إلى الحائط ، ولكن لعنني الله إن كنت سأركبها . خرجت بالسيارة خلفاً واستدرت . ووجدتها واقفة على طريقنا الخاص . فقلت :

«أنا أعرف أن لاكتب لديك . ولكن أرجو ألا تظنينني متطفلاً إن سألتك ماذا فعلت بها ؟ متطفل أنا بالطبع ، فما أنا إلا الرجل الذي دفع أحد عشر دولاراً و٦٥ سنتاً ثمناً لها في أيلول الماضي» .

فقالت : «أمي هي التي تشتري كتبي . لم تنفق علي فلساً من نقودك ، وإلا لآثرت الموت جوعاً» .

قلت : «صحيح ؟ قولي ذلك لجدتك واسمعي جوابها» . ثم قلت : «لست تبدين عارية تماماً وإن كان هذا الشيء الذي يكسو وجهك يخفي

عن العين منك أكثر مما يخفيه هذا الثوب الذي تلبسينه .

« أو تظن أن نقودك أو نقودها دفع منها فلس واحد لقاء هذا ؟ » .

فقلت : اسألي جدتك . اسأليها عن تلك الصكوك . أمارأيتها ، على ماأذكر ، تحرق واحداً منها ؟ » حتى إصغاءً لم تكن تصغي ووجهها مصمغ بالأصباغ وعينها في قسوة عيني كلب شرس .

« أتعلم ما الذي كنت أفعله لو علمت أن فلساً واحداً من نقودك أو نقودها قد صرف على هذا ؟ » قالت هذا واضعة يدها على فستانها .

فقلت : « مالذي كنت تفعلينه ؟ أكنت ترتدين برميلاً ؟ » .

قالت : « لكنت مزقته عني وقذفت به في الطريق ، ألا تصدقني ؟ » .

قلت : « لاريب عندي . أنك دائماً تفعلين ذلك » .

فقالت : « طيب . انظر ! » وأمسكت بعنق ثوبها بكلتا يديها وبدا كأنها تهم بتمزيقه .

فقلت : « إن أنت مزقت ثوبك ، فسأجلدك ، والله هنا على قارعة الطريق جلدة تذكرينها طوال عمرك » .

قالت : « طيب ، انظر » . وإذا بها فعلاً تحاول أن تمزقه ، عن جسدها . وإلى أن أوقفت السيارة وقبضت على يديها كان هناك أكثر من عشرة أشخاص ينظرون الينا . لقد جننت لذلك برهة وغشت عيني غشاوة .

وقلت : « والله إن أعدت مثل هذه الفعلة لأجعلنك تندمين على أنك ذقت طعم الحياة » .

فقالت : « أنا آسفة الآن » . وكفت ، وحلت في عينيها نظرة غريبة فقلت لنفسي ، إن بكيت في هذه السيارة ،على الطريق ، فسأجلدك ، سأنهنهك ، ولكن لحسن حظها لم تبك ، فأفلتت معصميها وعدت إلى السياقة ، وكنا لحسن الحظ على مقربة من زقاق استطعت أن أدخل منه إلى شارع خلفي فأتجنب الميدان . وكانوا قد بدأوا بنصب الخيمة في أرض بيادر . وكان ايرل قد أعطاني بطاقتين لقاء الإعلان في نافذتي مخزننا . أما

هي فقد ظلت قابعة في مكانها مشيحة بوجهها ، وهي تعض شفتيها . وقالت : «أنا آسفة الآن . لست أدري لماذا ولدتني أمي» .

فقلت : «وأنا أعرف على الأقل شخصاً آخر لا يفهم شيئاً مما يعرفه عن ذلك . وأوقفت السيارة أمام المدرسة . كان الجرس قد دق ، وكانت أخريات الطالبات في سبيلهن إلى الصفوف . فقلت : «لقد وصلت في الموعد المحدد لأول مرة ، على كل حال . أتدخلين المدرسة وتبقين فيها أم أرافقك وأكرهك على ذلك ؟» فخرجت من السيارة وصفقت الباب . «تذكري ماقلته لك» قلت ، «وأنا أعني ماقلت . الويل لك إن أنا سمعت مرة أخرى أنك تتسللين وتتسكعين في الأزقة الخلفية جيئة وذهاباً مع بعض أولئك المنحطين» .

فالتفتت الي عندها ، وقالت : «أنا لا أتسلل وأتسكع . وأتحداكم جميعاً أن تعرفوا مالذي أفعله» .

فقلت : «الكل يعرف ذلك . كل من في هذه المدينة يعرف من أنت ولكنني سأضع حداً لذلك ، أتسمعين ؟ أنا لا يهمني في الواقع ما تفعلين ،» قلت لها «ولكن لي في هذه المدينة مركزاً اجتماعياً ، ولن أسمح لامرأة من عائلتي بالتصرف تصرف عاهرة زنجية . أتسمعينني ؟»

فقال : «لاأبالي . إني فاسدة وسأذهب إلى الجحيم ولن أبالي . وإني لأفضل الجحيم على أي مكان أنت فيه» .

فقلت : «والله إن سمعت مرة واحدة أخرى أنك هربت من المدرسة فسأجعلك تتمنين لو كنت حقاً في الجحيم» . ثم أدبرت وركضت عبر الفناء وقلت : «ولو مرة واحدة أخرى ، تذكري!» ولكنها لم تلتفت .

ذهبت إلى دائرة البريد وأخذت رسائلي ثم اتجهت نحو الحانوت وأوقفت السيارة في مكانها . وعند دخولي نظر الي ايرل وأعطيته فرصة التعليق على تأخري ، ولكنه ما ما قال إلا : هذه المعشبات قد وصلت . الأفضل أن تعين العم أيوب على تركيبها .

ولما ذهبت إلى خلف الحانوت وجدت أيوب يفك عنها التغليف ويركبها بمعدل ثلاثة براغي في الساعة .

فقلت : « كان يجب أن تكون أنت أيضاً في خدمتي . فكل زنجي خامل في المدينة يأكل من مطبخي » .

قال : « أنا أشتغل لأرضي الرجل الذي يدفع لي أجوري مساء السبت وإذا مافعلت ذلك ، لم يبق لي وقت كثير لإرضاء الآخرين » . وشد برغياً ، وقال : « لاأحد يرهق نفسه بالعمل في هذا البلد هذه الأيام سوى خنفساء القطن » .

فقلت : « اشكر ربك على أنك لست خنفساء قطن تنتظر هذه المعشبات . وإلا لقتلت نفسك إرهاقاً قبل أن يتهيأوا لمنعك عن ذلك » .

قال أيوب : « هذه هي الحقيقة . خنفساء القطن مظلومة تعمل كل يوم من أيام الأسبوع في العراء في الشمس المحرقة ، أمطرت أم أشرقت . ولا شرفة مسقوفة لديها تجلس فيها لتتفرج على البطيخ وهو ينمو ولا يعني لها يوم السبت شيئاً أبداً » .

فقلت : « لو كان أمر أجورك بيدي ، لما كان ليوم السبت أي معنى عندك أنت أيضاً . هيا ، أخرج هذه القطع من صناديقها وجرها إلى الداخل » .

فضضت رسالتها أولاً وأخرجت منها الصك إن المرأة هي هي . فها هي قد تأخرت ستة أيام ، ومع ذلك فإنهن يحاولن أن يقنعن الرجال بأنهن يستطعن تسيير الأعمال . وهل يدوم طويلاً في عمله رجل يتصور أن أول الشهر يقع في السادس منه ؟ ومن المحتمل جداً ، حين يرسلون تقرير المصرف أن تتساءل لماذا لم أودع راتبي حتى السادس منه ؟ أمور كهذه لن تخطر ببال امرأة .

« لم يبلغني الجواب على رسالتي بخصوص ثوب عيد الفصح لكونتن . هل وصلت الرسالة ؟ ولم يبلغني الجواب على رسالتي الاثنتين اللتين كتبتهما

مؤخراً إليها ، مع أن الصك في الرسالة الثانية قد صرف مع الصك الآخر . هل هي مريضة ؟ أخبرني حالاً ، وإلا جئت بنفسي لأستوثق من الأمر ، لقد وعدت بأن تدعني أعرف كلما كانت في حاجة إلى شيء سأتوقع منك قبل العاشر من الشهر . لا . بل الأفضل أن تبرق إلي على الفور . إنك تفتح رسائلي إليها . وأنا واثقة من ذلك ، كأنني أنظر في عينيك فالأفضل أن تبرق إلي عنها على الفور على هذا العنوان » .

وفي تلك اللحظة جعل ايرل يصيح بأيوب ، فوضعت الرسالة مع امرأتيها جانباً وذهبت إلى حيث أيوب لأحركه قليلاً . إن مايحتاجه هذا البلد هو العمال البيض . فلو جعلنا هؤلاء السود الكسالى يتضورون جوعاً لسنة أو اثنتين ، لأدركوا حينئذ قيمتهم الحقيقية .

في حوالي الساعة العاشرة ذهبت إلى مقدمة المخزن . كان هناك سمسار ، وكانت الساعة هي العاشرة إلا دقيقتين ، فدعوته إلى مكان قريب نشرب فيه زجاجة من الكوكا كولا . وأخذنا نتحدث عن غلال الموسم .

قلت له : «المسألة واضحة جداً ، القطن غلة المضاربين في السوق . إنهم يتخمون المزارع بمعسول الكلام ويغرونه على انتاج غلة كبيرة لكي يقصّوا بها السوق ، كالمنشار ، مستفيدين صعوداً ونزولاً ، ويضحكوا على ذقون المغفلين أوتظن أن المزارع يخرج بشيء من كل ذلك فيما عدا رقبة حمراء واحديداب في الظهر! أو تظن أن الرجل الذي يتصبب عرقاً من بذره وزرعه يحصل على فلس أحمر غير كفاف العيش ؟ فإذا أنتج غلة كبيرة ، فهي لاتستحق القطاف وإذا أنتج غلة صغيرة ، لم يكن لديه ما يكفي للحلج . والفائدة ؟ لكي تأتي شرذمة من اليهود الشرقيين . وأنا لاأتحدث عن الذين يعتنقون الدين اليهودي ، ولعلك واحد منهم» .

فقال : « كلا . إني أمريكي» .

فقلت : «أرجو المعذرة إني أعطي كل انسان حقه ، بغض النظر عن الدين أو أي شيء آخر . وأنا لاأعترض على اليهود كأفراد إنما هو الجنس ،

العرق ، فأنت توافقني على أنهم لا ينتجون شيئاً . فهم يلحقون بالرواد في أي صقع جديد ليبيعوهم الملابس » .

قال : « لعلك تقصد الأرمن . فالرواد لا تفيدهم الملابس الجديدة في شيء » .

قلت : « أرجو المعذرة . أنا لاأعترض على دين أي إنسان » .

قال : « أكيد أنا أمريكي . في عائلتنا شيء من الدم الفرنسي . مما يعلل أن يبدو أنفي هكذا ولكنني أمريكي » .

فقلت : « وأنا أيضاً . لم يبق منا والله إلا القليل . والذي أتكلم عنه هو هؤلاء القاعدون في نيويورك ، الذين يضحكون على ذقون المقامرين المغفلين » .

قال : « أي والله صدقت ، مقامرة وخراب ديار ، بالنسبة إلى الفقير . يجب أن يصدروا قانوناً بمنع ذلك » .

قلت : « ألا تعتقد أنني محق ؟ »

قال : « أي والله محق ، والمزارع يأكلها على الصاعد وعلى النازل » .

قلت له : « أنا أعرف أنني محق ، إنها لعبة مغفلين ، إلا إذا حصل المرء على معلومات داخلية من رجل مطلع على مجريات الأمور ، إني لحسن الصدف على إتصال ببعض العارفين بخفايا الأمور ، ممن لهم مستشار هو من أكبر المدراء في نيويورك . وطريقتي في العمل هي ألا أجازف بالكثير في المرة الواحدة . أما الرجل الذي يعتقد أنه يعرف كل شيء ويحاول أن يكسب مال الدنيا بثلاثة دولارات ، فهو الذي يوقعون به . وهذا هو السبب في أنهم يمارسون هذه التجارة » .

ثم دقّت العاشرة ، فذهبت إلى دائرة البرق* . وإذا هي قد فتحت بابها بعض الشيء كما قالوا تماماً ، وركنت إلى الزاوية وأخرجت البرقية من

---

* دوائر البرق في الولايات المتحدة تقوم بادارتها شركة تجارية كبيرة تدعى « ويسترن يونيون » أي أنها ليست حكومية . ودائرة البرق هنا أشبه بألبورصة أيضاً . (المترجم)

جديد . وفيما أنا أتأملها وصل تقرير جديد . ارتفاع بنقطتين . والكل يشتري . لقد أدركت ذلك من العبارات التي كانوا يتفوهون بها . الكل يريد أن يركب المركب . كأنهم لا يعرفون أنه لا يسير إلا في إتجاه واحد . أو كأن ثمة شريعة لا تحتّم إلا الشراء . على كلّ ، يظهر أن هؤلاء اليهود الشرقيين أيضاً لا بد لهم من وسيلة للعيش . ولكنني أضيق ذرعاً كلما رأيت أن بوسع كل أجنبي لعين عاجز عن طلب الرزق في بلده حيث أوجده ربّه أن يأتي إلى هذا البلد ويحفن المال من جيوب الامريكيين . ثم كان هناك ارتفاع بنقطتين اخريين . أربع نقاط . إنهم هناك ، حيث يجب أن يكونوا ، ويعرفون بالذي يجري . وإذا لم آخذ بنصيحتهم ، فما الداعي لأن أدفع لهم عشرة دولارات كل شهر ؟ فخرجت ، ثم تذكرت فعدت وأرسلت برقية : « الكل بخير . ك ستكتب اليوم » . قال موظف البرق : « ك » ؟ قلت : « نعم ، ك . ألا تستطيع أن تتهجّأ ك ؟ » فقال : « أردت أن أتأكّد » قلت له : « ابرقها كما كتبتها وأنا أضمن لك تأكيدك . ابرقها مع تحصيل الأجرة من المرسل إليه »

قال الدكتور رايت وهو يتطلع من فوق كتفي : « ما الذي تبرقه يا جاسن ؟ أبرقية بالشفرة للشراء ؟ »

فقلت : « لا عليك . استعملوا حكمتكم أنتم . فأنكم تعرفون عن الموضوع أكثر مما يعرف أولئك الجالسون في نيويورك » .

قال : « طبعاً . وقد كسبت شيئاً من المال هذه السنة بمقدار سنتين في الرطل » . ثم جاء تقرير آخر . هبوط بنقطة .

فقال هوبكنز : « جاسن يبيع . انظر إلى وجهه » . فقلت : « ليس من شأنكم ما أفعله . ما عليكم إلا أن تتبعوا حكمكم في الأمر . وأغنياء اليهود في نيويورك لا بد لهم من أن يعيشوا كغيرهم من خلق الله » .

عدت إلى المخزن ، حيث وجدت ايرل مشغولاً عند الواجهة . فذهبت إلى المنضدة وقرأت رسالة لورين . « عزيزي ، حبوبي ، ليتك هنا . إذا لم

يكن حبوبي عندي فمن أين لي سهرات طيبة ، أنا مشتاقة جداً لحبوبي » . مشتاقة بالطبع . أعطيتها في المرة الأخيرة أربعين دولاراً . وضعتها في يدها . من دأبي ألا أعد امرأة بشيء ، وألا أجعلها تتوقع ماالذي سأعطيها . هذه هي الطريقة الوحيدة للسيطرة عليهن . اتركهن دائماً في حيص بيص . وإذا لم تعرف كيف تفاجئهن ، فاكسر لهن حنكاً بين الحين والآخر .

مزقت الرسالة وحرقتها في المبصقة . من شريعتي ألا أحتفظ بقصاصة تحمل خط امرأة ، وألا أكتب إلى امرأة أبداً . إن لورين تصر دائماً على كتابتي إليها ولكنني أقول لها إن كان هناك مانسيت أن أقوله لك فبإمكاني أن أوفره إلى أن أجيء إلى ممفيس مرة أخرى ، ولكنني أقول لها بإمكانك أن تكتبي إليّ بين حين وآخر في غلاف عادي ، أما إذا حاولت أن تخابريني بالتلفون ، فوالله لن أدع لك موطىء قدم في ممفيس . عندما أكون عندك ، فأنا واحد من الجماعة ، أما في بلدي فلن اسمح لإمرأة بأن تتصل بي تلفونياً ، وهنا أعطيها أربعين دولاراً وأقول لها : « إذا سكرت يوماً أو خطر لك أن تخابريني بالتلفون ، تذكري هذا الكلام وعدي العشرة قبل أن تتورطي » .

فتقول : « متى يكون ذلك ؟ » .

فأقول : « ماذا ؟ » .

تقول : « متى ستعود ؟ » .

فأقول : « سأخبرك في حينه » . وعندها حاولت أن تشتري زجاجة بيرة ، فلم أدعها ، وقلت : « احتفظي بنقودك . اشتري لك ثوباً بها » . واعطيت الخادمة ورقة الخمسة أيضاً . فالنقود في الواقع ، كما أقول دائماً ، ليست بذات قيمة . والمهم أن تعرف كيف تنفقها . وهي ليست مالاً لأحد ، فلماذا نخزنها ؟ إنها ليست مالاً إلا للذي يستطيع تحصيلها وحفظها . ففي جفرسن ، هنا ، رجل جمع أموالاً طائلة ببيع بضائع فاسدة للزنوج ، كان يقيم في غرفة فوق دكانه بحجم حظيرة الخنزير ، ويطبخ طعامه بنفسه .

ومنذ أربع أو خمس سنوت وقع مريضاً . فأخذه الرعب لمرضه واشتد به الهلع حتى أنه ، حال شفانه انضم إلى الكنيسة ، واشترى لنفسه تبشيرية في الصين بخمسة الآلاف دولار سنوياً .

كثيراً ما أتصور الغضب الذي سيعصف به إن هو مات واكتشف أن لا جنة في الآخرة ، ويتذكّر خمسة آلاف دولار سنوياً ! وإني أقول ، خير له أن يموت الآن ويوفر نقوده .

عندما احترقت الرسالة تماماً ، هممت بدس الرسائل الأخرى في جيبي وإذا بهاتف فجائي يحثني على فتح الرسالة الموجهة إلى كونتن قبل عودتي إلى البيت ، غير أن ايرل في تلك اللحظة أخذ يصيح من عند الواجهة يناديني ، فوضعتها جانباً وذهبت لأخدم واحداً من ذوي الرقاب الحمراء * . كان ـ قاتله الله ـ قد بدد خمس عشرة دقيقة في تقرير أمره بين طوق حصان بعشرين سنتاً ، وآخر بخمسة وثلاثين . فقلت : « خير لك أن تأخذ هذا الطوق القوي . كيف يا قوم تؤمّلون في التقدّم وأنتم تحاولون استخدام أرخص العدد ؟ » .

فقال : « إذا كان هذا آلاخر غير قوي ، فلِمَ تعرضه على الناس للبيع ؟ »

قلت : « لم أقل إنه غير قوي إنما قلت أن الآخر أقوى منه » .

قال : « وكيف تعلم أن هذا أضعف من ذاك ؟ هل استعملت يوماً أحد النوعين ؟ »

قلت : « لأن هذا سعره عشرون سنتاً ، وذاك خمسة وثلاثون وهكذا استطيع التمييز بينهما » .

فأخذ طوق العشرين سنتاً بإحدى يديه وسحبه بين أصابعه ، ثم قال : « أعتقد أنني سآخذ هذا » وأردت أن آخذه وأرزمه ، غير أنه لفه ووضعه في جيبه ، وبعد ذلك أخرج كيس تبغ وبعد التي واللتيا نجح في حله ، ونفض منه

---

* من التسميات التي كانت تطلق على الفلاحين أيامئذ : « الرقاب الحمراء » . (المترجم)

بعض قطع النقد ، وسلمني ربعاً وهو يقول : « أما بالخمسة عشر سنتاً الأخرى وهي الفرق بين الاثنين ، فأستطيع أن أشتري طعاماً للعشاء » .

قلت : « لابأس . أنت أبو الفهم . ولكن أرجو ألا تأتيني في العام المقبل متشكياً حين تريد شراء عدة جديدة لحصانك » .

فقال : « لم أنتج غلة العام المقبل بعد ، والحمد لله » . وفي النهاية تخلصت منه ، ولكن كلما أخرجت تلك الرسالة حدث أمر جديد . لقد جاء الناس جميعاً إلى البلد لمشاهدة السيرك ، جاؤوا زرافات لينفقوا نقودهم على أمر لن يدخل منه للمدينة شيء ولن يترك لها شيئاً إلا المبالغ التي سيتقاسمها فيما بينهم هؤلاء المرتشون في دائرة رئيس البلدية ، وإيرل يروح جيئة وذهاباً كدجاجة في القن قائلاً : « نعم يا سيدتي ، السيد كمبسن سيعني بأمرك . ياجاسن ، أر هذه السيدة مضخة ، أو علاقات ببضعة فلوس » .

على كلٍ ، إن جاسن يحب العمل ، كنت أقول ، لا ، لم تتح لي فوائد الدراسة الجامعية لأنهم في هارفرد يعلمون المرء كيف يسبح في الليل دون أن يعرفوا السباحة وفي جامعة « سيواني » لا يعلمون المرء حتى ما هو الماء . وكنت أقول لعلكم ترسلونني إلى جامعة الولاية ، فأتعلم فيها كيف أوقف ساعتي بمضخة الرش ، ولعلكم بعد ذلك ترسلون « بن » إلى البحرية أو فرقة الخيالة ، فهم يستخدمون الخصيان في الخيالة . ويوم أرسلوا كونتن أيضاً إلى بيتنا لكي أطعمها قلت لاريب أن ذلك حق أيضاً ، فبدلاً من أن اضطر أنا إلى السعي قصياً في الشمال بحثاً عن وظيفة ، يرسلون الوظيفة إلي هنا وعندها بدأت أمي تبكي فقلت لا تخالي انني اعترض على وجودها هنا ، بل لا مانع لدي إن كنت تريدين ، من أن أترك العمل لأتفرغ لحضانتها بنفسي وأجعلك أنت ودلزي تعملان لتبقيا على امتلاء كيس الطحين في البيت ، وبنجي ، أجريه لإحدى الفرق ، فهناك أناس ولا ريب يستعدون لدفع عشرة بنسات للتفرج عليه . فاشتد عند ذاك بكاؤها وراحت تردد يا طفلي

المسكين لقد ابتلاك الله يا طفلي المسكين ، فقلت سيكون لك عوناً حين يكبر ويشتد عوده فهو لايزيدني قامة الآن إلا بمقدار مرة ونصف مرة فقالت أنها ستموت قريباً فنكون كلنا عندئذ أحسن حالاً ، فقلت طيّب ، طيّب ، كما تشائين أنها حفيدتك . هناك الله بها وهل لهاجدة أخرى تعرف بالتأكيد أنها حفيدة لها ؟ . ولكن المسألة مسألة زمن ، فإن كنت تعتقدين أن أمها ستنفذ قولها ولاتحاول رؤيتها فإنك إنما تخدعين نفسك ، ففي المرة الأولى عندما كانت أمي تردد وتقول الحمد لله الذي لم يجعلك من آل كمبسن إلا بالاسم ، إذ لم يبق لي في الدنيا الآن سواك ، سواك أنت وموري ، وقلت أني لاأريد تحميل خالي موري مؤونة نفسي ، وعندها أتوا وقالوا أنهم مستعدون للبدء ، فتوقفت أمي عن البكاء ، وأسدلت نقابها على وجهها ونزلنا إلى الطابق الأسفل ، فرأيت خالي موري يخرج من غرفة الطعام ومنديله على فمه . فانتظموا في صفين جاعلين بينهما ممراً وخرجنا إلى الباب في اللحظة التي رأينا فيها دلزي تطرد بن وتي بي ليحتجبا في المنعطف . نزلنا الدرج وركبنا العربة . وخالي موري يكرر «مسكينة أختي الصغيرة ، مسكينة أختي الصغيرة» متكلماً من حول فمه وهو يربت على يدي أمي . متكلماً من حول شيء ما في فمه .

وقال أمي : «هل لبست شريطك الأسود ؟ لماذا لايتحركون قبل أن يخرج بنجامين ويأتينا بمشهد يلفت انظار الناس ؟ ابني المسكين . إنه لا يعرف ، ولايستطيع أن يدرك» .

فيقول موري ، وهو يربت على يدها ، متكلماً من حول فمه : «لابأس . لابأس ، ذلك خير له . وليبق غافلاً عن الفجيعة إلى أن يحين له أن يدركها» .

قالت أمي : «للنساء الأخريات أولاد يكونون سنداً لهن في ملمات كهذه ـ أما أنا ـ» .

قال خالي موري : «لديك جاسن وأنا» .

قالت أمي : «إنها نكبة مريعة لي . أن أفقد كليهما في أقل من سنتين» .

فقال : «صبراً ، صبراً جميلاً» . وبعد قليل مد يده فيما يشبه الخلسة إلى فمه واسقط منه شيئاً من النافذة . وعندئذ علمت ما الذي كنت اشتمه ، عروق قرنفل! يظهر أنه حسب أن أقل ماينبغي عليه فعله في مأتم ابي هو أن يشرب أو لعل «البوفيه» ظنت أنه أبي فأغرته بها عندما مر بها . وكما أقول دائماً ، لئن كان عليه أن يبيع شيئاً لارسال كونتن إلى هارفرد فإننا جميعاً نكون أفضل حالاً بكثير لو أنه باع تلك «البوفيه» بمحتوياتها واشترى لنفسه ببعض النقود سترة حديدية تغله ذات ذراع واحدة ، ويخيل لي أن السبب في أن مزايا آل كمبسن نفذت كلها قبل أن تدركني هو أنه شربها كلها ، فأنا لم أسمعه قط يتحدث عن رغبته في بيع أي شيء ليرسلني إلى هارفرد .

وهكذا راح يربت على كتفها قائلاً «مسكينة أختي الصغيرة» ، يربت على يدها بأحد القفازين الأسودين اللذين جاءتنا قائمة الحساب بهما بعد ذلك بأربعة أيام لأن اليوم كان السادس والعشرين من الشهر ، لأنه كان نفس اليوم من أحد الأشهر عندما ذهب أبي هناك وأحضر الطفلة ورفض أن يفضي بشيء عن مكان أمها وأمي تبكي وتقول : «إذن لم تحاول أن تراه ؟ لم تحاول أن تجبره على ترتيب ما يقوم بأودها ؟» وأبي يقول : «كلا لن أسمح لها بأن تمس فلساً واحداً من ماله» وأمي تقول : «ولكن يمكن ارغامه عن طريق المحكمة ، وهو لن يستطيع أن يثبت شيئاً إلا إذا ـ يا جاسن كمبسن! هل كنت من الغباء بحيث تخبره» .

فقال أبي : «صه يا كارولاين ،» وأرسلني لكي أساعد دلزي على انزال ذلك المهد العتيق من غرفة المخزن ، وقلت :

«عظيم والله . لقد حملوا لي وظيفة إلى البيت هذه الليلة ،» ذلك أننا بقينا طيلة الوقت نأمل في أن تصطلح أمورها معه فيأخذها إلى بيته ، ولأن

أمي راحت تردد ان ابنتها ستحترم سمعة العائلة فلا تعرض فرصة حياتي للخطر بعد أن فعلا هي وكونتن مافعلاه بفرصتي حياتهما .

قالت دلزي : « وهل تنتمي الا لهذا البيت ؟ ومن يربيها سواي ؟ ألست أنا التي ربيتكم جميعاً ؟ »

فقلت :« خزيت عين من يحسدنا على تربيتك ، على كل ، سيكون لها ما تقلق عليه الآن » . وهكذا حملنا السرير وأنزلناه وطفقت دلزي تهيؤه في غرفة أمها القديمة . وعندها انخرطت أمي في نشيج مسموع .

فقالت دلزي : « صه ، يا ست كارولاين . لئلا توقظيها » .

قالت أمي : « اهناك تضعينها ؟ لتصاب بالعدوى من ذلك الجو ؟ أما كفانا ما ورثت عن أمها » .

قال أبي : « صه ، لاتكوني سخيفة » .

فقالت دلزي : « ولم تنام هنا ، في نفس الغرفة التي كنت أنوم فيها أمها كل ليلة من حياتها قبل أن تكبر فتنام بمفردها ؟ » .

قالت أمي : « أنت لاتعرفين ،ماأفظع أن ينبذ ابنتي زوجها ، ابنتي أنا » . ثم نظرت الى كونتن وقالت : « أيتها الطفلة البريئة المسكينة ، لن تعرفي مبلغ ما سببت من ويلٍ وألم » .

فقال أبي : « صه ياكارولاين » .

وقالت دلزي :« ولماذا تفعلين ذلك لجاسن ؟ » .

قالت أمي : « لقد أردت أن أقيه ذلك . لقد كنت دائماً أريد أن أقيه ذلك . فعلي الآن ، على الأقل ، أن أسعى جهدي لحمايتها » .

قالت دلزي : « ولكن أريد أن أعرف كيف يؤذيها النوم في هذه الغرفة» .

قالت أمي :« وكيف أغير طبعي ؟! اعلم أنني عجوز كثيرة الازعاج والمشاكل . ولكني أعلم أيضاً أن من يسخر من شريعة الله لن ينجو من القصاص » .

قال أبي : « كلام فارغ . اذن ضعي السرير في غرفة الست كارولاين ، يادلزي » .

قالت أمي : « لك أن تقول : كلام فارغ ، أما هذه الطفلة فيجب ألا تعرف أبداً . يجب ألا تسمع ذلك الاسم . دلزي ، اني امنعك منعاً باتاً من أن تتلفظي بذلك الاسم على مسمعها . ولو كان بوسعها أن تكبر دون أن تعلم أن لها أماً ولدتها ، لحمدت الله » .

فقال أبي : « لاتكوني غبية » .

فقالت أمي :« لم أتدخل قط في الطريقة التي ربيتهم أنت عليها . أما الآن فلن أقف جانباً مكتوفة اليدين . وعلينا أن نقرر ذلك الآن ، هذه الليلة . إما ألا يتلفظ أحد بذلك الاسم على مسمع منها ، أو أنها تذهب من هنا ، أو اذهب أنا ، اختر ما تشاء » .

فقال أبي :« صه ، انك مضطربة ، هذا كل ماهناك . ضعي السرير هنا يادلزي » .

قالت دلزي : « وأنت أيضاً تكاد تكون مريضاً ، لونك ، شاحب . فاذهب الى الفراش ، وسأهيئ لك كأساً من « التودي » الحار لعلك تنام . أراهن على أنك لم تنم ليلة بكاملها منذ أن ذهبت » .

فقالت أمي : « لا ، ألا تعرفين ماذا يقول الطبيب ؟ لم تشجعينه على الشرب : هذه علته ، انظري الي . انني انا أيضاً أقاسي ، غير أنني لست من الضعف بحيث أصر على قتل نفسي بالويسكي » .

فقال أبي :« هراء مالذي يعرفه الأطباء ؟ إنهم يسترزقون بنصح الناس بأن يفعلوا كل مالايفعلونه في تلك اللحظة ، وهذا أقصى ما يعرفه أي إنسان عن القرد المنحط . لعل خطوتك التالية هي أن تستدعي قسيساً ليمسك بيدي » . فجعلت أمي تبكي ، وخرج أبي . نزل إلى الطابق الأسفل ثم سمعت البوفيه ، واستيقظت وسمعته يهبط الدرج مرة أخرى . يبدو أن أمي كانت قد نامت ، لأن الهدوء أخيراً حل في البيت . وهو أيضاً كان يحاول أن يبقي على

الهدوء لأنني لم أقدر أن اسمعه وكل ما وقعت عيني عليه هو حاشية قميص نومه وساقاه العاريتان أمام البوفيه .

هيأت دلزي السرير ونزعت ثياب الطفلة ووضعتها فيه . ولم تكن قد أفاقت منذ أن أتى بها إلى البيت .

قالت دلزي : «تكاد تكون أكبر من السرير ، استريحي الآن . سأفرش لي وطاء في البهو هنا ، لكي لا تضطري إلى النهوض في الليل» .

قالت أمي : «لن أنام ، اذهبي إلى بيتك . لن أبالي ، وسيسعدني أن أوقف بقية أيامي عليها ، علي أن أمنع -» .

قالت دلزي : « كفى ، كفى ، سنعنى بها » . ثم التفتت إلي وقالت : « وانت ، عليك بفراشك . يجب أن تذهب إلى مدرستك غداً » .

فخرجت ، غير أن أمي نادتني فعدت اليها ، فاحتضنتني وبكت فترة ، وقالت : « إنك أملي الوحيد . وإني لأحمد الله عليك كل ليلة » .

وفيما كنا هناك ننتظرهم ليبدأوا ، قالت ان كان كتب علي أن أفقده هو أيضاً فإني أحمد الله على أن الذي بقي لي منهم هو أنت لا اخوك كونتن . انك لست من آل كمبسن والحمد لله ، ولم يبق لي في الدنيا سواك أنت وموري ، فقلت أني لا أريد تحميل خالي موري مؤونة نفسي . على كلٍ ظل يربت على يدها بقفازه الأسود ، ويتحدث مشيحاً بوجهه عنها . وقد نزع القفازين عندما جاءه الدور للحفر بالمسحاة . ثم مضى ووقف قرب الأول ، حيث كانوا يمسكون بالمظلات فوق رؤوسهم ، ويخبطون بأقدامهم بين الحين والحين ليتطاير الطين عنها ويتشبثون بالمساحي ليهيلوا بها التراب ، فيحدث صوتاً أجوف كلما وقع عليه .

وعندما تراجعت وانعطفت حول العربة وجدته خلف أحد القبور يجرع جرعة أخرى من زجاجة في يده ، وقد خيّل إلي أنه لن يكف لأنني أنا أيضاً كنت لا بأساً بدلتي الجديدة ، ولكن اتفق أن الطين لم يكن بعد قد تراكم على العجلات ، غير أن أمي رأت ذلك وقالت لست أدري متى ستتوفر لك

بذلة اخرى وقال خالي موري : « لا يقلقن لك بال ، إني هنا لتعتمدي عليّ ، دائماً وأبداً » .

وقد اعتمدنا عليه . دائماً وأبداً . كانت الرسالة الرابعة منه ، ولكن لم تكن بي حاجة إلى فتحها . فبإمكاني أن أكتبها بنفسي ، أو أتلوها لها عن ظهر قلب ، مضيفاً عشرة دولارات ، للإطمئنان . ولكنني هجست بمحتوى الرسالة الأخرى . فقد شعرت بأن الوقت قد حان لها لأن تقوم بإحدى ألاعيبها من جديد فقد فتحت عينيها وانتبهت جيداً بعد المرة الأولى تلك ، واكتشفت في الحال أنني من فصيلة غير فصيلة والدي . فعندما أخذ القبر يمتلىء تراباً انخرطت أمي بالبكاء بالطبع ، فركب خالي موري العربة معها ، وسارت بهما ، بعد أن قال لي ، بإمكانك أن تأتي مع بعضهم ، فهم لن يترددوا في اعطائك مكاناً في عرباتهم . أمّا أنا فعلي أن آخذ أمك إلى البيت ، وخطر لي عندها أن أقول : « كان عليك أن تأتي بزجاجتين بدلاً من واحدة » غير أنني احترمت المكان الذي نحن فيه ، وتركتهما يذهبان . لم يكترثا قط للبلل الذي كنت فيه ، والا لاضطربت أمي وأقامت الدنيا خشية أن أصاب بذات الرئة .

على كلّ ، جعلت أفكّر بالقبر وارقبهم يقذفون بالتراب فيه ، يهيلونه كيفما اتفق كأنهم يصنعون طيناً أو يبنون سياجاً ، فانتابتني أحاسيس غريبة ، وعزمت على التمشّي قليلاً ، وقلت إن أنا مشيت في اتجاه المدينة لحقوا بي وحاولوا أن يحملوني معهم ، فتوجهت نحو مقبرة الزنوج ، ووقفت تحت أرزة احتمي بها من المطر فما كنت أتلقّى منه إلا قطرات ، ومن هناك رحت أرقبهم ريثما يفرغون من عملهم ويذهبون . وبعد مدة ذهبوا جميعاً فانتظرت دقيقة ثم خرجت .

كان عليَ أن أسير في الممر لأتجنب العشب البليل ولذا فإنني لم أرها إلى أن كدت أبلغ هناك ، حيث وقفت في عباءة سوداء تنظر إلى الزهور . فعلمت في الحال من هي ، قبل أن تستدير وتنظر إلي وترفع نقابها .

قالت وهي تمد يدها : «هلو ، جاسن» . وتصافحنا .

وقلت : «ما الذي تفعلينه هنا ؟ ألم تعديها بأنك لن تعودي إلى هنا ؟ كنت أحسبك أعقل من ذلك» .

فقالت : «صحيح ؟» وتأملت الزهور ثانية . لقد كان ثمة منها ما يساوي خمسين دولاراً . وقد وضع بعضهم باقة على قبر كونتن . وقالت : «أصحيح كنت تحسب ذلك . ؟»

قلت : «ولكنني لن أدهش . لأنني أعرف أنك لن تتورعي عن شيء . لا تأبهين لأحد ، ولا تكترثين لإنسان» .

فقالت : «اوه ، قضية الطفلة ،» ونظرت إلى القبر . «إني آسف لها يا جاسن» .

قلت : «لا شك . انك تتكلمين الآن بتواضع ولطف . ولكن لماذا عدت ؟ لم يبق شيء . اسألي خالي موري إن كنت لا تصدقينني» .

قالت : «أنا لا أريد شيئاً» ونظرت إلى القبر . ثم قالت : «لماذا لم يخبروني ؟ لقد رأيت الخبر بمحض الصدفة في الجريدة . في الصفحة الأخيرة . بمحض الصدفة» .

لم أقل شيئاً . ووقفنا هناك وعيوننا شاخصة إلى القبر ، وعندها جعلت أتذكر عندما كنّا صغاراً ومرت ببالي الخواطر حتى انتابتني أحاسيس غريبة مرة أخرى ، أشبه ما تكون بالغضب إذ جعلت أفكّر في أننا منذ اليوم سنجد خالي موري معنا في المنزل طول الوقت ، يتحكم بالأمور كما فعل منذ لحظات حين تركني لأعود وحدي إلى البيت في المطر . فقلت :

«كأنّك فعلاً تهتمين ، فتتسللين راجعة إلى هنا حال موته . ولكن لا تتوقعي من ذلك أي نفع . لا تظنّي أن بوسعك أن تستغلّي هذا الظرف فتتسللي عائدة إلى البيت . اذا عجزت عن البقاء على حصانك ، فعليك بالسير على القدم» ، قلت لها : «ففي بيتنا لا نعرف حتى اسمك . اتعلمين ذلك ؟ ولا نعرفك ولا نعرفه أو نعرف كونتن ، اتعلمين ذلك ؟» .

قالت ، وهي تتأمل القبر : « نعم ، اعلم ذلك ان رتبت لي أمر رؤيتها دقيقة اعطيتك خمسين دولاراً » .

قلت : « وهل لديك أنت خمسون دولاراً ؟ » .

قالت : « أتوافق ؟ »

قلت : « أرني إياها ، أنا لا أصدّق أن لديك خمسين دولاراً » . .

ورأيت يديها تتحركان تحت عباءتها ، ثم مدت يدها ، لعنني الله إن لم تكن مليئة بالنقود . واستطعت أن أرى ورقتين صفراوين أو ثلاثاً .

فقلت : « أما زال يعطيك نقوداً ؟ ما المبلغ الذي يرسله إليك ؟ » .

قالت : « سأعطيك مئة ، أتوافق ؟ » .

قلت : « مهلاً ، قلت لك انني لن اجعلها تعرف من أنت حتى ولو اعطيتني الف دولار » .

قالت : « لا بأس ، رتب الأمر كما تريد ، كي أستطيع مجرّد رؤيتها لدقيقة . ولن أتوسّل أو ألح . بل أنصرف في سبيلي » .

فقلت : « اعطيني النقود » . .

قالت : « أعطيك إياها فيما بعد » .

قلت : « ألا تثقين بي ؟ » .

قالت : « كلا . اني أعرفك . لقد نشأت معك » .

فقلت : « شيء رائع أن تتحدثي أنت عن الثقة بالناس ! طيب ، يجب أن أحتمي من هذا المطر . وداعاً » . وهممتُ بالإنصراف .

فقالت : « جاسن » . فوقفت .

وقلت : « نعم ، اسرعي ، فقد تبللت » .

قالت : « لا بأس . هاك » . لم يكن أحد يُرى حولنا . فعدت وأخذت النقود . غير أنها ظلت متمسكة بها ، وقالت : « كما اتفقنا ؟ » وهي تنظر إلي من تحت نقابها . « أتعد ؟ » .

فقلت : « افلتي . اتزيدين أن يأتي أحد ويرانا ؟ » .

فأفلتت النقود ، ووضعتها في جيبي . قالت : «أتفعلها ياجاسن ؟ لو كانت هناك أية طريقة أخرى لما طلبت منك هذا» .

- «انت والله على حق . ليست هناك أية طريقة أخرى . وسأفعلها طبعاً . ألم أقل أنني سأفعلها ؟ ولكن عليك أن تفعلي كما أوصيك ، أفهمت ؟» .

قالت : «نعم ، سأفعل ، فأخبرتها أين تنتظر ، وذهبت مسرعاً إلى اسطبل مؤجر الخيل والعربات ، وبلغت المكان وهم يحلون الحصانين . فسألته إن كان قد تسلم نقوده بعد من أهلي ، فأجاب كلا فقلت لقد نسيت والدتي شيئاً ، ولذا فإنها تريد العربة ثانية ، فسمحوا لي بها .

وكان الحوذي «منك» ، اشتريت له سيجاراً ، فراح يسوق العربة هنا وهناك إلى أن أظلمت الدنيا في الشوارع الخلفية حيث لم يمكن لأحد أن يتبينه . عندئذ قال : «منك» أن عليه أن يعود بالحصانين ، فقلت له أنني سأشتري له سيجاراً آخر . وهكذا نزلنا في الزقاق ومشيتُ عبر الفناء إلى البيت . وقد وقفت في البهو إلى أن طرق سمعي صوت أمي وخالي موري في الطابق الأعلى ، فيممت شطر المطبخ ، فوجدتها هي وبن مع دلزي ، فقلت أن أمي تريدها وأخذتها إلى داخل البيت ، حيث وجدت معطف خالي المطري فكسوتها به وحملتها وعدت إلى الزقاق فالعربة ، وقلت لمنك أن يسوق بنا إلى المستودع . وقد خشي المرور بالاسطبل ، فكان علينا أن نطرق الطريق الخلفي ورأيتها واقفة عند المنعطف تحت النور ، فطلبت إلى منك أن يسوق العربة قريباً من الرصيف فإذا ما قلت له : انطلق ، فإن عليه أن يهوي بالسوط على حصانيه . وعند ذاك رفعت المعطف عن الطفلة ، وامسكت بها في نافذة العربة فرأتها كادي وإذا بها تطفر نحونا .

قلت : «اضرب يا منك !» فهوى بسوطه عليهما ومررنا بها بسرعة عربة الاطفائية . وصحت : «والآن اذهبي واركبي ذلك القطار كما

وعدتني » . ورأيتها من النافذة الخلفية تركض في اثرنا ، وقلت : « اضرب ثانية يا منك ! ولنعد إلى البيت » . ولمّا انعطفنا كانت ما تزال تركض في اثرنا .

وهكذا احصيت النقود مرة أخرى تلك الليلة ووضعتها في مكانها ، وشعرت بشيء من الاطمئنان . وقلت أتصور أنك تدركين الآن من أنا . أتصور أنك تدركين الآن أنك لا تستطيعين أن تحرميني الوظيفة وتتخلصي من العواقب . ولم يخطر ببالي قط أنها لن تفي بوعدها بشأن ركوب ذلك القطار ، إلا أنني لم أكن أعرف الكثير عنهن أيامئذ ، وكنت من الحماقة بحيث أصدق كل ما يقلن . ولكن لعنني الله إن لم أرها صباح اليوم التالي تدخل الدكان ، وأن تحتط للأمر فتلبس النقاب ولا تخاطب أحداً . كان صباح أحد أيام السبت ، لأنني كنت في الدكان ، وتقدمت بخطى سريعة من المنضدة التي في المؤخرة ، حيث كنت .

قالت : « كذاب كذاب » .

فقلت : « هل جننت ؟ ماذا تقصدين بمجيئك هنا على هذا النحو ؟ » .

فانطلقت ، غير أنني سددت عليها منافذ الكلام . وقلت : « لقد سبق وأن أفقدتني وظيفة واحدة ، افتريدين لي أن أفقد هذه أيضاً ؟ إن يكن لديك ما ترومين أن تقوليه لي ، لاقيتك في مكان ما بعد هبوط الظلام . وماذا لديك لتقولي ؟ ألم أنفَذ كل ما وعدتك به ؟ ألم أقل ترينها لدقيقة ؟ ألم تريها لدقيقة ؟ » غير أنها وقفت إزائي تنظر إلي ، وترتجف كالمحموم ، ويداها مقبوضتان تنتفضان . فقلت : « لقد بررت بما وعدت ، لا أكثر ولا أقل . وما الكاذب إلا أنت . لقد وعدتني بأن تستقلي ذلك القطار ، أليس كذلك ؟ الم تعدي ؟ فإن كنت تظنين أن بوسعك أن تسترجعي تلك النقود ، فما عليك إلا أن تجرّبي ، وحتى لو كان المبلغ ألف دولار ، لبقيت مدينةً لي بعد المجازفة التي جازفتها . فإذا وجدت أو سمعت أنك ما زلت في هذه البلدة بعد أن يسير القطار رقم ١٧ ، فإنني سأخبر أمي وخالي موري . فاحبسي أنفاسك

إذن إلى أن تريها مرة ثانية » . وما زادت على أن ظلت واقفة ازائي ، تحدجني بنظراتها ، وتدق كفاً بكف .

وقالت : « لعنك الله ، لعنك الله » .

فقلت : « لا بأس ، لا بأس أبداً . ولكن تذكري ما قلته لك . بعد القطار ١٧ ، سأخبر من في البيت » .

بعد ذهابها ، اصبحت احسن حالاً . وقلت لا ريب أنك ستفكرين بالأمر مرتين قبل أن تحرميني وظيفة وعدت بها . كنت صبياً آنئذ ، أصدّق الناس كلما قالوا إنهم سيفعلون شيئاً ما . ولكنني زدت ادراكاً منذ ذلك الحين . وفضلاً عن ذلك فإنني ، كما أقول دائماً ، لست بحاجة إلى معونة من أحد لكي أتقدّم في الحياة وبوسعي أن أقف على قدمي كما وقفت دائماً . وفجأة فكرت بدلزي وخالي موري ، وكيف أنها تستطيع اللعب بعواطف دلزي وأن خالي يستعد لإتيان أي شيء لقاء عشرة دولارات . وهذا أنا ، مقيّد بهذا المكان لا أستطيع التخلص من المخزن لحماية أمي التي ولدتني . والتي كانت دائبة القول « إن كان عليّ أن أفقد أحداً منكم ، فإنني أحمد الله على أنه أبقاك أنت لي فبوسعي الاعتماد عليك » فأقول : لا أظنني سأستطيع يوماً أن أبتعد عن الدكان بحيث لا تدركني يداك . وبالطبع ، لابد لأحدٍ منّا أن يتشبث بالقليل الذي قد تبقّى لنا .

وهكذا ، حالما عدت إلى البيت ، تدبرت امر دلزي . فقلت لها أنها مصابة بالبرص واتيت بالتوراة وقرأت فيها ما تقوله عن لحم الانسان اذ يتفسخ ويتساقط وقلت لها إن هي نظرت اليها يوماً ، أو نظر إليها بن أو كونتن ، فإن البرص سيصيبهم أيضاً ، وهكذا حسبت أنني دبرت كل شيء حتى جاء ذلك اليوم الذي عدت فيه إلى البيت ووجدت بن يعيط . كان يصرخ ويجأر وما من أحد يستطيع تهدئته . فقالت أمي : طيب اذن ، أعطوه الخف . فتظاهرت دلزي بعدم السماع . فأعادت أمي القول وصحت أنا قائلاً أنني لا أستطيع أن أتحمّل ذلك الصراخ . وكما أقول دائماً ، بوسعي أن

أتحمل أشياء كثيرة ولا أتوقع الكثير من أحد ولكن حين أعمل طيلة النهار في مخزن لعين أفلا أستحق شيئاً من الهدوء والسكينة أتناول فيهما عشائي . وإذ قلت أنني ذاهب قالت دلزي على عجل : « جاسن ! » .

وفي لمح البصر أدركت ما حدث ، ولكن لكي استوثق من ذلك ذهبت وأتيت بالخف ، فإذا به حالما وقعت عيناه على الخف ، يجأر ، كما توقعت بالضبط ، كأننا هوينا عليه تقتيلاً ، فأجبرت دلزي على الاعتراف ، ثم أخبرت أمي . وقد كان علينا وقتئذ أن نصعدها إلى فراشها ، وبعد أن هدأت الأمور قليلاً أقحمت مخافة الله في دلزي . بقدر ما يمكن للمرء أن يفعل شيئاً من هذا القبيل مع هؤلاء الزنوج ، وهذا هو المزعج في الخدم الزنوج ، فهم بعد أن يقضوا معك سنين طوالاً ، يمتلئون زهواً إلى أن تبطل منهم كل فائدة ، ويحسبون أنهم يصرفون شؤون الاسرة كلها .

فقالت دلزي : « أود لو أعرف ما المانع في السماح لتلك البنية المسكينة بأن ترى طفلتها . لو كان والدك المرحوم معنا لاختلف الامر ، والله » .

قلت لها : « ولكن والدي ليس معنا . أنا أعرف أنك لا تأبهين لمشيئتي ، ولكن أغلب الظن أنك ستصدعين بأمر أمي . انك لتستمرين بإقلاقها على هذا النحو إلى أن تقبريها هي أيضاً ، وحينئذ تملئين البيت كله بكل نفاية ومتاع خلق . ولكن لماذا سمحت لتلك البلهاء اللعينة برؤيتها ؟ » .

قالت : « إنك رجل من حجر ياجاسن ، إن كنت رجلاً . احمد الباري على أن في صدري قلباً يعطف ، وإن يكن أسود اللون » .

قلت : « إني على الأقل رجل يستطيع أن يبقي على امتلاء ذلك الكيس بالطحين ، فإذا فعلت ذلك ثانية ، فوالله لن تأكلي منه أبداً » .

وهكذا اخبرتها ، في المرة التالية ، انها إن هي حاولت أن تتحايل على دلزي مرة أخرى ، فإن أمي ستطرد دلزي وترسل بن إلى جاكسن وتأخذ كونتن وترحل بها . فنظرت إليّ برهة ، غير أننا كنا بعيدين عن مصباح

الشارع فلم استطع أن أرى وجهها بوضوح ، على أنني أحسست بأنها تحدّق فيّ . أيام كنّا صغاراً اذا ما غضبت وعجزت عن فعل شيء ما ، جعلت شفتها العليا تنطنط ، وكل نطة تكشف عن المزيد من أسنانها ، فتظل طيلة الوقت ساكنة كأنها عمود من حجر ، لا تتحرك فيها عضلة الا شفتها العليا المنتفضة صعداً فصعداً على اسنانها . ولكنها لم تقل شيئاً ، سوى :

«لا بأس . كم ؟»

فقلت : «إن كانت النظرة الواحدة خلال النافذة من عربة تساوي مئة دولار» . . وكانت النتيجة أنها أحسنت التصرف بعد ذلك ، ولكنها في احدى المرات طلبت أن ترى تقرير حساب المصرف .

وقالت : «أنا أعلم أن أمي تجيّر الصكوك ، إلا أنني أريد أن أرى تقرير المصرف ، اريد أن أرى بنفسي أين تذهب هذه الصكوك» . .

قلت : «ذلك من شؤون أمي الخاصة . فإن كنت تعتقدين أن لك حقاً في التدخل بشؤونها الخاصة أخبرتها بأنك تعتقدين بأن صكوكك تصرف في غير الوجه الذي تحبين وأنك تريدين تدقيق الحساب لأنك لا تثقين بها» .

لم تقل شيئاً ولم تتحرك . إنما سمعتها تهمس لعنك الله لعنك الله اوه لعنك الله .

فقلت : «قوليها بالقلم العريض . فليس رأيك فيّ ولا رأيي فيك بسرّ . لعلك تريدين استرجاع النقود ؟» .

قالت : «اسمع يا جاسن . لا تكذب علي . بشأنها . لن أطلب رؤية أي شيء . وإذا لم يكن المبلغ كافياً ارسلت إليك مزيداً كل شهر . فقط عدني بانها سوف . بانها ـ انت قادر على ذلك . أن تفعل لها أشياء ـ كن لطيفاً معها . الأشياء الصغيرة التي لا أستطيع ، لا يسمحون لي بأن... . ولكنك لن تفعل . ليس فيك قطرة من دم حار . اسمع ،»

قالت لي : «إذا أقنعت أمي بأن تسمح لها بالعودة إلي ، أعطيتك ألف دولار» .

فقلت : « ومن أين لك ألف دولار ؟ إني أعرف أنك تكذبين »

قالت : « لدي ألف دولار ستكون لدي . استطيع تحصيلها » .

قلت : « أعرف كيف تحصلينها . ستحصلين عليها مثلما حصلت على طفلتك ، على نفس الغرار . وعندما تنشأ وتكبر ـ » وإذ ذاك خيل إلي أنها فعلاً سترفع يدها علي ، ولم أعرف ما الذي ستفعله ، فقد تصرفت برهةً كلعبةٍ أدير زمبلكها فوق ما يطيق فغدت على وشك الانفجار ألف شظية .

قالت : « اوه لقد جننت ، لقد ضيعت عقلي . لا أستطيع أخذها . فاحتفظ بها . ماالذي خطر ببالي يا جاسن . » قالت ذلك ، وقبضت على ذراعي ، ويداها في حرارة الحمى . « ولكن يجب أن تعدني بالعناية بها ، بـ ـ إنها قريبتك ، من لحمك ودمك . عدني يا جاسن . لقد لقبتَ بلقب أبي ، فهل تظن أنني كنت أطلب إليه ذلك مرتين ؟ بل حتى مرة واحدة ؟ » .

قلت : « بالضبط ، لقد خلف لي شيئاً ، فما الذي تريدين مني أن أفعله ؟ أأشتري مريولاً وعربة أطفال ؟ هل أنا الذي أوقعتك في هذا المأزق ؟ » قلت لها . « إني أجازف بأكثر مما تجازفين ، لأنه ليس لديك انت ما تخشين ضياعه . فإن كنت تتوقعين ـ » .

فقالت : « لا ، لا » وأخذت تضحك وتحاول حبس ضحكتها في آنٍ واحد . « لا ، ليس لدي ما أخشى ضياعه ، » قالتها وهي تأتي بذلك الصوت الغريب ، ويداها على فمها . « لا لا لا شيء » .

فقلت : « اسمعي ! كفي عن ذلك ! » .

قالت : « إني أحاول ، » وقد كست فمها بيديها . « يا إلهي ، يا إلهي » .

قلت : « سأمضي من هنا . يجب ألا يراني أحد هنا . واخرجي من البلدة الآن ، أتسمعين ؟ » .

فقالت وهي تمسك بذراعي : « انتظر . لقد كففت ، لن أفعلها ثانية . أتعدني ، يا جاسن ؟ » قالت ذلك وأنا أشعر كأن عينيها تمسان وجهي .

« أتعدني ؟ أمي - تلك النقود - إذا احتاجت أحياناً إلى شيء ما - اذا أرسلت لك صكوكاً من أجلها ، صكوكاً أخرى بالإضافة إلى تلك ، اتعطيها لها ؟ ولن تفضحها ؟ وتتأكد من أنها تنال ماتناله قريناتها ؟ » .

قلت : « لاشك ، مادمت تتصرفين وتفعلين وفق ما أقول لك » .

وهكذا ، عندما جاء إيرل إلى مقدمة الدكان لابساً قبعته ، قال : « سأسرع إلى محل روجرز لاتناول وجبة خفيفة . لا أظن أن لدينا وقتاً للذهاب إلى البيت للغداء » .

فقلت : « ولم لا ؟ » .

قال : « بسبب هذا السيرك الذي حل في البلدة . سيقدمون حفلة بعد الظهر أيضاً ، والكل يريد أن ينتهي من البيع والشراء ليذهب إلى الحفلة . فالأفضل أن نهرع إلى محل روجرز » .

فقلت : « كما تشاء . انها معدتك . إن كنت تريد أن تجعل من نفسك عبداً لشغلك ، فليس ذلك من شأني » .

فقال : « أتصور أنك لن تجعل من نفسك عبداً لأي شغل » .

فقلت : « إلا اذا كان شغل جاسن كمبسن نفسه » .

فلما عدت وفضضت الغلاف لم أدهش الا لأن مافيه كان حوالة بريدية ، لا صكاً . اي والله . لا يستطيع انسان أن يثق بواحدة منهن . أبعد كل هذه المجازفات . المجازفة بأن تكتشف أمي أمر مجيئها هنا مرة أو مرتين أحياناً في السنة ، واضطراري إلى صنوف الاكاذيب اموّه بها على أمي بشأن ذلك . أيكون الاعتراف بالجميل على هذه الصورة ؟

لا أستبعد مطلقاً أن تحاول إعلام دائرة البريد خطياً بألا تصرف الحوالة إلا لها ، أتعطي صبية صغيرة كتلك خمسين دولاراً ؟ أمّا أنا فلم أر خمسين دولاراً قط حتى بلغت الحادية والعشرين من عمري ، وبقية أقراني يعطلون بعد الظهر من كل يوم وأيام السبوت بطولها ، وأنا أكد في الدكان . أنى لهم كما أقول أن يتوقعوا السيطرة عليها من أحد ، وهذه أمها تمدها بالنقود من

خلف ظهورنا ؟ وقد قلت لها أن بيتها هو عين البيت الذي نشأت فيه ، وتربيتها هي تربيتك بعينها ، وأحسب أن أمي اصوب حكماً على أمورها منك ، أنت التي ليس لك حتى بيت تركنين إليه .

وقلت : «اتريدين أن تعطيها نقوداً ؟ اذن ارسليها إلى أمي ولا تعطيها إياها . فإذا كان لا مناص لي من المجازفة مرة كل بضعة أشهر ، فعليك أن تفعلي ما أقوله لك ، والا وضعت حداً للأمر» .

وفيما أنا أهم بأن أبدأ ـ فإن يعتقد ايرل أني سأهرول إلى الشارع لالتهم من أجله ما قيمته ربع دولار من سوء الهضم ، فإنه جد مخدوع . قد لا أجلس رافعاً قدمي على منضدة من خشب «الموغونو» الفاخر ولكنني أنال أجراً على ما أفعله داخل المبنى فإذا استطعت أن أعيش خارجه عيشة متمدنة فإنني لن اذهب الا حيثما أشتهي . بوسعي أن أقف على قدمي ، ولست بحاجة إلى منضدة فاخرة من أي انسان لتسندني في وقفتي . وهكذا ، فيما أنا أهم بأن أبدأ كان علي أن أترك كل شيء واركض لأبيع فلاحاً أحمر الرقبة بضعة مسامير أو ما أشبه ذلك بدريهمات قليلة ، بينما كان ايرل يلتهم شطيرة وهو في منتصف طريق عودته ، ولاشك ، واذا بي أجد أن صكوكي البيضاء قد انتهت كلها . فتذكرت حينذاك أنني كنت قد عزمت على المجيء بكمية جديدة منها ، ولكن الأوان قد فات ، وما رفعت عيني إلا لأرى كونتن تدخل من الباب الخلفي . وسمعتها تسأل ايوب العجوز إن كنت في الدكان . وبسرعة دسست الرسائل كلها في الدرج واغلقته .

جاءت إلى المنضدة ، فنظرتُ إلى ساعتي وقلت :

«هل انتهيت من الغداء بهذه السرعة ؟ إنها الثانية عشرة تماماً . سمعتها تدق . لا بد أنك طرت إلى البيت ذهاباً وإياباً» .

فقالت : «لست ذاهبة إلى البيت للغداء . هل اتتني رسالة اليوم ؟» .

قلت : «اتتوقعين رسالة اليوم ؟ الديك حبيب يستطيع الكتابة ؟» .

ـ «من أمي . هل أتتني رسالة من أمي ؟» قالتها وهي تنظر إلي .
قلت : «لقد وردت فيها رسالة لأمي . ولم أفتحها . وعليك بالإنتظار إلى أن تفتحها هي . واغلب الظن أنها ستطلعك عليها» .

فقالت دون اكتراث لما أقول : «ارجوك ياجاسن . هل اتتني رسالة ؟»

فقلت : «ما الذي دهاك ؟ لم أجدك يوماً تقلقين على أحد . لا بد أنك تتوقعين نقوداً منها» .

قالت : «لقد قالت أنها ـ ارجوك يا جاسن ، هل أتتني رسالة ؟»

قلت لها : «يبدو أنك أخيراً ذهبت إلى المدرسة! أو إلى أي مكان آخر علموك فيه أن تقولي : أرجوك . انتظري دقيقة ريثما أخدم هذا الزبون» .

ذهبت وخدمته . وعندما استدرت لكي أعود كانت قد اختفت وراء المنضدة . فركضت . ركضت حول المنضدة وأمسكت بها وهي تنفض يدها من الدرج . فنزعت الرسالة من يدها بأن جعلت أدق عقد أصابعها بالمنضدة إلى أن أفلتتها .

وقلت : «أتفعلينها ، أتفعلينها ؟»

قالت : «اعطني اياها . لقد فتحتها . اعطني اياها . ارجوك يا جاسن . إنها رسالتي ، لقد رأيت اسمي» .

قلت : «اعطيك طوقاً يلتف على رقبتك . هذا ما سأعطيك إياه . أتعبثين بأوراقي ؟» .

قالت وهي تمد يدها لها : «هل فيها نقود ؟ لقد وعدت بأن ترسل لي شيئاً من النقود . لقد وعدتني . اعطني اياها» .

قلت : «و مالك والنقود ؟»

قالت : «لقد وعدتني بها . اعطني اياها . ارجوك يا جاسن . لن أطلب منك شيئاً أبداً بعد اليوم ، إذا اعطيتني اياها هذه المرة» .

فقلت : «سأعطيك إياها ، اذا أمهلتني» . فأخرجت الرسالة والحوالة

البريدية وناولتها الرسالة . غير أنها مدت يدها للحوالة ، دون أن تنظر إلى الرسالة . وقلت : «عليك أن توقعيها أولاً» .

قالت : «كم المبلغ ؟» .

قلت : «اقرأي الرسالة ، تعرفي» .

فقرأتها بسرعة ، وبنظرتين اثنتين .

- «انها لا تعيّن المبلغ» ، قالت ذلك ، رافعة عينيها . واسقطت الرسالة على الأرض ، وقالت : «كم المبلغ ؟» .

قلت : «عشرة دولارات» .

قالت : «مبحلقة فيّ : «عشرة دولارات ؟» .

فقلت : «اشكري ربك على حصولك عليها . طفلة مثلك . ولمَ هذا الالحاح كله على النقود فجأة ؟» .

قالتها وكأنها تتكلم في نومها : «عشرة دولارات ؟ عشرة دولارات فقط ؟» وحاولت خطف الحوالة من يدي . «انك تكذب عليّ! لص! لص! يا لص!»

قلت وأنا أصدها : «اتريدين خطفها ؟» .

فصاحت : «اعطني اياها! إنها لي . ارسلتها الي . سأراها ، سأراها!»

قلت وأنا أصدها : «صحيح ؟ وكيف سترينها ؟» .

قالت : «دعني أراها فقط يا جاسن . ارجوك ولن أطلب منك شيئاً ثانية» .

قلت : «اتحسبين أنني اكذب ؟ اذن لن تريها!» .

فقالت : «ولكن عشرة دولارات لا غير ؟... لقد أخبرتني بأنها - اخبرتني - جاسن ، ارجوك ارجوك ارجوك . لا بد لي من نقود . لا بد ، لا بد . اعطني اياها ياجاسن . سأفعل ما تريد إن أنت اعطيتني إياها» .

قلت : «اخبريني لماذا لا بد لك من نقود ؟»

قالت : «لا بد لي منها» . كانت تنظر إلي . واذا بها فجأة تكف عن النظر إلي دون أن تنقل عينيها عني . فأدركت أنها ستكذب .

وقالت : «اني مدينة ببعض النقود . وعليَ أن أرد الدين . علي أن أرده اليوم» .

ـ «لمن ؟» ، قلت ويداها تلتويان ، فراقبتها وهي تحاول اختلاق اكذوبة تتفوه بها . «هل عدت إلى الاستدانة من المتاجر ؟ لا حاجة بك إلى قول ذلك . فإن استطعت أن تجدي من يبيعك شيئاً بالدين بعد أن أعلمت الجميع بالأمر ، أكلت ذلك الشيء أمام عينيك!» .

قالت : «هناك فتاة ، هناك فتاة ، استدنت منها بعض النقود . ويجب أن أردها الآن . جاسن اعطني اياها ، ارجوك . سأمتثل لما تشاء . لا بد لي منها . وستدفعها امي لك . وسأكتب لها رسالة لكي تدفعها لك ولكي أقول لها انني لن أطلب منها شيئاً ثانية . ولك أن ترى الرسالة . ارجوك يا جاسن . لا بد لي منها» .

قلت لها : «اخبريني لمَ تريدينها ، وسأنظر في الأمر ،» وبقيت واقفة أمامي ، تفرك كفاً بكف لصق ثوبها . «حسناً اذن ،» قلت : «إن كنت تجدين عشرة الدولارات مبلغاً صغيراً ، فسأحملها إلى أمي ، وأنت أدرى بمصيرها عند ذاك . بالطبع ، اذا كنت على هذه الدرجة من الغنى بحيث لا تحتاجين إلى عشرة دولارات ـ» .

وظلت واقفة هناك ، تنظر إلى الأرض ، وتدمدم لنفسها . «لقد قالت إنها سترسل لي شيئاً من النقود . وقالت أنها ترسل إليَ نقوداً هنا وأنت تقول انها لا ترسل أي نقود . وقالت أنها قد أرسلت مبلغاً كبيراً هنا . وانت تقول أن لا نقود لدينا» .

فقلت : «نك تعرفين عن ذلك ما أعرفه أنا . ألم تري ما يحدث للصكوك التي ترسلها ؟»

فالت ناظرة إلى الأرض : «بلى . عشرة دولارات . عشرة دولارات» .

قلت لها : «اشكري ربك على أن المبلغ يبلغ عشرة دولارات» . ووضعت الحوالة ووجهها إلى الاسفل على المنضدة ، ويدي عليها . «وقعيها» .

فقالت : « ألن تدعني أراها ؟ أريد أن ألقي عليها نظرة واحدة فط . مهما يكن المبلغ المذكور فيها ، فإنني لن أطلب إلا عشرة دولارات . وخذ أنت البقية . نظرة واحدة فقط » .

قلت : « مستحيل بعد تصرفك المشين هذا ؟ عليك أن تتعلمي شيئاً واحداً ، عندما أقول لك افعلي كيت ، فعليك بالطاعة . هيا ، وقعي اسمك على هذا السطر » .

تناولت القلم ، ولكن عوضاً عن توقيعها بقيت واقفة مطأطئة الرأس والقلم يرتجف في يدها . كأمها تماماً . وقالت : « يا الهي ، يا الهي » .

فقلت : « أي نعم . هذا شيء يجب أن تتعلميه حتى ولو أنت لم تتعلمي أي شيء آخر . وقعيها ، هيا ، واخرجي من الدكان » .

ـ وقعتها ، وقالت : « اين النقود ؟ » فأخذت الحوالة ، وجففتها بالنشاف ووضعتها في جيبي . ثم اعطيتها الدولارات العشرة .

وقلت : « والآن ، عليك أن تعودي إلى المدرسة بعد ظهر اليوم ، أتسمعين ؟ » لم تجب بشيء . كوّرت ورقة النقد في يدها كأنها خرقة قديمة وخرجت من الباب الأمامي في اللحظة التي دخل فيها ايرل . وقد دخل معه عميل ، ووقفا عند الطرف الأمامي . فجمعت أغراضي ولبست قبعتي وتوجهت نحوهما .

قال ايرل : « اشتغلت كثيراً ؟ » .

قلت : « ليس كثيراً » . فأرسل بصره خارج الباب .

وقال : « أتلك سيارتك الواقفة هناك ؟ الأفضل ألا تحاول أن تذهب إلى البيت للغداء . فقد يحدث لدينا ازدحام آخر قبيل افتتاح السيرك . تناول غداءك في مطعم روجرز وضع بطاقة في الدرج » .

فقلت : « شكراً جزيلاً . اعتقد أنني أعرف كيف أطعم نفسي » .

انه ليظل في مكانه هناك ، يرقب ذلك الباب كالصقر الى أن أعود . لا بأس . فليرقبه ما يشاء . فأنا أسعى جهدي على طريقتي . في المرة السابقة

قلت لنفسي ، هذا هو الصك الأخير ، فعليك أن تتذكر استحضار صكوك جديدة . ولكن من يستطيع تذكر أي شيء في هذا الهرج والمرج . لا يأتينا هذا السيرك اللعين الا في اليوم الذي يتعيّن عليّ فيه أن أبحث في كل أرجاء البلدة عن صك أبيض ، فضلاً عن الأشياء الاخرى كلها التي اتعهّد بها للمحافظة على سير الأمور ، وصاحبنا ايرل يرصد الباب كالصقر .

ذهبت الى المطبعة الصغيرة وقلت لصاحبها انني ادبر مقلباً لصديق على سبيل النكتة ، ولكن لم يكن لديه ما أريد . وأشار عليّ بأن أراجع دار الأوبرا العتيقة ، حيث اختزن بعضهم أوراقاً وانقاضاً كثيرة من ذلك المصرف القديم ، « مصرف التجار والمزارعين » بعد افلاسه ، وهكذا تجنبت عدة أزقة لكي لا يراني ايرل ، وبعد البحث الطويل عثرت عن الحارس العجوز سيمونز وأخذت منه المفتاح وصعدت هناك ورحت أنبش الاوراق . وفي النهاية عثرت على دفتر صكوك باسم مصرف سانت لويس . إن أمي لن تدقق النظر في الصك الا هذه المرة! مهما يكن من أمر ، ليس لي من مخرج آخر . ولم يبق لي من وقت اضيعه .

فعدت إلى الدكان ، وقلت : « نسيت أوراقاً تريد أمي أخذها الى البنك » . وذهبت الى المنضدة ورتبت الصك كما يجب . واذ كنت أحاول أن أفعل ذلك بسرعة قلت لنفسي إنه من حسن الحظ أن عينيها آخذتان في التلف ، وأن تلك العاهرة الصغيرة في البيت ، وأمي سيدة تقية تخاف الله ، وقد قلت لها أنك تعلمين ، كما أعلم أنا ، ما الذي ستؤول إليه هذه الفتاة عندما تكبر ولكنني قلت أن ذلك من شأنك أنت إذا كنت تريدين أن تعني بها وتربيها في بيتك من أجل أبي .

وإذ ذاك تبدأ بالبكاء وتقول أنها من لحمها ودمها فأقول لا بأس ، كما تشائين ، إني أتحملها ما دمت تتحملينها أنت .

ورتبت الرسالة بحيث أعدتها إلى ما كانت عليه وصمغت الغلاف وخرجت .

قال ايرل : «حاول ألا تتأخر أكثر مما يجب» .

فقلت : «حسناً» . ومضيت إلى دائرة البرق . وهناك وجدت الفتية الشطار كلهم .

وقلت : «ابينكم من حصل على مليون دولار . ؟» .

قال الدكتور : «ومن يستطيع أن يفعل شيئاً بسوقٍ كهذه ؟» .

ـ «وماذا بها ؟» قلت ذلك ودخلت وألقيت نظرة . لقد حصل هبوط بثلاث نقاط عن الافتتاح . فقلت : «يا جماعة ، اترضون بأن يغلبكم على امركم شيء صغير كسوق القطن ؟ كنت أحسبكم أشطر وأدهى من ذلك» .

قال الدكتور : «اشطر وادهى! لقد هبطت اثنتي عشرة نقطة في الساعة الثانية عشرة . أفلستني ، والله!» .

قلت : «اثنتي عشرة نقطة ؟ لماذا لم يعلمني أحد بذلك ؟» والتفت للموظف : «لماذا لم تعلمني بذلك ؟» .

فقال : «إني أسجلها كما تأتيني . فأنا لست أدير محلاً للغش والخديعة» .

فقلت : «ذكي والله! أعتقد أن بإمكانك أن تنفق شيئاً من وقتك الثمين للاتصال بي تلفونياً ، نظراً لما انفق لديك من مبالغ ، أم أن شركتكم المحترمة متواطئة مع هؤلاء الذئاب المحترمين في نيويورك ؟» .

لم يقل شيئاً ، وتظاهر بالشغل .

فقلت : «لقد كبرت أكثر من طاقتك . واذا لم تنتبه فلعلك تضطر إلى العمل في سبيل رزقك» .

فقال الدكتور : «ماذا دهاك ؟ ما زلت غانماً بثلاث نقاط» .

قلت : «تماماً ، لو كنت أبيع ، نسيت أن أذكر ذلك فيما أظن ، وأنتم يا جماعة ، ألم يبق معكم شيء ؟» .

قال الدكتور : «اكلتها مرتين ، وحوّلت في اللحظة المناسبة» .

وقال آي . أو . سنوبس : «والله وقعتُ عليها . ومن الإنصاف فيما أرى

أن تقع هي عليَ مرة بين حين وآخر» .

وهكذا تركتهم يبيعون ويشترون فيما بينهم بسعر خمسة سنتات لكل نقطة . ووجدت زنجياً أرسلته ليحضر سيارتي ووقفت عند المنعطف وانتظرت . ولم استطع أن أرى ايرل يرسل بصره إلى فوق والى تحت في الشارع ، وإحدى عينيه على الساعة ، لأنني لم أتمكن من مشاهدة الباب من مكاني . وبعد حوالي اسبوع عاد الزنجي بالسيارة .

فقلت : «أين ذهبت ، قاتلك الله ؟ ارحت تسوق في الشوارع حيث تراك المومسات ؟» .

فقال : «جئت مباشرة بقدر ما أستطيع . فقد كان علي أن أدور حول الميدان كله ، بسبب هذا الازدحام بالعربات» .

لم أجد في حياتي زنجياً لا يقدّم لك أروع عذر مقنع عن كل ما يفعله . ولكن ما عليك إلا أن تطلق أحدهم حراً في سيارة لترى كيف يزهو ويتباهى . ركبت السيارة ودرت حول الميدان . ولمحت إيرل واقفاً بالباب عبر الميدان .

ذهبت تواً إلى المطبخ وأمرت دلزي بإحضار الغداء على عجل .

قالت : «لم تأت كونتن بعد» .

قلت : «وإذا لم تأت ؟ ستقولين لي بعد قليل إن لستر لم يتهيأ بعد للأكل . أوقات الطعام في هذا البيت تعرفها كونتن . هيا ، اسرعي بالغداء» .

كانت أمي في غرفتها ، فأعطيتها الرسالة . ولمّا فضتها أخرجت الصك وجلست وهي ممسكة به في يدها . فذهبت واحضرت المعول من الركن وناولتها عود الكبريت ، وقلت : «هيا ، وانتهي من الأمر . ستبكين بعد لحظة» .

فتناولت عود الكبريت ولكنها لم تشعله . وبقيت جالسة في مكانها تنظر إلى الصك . تماماً كما توقعت!

وقالت : «اني أكره أن أفعل هذا . وقد زاد حملك بوجود كونتن»...

قلت لها : « لا أظن أننا سنحتاج إلى الخبز ، هيا ، وانتهي من الأمر » .

غير أنها بقيت جالسة هناك والصك في يدها .

قالت : « ارى أن هذا الصك محوّل على مصرف مختلف . لقد كان السابق محولاً على مصرف انديانابولس » .

قلت : « نعم ، يسمح للنساء أيضاً بذلك » .

قالت : « بماذا ؟ » .

قلت : « بوضع النقود في مصرفين مختلفين » .

قالت : « آ » . وتأملت الصك برهة وقالت : « يسعدني أن أعلم أنها غ... أن لديها أموا... إن الله شاهد على أنني لا أفعل إلا الحق » .

فقلت : « هيا ، احرقيه ، وانتهي من هذه التسلية » .

قالت : « تسلية ؟ كلما تذكرت »...

قلت : « كنت أظن أنك تحرقين مبلغ المئتي دولار هذا كل شهر للتسلية ، فهيا ، وانتهي . أأشعل لك عود الكبريت ؟ » .

قالت : « لو حاولت لاستطعت أن أقنع نفسي بقبولها ، من أجل أولادي . لم تبق فيَّ عزّة نفس » .

قلت : « ما كنت لترضين بذلك . وانت أدرى ، لقد قررت ذلك ، فلا تنقضي قرارك . لا أظننا سنحتاج إلى مال من أحد » .

فقالت : « اني اترك كل شيء لك . غير أنني أخشى أحياناً أنني إذ أفعل هذا إنما أحرمك ما هو حق من حقوقك . ولعل الله سيعاقبني على ذلك . فإن شئت ، فسأخنق عزة نفسي وأقبل هذه النقود » .

قلت : « وما فائدة البدء الآن ، وقد مضى عليكِ خمسة عشر عاماً وأنت تحرقينها ؟ فإذا استمررت بحرقها الآن ، ما ضيّعت شيئاً ، أمّا إذا بدأتِ بقبولها الآن ، فقد ضيعتِ خمسين ألف دولار . وقد استطعنا الحياة بدونها حتى الآن ، أليس كذلك ؟ وما أخذتك أنا بعد إلى ملجأ العجزة ، والحمد لله » .

فقالت : «بلى . نحن آل باسكوم في غنى عن كل احسان . ولا سيما احسان امرأة ساقطة» .

واشعلت عود الكبريت وأشعلت به الصك ووضعته في المعول ، ثم الرسالة ، وتأملتهما وهما يحترقان .

وقالت : «لن تفهم شعوري . احمد الله على أنك لن تعرف كيف تشعر الأم» .

فقلت : «في العالم نساء كثيرات لسن خيراً منها» .

قالت : «ولكنهن لسن بناتي ، وأنا لا أهتم بنفسي ، فأنا حتى مستعدة بالسماح لها بالعودة رغم كل آثامها ، لأنها من لحمي ودمي . إنما اهتمامي بكونتن»...

وهنا كان بإمكاني أن أقول لها الا حاجة بها إلى القلق بخصوص كونتن وشرفها ، ولكنني ، كما أقول دائماً ، لا أتوقع الكثير من أحد ، غير انني أريد أن آكل وأنام دون شجار وبكاء وعويل من امرأتين في البيت .

قالت : «وبك أنت . إني أدرى بحقيقة مشاعرك تجاهها»...

فقلت : «فلتعد إلى البيت ، إن كنت أنا العائق» .

قالت : «لا . احتراماً لذكرى أبيك المرحوم» .

قلت : «ولكنه كان طول الوقت يحاول أن يقنعك بالسماح لها بالعودة إلى البيت عندما طردها هربرت ؟» .

قالت : «إنك لا تفهم . وأنا أعلم أنك لا تقصد أن تزيد طينتي بلة . ولكن واجبي هو أن أقاسي من أجل أولادي . وإنّي لأتحمّل»...

قلت : «يخيّل إلى أنك تسعين جهدك فيما لا ضرورة له لكي تتحملي ،» واتت النار على الأوراق ، فأخذت المعول إلى الموقد وافرغت الرماد . وقلت : «أليس خسارة حرق هذه النقود ؟» .

فقالت : «لا أراني الله ذلك اليوم الذي يضطر فيه أولادي إلى الرضا بأجور الخطيئة! وإني لأوثر أن أراك ميتاً في نعشك قبل ذلك» .

قلت : «كما تشائين ، انتغدى عما قليل ، وإلاّ فإن عليَّ أن أعود ، لكثرة ما لدينا من عمل اليوم» . فنهضت أمي وقلت : «لقد أوصيتها بتهيئة الغداء . يبدو أنها تتريث انتظاراً لكونتن أو لستر أو غيرهما . لحظة ، سأناديها . انتظري» . غير أنها ذهبت إلى أعلى الدرج ونادتها .

قالت دلزي : «لم تأتِ كونتن بعد» .

قلت : «لا بأس . يجب أن أعود ، سأبتاع شطيرة في البلد ، ولن أتدخل بترتيبات دلزي» . فأثارها ذلك من جديد ، ودلزي تتدعبل وتدمدم جيئةً وذهاباً وتقول :

«طيّب ، طيّب . إني اهيؤه بأسرع ما استطيع» .

فقالت أمي : «إني أحاول أن أرضيكم جميعاً . وأسهّل عليكم الأمور بقدر ما أتمكّن» .

فقلت : «هل رأيتني تذمرت ؟ هل قلت شيئاً سوى أنني يجب أن أعود إلى عملي ؟» .

فقالت : «اعرف . اعرف انه لم تتح لك الفرصة التي اتيحت للآخرين ، وأنك اضطررت إلى دفن نفسك في متجر ريفي صغير .

أما أنا فقد أردت لك التقدم . وكنت أعلم أن أباك لن يدرك أنك أنت الوحيد المتمتع بحس للأعمال التجارية ، فلمّا خاب فألي في كل شيء آخر اعتقدت أنها عندما تتزوج ، وهربرت... بعد وعده»...

فقلت : «ربما كان هو أيضاً يكذب عليك . لعله لم يكن لديه أي مصرف . وإذا كان لديه مصرف فلا أحسبه يقطع الفيافي والقفار إلى مسيسبي ليجد رجلاً يستخدمه فيه» .

استغرق منّا الغداء فترة من الوقت . كنت اسمع بن في المطبخ ولستر يطعمه . وكما أكرر دائماً ، إن كان لا بد لنا من إطعام فم آخر وهي ترفض أن تتسلَم تلك النقود ، فلم لا نرسله إلى جاكسن . سيكون سعيداً هناك ، برفقة اناس مثله . فقلتُ يعلم الله أن هذه الاسرة لم يبق لديها مبرر يذكر

للعزة والكبرياء ، ولكن المرء ليس بحاجة إلى الكثير من العزة والكبرياء لكي يستقبح أن يرى رجلاً في الثلاثين يلعب في فناء الدار مع ولد زنجي ، ويركض صاعداً نازلاً بمحاذاة السياج ويخور كالبقرة كلما رأى أحداً يلعب الغولف هناك . ولو أرسلوه إلى جاكسن منذ البداية لكنّا كلنا أفضل حالاً الآن . وقد قلت : لقد أديت واجبك تجاهه ، لقد فعلت كل ما يمكن لإنسان أن يتوقعه منك بل فعلت أكثر مما يفعله معظم الناس ، فلمَ لا ترسلينه هناك وتستفيدي من الضرائب التي ندفعها . فقالت : «سأرحل عما قريب . اعرف أنني عبء ثقيل عليك» فقلت : «لطالما قلت هذا حتى جعلت الآن اصدقك» ولكن ، قلت لها : أرجوك أن تنتبهي ولا تعلميني برحيلك لأنني والله سأركَبه القطار رقم ١٧ في الليلة نفسها ، وأضفت قائلاً إنني أعرف مكاناً يأوونها هي أيضاً فيه لا يسمّى بشارع الحليب أو شارع العسل . وعندها بدأت تبكي ، فقلت : لا بأس لابأس إنني أعتز بقومي وعشيرتي كأي رجل آخر حتى ولو جهلت أصلهم وفصلهم .

وأخذنا نأكل . وأرسلت أمي دلزي إلى بوابة المنزل لتتطلع بحثاً عن كونتن ثانية .

فقلت : «الا تسمعينني أكرر وأعيد بأنها لن تأتي للغداء ؟» .

فقالت : «ولكنها أعقل من ذلك . فهي تعلم أنني لا أسمح لها بالتسكّع في الشوارع وعدم المجيء إلى البيت في مواعيد الأكل . هل تطلعتِ جيداً يا دلزي ؟» .

قلت «اذن امنعيها من الدخول» .

قالت : «ماالعمل ؟ لم يحترم أحد منكم كلامي ، قط» .

قلت : «لولا تدخلك ، لجعلتها تعبأ بكلامك ، ولن يستغرقني تقويمها إلا يوماً واحداً» .

قالت : «ستقسو عليها بوحشية زائدة ، فمزاجك هو مزاج خالك موري» .

فذكّرني ذلك بالرسالة . فأخرجتها وناولتها إياها . وقلت : « لا حاجة بك لفتحها . سيعلمك البنك بالمبلغ هذه المرّة » .

قالت : « إنها معنونة باسمك » .

فقلت : « تفضلي وافتحيها » . ففتحتها وقرأتها وناولتني إياها .

ـ « إنها تقول :

« ابن اختي العزيز ، سيسرك أن تعلم أنني الآن في وضع يتيح لي فرصة لن أخوض في التفاصيل بشأنها ، لأسباب سأوضحها لك ، إلى أن يتسنى لي أن أميط لك اللثام عنها على نحو آمن واكتم . فقد علمتني التجارب في الأعمال أن أضن بوصف أي أمر يقتضي السرية والتكتّم عن طريق أيّة وسيلة ملموسة أكثر من الكلام ، ومبالغتي في الحيطة هذه المرّة قد تهيء لك فكرة عن قيمتها . وغني عن البيان أنني قد فرغت لتوّي من تمحيص اوجهها جميعاً أشد التمحيص ، ولا يسعني التردد في القول لك بأنها من قبيل تلك الفرصة الذهبية التي لا تتاح للمرء الا مرة واحدة في العمر ، وإني الآن لأبصر أمامي الهدف الذي سعيت إليه طويلاً دونما كلل ، أعني توطيد شؤوني نهائياً توطيداً أستعيد به ذلك المركز الذي هو من حق الأسرة التي يشرفني أن أكون سليلها الحي الوحيد من الرجال ، وهي الأسرة التي كان من دأبي دوماً أن أجعل ضمنها السيدة والدتك وأولادها .

« وتشاء الصدف ألا أكون في وضع يتيح لي الاستفادة من هذه الفرصة حتى أقصاها كما ينبغي ، ولكن لئلا أخرج عن نطاق الأسرة في طلب ما أريد ، سوف أسحب اليوم من مصرف والدتك المبلغ الزهيد الذي لا بد من إضافته إلى استثماري الأولي ، ومن أجله ها أنا أرفق طيه ، من قبيل الشكليات ، تعهدي الخطّي بمعدل ثمانية بالمائة سنوياً .

وغني عن البيان أن هذا التعهّد ليس إلا من قبيل الشكليات ، لتطمئن أمّك في حالة وقوع ما تخشى عقباه ، فما الإنسان إلا العوبة المجهول . وذلك أنني ، بالطبع ، سأسخر هذا المبلغ وكأنه مالي الخاص فأتيح لوالدتك أن تفيد

من هذه الفرصة التي أثبتت تحرياتي الدقيقة أنها منجم ثروة ـ إن صح هذا التعبير ـ من أجود المعدن وانقاه .

«أنت ترى انني أسر لك بهذا على نحو ما يسر رجل أعمال لآخر ، ولسوف نجني القطوف دانيات من كرومنا ، هه ؟ ولمّا كنت أعلم أن صحة أمك ليست على مايرام ، واعلم ما تحس به سيدات الجنوب بطبعهن ، من جراء نشأتهن الرهيفة ، من قلق واحجام إزاء الأمور التجارية ، وميلهن الفاتن إلى إماطة اللثام عن مثل هذه الأمور في حديثهن عن غير قصد ، فإنني أقترح عليك الا تذكر الأمر لها أبداً . بل إنني إذا أعيد النظر فيه انصحك بألا تذكره لها . فلعله من الأفضل أن يعاد هذا المبلغ إلى المصرف يوماً ما في المستقبل ، جملةً واحدة مع المبالغ الصغيرة الأخرى التي أنا مدين بها لها ، دون أن نقول لها شيئاً . إن من واجبنا أن ندرأ عنها هذا العالم المادي الصفيق ما وسعنا ذلك .

« واسلم

لخالك المحب

موري ل . باسكوم »

قلت ، رامياً بالرسالة عبر المائدة : « ما الذي ستفعلينه بهذا الخصوص ؟ »

قالت : « اعرف أنك تنكر عليّ ما أعطيه » .

قلت : « انها نقودك . حتى لو أردت أن تقذفي بها للطيور ، فذلك شأنك أنت » .

فقالت أمّي : « إنّه أخي . إنّه آخر آل باسكوم . وعندما نموت لن يبقى منّا أحد » .

فقلت : « لا ريب أن هناك من سيحزن على ذلك . لا بأس ، لا بأس ، »

قلت : « إنها نقودك ، فافعلي بها ما تشائين . اتريدينني أن أوصي البنك بدفع المبلغ ؟ »

قالت : «أعلم أنك تنكر عليه ذلك . وأنا أدرك ما على عاتقك من عبء باهظ . حين أرحل ، سوف يهون عليك الأمر» .

قلت : «باستطاعتي أن أجعله هيناً عليّ هذه الساعة . لابأس ، لا بأس ، لن أشير إلى الموضوع مرة أخرى . لك أن تنقلي مستشفى المجاذيب كله إلى بيتنا إن شئت» .

قالت : «إنه أخوك ، وان ابتلاه الله بعاهة» .

فقلت : «سآخذ معي دفترك المصرفي ، لأنني سآخذ راتبي اليوم» .

قالت : «أرى أنه أبقاك في الانتظار ستة أيام . فهل أنت واثق من أن عملكم لا خوف عليه ؟ إني أعجب لعمل وافر الدخل يعجز عن دفع رواتب مستخدميه في مواعيدها» .

قلت : «لا خوف على إيرل ، أمين كالبنك . لقد أخبرته بألا يهتم بدفع راتبي حتى ننتهي من القبض كل شهر . هذا هو السبب في التأخير أحياناً» .

قالت : «لن أستطيع أن أتحمّل فقدانك للقليل الذي استثمرته لك ، كثيراً ما أظن أن إيرل تنقصة الطيبة كرجل أعمال . فهو لا يطلعك على دواخل عمله اطلاعاً يبرره المبلغ الذي تستثمره في العمل . سأفاتحه بالأمر» .

فقلت : «لا ، دعيه وشأنه . فالعمل عمله» .

ـ «ولكن لك ألف دولار فيه» .

ـ «دعيه وشأنه . فأنا أرقب الأمور . ولدي وكالتك الرسمية . فلا تقلقي» .

قالت : «لن تعلم أي عزاء أنت لي ، لقد كنتَ دوماً فرحتي وفخري . ولكن اليوم جئتني من تلقاء نفسك وأصررت على إيداع راتبك في المصرف كل شهر باسمي ، حمدت الله على أنه تركك لي حين حرمني الآخرين» .

قلت : «كانوا لابأس بهم . لا أتصورهم قد قصروا في شيء كان في مقدورهم» .

قالت : «حين تتحدث على هذا النحو أعرف أنك تفكّر بمرارة بذكرى المرحوم أبيك . ولعلّك محق في ذلك . ولكن قلبي ينفطر حين أسمعك» .

فنهضت وقلت : «إن اردت البكاء ، فعليك أن تبكي بمفردك ، لأن علي أن أعود . سأجلب دفتر المصرف» .

قالت : سأجلبه أنا» .

فقلت : «ابقي في مكانك . سأجلبه أنا» . وصعدت إلى فوق وأخرجت دفتر المصرف من منضدتها وعدت إلى البلدة . فذهبت إلى المصرف وأودعت راتبي والحوالة المالية والعشرة الأخرى ، وعرجت على دائرة البرق . كان ثمة ارتفاع بنقطة واحدة منذ الافتتاح . لقد خسرت ثلاث عشرة نقطة ، وما ذلك إلا لأنها جاءتني تصيح وتعربد في الثانية عشرة ، وتزعجني بشأن تلك الرسالة .

قلت : «متى وصل ذلك التقرير ؟» .

قال : «منذ حوالي ساعة» .

قلت : «منذ ساعة ؟ لماذا ندفع لك ؟ لكي تعطينا تقارير اسبوعية ؟ كيف تتوقع أن يفعل المرء شيئاً ؟ قد تنفجر السوق في هذه البورصة ونحن بعد غافلون» .

قال : «أنا لا أتوقع أن تفعل شيئاً . فقد غيروا ذلك القانون الذي يسمح للناس بالتلاعب في سوق القطن» .

قلت : «صحيح ؟ لم يبلغني الخبر . لا بد أنهم أبرقوه عن طريق الويسترن يونيون ، شركتكم» .

وعدت إلى الدكان . ثلاث عشرة نقطة . لعنة الله عليَ إن كان أحد يعلم شيئاً عن هذا الأمر اللعين إلاّ أولئك الجالسين في مكاتب نيويورك الذين يتفرجون على مغفلي الريف وهم يأتونهم ويتوسلون اليهم بأخذ نقودهم . والواقع أن كل من يراجعهم إنما يبرهن على أنه عديم الثقة بنفسه ، وكما أقول إن كنت سترفض النصيحة فما هو نفع انفاق المال في سبيلها ؟ وفضلاً

عن ذلك ، فإن هؤلاء القوم يقيمون في المكان الصحيح ، فهم يعرفون بكل ما يجري . كنت أحس بوجود البرقية في جيبي . وما عليَّ الا أن أثبت أنهم يستخدمون شركة البرق لابتزاز المال ، لأقيم الدليل على أنهم يديرون عملا للغش والنصب . وما كنت لاتردد في ذلك طويلاً ، لأنني لا أفهم كيف تعجز شركة غنية كبيرة كالويسترن يونيون عن اصدار تقرير عن السوق في الوقت المحدد ، على الأقل بنصف السرعة التي يبرقون فيها إليك قائلين « حسابك أغلق » . ولكن ما الذي يهمهم من أمور الناس ؟ إنهم متواطئون مع تلك الجماعة في نيويورك . وهل يخفى ذلك على أحد ؟

حال دخولي نظر إيرل إلى ساعته . غير أنه لم يقل شيئاً إلى أن خرج الزبون . وعندها قال : « اذهبت إلى البيت للغداء ؟ »

قلت : « اضطررت إلى الذهاب إلى طبيب الأسنان ، » ذلك لأنه ليس من شأنه أين آكل ولكن عليَّ البقاء معه في الدكان طيلة فترة ما بعد الظهر . ورغم كل ما أتحمّله فإنّه يشغل فكيه بهذا اللغو . خذ دكاناً صغيراً من دكاكين الريف أعني صاحب دكان لا تبلغ قيمتها خمسمئة دولار ترَ صاحبها في قلق يساوي خمسين ألف دولار .

قال : « لماذا لم تخبرني ؟ لقد توقعت عودتك بسرعة » .

فقلت : « أبيعك هذه السن وأعطيك فوقها عشرة دولارات إن شئت » .

وقلت : « كان اتفاقنا على ساعة واحدة للغداء ، فإذا لم ترق لك طريقتي فلك أن تفعل بها ماتشاء » .

قال : « لقد لا حظت ذلك منذ زمن ، ولولا أمك لفعلتها قبل اليوم . إنها سيدة أعطف عليها كثيراً يا جاسن . من المؤسف أن الذين أعرفهم من الناس لا يقولون ذلك » .

قلت : « اذن فاحفظ عطفك لنفسك ، فإذا احتجنا إلى عطف أخطرتك في الوقت الملائم » .

- « لقد حميتك طويلاً في تلك القضية ، يا جاسن » .

ـ « صحيح ؟ » قلتها ، فاسحاً له المجال للاستمرار ، ومصغياً لما سيقوله قبل أن أسد فمه .

ـ « اعتقد أنني أعرف أكثر مما هي تعرف من أين جاءت تلك السيارة » .

ـ « اتظن ذلك ؟ متى ستنشر الخبر بأنني سرقتها من أمي ؟ » .

فقال : « لن أقول شيئاً . فأنا أعرف أن في حوزتك وكالة رسمية عنها . كما أنني أعرف أنها مازالت تعتقد أن الألف دولار تلك مستثمرة في هذا العمل » .

فقلت : « طيب . بما أنك تعرف كل هذا ، فلأخبرك بالمزيد : اذهب إلى المصرف واسألهم لحساب من أودع مئة وستين دولاراً أول كل شهر ، منذ اثنتي عشرة سنة » .

قال : « لن أقول شيئاً . إنما أطلب إليك أن تكون أشد حذراً بعد اليوم » .

لم أقل شيئاً أكثر من ذلك . وما جدوى الكلام ؟ لقد وجدت أن المرء إذا ما وقع في حلقة مفرغة فخير ما تستطيع أنت فعله له هو أن تدعه فيها . واذا ما ألحَ رجل على الإفصاح عن سينة بحقك محتجاً أنه يفعل ذلك لصالحك ، فإني أقول له ، مع السلامة . يسرني انني لا أعاني من ضمير يفرض عليَ مراعا ته وتدليله كجروٍ عليل طيلة الوقت . فهل ارضى مثله بأن أحرص على كل صغيرة وكبيرة لئلا أجني ، مما بين يدي من عمل ، أكثر من ثمانية بالمئة . أغلب الظن أنه يتصور أنهم سيطبقون عليه قانون الربا إن هو حصّل ربحاً صافياً ما يزيد على ثمانية بالمئة . فما الفرصة اللعينة التي تتاح للمرء هنا ، وهو مقيد بعمل كهذا في بلدة كهذه ؟ والله بوسعي أن أتولى عمله هذا سنة واحدة وادبر أمره حتى يصبح في غنى عن كل عمل فيما بعد ، لولاأنه حينئذ سيهب ماله كله للكنيسة أو ما شابهها . فإذا كان في الدنيا من يثير حنقي ، فهو المنافق . ذلك الرجل الذي يرى في كل ما لا يفهم تفاصيله

كلها ، غشاً وخديعة ، وحالما تتيسر له أول فرصة فإن من واجبه الأدبي أن يخبرفريقاً ثالثاً ماليس من حقه أن يخبره . وكما أقول دائماً ، لو أنا اعتقدت كلما فعل انسان شيئاً لا أعرف تفاصيله كلها بأنه محتال غشاش ، لما كان من الصعب علي أن أجد في تلك الدفاتر هناك أموراً لن تجد أنت مبرراً لي إن أنا اسرعت واطلعت أحدهم عليها لاعتقادي بضرورة إحاطته بها حين قد اكتشف أنه يعرف عنها أكثر بكثير مما أعرف أنا ، واذا لم يعرف فليس من شأني مطلقاً أن أتولى اطلاعه ، فقال : «دفاتري مفتوحة للجميع . وإني لأرحب بأي إنسان يطالبني بشيء ، أو يعتقد أن له على هذا الدكان حقاً ، وأقول له أهلاً وسهلاً ، هاك دفاتري ، افحصها . قل ذلك لوالدتك» .

فقلت : «لن تطلعها على شيء بالطبع . والا ، عجزت عن ارضاء ضميرك . كل ما هنالك ، انك ستقودها نحو الدفاتر وتترك أمر الاكتشاف لها . ولكنك لن تخبرها بنفسك» .

قال : «لا أحاول العبث بأمورك . وأنا أعلم أنك قد أخطأت بعض الأشياء ككونتن . غير أن والدتك قد عرفت الشقاء في حياتها أيضاً ، فلو جاءتني وسألتني لماذا تركت ، لأخبرتها . وأنت أدرى بأن السبب ليس هو الألف دولار تلك . ولكن السبب هو أن المرء لن يتقدّم في الحياة اذا ناقض واقعه دفاتر حسابه . وانا لن أكذب على أحد ، سواء كان ذلك من أجلي أم من أجل غيري» .

فقلت : «يخيل إلي أن ضميرك هذا موظف أكثر أهمية مني ، فهو ليس بحاجة إلى الذهاب إلى البيت ظهراً ليأكل . ولكن أرجوك ألا تدعه يتدخل بشهيتي» وإلا فأنّى لي أن أحسن فعل أي شيء وانا في هذه العائلة اللعينة وأمي لا تبذل جهداً لضبطها أو ضبط أحد منهم ، كما حدث عندما اتفق أن رأت أحدهم يقبّل كادي فراحت طيلة النهار التالي تدور أرجاء البيت في فستان أسود وعلى وجهها نقاب فعجز الجميع حتى أبي عن جعلها تنطق بشيء فيما عدا البكاء وترديد أن ابنتها ماتت وكادي يومئذ لم تكن تتعدى

الخامسة عشرة وعلى ذلك فإنها في بحر سنوات ثلاث ستلبس ثوب الشعر بل قلْ ورق الضفرة . أتعتقدين أنني أجد من اللائق بي تسكعها في الشوارع مع كل سمسار يجيء إلى المدينة ، فيخبر كل سمسار وافد آخر عن المكان الذي يستطيع أن يجد فيه فتاة شهية حارة حال وصوله جفرسن . أين كرامتي ، بل أنّى أن تكون لي كرامة ومطبخي مليء بسود عليَّ أن أطعمهم وقد سلبت مستشفى مجاذيب الولاية نجمه الساطع ؟ وقلت ، ها ، الدم وحكام وقواد عسكريون! ما أحسن حظنا أننا لم نرزق ملوكاً ورؤساء . والا لكنّا كلنا الآن في جاكسن نطارد الفراشات . ولو كان ذلك الدم دمي لساء الأمر بدرجة كافية ولكنت على الأقل متأكداً من نغالته ، ولكن قد يكون الله نفسه على غير يقين بشأن ذلك .

وهكذا فإنني بعد قليل سمعت الجوقة الموسيقية تبدأ عزفها ، ثم جعل أفرادها ينصرفون ، متجهين جميعاً نحو السيرك . يساومون على طوق بعشرين سنتاً لكي يوفروا خمسة عشر سنتاً يعطونها لشرذمة من الشماليين الوافدين والذين قد ينفقون عشرة دولارات في سبيل هذا الامتياز . وخرجت إلى ماخلف الدكان .

وقلت : « اسمع ، إذا لم تنتبه ، نما ذلك البرغي في لحم يدك . حينئذ سأحضر فأساً لأقطعه . ماالذي ستأكله خنافس القطن المسكينة إن أنت لم تهيئ هذه المعشبات فتنتج لها غلة ما ؟ أحلفاء ؟ » .

فقال : « والله إنهم ليتقنون العزف على الأبواق . سمعت أن بينهم رجلاً يستطيع أن يدق لحناً على المنشار ، كأنه يعزف على البانجو » .

قلت : « اسمع . أتعرف كم سينفق ذلك السيرك في هذه البلدة ؟ » .

حوالي عشرة دولارات . وهي الدولارات العشرة التي وضعها بك تيربن في جيبه الآن » .

- « ولماذا يعطون السيد تيربن عشرة دولارات ؟ »

قلت : « لقاء السماح لهم بإقامة سيركهم هنا ، وأما بقية مايصرفون فتستطيع أن تضعه في عينك » .

- « تعني أنهم يدفعون عشرة دولارات لكي يقيموا السيرك هنا ؟ » .
- « هذا كل ماهناك . وكم ، في اعتقادك... » .

فقال : « عجيب . أتقصد أنهم يقاضونهم نقوداً ليسمحوا لهم بالمجيء هنا ؟ ،والله لو اضطررت ، لدفعت عشرة دولارات عن طيب خاطر لأرى ذلك الرجل يدق على المنشار . وذلك يعني أنني في صباح الغد سأكون مديناً لهم بتسعة دولارات وثلاثة أرباع على هذا المعدل » .

ورغم ذلك فإن كل شمالي يزهق منك الروح بالحديث عن تقدم الزنوج . دعهم يتقدمون ، هذا ماأقوله . دعهم يتقدمون حتى لاتلقوا أحداً منهم جنوبي لويز فيل ولو بحثتم عنه مستعينين بكلاب الأثر . لأنه ، عندما أخبرته أنهم سيحزمون أمتعتهم ليلة الأحد وينصرفون حاملين ألف دولار على الأقل من أموال هذه المقاطعة ، قال :

« حلال عليهم . فأنا لن أتردد بانفاق ربع دولار عليهم » .

فقلت : « ربع دولار! ما تلك إلا بداية البداية . ماذا تقول عن السنتات العشرة أو الخمسة عشر التي تصرفها على علبة الحلوى الحقيرة أو غيرها مما يساوي السنتين ؟ وماذا تقول عن الوقت الذي تضيعه في هذه اللحظة ، بالاصغاء إلى تلك الجوقة ؟ » .

قال : « هذا هو الواقع . ووالله إن عشت حتى هذه الليلة فإنهم سيخرجون من هذه البلدة غانمين ربعاً آخر ، إيه والله » .

قلت : « إذن أنت غبي » .

قال : « ولن أجادلك في ذلك أيضاً . ولكن لو كان الغباء جريمة ، لما كانت سجون الأشغال الشاقة كلها مقصورة على السود » .

واتفق في حوالي تلك اللحظة ان نظرت صوب الزقاق ورأيتها . وعندما تراجعت ونظرت إلى ساعتي لم ألحظ من الذي كان معها لأنني كنت أنظر إلى الساعة . كانت الساعة الثانية والنصف بالضبط ، أي قبل أن يتوقع أحد خروجها ، فيما عداي ؛ بخمس وأربعين دقيقة . فلما نظرت من حول الباب

كان أول مالمحته رباط العنق الأحمر الذي يلبسه فقلت لنفسي أي صقيع هذا الذي يلبس رباطاً أحمر . غير أنها كانت تتسلل في الزقاق ، وهي ترقب الباب ، فلم أفكر بأمره إلى أن مرا بباب الدكان وتساءلت إن كان احترامها لي من الضآلة بحيث لا تكتفي بالهرب من المدرسة رغم تحذيري لها بل تصر على المرور بالدكان ، تحدياً لي بألا أراها . ولكنها لم تبصر من خلال الباب لأن الشمس كانت منصبة عليّ مباشرة ، فكأنها تحاول أن تبصر من خلال كشاف سيارة . فوقفت في مكاني اتتبعها بعيني وهي تمر ، ووجهها مصبوغ كوجه مهرج وشعرها مجدول ومصمغ وفستانها ـ لو أن امرأة خرجت إلى شارع غايوسو أو بيل أيام صباي غير كاسية ساقيها وعجيزتها إلا بمثل ذلك الثوب لزجوا بها في السجن . انهن يلبسن ثيابهن كأنهن يحاولن جعل كل رجل يمر بهن في الشارع يكاد يمد يده ويضعها عليه . وفيما أنا أتساءل أي صقيع يلبس رباطاً أحمر وإذا بي أدرك فجأة أنه أحد جماعة السيرك ، موقناً من ذلك كأنها أخبرتني عنه بنفسها . والله اني لشديد التحمل ، ولو لم أكن كذلك لوقعت في ورطة كبرى في تلك اللحظة ، ولذا فانني عندما دخلا المنعطف طفرت من مكاني وتبعتهما . أجل ، في شمس مابعد الظهر ، حاسر الرأس ، كان علي أن أطاردهما خلال الأزقة الخلفية احتراماً لسمعة أمي ، وكما أقول ، لن يجديك فتيلاً ما تفعل مع امرأة من هذا الفصيل ، مطبوعة على مثل هذا الشيء . فاذا كان العهر يجري في دمها ، فلن يجديك فتيلاً ماتفعل معها . وجل ما تستطيعه هو أن تتخلص منها ، وتدعها تمضي وتعاشر من هم على شاكلتها .

ذهبت إلى الشارع ، ولكني لم أرهما . فهذا أنا ، في وسط الشارع حاسر الرأس ، أبدو أشبه بالمجانين أيضاً كمن يقول لنفسه طبعاً : احدهم مجنون والثاني انتحر غرقاً والثالثة قذف بها زوجها الى الشارع ، فلم لايكون البقية مجانين كذلك . فكنت أراهم طيلة الوقت يرقبونني كالصقر ، مترقبين الساعة التي يقول فيها أحدهم : لست أدهش لهذا ، كنت أتوقعه

طيلة هذا الوقت فالعائلة كلها مجانين . تبيع الأرض لإرساله الى هارفرد وتدفع الضرائب لمساندة جامعة الولاية سنة بعد سنة وهي جامعة لم أرها إلا مرتين في مباريات «البيس بول» ولا تسمح لأحد بالتلفظ باسم ابنتها في المنزل الى أن جعل أبي بعد ذلك يرفض حتى النزول الى المدينة وهو ماانفك جالساً هناك سحابة يومه يعاقر قارورته كنت أرى حاشية قميص نومه وساقيه العاريتين وأسمع القارورة تدقدق الكأس الى أن جعل تي بي في النهاية يصب له ما يريد وهي تقول إنك لاتحترم ذكرى المرحوم أبيك فأقول ولم لا فإنها في حرز حريز وستبقى قائمة ولكن إن كنت مجنوناً أنا أيضاً فالله يعلم ما الذي سأفعله بشأن ذلك فمجرد النظر إلى الماء يقلب معدتي قلباً وقد أجرع البنزين ولاأجرع كأساً من الوسكي فتقول لهم لورين إنه لايشرب ولكن إن كنتم تشكّون في رجولته فبإمكاني أن أخبركم كيف تكتشفونها وتقول والله إن وجدتك يوماً تعابث إحدى هؤلاء المومسات أتعرف ما الذي سأفعله قالت سأجلد ذاك منها ممسكة بذاك منها سأجلد ذاك منها حالما ألقاه فأقول إن كنت لاأشرب فذلك شأني ولكن هل وجدتني يوماً مقصراً بحقك سأشتري لك من البيرة مايكفي لاستحمامك فيها إن شئت لأنني أحترم المومس الأمينة الطيبة وبسبب من أحوال أمي الصحية وبسبب من المركز الذي أحاول أن أحافظ عليه أراني أبذل جهدي فلا أرى احترامها لي رغم كل ما أسعي فيه من أجلها يعدو جعلها من اسمها واسمي واسم أمي مضغة في أفواه أهل البلدة .

لقد زاغت واحتجبت عن النظر في مكان ما . رأتني قادماً فزجت بنفسها في زقاق آخر ، لتتسكع في الأزقة مع حقير من رجال السيرك يلبس رباطاً أحمر كلما رآه أحد قال أي صقيع هذا الذي يلبس رباطاً أحمر . عل كل ، مازال الولد يتحدث إلي فأخذت البرقية دون أن أعي أنني أخذتها . ولم أدرك ما الذي بين يدي إلى أن جعلت أوقع اعترافاً بتسلمها ، وفضضتها دون أن أعبأ بمحتواها . لعلني كنت طيلة الوقت أعرف محتواها . فذلك هو الشيء

الآخر الوحيد الذي يمكن أن يقع ، وقد أمسكت بها إلى أن دونت قيمة الصك في الدفتر .

لست أرى كيف أن مدينة بحجم نيويورك يمكن أن يكون فيها من الناس ما يكفي لابتزاز نقودنا نحن الريفيين المغفلين ، تشتغل كالحمار طيلة النهار كل يوم ، وترسل نقودك إليهم لتأتيك منهم قصاصة ورق تقول : «حسابك إغلق عند ٦٢ ، ٢٠ يغرونك باستمرار ، ليتراكم لديك ربح ضئيل على الورق ، وإذا هم يقذفونك بـ «حسابك أغلق عند ٦٢ ، ٢٠ »! وكأن ذلك لا يكفيك فتدفع لأحدهم عشرة دولارات في الشهر ليدلك على الطريق إلى الخسارة السريعة ، فهو إما لا يعرف عن الموضوع شيئاً أو أنه متواطىء مع شركة البرق . كفى ، لقد انتهيت منهم . لقد استغفلوني للمرة الأخيرة . فما من انسان إلا ويعرف ـ إلا إذا بلغ به الغباء حد الإيمان بكل ما يقوله اليهود في ذلك ـ إن السوق في ارتفاع دائم لأن الدلتا اللعينة بأجمعها على وشك الغرق بالفيضان من جديد ، والماء يكاد يقتلع القطن من الأرض كما حدث في العام الماضي . محاصيلنا تغرق سنة بعد سنة ، والجماعة في واشنطون ينفقون خمسين ألف دولار في اليوم على جيش لهم في نيكاراغوا أو غيرها وسيقع بالطبع فيضان جديد ، ويصبح سعر القطن ثلاثين سنتاً للرطل الواحد . على كلٍّ ، ماغايتي إلا أن أضربهم مرّة واحدة واسترجع نقودي . لست أروم منهم مقتلاً ، مع أن الضاربين في هذه المدن الصغيرة لا يبغون إلا ذلك . إنما أريد أن استرد نقودي التي ابتزها هؤلاء اليهود الملاعين «بمعلوماتهم المضمونة لما يجري وراء الستار» . وعندها سأكف نهائياً وليقبلوا قدمي لكل سنت أحمر يستخرجونة منّي بعد ذلك .

عدت إلى الدكان . لم يبقى إلا أقل الوقت لعمل أي شيء ولكني اعتدت على ذلك . وما كان علي أن أدرس في هارفرد لأتعلم ذلك . كانت الجوقة قد

---

* أي برصيد ٢٠ دولاراً و٦٢ سنتاً (المترجم)

توقفت عن العزف . لقد أدخلوا الناس الآن إلى حظيرتهم ، فما عادوا بحاجة إلى بذل أنفاسهم بعد . فقال إيرل :

« هل وجدك إذن ؟ جاء بها هنا منذ قليل ، فقلت لعلك في مكان ما خلف الدكان » .

فقلت : « نعم ، أخذتها . ما كان بإمكانهم أن يحجبوها عني طيلة ما بعد الظهر فالبلدة صغيرة جداً . عليّ أن أذهب إلى البيت لبضع دقائق . ولك أن تحسم من راتبي إن شئت » .

فقال : « لا بأس ، تفضل . أستطيع البقاء وحدي الآن . أرجو أن لا يكون الخبر سيئاً ؟ » .

قلت : « عليك بدائرة البرق لمعرفة الجواب . لديهم الوقت لذلك ، أما أنا فلا وقت لدي » .

« مجرد سؤال . فأمك تعلم أنها تستطيع الاعتماد عليّ » .

قلت : « إنها تقدّر ذلك . لن أمكث أطول مما ينبغي » .

فقال : « لا تستعجل . أستطيع البقاء وحدي الآن . تفضل » .

ركبت السيارة وعدت إلى البيت . مرةً هذا الصباح ، ومرتين عند الظهر ، ومرة أخرى الآن ، وعليّ كذلك أن أطارد بحثاً عنها في أرجاء البلدة كلها ، كما أن علي أن أتوسل إليهم أن يدعوني آكل شيئاً من الطعام الذي اشتريه بمالي . إني أقول أحياناً مانفع أي شيء . مع هذه السابقة التي حدثت لي ماكنت لاستمر لولا أنني مجنون . والآن حالما أبلغ البيت عليّ برحلة طويلة في السيارة بحثاً عن سلة من الطماطم أو غيرها ، أعود بعدها إلى المدينة ورائحتي كمصنع للكافور ، لئلا ينفجر رأسي على كتفي . وأنا أردد وأكرر لها أن هذا الاسبرين اللعين لا يحوي إلا الطحين والماء لكل من يتوهم في نفسه المرض ، وأقول لها : إنك لا تعرفين ما الصداع . ثم أقول أتحسبين أنني كنت أزعج نفسي بتلك السيارة لو توقف الأمر عليّ أنا ؟ فباستطاعتي أن أحيا بدونها . لقد اعتدت الحياة محروماً أشياء عديدة ، ولكن إن كنت

ترغبين في المجازفة بحياتك في تلك العربة العتيقة المستهلكة يسوقها صبي زنجي ناقص النمو فلا بأس ، الله يرعى بعنايته من هم من فصيلة بنجي ، والله يعلم أن عليه أن يسعفه على نحو ما ولكن إن كنت تحسبين أنني سأعهد بسيارة دقيقة الصنع كلفتني ألف دولار لزنجي ناقص النمو أو كامل النمو ، فخيرٌ لك أن تشتري له سيارة بنفسك لأنك تحبين ركوب السيارة ولن تنكري ذلك .

قالت دلزي أن أمي في البيت . فدخلت بهو المدخل وأصغيت ، ولكنني لم أسمع شيئاً . فصعدت الى فوق وحالما مررت ببابها نادتني .

وقالت : «اردت أن أعرف من القادم . انني أجلس هنا بمفردي معظم الوقت . فاسمع كل صوت» .

قلت : «لاحاجة بك الى البقاء هنا . بامكانك أن تقضي النهار كله في الزيارات كغيرك من النساء ، ان أنت شئت» . فأتت الى الباب .

وقالت : «خشيت أن تكون مريضاً . لأنك تناولت غداءك على عجل» .

قلت : «لعلني أوفق في مرة قادمة . ماذا تريدين ؟» .

- هل من شيء على غير مايرام ؟» .

- «أي شيء ؟ ألا يجوز لي أن آتي إلى البيت عصراً دون ازعاج كل من في المنزل ؟» .

- «هل رأيت كونتن ؟» .

- «إنها في المدرسة» .

- «ولكن الساعة تجاوزت الثالثة . لقد سمعت الساعة تدق قبل نصف ساعة على الأقل . كان يجب أن تبلغ البيت الآن» .

- «صحيح ؟ وهل رأيتها تأتي يوماً قبل هبوط الظلام ؟» .

- «كان يجب أن تكون في البيت . عندما كانت فتاة...» .

قلت : «كان لك من يؤدبك ، أما هي ؟» .

قالت : «لقد أعجزتني ، مع أنني حاولت وحاولت» .

- «ولن تسمحي لي بتأديبها ، لسبب ما . فاقنعي إذن» . ذهبت الى غرفتي ، وأدرت المفتاح في الباب ووقفت قربه الى أن رأيت مقبضه يدور ، وإذ بها تقول :

«جاسن» .

- «ماذا ؟» .

- «خشيت ألا يكون شيء ما على مايرام» .

- «ليس في غرفتي . لقد قصدت المكان الخطأ» .

فقالت : «لست أقصد اقلاقك» .

فقلت : «اشكرك على ذلك ، لأنني لم أكن واثقاً ، وظننت أنني مخطئ ، أتريدين شيئاً ؟» .

وبعد قليل قالت :«كلا . لاأريد شيئاً» . ثم ابتعدت . فأنزلت الصندوق وأحصيت النقود وخبأت الصندوق ثانية وفتحت قفل الباب وخرجتِ . وتذكرت الكافور ، ولكن فات الأوان على كل حال . وسأخرج لرحلة واحدة فقط . فرأيتها ببابها تنتظر .

قلت :«اتريدين شيئاً من البلدة ؟» .

قالت : «كلا . لاأريد التدخل بشؤونك . ولكنني لاأدري ماالذي سأفعله لو حدث لك أي حادث ياجاسن» .

قلت : «أنا بخير . مجرد صداع» .

قالت : «ليتك تتناول بعض الاسبرين . أنا أعلم أنك لن تتوقف عن استعمال السيارة» .

فقلت : «وماعلاقة السيارة بذلك ؟ كيف يمكن للسيارة أن تسبب لي صداعاً ؟» .

- «البنزين كما تعلم كان يسبب لك اضطراباً دائماً ، منذ أن كنت طفلاً ، أتمنى لو تتناول بعض الاسبرين» .

فقلت : «استمري في التمني . لن يؤذيك التمني» .

ركبت السيارة وعدت الى البلدة ، وحالما انعطفت الى الشارع رأيت سيارة « فورد » مسرعة نحوي ، وفجأة وقفت . سمعت العجلات تنزلق فتدور السيارة ثم تندفع الى الوراء ، فتدوم وما أن تساءلت ماذا يبغي راكبها أن يفعل ، حتى رأيت ذلك الرباط الأحمر . ثم تبينت وجهها ينظر الى الخلف من النافذة . دومت السيارة منطلقة في الزقاق ، ورأيتها تنعطف ثانية ، ولكن عندما بلغت الشارع الخلفي كانت قد بدأت تختفي ، مسرعة كالشيطان .

طار عقلي . لما تبينت ذلك الرباط الأحمر ، وبالرغم من كل ماقلته لها ، نسيت كل شيء . ولم أفكر حتى برأسي المصدوع حتى بلغت أول تقاطع طرق واضطررت الى الوقوف . ننفق الأموال وننفق الأموال على الطرق ومع ذلك فكأننا والله نسوق على صفيحة من الحديد المموج . أريد أن أعرف كيف يمكن لإنسان أن يحافظ على عربة يده ، بله سيارته في طرق كهذه . إنني أبالغ في الخشية على سيارتي ، ولن أحطمها بالسرعة كأنها « فورد » . وأغلب الظن أنهما قد سرقاها على كل حال ، فلن يعنيهما من أمرها شيء . وكما أقول ، العرق دساس . إن يكن هذا عرقك ، فلن تتورع عن شيء . وقلت مهما يكن لها من حق عليك فقد أديت واجبك وانتهيت . فلا تلومي من الآن وصاعداً إلا نفسك لأنك تعلمين ما الذي يفعله في حالة كهذه إنسان يتمتع بدرهمين من عقل . وقلت إن كان لابد لي من قضاء نصف وقتي كشرطي سري ، فلأذهب على الأقل الى حيث أتقاضى أجراً على ذلك .

وهكذا اضطررت الى الوقوف عند تقاطع الطرق . فتذكرته . وشعرت به كأن في داخل رأسي شخصاً يضربه بمطرقة . قلت لها لقد حاولت أن أصد عنك القلق بشأنها . أما بالنسبة إلي فإنني أقول لتذهب الى حيث ألقت وبأسرع ما تستطيع وخير البر عاجله . وقلت كذلك ما الذي تتوقعينه إلا أن تري كل سافل وكل من ينتمي الى فرقة من المهرجين القادمين الى البلدة لأن شباب البلدة ، حتى أحطهم شأناً يترفعون الآن عنها . إنك لاتعلمين بما يجري في البلدة ولا تسمعين الأقاويل التي أسمعها وثقي أنني أسد أفواههم

جميعاً . فأقول لهم لقد كان أسلاف أسرتي يملكون العبيد هنا أيام كنتم تديرون حوانيت ريفية حقيرة لبيع سقط المتاع وتفلحون أراضي يترفع عنها حتى الزنوج .

هذا إن هم فلحوها قط . من حسن الحظ أن الله قد أسبغ نعمه على هذا البلد . أما أهله فما حركوا من أجله ساكناً . هانحن عصر يوم الجمعة ، وبوسعي حيث وقفت أن أرى ثلاثة أميال من أراض لم يشقها محراث ، بينما راح كل رجل سليم الجسم في المقاطعة يهرول الى البلدة ليشاهد السيرك . فلو كنت غريباً مشرفاً على الموت جوعاً ، لما استطعت أن أرى انساناً هناك أسأله حتى عن السبيل الى البلدة . وهي تحاول أن تقسرني على ابتلاع الاسبرين ، فأقول لها إذا أردت خبزاً أكلته على المائدة . إنك لا تنقطعين عن الكلام عن تضحياتك من أجلنا وبامكانك أن تشتري عشرة فساتين جديدة كل سنة بالنقود التي تنفقينها على هذه الأدوية المستحضرة السخيفة . وما أنا بحاجة اليه ليس دواء لصداعي بل فرصة لأضطر فيها الى أن أشعر بالصداع ولكن مادمت مكرهاً على العمل عشر ساعات في اليوم لأنوء بأود مطبخ مليء بالزنوج يعيشون عندي أترف العيش وأرسلهم الى السيرك مع كل زنجي آخر في المقاطعة ، ولكنه قد تأخر وريثما يبلغ المكان يكون العرض قد انتهى .

بعد زمن دنا من السيارة ولما أفهمته أخيراً سؤالي عما إذا كان قد رأى شاباً وشابة يمران به في سيارة فورد ، قال نعم . فاستأنفت السير ، ولما وصلت الى حيث يتفرع طريق العربات جعلت أرى آثار الإطارات . كان « آب راسل » في مزرعته ، غير أنني لم أهتم بسؤاله وما كدت أخرج عن مدى البصر من عنبره حتى رأيت الفورد . لقد حاولا أن يخفياها وأتقنا العملية اتقانها لكل ما تفعله . وكما أقول ، أنا في الواقع لاأعترض على ؛ فلعلها لا تملك منعاً لنفسها عنه ، ولكن الذي يغضبني هو أنها لاتبدي من الاحترام لأسرتها ما يجعلها تتستر على نفسها . وإني لفي خشية مستمرة من أن

أصطدم بهما فجأة على قارعة الطريق أو تحت إحدى العربات في الميدان ، ملتحمين التحام كلب وكلبة .

أوقفت السيارة ونزلت منها . وكان علي الآن أن أسير مداورة وأخترق حقلاً محروثاً ، وهو الحقل الوحيد الذي شاهدته منذ أن تركت البلدة ، وأمشي بخطوات ثقيلة كأن ورائي شخصاً ما يلاحقني ويضربني على رأسي بهراوته . وجعلت أفكر بأنني حال عبوري الحقل ستنبسط الأرض تحت قدمي ، فلا تخضني عند كل خطوة ، ولكن عندما دخلت الآجام وجدتها مليئة بالشجيرات فرحت أبرم جسمي وأنا أشق طريقي بينها ، إلى أن وصلت الى خندق مليء بالعليق . فسرت بمحاذاته ، والعليق يشتد كثافة والتفافاً وقد يكون ايرل منهمكاً طيلة هذا الوقت بمخابرة بيتنا تليفونياً ليسأل أين أنا فتضطرب أمي من جديد .

وفي النهاية حين بلغت الطرف الآخر كنت قد انعطفت وتعرجت كثيراً فتوقفت لأخمن أين تكون الآن مني سيارة الفورد . إذ كنت أعلم أنهما لن يبعدا عنها كثيراً ، فيندسان تحت أقرب شجيرة فاستدرت وسرت في الاتجاه المعاكس نحو الطريق . وبعد ذلك لم أستطع أن أعين مدى بعدي ، فجعلت أقف وأصغي وكلما وقفت قل ما تستخدمه رجلاي من دم ، فتدفق الى رأسي كأنه سينفجر في أية لحظة ، والشمس منحدرة الى حيث تشع في عيني مباشرة وأذناي ترنان فلا أسمع شيئاً . واستمررت محاولاً السير بهدوء ، ثم سمعت كلباً أو مايشبه الكلب فأدركت أنه إذا ماشتم رائحتي فإنه سيركض لينقض علي فتنتهي عبثاً مطاردتي كلها .

في هذه الأثناء كنت قد اكتسيت بضروب القمل والعساليج والأتربة ، داخل ثيابي وحذائي ، سافلي وعاليّ ، ثم التفت بمحض الصدفة ووجدت أن يدي قد وقعت على عنقود من البلوط السام . والشيء الوحيد الذي لم أفقهه هو لم كان هذا الشيء بلوطاً ساماً لاحية رقطاء مثلاً . فلم أكلف نفسي مؤونة تحريكها ، وبقيت واقفاً مكاني الى أن ابتعد الكلب فمضيت في طريقي .

والآن ، لم أعد أستطيع أن أتخيل مكان السيارة وعجزت عن التفكير بشيء عدا رأسي ، فجعلت أقف في المكان الواحد وأتساءل ترى هل رأيت سيارة فورد حقاً ؟ ولم يعد يهمني إن رأيتها أم لم أرها ، وكما أقول فلتضاجع ليل نهار كل شيء يرتدي سروالاً في هذه البلدة ماهمني . لن أشعر أن ثمة حقاً علي لفتاة لاتعبأ بي ولا تترفع عن ترك سيارة فورد هناك وجعلي أنفق عصر يوم كامل بينما راح ايرل آخذاً إياها الى هناك ليريها دفاتر الحساب لأن له من الفضيلة مالا يتحمله هذا العالم .

فأقول له ستسرح وتمرح في الجنة ، دون أن يكون لديك ماتتدخل به من أمور الناس ولكن الويل لك إن أنا قبضت عليك متلبسة بالجرم المشهود ، فأنا أغمض عيني تغاضياً من أجل جدتك ، ولكن ياويلك إن أنا أمسكت بك وأنت تفعلينها في هذا المكان حيث تقيم أمي . أما هؤلاء العلوج اللماعو الشعور ، فإنهم يحسبون أنهم يقيمون الجحيم ويقعدونه ، ولسوف أريهم طرفاً من الجحيم ، وأنت كذلك . إي والله سأجعله يعتقد أن ذلك الرباط الأحمر السخيف هو خيط سقاطة الجحيم ، إن كان يظن أنه يستطيع أن يجوب الأحراش مع ابنة أختي .

الشمس في عيني ودمي يتدفق فأظن كل مرة أن رأسي سيفعلها وينفجر ويفض أمره ، والعليق وأنواع الشوك تتشبث بي ، إلى أن عثرت على الخندق الرملي حيث كانا قد اختفيا وتبينت الشجرة التي كانت السيارة بقربها ، وفي اللحظة التي فيها خرجت من الخندق ورحت أركض سمعت السيارة تشغل . وانطلقت سريعة وبوقها يدق . لقد راحا يدقان البوق وكأنه يقول ياه ياه . يا أآ هه ه ه ه ه ه ه ويتعديان مدى البصر . وبلغت الطريق في اللحظة التي رأيت السيارة فيها تختفي عن العيان .

وما كدت أبلغ المكان حيث كانت السيارة حتى كانا قد اختفيا نهائياً عن العيان ، والبوق مازال يدق . فلم أعد أفكر بشيء من ذلك سوى أني رحت أقول : اسرعي . اسرعي الى البلدة اسرعي الى البيت وحاولي اقناع

أمي بأنني مارأيتك قط في تلك السيارة . حاولي أن تقنعيها بأنني لاأعرف من هو . حاولي أن تقنعيها بأنه ادعاء مني حين أقول لم يبق بيني وبين القبض عليك في ذلك الخندق أكثر من عشرة أقدام وحاولي أن تقنعيها أيضاً بأنك لم تكوني مستلقية على ظهرك .

ظل البوق يقول يا ه ه ه ه ، يا ه ه ه ، يا ه ه ه ه ، متخافتاً متنانياً . ثم انقطع ، وسمعت بقرة تخور في حظيرة راسل . ومازلت عديم التفكير بشيء . وذهبت الى الباب وفتحته ورفعت قدمي . وعندها خطر لي أن السيارة جانحة بأكثر مما يبرره ميلان الطريق ، ولكنني لم أكتشف الأمر إلى أن ركبت وشغلت السيارة .

وهكذا ، جلست في مكاني ، والوقت يقارب الغروب ، والبلدة على بعد خمسة أميال ، لم تكن لديهما الجرأة حتى لثقب الاطار بضربة ما . إنما افرغا هواءه وكفى ، فوقفت هناك برهة ، أفكر بذلك المطبخ المليء بالزنوج وما من أحد فيه يجد الوقت لتركيب إطار على المحور وشد برغيين أو ثلاثة . والمضحك في الأمر أنها لم تكن حتى هي لتختط للأمر عن بعد نظر فتخرج مضخة الهواء من مكانها عن قصد ، إلا إذا خطر لها ذلك حين راح هو يفرغ الإطار . والأغلب أن أحدهم أخرجها وأعطاها بن ليلعب بها كرشاش لأنهم لن يترددوا في فك أوصال السيارة إن هو أراد ذلك ، فتقول دلزي : لن يمس أحد سيارتك . ولماذا نعبث بها ؟ فأقول لها أنت زنجية . وما أحسن حظك ، أتعلمين ؟ ولنتبادل اللون أنا وأنت لأن الغباء لن يبلغ بامرئ حد الإنزعاج لما تفعله فتاة ساقطة إلا إذا كان أبيض اللون .

سرت إلى مسكن راسل . وكانت لديه مضخه . إهمال منهما ، ربّما . ولكنني بقيت عاجزاً عن الاعتقاد بأن لها من القحة ما يحدو بها إلى فعل ذلك . وظلت تلك الفكرة تتردد في رأسي . لست أدري لماذا أراني لا أتعلم بأن في وسع امرأة أن تفعل أي شيء ، فجعلت أفكر : لننس برهة شعوري نحوك وشعورك نحوي : ولكنني لن أستطيع الغدر بك على نحو كهذا . لن

أغدر بك على نحو كهذا مهما أسأت إليّ . فالدم دم كما أقول دائماً ولا مناص لنا منه . وليست المسألة مسألة مقلب قد يخطر في بال ولد في الثامنة من عمره ، إنها جعل خالك ، خالك أنت اضحوكة رجل يلبس رباطاً أحمر . إنهم يأتون إلى بلدتنا ويدعوننا بالفلاحين ويربؤون بأنفسهم عن المكوث فيها لصغرها عن حاجتهم . والواقع أنه لا يعرف كم هو محق وأما هي ، إن كان هذا شعورها ، فخيرٌ لها أن تمضي في سبيلها وتريحنا من مشاكلها .

أعدت مضخة راسل وعدت فسقت سيارتي إلى البلدة . ذهبت إلى الحانوت وشربت زجاجة من الكوكا كولا وتوجهت على أثرها إلى دائرة البرق . كانت البورصة قد أغلقت عند ٢١و١٢ ، هابطة بأربعين نقطة . أربعين مرة خمسة دولارات ، فاشتر شيئاً بذلك إن استطعت! وتقول ، لا بد لي منها ، لا بد لي منها ، فأقول : ياللأسف عليك بالمحاولة مع أحد غيري ، فلا نقود عندي ، لقد انشغلت بأمور أخرى عن كسبها .

نظرت إليه طويلاً .

وقلت : « لعلك لم تسمع هذا النبأ ، فتندهش : سوق القطن تهمني ، هل خطر لك هذا ببال ؟ » .

فقال : « سعيت جهدي لتسليمك البرقية . ذهبت إلى الدكان مرتين . وخابرت بيتكم ، ولكن لم يعرفوا أين ذهبت » .

قالها وهو ينبش درجه .

قلت : « أية برقية ؟ » فناولني إياها . « متى وصلت هذه ؟ » .

« حوالي الساعة الثالثة والنصف » .

« إنها الخامسة والعشر دقائق الآن » .

« حاولت تسليمها ، فلم أعثر عليك » .

فقلت : « وهل ذلك ذنبي ؟ » وفتحتها ، لكي أرى الأكذوبة التي سيلفقونها علي هذه المرة ، ساعدهم الله إن كانوا بحاجة إلى المجيء عبر

الفلوات إلى مسيسبي ليسرقوا عشرة دولارات في الشهر . «بع» تقول البرقية : «ستضطرب السوق ، ميالة إلى الهبوط . لا تفزع عند سماع تقرير الحكومة» .

فقلت : «ما تكاليف برقية كهذه ؟» فأخبرني .

وقال : «دفعوها» .

قلت : «إذن فأنا مدين لهم بها . كنت أعلم محتواها . أرسل هذه البرقية ، وحصّل من المرسل إليه ،» قلت ذلك وأخذت استمارة ، وكتبت : اشتروا . السوق على وشك الانفجار . اضطراب بين الحين والحين للتلاعب على المزيد من القرويين المغفلين الذين لم يأتوا بعد إلى دائرة البرق . لا تفزعوا» . ثم قلت : «أرسلها وحصل من المرسل إليه» .

نظر إلى الرسالة ، ثم رفع بصره إلى الساعة ، وقال : «أغلقت السوق منذ ساعة» .

فقلت : «وليس ذلك أيضاً بذنبي . فأنا لم أخترعها . أنا إنما اشتريت القليل منها حين ظننت أن شركة البرق ستبقيني على علم مستمر بما يجري» .

- «إيراد التقرير يتم حال وصوله» .

«تماماً» قلت : «وفي ممفيس يعلنونه على لوح أسود كل عشر ثوان» ثم قلت : «لقد كنت على مقربة سبعة وستين ميلاً منها بعد ظهر اليوم» .

فتأمل البرقية وقال : «أتريد إرسالها ؟»

قلت : «لم أغير رأيي بعد» ، وكتبت الأخرى وأحصيت النقود .

«وهذه أيضاً ، إن تثق من أنك تستطيع تهجئة : ب ع» .

عدت أدراجي إلى الدكان . واستطعت أن أسمع جوقة الموسيقى من أقصى الشارع . منع المسكرات شيء رائع . جاءتنا أيام كانوا يأتون فيها كل يوم سبت وليس لدى العائلة إلا زوج واحد من الأحذية يلبسه صاحبنا

القادم ، فيذهب إلى مكتب القطار السريع ويتسلم طرده ، أما الآن فإنهم يذهبون جميعاً إلى السيرك ، حفاة الأقدام ، والتجار واقفون بأبوابهم كصف من النمور في قفص من الحديد ، يرقبونهم يمرون .

قال إيرل : « أرجو أنه لم يكن أمراً خطيراً ؟ » .

فقلت : « ماذا ؟ » فنظر إلى ساعته ، ثم سار إلى الباب ونظر إلى ساعة المحكمة . فقلت : « أجدر بك أن تقتني ساعة بدولار . لكي لا تكلفك كثيراً كلما اعتقدت أنها تكذب عليك » .

فقال : « ماذا ؟ » .

- « لاشيء » . قلت . « أرجو ألا أكون قد سببت لك حرجاً » .

قال : « لم يتراكم علينا الشغل ، فقد ذهب الجميع الى السيرك . لابأس » .

قلت : « وإذا كان هناك من بأس ، فافعل مابدا لك » .

- « قلت لك لابأس » .

- سمعتك . وإذا كان هناك من بأس ، فافعل مابدا لك » .

فقال : « أتريد أن تترك العمل ؟ » .

قلت : « ليس العمل لي ، فليس لرغباتي دخل في الأمر . ولكن حذار من الاعتقاد بأنك تحميني بابقائي هنا » .

- « بوسعك أن تكون من أقدر رجال الأعمال يا جاسن ، لو سمحت لنفسك بذلك » .

- « إني على الأقل انصرف الى شؤوني الخاصة وادع الناس وشأنهم » .

- « لست أدري لماذا تحاول أن تدفعني إلى طردك من العمل . وأنت تعلم أن باستطاعتك أن تتركني في أية لحظة شئت دون أن تتعكر العلاقات بيننا » .

فقلت : « لعل ذلك هو السبب في أنني لا أترك العمل . مادمت أعنى بوظيفتي ، فذلك ما أتقاضى راتباً عنه » . وذهبت الى المؤخزة وشربت ماء

ثم خرجت الى الباب الخلفي . كان أيوب قد انتهى أخيراً من تركيب المعشبات . والمكان هادئ ، وسرعان ماخفتَ الألم في رأسي . وجعلت أسمعهم يغنون ثم شرعت الجوقة بالعزف من جديد .

طيب ، لينتزعوا كل درهم في المقاطعة ، أهو جلد يسلخونه عن ظهري ؟ لقد فعلت مابوسعي ، ومن يعش السنين التي عشتها ولا يعرف متى يكف فهو غبي ، ليس إلا ، ولاسيما أن القضية ليست من شأني . فلو كانت ابنتي أنا لاختلف الأمر ، لأنها حينئذ لن تجد من الوقت متسعاً لذلك ، لأنها ستضطر الى العمل كي تطعم عدداً من المقعدين والمعتوهين والزنوج ، ولأن الحياء سيمنعني عن المجيء بأحد إلى داري . فلي من احترام الناس ما يمتعني . إني رجل ، ولي قدرة على التحمل . فذاك لحمي ودمي وليرني لون عينه كل من يجرؤ على مس كرامة امرأة هي صديقة لي وهل يفعلها الا هؤلاء النسوة الصالحات قبحهن الله وإلا فأين المرأة الصالحة المترددة على الكنيسة التي تضاهي لورين أمانة واستقامة ، مومساً كانت أم غير مومس ، وكما أقول لو أردت الزواج لطار عقلك فلا تنكري فقالت أريد السعادة والحياة العائلية لا الكدح وإرهاق النفس من أجلنا . ولكنني راحلة عما قريب فلك عندئذ أن تتزوج على أنك لن تجد المرأة التي هي أهل لك فقلت بل سأجدها . ولكنك ستنتفضين في قبرك عندها وتنهضين منه وأنت أدرى ، لا ، شكراً ، أن لدي الآن مايكفيني من نسوة أعتني بهن ولو تزوجت لاكتشفت في الأغلب أن زوجتي نطاطة بلهاء . وهذا كل ماينقصنا في هذه الأسرة .

كانت الشمس الآن تغيب وراء الكنيسة ، والحمامات تطير يمنة ويسرة حول القبة ، وحالما توقفت الجوقة عن العزف سمعت هديلها . لم تنقضِ أربعة أشهر على عيد الميلاد ، وهذه هي قد تكاثرت وغزرت وأغلب الظن أن القس ولتهول قد بدأ الآن يضيق بها ذرعاً . فكأننا نطلق النار على الناس ، تجده يخطب ويعظ بل ويمسك ببندقية المرء حينما تطير فوقنا . فيتحدث عن السلام الذي على الأرض والمسرة التي بالناس وما من سنونوة

تسقط على الأرض . وماهمه إن تكاثرت وغزرت ، إنه لايعمل شيئاً ، ولاتهم ما الساعة . لايدفع ضريبة ولايضطر إلى رؤية نقوده تصرف كل سنة على تنظيف ساعة المحكمة لئلا تكف عن سيرها . خمسة وأربعون دولاراً دفعوها لأحدهم لكي ينظفها . وقد أحصيت أكثر من مئة حمامة نصف فاقسة على الأرض . يدهشني أنها لاتبارح البلدة . وأحمد الله أن ليس لي من الروابط أكثر مما للحمام . إي والله .

هاهي الجوقة تعزف من جديد ، لحناً عالياً سريعاً ، كأنها على وشك الانتهاء . فليطمأنوا الآن . ولعل لديهم الآن من الموسيقى مايكفي لتسليتهم وهم يعودون راكبين مسافة أربعة عشر أو خمسة عشر ميلاً إلى بيوتهم فينزعون العدة في الظلام عن دوابهم ويطعمونها ويحلبون الأبقار . وماعليهم إلا أن يصفروا الأنغام ويرووا النكات للدواب في الحظيرة ، وعندها يستطيعون أن يحسبوا مبلغ ماكسبوه بعدم اصطحاب الدواب أيضاً الى السيرك . فيحسبون إن كان للواحد منهم خمسة أولاد وسبعة بغال ، فقد كسب صافياً ربع دولار بأخذ عائلته الى السيرك . كذا بالضبط . وجاء ايرل يحمل طردين .

وقال :« هذه مواد أخرى يجب ارسالها . أين العم أيوب ؟ » .

قلت : « ذهب الى السيرك ، فيما أعتقد . إلا إذا كنت تراقبه » .

قال : « إنه لايغادر المكان خلسة . وبوسعي الاعتماد عليه » .

قلت : « إنك تقصدني بذلك » .

قال : « تلك جوقة تحسن العزف ولكن أما آن لها أن تنتهي ؟ » .

قلت : « لعلها تريد أن تقضي ليلتها هناك » . كانت عصافير السنونو قد بدأت ، وجعلت أسمعها وهي آخذة بالاحتشاد في الأشجار في فناء المحكمة . وبين الحين والحين ينطلق سرب منها ويحوم ويسف على مرأى منا فوق السطح ، ثم يبتعد . إنها في رأيي مصدر ازعاج كبير ، كالحمام . فأنت لاتستطيع حتى الجلوس في فناء المحكمة بسببها . فما تكاد تجلس

حتى تجد أنها فِشتْ! على قبعتك . ولكنها تتطلب مليونيراً يقوم بنفقات رميها بالبندقية بمعدل خمسة سنتات لكل رمية .

فلو وضعوا شيئاً من السم في ذلك الميدان ، لتخلصوا منها في يوم واحد ، فالتاجر الذي يعجز عن منع بضاعته عن الانسراح في طول الميدان وعرضه ، خير له أن يتعامل بشيء غير الدجاج ، بشيء لا يأكل كالمحاريث أو البصل . وإذا لم يبق المرء على يقظة كلابه ، فهو لا يريد تجارته أو أنه غير جدير بها . وكما أقول ، إن كانت الأعمال كلها تدار في البلدة كأنها ليست إلا أعمالاً ريفية ، فلن تكون البلدة في النهاية إلا بلدة ريفية .

- « ومالفائدة إن انتهت الجوقة ؟ » قلت : « لابد لهم من تهيئة عرباتهم والخروج بها ليبلغوا بيوتهم عند منتصف الليل ، على كل حال » .

قال : « إنهم يجدون متعة في ذلك . ولم لا ينفقون قليلاً من النقود على سيرك من هذا القبيل بين حين وآخر ؟ فالفلاح على التلال يعمل ويكدح ولا يحصل إلا على أقل من القليل » .

فقلت : « وهل هناك قانون يحتم عليه الزراعة في التلال أو في أي مكان آخر ؟ »

قال : « أين نكون أنا وأنت لولا الفلاحون ؟ » .

قلت : « أما أنا فأكون في البيت مضطجعاً وعلى رأسي كيس من ثلج » .

قال : « صداعك هذا يتكرر أكثر مما ينبغي . لماذا لاتفحص أسنانك فحصاً جيداً ؟ هل نظر فيها جيداً هذا الصباح ؟ » .

قلت : « من ؟ » .

- « قلت إنك راجعت طبيب الأسنان هذا الصباح » .

قلت : « هل تمانع في شعوري بصداع أثناء الدوام ؟ أهذ مايقلقك ؟ » جعل الناس يملأون الزقاق قادمين من حفلة السيرك .

فقال : « هاهم قادمون . فالأفضل أن أذهب الى الواجهة » .

وذهب . من الغريب ، مهما تكن علتك ، أن ينصحك الرجل بفحص

أسنانك وتنصحك المرأة بالزواج ، ولكن لايشير عليك بأفضل السبل في ادارة أعمالك إلا رجل أخفق في كل مافعل ، كهؤلاء الأساتذة الجامعيين الذين لايملكون زوجاً سليماً من الجوارب ويخبرونك كيف تجمع مليون دولار في عشر سنين . والمرأة التي عجزت حتى عن ايجاد الزوج تخبرك كيف تنشئ عائلتك .

جاء الشيخ أيوب بالعربة وبعد قليل فرغ من لف السيور حول مرتكز السوط .

فقلت : «ها ، هل كانت الحفلة جميلة ؟» .

قال : «لم أذهب بعد . ولكن إذا أراد أحد أن يقبض علي هذه الليلة وجدني في تلك الخيمة ، ما في ذلك شك» .

قلت : «لاأصدق أنك لم تذهب . لقد تغيبت منذ الساعة الثالثة والسيد ايرل جاء هنا قبل لحظات يبحث عنك» .

قال : «كنت مشغولاً بعملي والسيد ايرل يعرف أين ذهبت» .

قلت : «لك أن تخدعه . ولن أشي بك» .

فقال : «إذن فهو الرجل الوحيد الذي أحاول أن أخدعه هنا . ولماذا أضيع وقتي في خداع رجل لا يهمني إن رأيته أو لم أره مساء يوم السبت ؟ لن أحاول خداعك أنت مثلاً» .

قال : «شطارتك تقهرني إي والله» . قال ذلك وهو يتظاهر بكثرة الشغل ، واضعاً خمسة أو ستة طرود صغيرة في العربة . «شطارتك تقهرني . ليس في هذه البلدة رجل يضاهيك شطارة . وإنك لتخدع رجلاً له من الشطارة ما يعوقه حتى عن مجاراة نفسه» . قالها وصعد الى العربة وحل الرسن .

- «ومن ذلك» قلت .

قال : «ذلك هو السيد جاسن كمبسن تحرك ، يادان!»

كانت إحدى العجلات على وشك الانفلات . فتتبعته بعيني لأرى إن كان سيخرج من الزقاق قبل أن تنفلت . ما عليك إلا أن تعطي أية عربة لزنجي ،

مهما كانت . وقد قلت أن تلك الخضخاضة قذى في العين ، ولكنكم ستبقونها واقفة هناك في مأوى العربات مئة سنة أخرى لا شيء إلا ليستطيع ذلك الغلام أن يسوقها إلى المقبرة مرة كل أسبوع . وقلت إنه ليس الرجل الوحيد في هذه الدنيا الذي يتعين عليه أن يفعل شيئاً لا يرغب فيه . فلو ترك الأمر لي لأجبرته على ركوب تلك السيارة كإنسان متحضر وإلا فليمكث في البيت . ومالذي يعرفه عن أين يذهب وماذا يركب ، ونحن نبقي في البيت عربة وحصاناً لكي يتمتع بنزهته بعد الظهر من كل أحد ؟

وهل يهم أيوب إنفلتت العجلة أم لم تنفلت مادام لا يضطر إلى السير طويلاً حين يعود ؟ فكما أقول إن مكانهم الأوحد هو الحقل ، حيث يجبرون على العمل من طلوع الشمس إلى غروبها . فهم لايتحملون الرفاه أو العمل السهل . دع الواحد منهم يقيم مدة مع البيض تجد أنه لايستحق حتى القتل . إنهم يتفاصحون عليك في العمل أمام عينيك ، كرسكوس الذي كانت الغلطة الوحيدة التي ارتكبها في حياته هي أنه أهمل شأنه يوماً فمات . يتكاسلون ويسرقون وتزداد قحتهم عليك يوماً بعد يوم إلى أن تجد نفسك ذات يوم مكرهاً على إزهاق روحهم بعصا غليظة . على كل فالدكان دكان ايرل ، ولو كنت مكانه لما سمحت بأن يكون عنوان عملي في طول البلدة وعرضها زنجي رجاف هرم وعربة تخال أنها كلما انعطفت ستهوي حطاماً .

كانت أشعة الشمس الآن تمتد عالياً في الفضاء بينما جعل الظلام يشتد في الداخل . فذهبت الى الواجهة ، ووجدت أن الميدان قد أقفر ، وايرل في المؤخرة يغلق الخزنة ، ثم جعلت الساعة تدق .

وقال : «اقفل أنت الباب الخلفي» . فذهبت وأقفلته ثم عدت .

فقال : «أتصور أنك ذاهب الى حفلة السيرك الليلة . أنا أعطيتك تينك البطاقتين ، أليس كذلك ؟» .

قلت : «بلى . أتريدني أن أرجعهما إليك ؟» .

قال : « كلا ، كلا . إنما نسيت إن كنت قد أعطيتك إياهما أم لا . من السخف ألا نستفيد منهما » .

أقفل الباب وقال : « طاب مساؤك » ومضى . كانت عصافير السنونو مازالت في ضجيجها في أعالي الأشجار ، غير أن الميدان خال فيما عدا بعض السيارات . وعند مدخل الحانوت وقفت سيارة فورد ولكنني لم أنظر إليها . فأنا أعرف حدودي عندما أتخم من شيء ما . إني لا أمانع في مساعدتها ، ولكني أعرف حدودي ، يخيل إلي أن بوسعي أن أعلّم لستر سياقتها ، فيتمكنون حينئذ من ملاحقتها أن شاءوا طيلة ساعات النهار وأبقى أنا في البيت لألاعب بن .

دخلت واشتريت سيجارين . ثم قلت فلأتناول جرعة أخرى للصداع تيمناً ، ووقفت أتحدث الى الجماعة برهة .

قال ماك : « لاريب أنك تراهن على « اليانكيز »* هذه السنة » .

قلت : « ولماذا ؟ » .

قال : « للحصول على العَلَم . ليس في « الاتحاد » فريق يستطيع أن يغلبهم » .

قلت : « إنك مخطئ . لقد استنفدوا قواهم . أتحسب أن هناك فريقاً يستطيع البقاء محظوظاً الى الأبد ؟ » .

ـ أنا لا « أسمي ذلك حظاً » .

ـ « لن أراهن على فريق يلعب فيه ذلك الثقيل ، روث . حتى لو تأكدت من أنه سيكون الغالب » .

فقال ماك : « صحيح ؟ » .

قلت : « بإمكاني أن أذكر لك عشرة رجال في أي من الاتحادين أهم منه وأحسن » .

---

* الحديث هنا على مباريات « الهيبول » التي تتمتع بشعبية هائلة في الولايات المتحدة . و« اليانكيز » (الشماليون) اسم فريق من فرق « الاتحاد » . (المترجم)

ـ «ما الذي يجعلك تعادي روث ؟»

قلت : «لا شيء مطلقاً . حتى صورته لا يروق لي أن أنظر إليها» . بعد ذلك خرجت ، وقد بدأت الانوار تضاء ، وجعل الناس يطرقون السبيل إلى بيوتهم . أما عصافير السنونو فإنها أحياناً لا تهجع حتى انتشار ظلام الليل . وليلة أضاؤوا الأنوار الجديدة حول مبنى المحكمة استيقظت العصافير وراحت تحوم وتخبط الأنوار طيلة الليل . وقد فعلت ذلك ليلتين أو ثلاثاً ، وذات صباح اختفت جميعها . وبعد ذلك بشهرين عادت كلها ثانية .

عدت في سيارتي إلى البيت . والأنوار فيه لم تضأ بعد ، ولكنهم يتطلعون جميعاً من النوافذ ، ودلزي تتشكى وتلغو في المطبخ كأن الطعام الذي عليها أن تبقيه حاراً هو طعامها هي ، ولو سمعتها لظننت أن ليس في الدنيا إلا عشاء واحد ، وهو العشاء الذي اضطرت إلى إبقائه بضع دقائق من أجلي . لحسن الحظ جئت هذه المرة إلى البيت دون أن أرى بن وذلك الزنجي متعلقين بالبوابة أشبه بدب وقرد في قفص واحد . ما تكاد الشمس تشرف على الغروب حتى تراه منطلقاً نحو البوابة كبقرة نحو حظيرتها . متعلقاً بها وهو يهز برأسه ويئن لنفسه .

أرأيت من يتحرّق للعقاب ويشتهيه ؟ لو أن ما حدث له لسوء تصرفه لدى البوابات المفتوحة قد حدث لي ، لما أردت أن أرى بوابة أخرى في حياتي . وكثيراً ما أتساءل ترى ما الذي يفكّر به وهو متثبث بتلك البوابة ، يرقب البنات عائدات إلى البيت من المدرسة ، ويحاول الحصول على أمر يكاد يعجز عن أن يتذكّر أنه لا يريده ولا يملك أن يريده . وما الذي يفكّر به كلّما نزعوا عنه ثيابه نظر إلى نفسه وراح يبكي كعادته . ولكن ، كما أقول : لم يعطوه نصف ما يستحق . فأقول ، إني أعرف ما الذي تحتاجينه أنت ، إنك بحاجة إلى ما فعلوه ببن ، فتحسنين السلوك عندها . وإن كنت تجهلين ما الذي فعلوه ببن ، فاسألي دلزي تخبرك .

كانت غرفة أمي مضاءة . فأوقفت السيارة في مكانها ودخلت المطبخ . فوجدت لستر وبن .

قلت : «أين دلزي ؟ أتهيئ العشاء ؟» .

فقال لستر : «إنها فوق ، مع الست كارولاين . شجار مستمر منذ أن رجعت الآنسة كونتن إلى البيت وأمي بينهما تمنعهما عن الخصام . هل وصل ذلك السيرك يا سيد جاسن ؟» .

قلت : «نعم» .

قال : «لقد ظننت أنني سمعت الفرقة تعزف» . ثم قال : «ليتني أذهب لأراه . لو كان لدي ربع دولار فقط» . ودخلت دلزي وقالت : «هل عدت ؟ ما الذي كنت تفعله هذا المساء ؟ أنت أعلم بكثرة ما لدي من شغل ، فلم تتأخر عن الموعد ؟» .

قلت : «ربما لأنني ذهبت إلى السيرك . هل العشاء جاهز ؟» .

- «وما الذي تفعله في السيرك ؟» قالت دلزي : «ادخل المنزل واجلس مكانك . ولا تصعد إلى فوق وتبدأ المعركة من جديد» .

فقلت : «ما الأمر ؟» .

- «جاءت كونتن منذ قليل وقالت أنك رحت تلاحقها طيلة المساء فثارت عليها الست كارولاين . لم لا تتركها وشأنها ؟ ألا تستطيع أن تقيم في نفس المنزل معابنة اختك دون شجار ؟» .

قلت : «كيف أشاجرها وأنا لم أرها منذ الصباح ؟ وما الذي تدعي أنني فعلته هذه المرة ؟ إنني جعلتها تذهب إلى المدرسة ؟ شيء مؤسف حقاً» .

- «التفت إلى أمورك ودعها وشأنها ؟» قالت دلزي : «سأعنى بها إن تسمحا لي أنت والست كارولاين . فاذهب إلى الغرفة ولا تزعج أحداً إلى أن أهيئ لك العشاء» .

وقال لستر : «لو أن لدي ربعاً ، لذهبت إلى ذلك السيرك» .

فقالت دلزي : «ولو أن لديك جناحين ، لطرت إلى السماء . لا أريد أن أسمع كلمة أخرى عن ذلك السيرك» .

فقلت : «هذا يذكرني بأن لدي بطاقتين أعطوني إياهما» . وأخرجتهما من سترتي .

قال لستر : «أتريد أن تستعملهما ؟» .

قلت : «أنا ؟ من المستحيل حتى لو نقدوني عشرة دولارات فوقها» .

فقال : «أعطني إحداهما ، يا سيد جاسن» .

- «أبيعك أحداهما . ما رأيك ؟» .

- «لا نقود عندي» .

فقلت : «آسف إذن» وهممت بالخروج .

فقال : «أعطني إحداهما ، سيد جاسن . لن تحتاج كلتيهما» .

فقالت دلزي : «سد فمك . ألا تعلم أنه لن يعطي شيئاً من دون مقابل ؟» .

فقال : «كم تريد لقاء واحدة ؟» .

قلت : «خمسة سنتات» .

قال : «ليس عندي هذا المبلغ» .

قلت : «كم عندك ؟» .

قال : «ولا فلس» .

قلت : «طيب» ومضيت .

قال : «سيد جاسن» .

فقالت دلزي : «ألن تسكت ؟ إنه يثيرك عن عمد . فهو ينوي استعمال كلتا البطاقتين . تفضل يا جاسن ، واتركه وحده» .

- «أنا لا أريد أياً منهما ،» قلت ذلك وعدت إلى الموقد وقد جئت هنا لأحرقهما . إلا إذا أردت أن تشتري إحداهما بخمسة سنتات ؟» قلت : «وأنا أنظر إليه وأرفع غطاء الموقد» .

فقال : «ليس عندي هذا المبلغ» .

- «طيب ،» قلت ، واسقطت إحداهما في الموقد .

- اسمع يا جاسن» قالت دلزي . «أما تستحي ؟» .

وقال لستر : « سيد جاسن ، أرجوك ياسيدي . سأركّب لك الإطارات كل يوم لشهر كامل » .

قلت : « إني بحاجة إلى النقود . خذها بخمسة سنتات » .

ــ « هس يا لستر » قالت دلزي ودفعته إلى الخلف بعنف . وقالت : « هيا ، اسقطها ، هيا اسقطها وأنه الأمر » .

قلت : « خذها بخمسة سنتات » .

قالت دلزي : « هيا لا نقود لديه . هيا ، اسقطها » .

ـ « طيب » قلت واسقطتها في الموقد ، وأغلقته دلزي .

وقالت : « رجل كبير مثلك! اخرج من مطبخي » وقالت للستر : « هس . لا تجعل بنجي يبدأ من جديد ، سأحصل لك على ربع من فروني هذه الليلة ، فتستطيع الذهاب مساء غد هس ، لا بكاء ، أرجوك » .

ذهبت إلى غرفة الجلوس ولم أستطع أن أسمع شيئاً من الطابق العلوي ففتحت الصحيفة . وبعد برهة جاءني بن ولستر فتوجه بن نحو المكان الداكن من الحائط حيث كانت تعلّق المرآة فيما مضى ، وجعل يفرك يديه عليه ويريل ويئن . أما لستر فأخذ يضرب النار بالمحراك .

فقلت : « مالذي تفعله ؟ لسنا بحاجة الى النار هذه الليلة » .

قال : « إني أحاول تهدئته . وموسم الفصح بارد دائماً » .

قلت : « ولكننا لسنا في موسم الفصح . دعها وشأنها » .

فوضع المحراك في مكانه وأخذ الوسادة من كرسي أمي وأعطاها لبن ، فقبع أمام الموقد وهجع .

رحت أقرأ الصحيفة ، ولم أسمع صوتاً من الطابق العلوي حين دخلت دلزي علينا وأرسلت بن ولستر الى المطبخ وقالت إن العشاء مهيأ .

قلت : « حسناً » . فخرجت دلزي ، في حين بقيت مكاني أقرأ الجريدة . وبعد قليل سمعت دلزي تطل من الباب وتقول : « لماذا لا تأتي وتأكل ؟ » .

قلت : « إني في انتظار العشاء » .
قالت : « إنه على المائدة . ألم أقل لك ذلك ؟ » .
قلت : « صحيح ؟ العفو . ولكنني لم أسمع أحداً نازلاً من فوق » .
قالت : « لن تنزلا . فتعال وكل ؟ لكي أتمكن من أخذ شيء من الطعام لهما » .
قلت : « هل هما مريضتان ؟ ما الذي قاله الطبيب . أجدري ، لاسمح الله ؟ » .
قالت : « هيا ياجاسن ، لكي انتهي » .
ـ « طيب » ، قلت وأنا أرفع الصحيفة من جديد . « إني في انتظار العشاء الآن » .
وجعلت أشعر بها وهي ترقبني من الباب ، وأنا أستمر في مطالعة الصحيفة .
وقالت : « ولم هذه الأسئلة ، وأنت أعلم بمنغصاتي على كل حال ؟ » .
فقلت : « إن كانت أمي أشد مرضاً مما كانت عليه عندما نزلت للغداء ، فلابأس . ولكن مادمت أشتري الطعام لمن هم أصغر مني سناً فعليهم أن ينزلوا الى المائدة ويأكلوه . أخبريني حين يتهيأ العشاء » . قلت ذلك ، وعدت الى الجريدة وسمعتها تصعد الدرج ، تجرجر قدميها وتشخر وتئن كأنهما منتصبتان الى الأعلى ومنفرجتان متراً الواحدة عن الأخرى . وسمعتها على باب أمي ، ثم سمعتها تنادي كونتن ، كأن الباب مقفول ، ثم عادت الى غرفة أمي فخرجت أمي لتخاطب كونتن . وبعد ذلك نزلن الدرج . وأنا أطالع الصحيفة » .
عادت دلزي الى الباب وقالت : « هيا ، لأنك تستطيع أن تبتكر شيطانيات جديدة . وأنت مصمم عليها هذه الليلة .
فذهبت الى غرفة الطعام ووجدت كونتن جالسة مطأطئة الرأس ، وقد صبغت وجهها مرة أخرى وبدا أنفها كعازل من الخزف الصيني قلت لأمي : « يسعدني أن صحتك ساعدتك على النزول » .

فقالت : «نزولي الى المائدة أقل ما ينبغي علي فعله من أجلك مهما كانت صحتي . وأنا أعرف أن الرجل الذي يشتغل طوال نهاره يود أن يرى نفسه محاطاً بعائلته حول مائدة العشاء . إني أريد أن أرضيك . ولكن لشد ما أتمنى لو أنك وكونتن تنسجمان . إذن لهانت الأمور علي» .

قلت : «إننا في أجمل انسجام . وأنا لاأعارض في بقائها في غرفتها المقفولة طيلة النهار إن شاءت . ولكنني لاأتحمل كل هذا الحرد والغضب في مواعيد الطعام . أعرف أن مطلبي هذا منها عسير ، ولكن هذه طريقتي في بيتي . أعني في بيتك» .

قالت أمي : «إنه بيتك ، فأنت ربه الآن» .

لم ترفع كونتن رأسها . أما أنا فأدرت الطعام في الأطباق ، فجعلت تأكل .

فقلت : «هل حصلت على قطعة لحم جيدة ؟ إن لم تحصلي ، سأحاول أن أجد لك قطعة أفضل» .

قلت : «سألتك هل حصلت على قطعة لحم جيدة ؟» .

قالت : «ماذا ؟ نعم لابأس بها» .

قلت : «أتريدين مزيداً من الأرز ؟» .

قالت : «كلا» .

قلت : «لا ، اسمحي لي بأن أعطيك قليلاً منه بعد» .

قالت : «لاأريد مزيداً» .

قلت : «لاشكر على واجب» .

فقالت أمي : «هل زال صداعك ؟» .

قلت : «صداعي ؟» .

قالت : «خشيت عليك من الصداع عندما جئت الى البيت بعد الظهر» .

قلت : «آ ، لا ، لم يصبني أي صداع . انشغلنا بعد الظهر فنسيت أمره» .

ـ «وهل هذا هو السبب في تأخرك اليوم ؟» قالت أمي : فرأيت أن

كونتن تصيخ بسمعها . فنظرت اليها والشوكة والسكين مازالتا في يدها ، غير أنني لقفتها وهي ترميني بنظرة ، ثم عادت وركزت عينيها في طبقها فقلت :« كلا . إنما أعرت سيارتي لأحدهم حوالي الساعة الثامنة واضطررت الى الانتظار إلى أن عاد بها » .

وانصرفت الى الأكل برهة .

قالت أمي : « من كان ذلك ؟ » .

قلت : « أحد هؤلاء العاملين في السيرك ، يبدو أن زوج أخته خرج في سيارة بصحبة إحدى نساء البلدة فراح يطارده » .

لم تأت كونتن بحركة ، وهي تمضغ ،

قالت أمي : « يجب أن لا تعير سيارتك لمثل هؤلاء الناس ، إنك تبالغ بالتكرم بها . ولهذا تراني لا أطلبها منك إن استطعت » .

فقلت : « هذا ما شعرت به أنا أيضاً عندما تأخر ولكنه عاد أخيراً . وقال إنه وجد ماكان يبتغيه » .

قالت أمي : « ومن كانت المرأة ؟ » .

قلت : « سأخبرك فيما بعد ، لاأود الخوض في مثل هذه المواضيع أمام كونتن » .

كانت كونتن قد توقفت عن الأكل ، وجعلت بين الحين والآخر تجرع جرعة من الماء ، جالسة في مكانها تفتت قطع من البسكوت ووجهها منكفئ على طبقها » .

فقالت أمي : « أجل لاشك أن النساء اللواتي يبقين مثلي محتجبات في بيتهن لايعرفن شيئاً مما يجري في هذه البلدة » .

قلت : « بالضبط » .

قالت أمي : « ما أشد ما تختلف حياتي عن كل ذلك ، وإني لأحمد الله على أنني لا أعرف شيئاً عن مثل هذه الشرور والموبقات . ولا أريد أن أعرف ، إني لست كمعظم الناس » .

لم أضف الى ماقلت شيئاً . أما كونتن فقد ظلت قابعة في مكانها تفتت قطعة البسكوت الى أن فرغت من الأكل ، ثم قالت دون أن تنظر الى أحد : « أأذهب الآن » .

فقلت : « ماذا ؟ لاشك . هل كنت في انتظارنا ؟ » .

فنظرت الي ، وقد فتت قطعة البسكوت كلها ، ولكن يديها في حركة مستمرة كأنهما مازالتا تفتتان ، وبدت عيناها كأنهما في مأزق ، ثم بدأت تعض شفتها كأنها ستسممها بما عليها من رصاص أحمر .

وقالت : « جدتي ، جدتي » .

فقالت : « أتريدين شيئاً آخر تأكلينه ؟ » .

قالت : لماذا يعاملني على هذا النحو ، يا جدتي ؟ وأنا ما أسأت إليه قط » .

قالت أمي : « أريد من كليكما أن تنسجما معاً ، لم يبق غيركما الآن ، وأريد منكما انسجاماً أكثر » .

قالت كونتن " : « الذنب ذنبه . إنه لا يدعني وشأني ، كما يجب . فإذا كان لا يريدني هنا ، فلِمَ لا يسمح لي بالعودة إلى ـ » .

قلت : « كفى! ولا كلمة أخرى! » .

قالت : « إذن لم لا يدعني وشأني ؟ إنه ـ إنه ـ » .

قالت أمي : « إنه لك أقرب ما يكون إلى الأب ، خبزه نأكل أنا وأنت . فمن حقه أن يتوقع الطاعة منك » .

قالت : « الذنب ذنبه » وطفرت من مقعدها . « إنه يدفعني إلى العصيان فلو أنه ـ وألقت علينا نظره ، وعيناها في مأزق وهي تنفض ذراعيها نفضاً على جنبيها .

فقلت : « لو أنّي ماذا ؟ » .

قالت : « مهما فعلت فالذنب ذنبه إن كنت فاسدة . فما ذلك إلا لأنني اضطررت إلى الفساد أنت الذي دفعتني إليه . ليتني أموت . ليتنا نموت

جميعاً » . ثم ركضت وسمعناها تصعد الدرج ركضاً ، ثم سمعنا باباً يصفق .

فقلت : « ذلك أول كلام معقول تنطق به في حياتها » .

قالت أمي : « لم تذهب إلى المدرسة اليوم ؟ » .

قلت : « كيف عرفتِ ؟ هل نزلت إلى البلدة ؟ » .

ـ « إني أعلم ، وكفى . ليتك كنت أكثر لطفاً معها » .

ـ « لو كنت كذلك لكان علي أن أرتب أمر رؤيتها أكثر من مرة في اليوم . وعليك أن تحضريها إلى المائدة عند كل وجبة . وعندها أتمكن من إعطائها قطعة لحم إضافية مع كل أكلة » .

ـ ثمة أشياء صغيرة بوسعك أن تفعلها » .

« كأن أغض النظر عندما تطلبين إلى أن أتأكد من ذهابها إلى المدرسة مثلاً ؟ » .

فقالت أمي : « لم تذهب إلى المدرسة اليوم . إني أعلم ذلك ، وهي تقول أنها خرجت في السيارة مع أحد الشباب بعد ظهر اليوم فلحقت بها » .

قلت : « وكيف استطعت ذلك ، وسيارتي معارة لشخص آخر ؟ وسواء أذهبت إلى المدرسة أم لم تذهب ، فقد انقضى الأمر ، فإذا كان لا بد لك من القلق بهذا الصدد ، فوفري على نفسك القلق حتى يوم الاثنين القادم » .

قالت : « أردتكما أن تنسجما ولكنها ورثت خصال العناد كلها . وخصال كونتن أيضاً . وقد تساءلت في حينه عن الحكمة في تسميتها بذلك الاسم بعد أن ورثت ما ورثت عن أمها . وأني لأعتقد أحياناً أنها حكم كادي وكونتن عليّ » .

وقلت : « الله! ما أروع تفكيرك . لا عجب أنك أمرضت نفسك هذه السنين كلها » .

فقالت : « ماذا ؟ لا أفهم » .

قلت : « هذا ما أرجوه ، هناك الكثير مما يغيب عن المرأة الفاضلة ، وغياب ذلك عنها خير لها » .

قالت : «كذلك كان كلاهما . وكلما حاولت تقويمهما تضامنا مع أبيك ضدي ، وكان هو يردد دائماً أنهما في غنى عن السيطرة ، وأنهما يعرفان معنى النقاوة والآمانة . وهما كل ما يأمل الإنسان في أن يلقنه ، فأرجو أن يكون الآن راضياً عن كل ما حدث .

فقلت : «لديك بن تعتمدين عليه ، فأبشري» .

قالت : «لقد أخرجوني عن عمد وقصدٍ خارج نطاق حياتهم . وفي كل شيء كان كونتن وكادي هما الأهم . فكانوا في تآمر دائم عليّ وعليك أنت ، وإن كنت ايامئذ اصغر من ان تدرك ذلك . فكانوا يعتبروننا انا وانت غرباء عنهم ، وكذلك خالك موري . ولطالما قلت لأبيك أنه من الخطأ ان يسمح لها بتلك الحرية الزائدة ، وبالبقاء معاً أكثر مما ينبغي . فلما بدأ كونتن بالذهاب الى المدرسة اضطررنا الى ارسالها في السنة التالية هي أيضاً ، لتكون معه . ولم تطق يوماً ان ترى احدكم يفعل شيئاً تعجز عنه . غروراً منها ، غروراً وكبرياء زائفة ، وبعد ذلك ، حين بدأت مشكلاتها ادركتُ ان كونتن سيشعر ان عليه ان يأتي بسوء يضاهي سوءها . ولكنني ماكنت لاعتقد انه سيكون من الأنانية بحيث ـ لم يخطر ببالي انه ـ» .

فقلت : «لعله عرف ان الوليد سيكون بنتاً ، وان ثالثة من ضربهما ستكون أكثر مما يطيق تحمّله» .

قالت : «كان بإمكانه ان يسيطر عليها لو بقي حياً . فقد كان يبدو انه الشخص الوحيد الذي تكنّ له كادي اي اعتبار . ولكن من يدري ، لعل ذلك ايضاً جزء من الحكم عليّ» .

فقلت : «نعم . من المؤسف جداً انني لم أمت انا بدلاً منه» .

قالت : «تقول هذا لتؤلمني . ولكنني أستحق ذلك . حين شرعوا في بيع الأرض لكي نرسل كونتن الى هارفرد قلت لأبيك انه يجب ان يضمن لمستقبلك ما يضمنه لأخيك . وبعد ذلك عندما عرض عليّ هربرت ان يعينك في المصرف قلت ، لقدْ ضمنا مستقبلاً لجاسن ، فلما جعلت النفقات تتراكم

وأكرهت على بيع أثاثنا وما تبقى من المرعى ، كتبت إليها رسالة في الحال لأنني قلت إنها ستدرك انها هي وكونتن قد نالا سهمهما بل وجزءاً من سهم جاسن ، فخليق بها الآن ان تعوّض عليه . وظننت انها ستفعل ذلك احتراماً لابيها ، وكنت مطمئنة لذلك في حينها . ولكن ما أنا الا عجوز مسكينة ، رُبيتُ على الاعتقاد بان الناس يحرمون انفسهم من اجل من هم لحمهم ودمهم . والذنب ذنبي . وقد كنت محقاً في لومك اياي » .

ـ « أتحسبين انني بحاجة الى معونة من احد لأقف على قدميَ ناهيك عن امرأة لا تستطيع ان تقول من هو أبو طفلتها ؟ » .

فقالت : « جاسن » .

قلت : « لا بأس . لم أقصد ذلك . طبعاً لا » .

ـ « امكن ذلك ، بعد كل ما قاسيت » .

ـ طبعاً لا . لم أقصد ذلك » .

ـ « أرجو ان تعفيني من مثل هذا القول على الأقل » .

قلت : « بالتأكيد ، انها شديدة الشبه بهما ، ولن تشك في ذلك » .

ـ « لن أستطيع تحمل هذا » .

ـ « اذن كفاك تفكيراً به . هل أزعجتك مرة اخرى بشأن الخروج ليلاً ؟ » .

ـ « كلا . فقد اقنعتها بأن ذلك لصالحها وانها يوماً ما ستشكرني عليه . وهي تأخذ كتبها معها وتنكبّ على الدراسة بعد ان اقفل الباب . وأرى نورها مضاءً حتى الحادية عشرة احياناً » .

فقلت : « وكيف تعرفين انها منكبة على الدراسة ؟ » .

قالت : « وماذا تفعل غير ذلك وهي هناك وحدها ؟ هي في السابق ماكانت تطالع قط » .

قلت : « لن تعرفي . واشكري ربك لأنك لن تعرفي » . وما نفع القول الصريح في ذلك ؟ لن تكون النتيجة الا بكاءها عليَ من جديد .

سمعتها تصعد الدرج . ثم نادت كونتن ، فقالت كونتن : ماذا ؟ من خلال الباب . فقالت امي : «تصبحين على خير» . ثم سمعت المفتاح يدار في القفل ، وعادت امي الى غرفتها .

عندما انتهيت من تدخين سيجاري وصعدت ، كان النور مايزال مضاءً . ورأيت ثقب المفتاح خالياً ، ولكن لم أسمع اي صوت . كانت تدرس في صمت . لعلها تعلمت ذلك في المدرسة . فقلت لأمي «تصبحين على خير» ومضيت الى غرفتي وأخرجت الصندوق وأحصيت ما فيه ثانية . وكنت أسمع «الخصي الامريكيَ الأعظم»[1] يشخر كآلة النجارة . وقد قرأت في مكان ما انهم يفعلون ذلك بالرجال لكي تصبح اصواتهم كأصوات النساء . ولكن لعله لم يدر ما الذي قد فعلوه به . ولا أظن انه كان يدري ما الذي يحاول ان يفعله ، ولا السبب في ان السيد برجس ضربه على رأسه باحدى خشبات السياج فأغمي عليه . ولو انهم ارسلوه الى جاكسن وهو تحت مفعول الأثير ، لما عرف الفرق . ولكن أمراً كذاك اسهل من ان يخطر ببال احد من آل كمبسن . لا تعقيد فيه وهم يعشقون التعقيد . راحوا يتريثون الامر الى ان انطلق وحاول ان يطأ فتاة صغيرة في الشارع على مرأى من أبيها . اي واللّه ، لقد أبطؤوا في الشروع بالبتر ، واستعجلوا الكفَ عنه . وانا اعرف على الاقل رجلين بحاجة الى الخصي مثله ، وأحدهما لا يبعد عن هنا بأكثر من ميل واحد . ولكن ، لا اظن ان خيراً يرجى حتى من ذلك . وكما أقول ، عاهرة يوماً عاهرة كل يوم . وكل ما اريده هو اربع وعشرون ساعة لا يشير فيها عليَ اي يهودي لعين من نيويورك بكيفية تصرف السوق . انا لا اريد صيداً سميناً ، فليوفروا ذلك للضحك على ذقون المغامرين الشاطرين . لا اريد الآ فرصة عادلة لاسترجاع نقودي . وحالما احقق ذلك فليأتوا بكل بغايا شارع بيل وكل مجاذيب الدنيا الى هذا البيت ولينم اثنان منهم في فراشي وليحتل واحد منهم مكاني ايضاً على المائدة .

---

* يقصد بنجي . (المترجم) .

نيسان

٨

١٩٢٨

طلع الفجر قاحلاً قارس البرد ، جداراً متحركاً من الضياء الأشهب قادماً من الشمال الشرقي ، وقد بدا ، عوضاً عن الذوبان رطوبةً انه يتفتت ذرات دقيقةً سامةً كالغبار ، فلما فتحت دلزي باب الكوخ وخرجت ، وَخَز بشرتها وربأ ، مستعجلاً تكاثف مادة ليست رطوبة بقدر ما هي شيء يماثل الزيت الرقيق الذي قَصُر عن التخثر . كانت تلبس قبعة من القش الأسود الصلب جثمت على لفافة رأسها ، وعباءة مخملية عنّابية اللون حفافيها من فرو ممروض مجهول الهوية فوق فستان من الحرير الارجواني ، ووقفت بالباب برهةً من الزمن وقد رفعت الي الريح وجهها الهضيم الغضين ويداً ضامرة حشفاء كبطن السمكة ، ثم دفعت العباءة جانباً وتفحصت صدر فستانها .

كان فستانها يسقط ضامراً من على كتفيها ، عبر نهديها المتهدلين ، ثم يشتد على كرشها ويسقط ثانية منفتحاً بعض الشيء فوق ثيابها الداخلية التي ستبدأ تنضوها عنها طبقة طبقةً مع تماثل الربيع والايام الدافئة ، وكلها من ألوان مبهرجة محتضرة . كانت امرأة ضخمة فيما مضى ولكن هيكلها الآن ينتصب ، يكسوها إهاب واسع غير محشو يشتد ثانية عند بطن يشارف على الحَبَن ، كأن العضل ولفائف اللحم كانت يوماً ما شجاعة او جَلَداً أتت عليه الايام والسنون فلم يبقَ الا الهيكل العظمي الذي لا يقهر منتصباً كالخرائب او

بعض المعالم فوق الاحشاء الوسنانة الصَماء ، ويعلو جميع ذلك وجه متداع يوحي للرائي بأن عظامه خارج اللحم ، يرتفع ازاء النهار الهتون بتعبير في القسمات قدري يماثل في الوقت نفسه خيبة الطفل ودهشته ، الى ان استدارت ودخلت البيت ثانية وأغلقت الباب .

كانت الأرض بجوار الباب جرداء ، تكسوها قشرة من القِدَم كأنما خلفتها بواطن الاقدام العارية لأجيال خلت ، أشبه بالفضة القديمة او جدران المنازل المكسيكية التي لُبخت باليد ، وقرب البيت شمخت ثلاثُ من أشجار التوت تظلّله ايام الصيف ، واوراقها التي هي الآن كالزغب ستنمو فيما بعد لتصبح عريضة وادعة كالأكفّ وتنساب مستوية الموج على الهواء الهَطِل . وقد جاء زُريقان من مكان ما وحوّما في مهب الريح كمِزقٍ من القماش او الورق المزوّق ، واستقرّا في الشجر ، حيث راحا يتأرجحان في ضجيج من الرفع والخفض ، ويزعقان في الريح التي تمزّق منهما الصرخات دفعاً وثنائياً ، كمِزَقٍ من الورق او القماش ، على التوالي . ثم انضم اليهما ثلاثة أخرى من عصافير الزريق وراحت كلها تتأرجح وتعلوا وتحط فترة في مهصور الأغصان ، وهي تزعق . وانفتح باب الكوخ وبرزت دلزي ثانية ، مرتديةً هذه المرة قبعةَ لبادٍ من قبعات الرجال ومعطفاً من معاطف الجيش ، يتساقط من تحت اطرافه المهترئة فستانها الأزرق الرخيص في فضفضة غير متساوقة منساباً حولها وهي تعبر فناء الدار وتصعد الدرج الى باب المطبخ .

وبعد لحظات خرجت ، تحمل هذه المرة مظلة مفتوحة ، دفعت بها مائلة قُدُماً تطعن الريح ، وذهبت الى كومة الحطب وانزلت عنها المظلة وهي لما تزال مفتوحة . وسرعان ما مدت يدها اليها وأوقفتها وتشبثت بها برهة ، وهي تتلفت حولها . ثم اغلقتها ووضعتها على الأرض وكوّمت الحطب على ذراعها المعقوفة لصق صدرها ، والتقطت المظلة وفتحتها أخيراً وعادت الى الدرج وأمسكت بالحطب في توازن قلق بينما سعت في اغلاق المظلة الى أن اغلقتها واسندتها في الزاوية التي خلف الباب ، والقت بالحطب في صندوق

وراء الموقد . ثم نزعت المعطف والقبعة وتناولت وزرة ملوثة من على الحائط ولبستها وأشعلت النار في الموقد . وفيما راحت تفعل ذلك ، تضرب قضبان الأثافيّ وتطقطق على الغطاء ، جعلت المسز كمبسن تناديها من أعلى الدرج .

كانت ترتدي «روباً» من الساتان المضرّب ، وقد أمسكت بياقته تحت ذقنها ، وفي يدها الأخرى قربة ماء حار من المطاط الأحمر ، ووقفت في اعلى الدرج الخلفي تنادي «دلزي» على فترات نظيمة رتيبة النبرة ، مرسلة نداءها نزولاً على السلّم الهاجع المنحدر إلى الظلام ، المنفتح ثانية حيث يقع عليه قبس من نافذة شهباء . وراحت تنادي «دلزي» ، دونما توكيد او عجلة او اضطراب نبرةٍ ، كأنها لا تصيخ بسمعها لجواب أبداً . «دلزي» .

فأجابتها دلزي : وكفّت عن طقطقة الموقد ، ولكن قبل أن تنتهي من عبور المطبخ نادتها المسز كمبسن مرة أخرى ، وقبل أن تعبر غرفة الطعام وتبرز رأسها في وسط رشقة النور الشهباء من النافذة ، نادتها مرة أخرى .

قالت دلزي : «طيّب ، طيّب ، إني هنا . سأملأها حالما اسخن شيئاً من الماء» . وجمعت أطراف ثوبها وارتقت الدرج . مغطّية النور الأشهب كله . «ضعيها هناك وعودي الى فراشك» .

قالت المسز كمبسن : «لم أقدر ان أفهم ما الأمر . فقد بقيت يقظة في فراشي لساعة على الأقل دون ان أسمع أي حسٍ من المطبخ» .

قالت دلزي : «ضعيها عنك هناك وعودي الى فراشك» ، وهي تكد بألمٍ في صعودها الدرج ، لاهثة ، عديمة الشكل . «سترتفع النارفي دقيقة ، ويسخن الماء بعد ذلك بدقيقتين» .

قالت المسز كمبسن : «ساعة على الاقل مرت عليَ وانا يقظة في فراشي ، فقلت لعلك تنتظرين مني أنا ان انزل واشعل النار» .

بلغت دلزي اعلى الدرج وتناولت قربة الماء ، وقالت : «سأملأها في دقيقة . ظلّ لستر نائماً هذا الصباح على غير عادته ، لأنه بقي حتى منتصف

الليل في ذلك السيرك . سأشعل النار بنفسي . فعودي ، لئلا توقظي الآخرين قبل أن أتهيّأ » .

قالت المسز كمبسن : « كلما أذنتِ للَستر بأمور تتدخل بعمله ، كان عليك انتِ ان تتحملي العواقب ، ولن يروق ذلك لجاسن ان هو سمع به . وانت تعرفين ذلك» .

فقالت دلزي : «وهل ذهب الى السيرك بنقود جاسن ؟ لا والّله ، ما ذهب بنقود جاسن» . واخذت تنزل الدرج ، وعادت المسز كمبسن الى غرفتها . وفيما هي تدخل بين طيات فراشها ثانية بقيت تسمع دلزي وهي تهبط الدرج بذلك البطء الهائل الأليم الذي يبعث السامع على الجنون لولا انه انقطع بعد قليل على اثر الصفق المتلاشي من باب غرفة المؤن .

دخلتْ المطبخ واحسنت وقد النار وبدأت تهيئ الفطور . وفي وسط ذلك توقفت قليلاً وذهبت الى النافذة وتطلعت منها الى كوخها ، ثم عادت الى الباب وفتحته وصاحت بين ثنايا الريح العاصفة...

«لستر! » ووقفت تتسمع ، مشيحة بوجهها عن الريح . «انت ، يالستر! » وتسمعت ، واوشكت ان تصيح من جديد غير ان لستر ظهر قادماً من حول المطبخ .

وقال : « سيدتي ؟ » ببراءة ، بمزيد من البراءة جعل دلزي تتأمله لحظة بلا حراك منها وقد تملكها شيء اكثر من الدهشة المجردة .

وقالت : «أين كنت ؟ » .

قال : «هنا . في السرداب» .

- « وماذا كنت تفعل في السرداب ؟ لا تظل واقفاً هناك في المطر يا غبي » .

- «لم أكن افعل شيئاً » . وصعد الدرج .

- « إياك ان تدخل هذا الباب دون كومة من الحطب بين ذراعيك . أترى كيف انني احضرت حطبك واشعلت نارك ؟ ألم اقل لك ليلة البارحة ألاّ تترك هذا المكان قبل ان تملأ صندوق الحطب الى حافته ؟ » .

فقال لستر : «ولكنني ملأته» .

ـ «أين هو اذن ؟» .

ـ «لا أدري . لم أمسّه أنا» .

ـ «حسناً اذن ، املأه الآن . ثم اصعد واعتنِ ببنجي» .

ثم أغلقت الباب . وذهب لستر الى كومة الحطب . وراحت طيور الزُّريق الخمسة تحوم حول المنزل وهي تزعق ثم عادت الى اشجار التوت ، ولستر يرقبها . والتقط حجراً ورماها به قائلاً : «هووو... عودي الى الجحيم ، مقرّك اللعين! ليس اليوم الاثنين ، بعد» .

حمّل نفسه تلاً من الحطب حتى ماعاد يستطيع الرؤية من فوقه ، وراح يترنح في مشيته الى الدرج ، وصعدهُ ، وخبط الباب كالأعشى موقعاً بعض الاخشاب ، ففتحت دلزي الباب له وعبر المطبخ مترنحاً بحمله وصاحت به دلزي : «انت يا لستر ؟» غير انه كان قد قذف بالحطب في الصندوق بخبطة مدوية . وقال «هه!» .

قالت دلزي : «أتحاول ان توقظ كل من في البيت ؟» وصفعته على قفاه . «هيا اصعد الى فوق وألبس بنجي ثيابه» .

فقال : «نعم يا سيدتي» . واتجه نحو الباب .

قالت دلزي : «الى اين ؟» .

ـ «فكرتُ ان الافضل ان أخرج وأدور حول البيت وأدخل من الباب الأمامي ، لكي لا أوقظ السيدة كارولاين والآخرين» .

ـ «اصعد من ذلك الدرج الخلفي كما قلت لك ، وألبس بنجي ثيابه . هيا ، اذهب» .

ـ قال لستر : «أمرك!» ورجع وغادر المكان عن طريق باب غرفة الطعام . بعد قليل كف الباب عن الصفق . واخذت دلزي تتهيأ لصنع بعض الفطائر . واذ راحت تدير المنخل على رسلها فوق خشبة الخبز ، طفقت تغني ، لنفسها بادئ الأمر ، شيئاً بغير كلمات او نغم معين ، حزيناً مفعماً

بالترداد والرثاء والشجن ، وهي تنخّل همياً ونيداً من الطحين على خشبة الخبز . وكان الموقد قد بدأ يدفئ الغرفة ويملؤها بهمهمات النار الآسية ، واذا بصوتها يرتفع بالغناء كأنما الدفء المتزايد قد اذاب جموده ، وعند ذلك صاحت المسز كمبسن باسمها ثانية من داخل المنزل . فرفعت دلزي وجهها كأن عينيها تخترقان الجدران والسقف لتبصرا بالعجوز وقد تدثرت بروبها المضرّب عند أعلى الدرج ، وهي تناديها برتابة آلية .

فقالت دلزي : « يا إلهي » . ووضعت عنها المنخل ورفعت حاشية وزرتها لتمسح بها يديها وامسكت بالقربة من على الكرسي حيث كانت قد وضعتها وجمعت وزرتها على مقبض الابريق الذي جعل ينفث القليل من البخار ، وصاحت قائلة : « دقيقة! لم يسخن الماء الا هذه اللحظة! » .

ولكن ما تريده المسز كمبسن ليس قربة الماء ، فذهبت دلزي الى أسفل الدرج ممسكة بالقربة كمن يمسك بدجاجة ميتة ونظرت الى الأعلى .

وقالت : « أليس لستر فوق ، معه ؟ » .

- « لم يدخل لستر الى البيت . كنت في فراشي أصغي متوقعة مجيئه . كنت أعرف انه سيتأخر ، ولكنني رجوت الايتأخر اكثر مما ينبغي ، لكي يمنع بنجامين من اقلاق راحة جاسن في اليوم الوحيد الذي يتاح له ان ينام فيه في الصباح » .

قالت دلزي : « لست أدري كيف تتوقعين ان ينام احد ، وانت واقفة في البهو تصرخين على الناس من اول طلوع الفجر » . وبدأت تصعد الدرج في لأي ومشقة . « لقد أرسلت ذلك الولد الى فوق منذ نصف ساعة » .

وجعلت المسز كمبسن ترقبها وهي تمسك بياقة روبها تحت ذقنها ، وقالت : « ما الذي تريدين ان تفعليه ؟ » .

- « أريد ان ألبس بنجي وانزله الى المطبخ ، فلا يوقظ جاسن وكونتن » .

- « ألم تبدأي بتهيئة الفطور ؟ » .

- « سأعنى بذلك أيضاً . فخير لك ان تعودي الى فراشك الى أن يوقد لستر لك النار . إنه صباح بارد » .

فقالت المسز كمبسن : « أعرف . قدماي كالثلج . وقد استيقظت على بردهما » . وبقيت ترقب دلزي تصعد الدرج ، واستغرقها ذلك طويلاً . « أنت أدرى بعصبية جاسن عندما يتأخر الفطور » .

قالت دلزي : « لا أقدر ان افعل اكثر من شيء واحد في الوقت الواحد ، فاذهبي الى فراشك ، لأنني ارى انك مسؤولية أخرى القيت على عاتقي هذا الصباح » .

- « ان كنت ستنصرفين عن كل شيء لتلبسي بنجي ثيابه ، فالأفضل ان انزل وأهيئ الفطور . فانت تعرفين كما أعرف أنا كيف يتصرف جاسن اذا تأخر الفطور » .

« أخبريني » . قالت دلزي : « ومن سيأكل ما تخربطين ؟ هيّا » ، قالتها وهي تكدح في صعودها . والمسز كمبسن ترقبها وهي ترتقي الدرج ، مسندة نفسها على الحائط بيد ، ورافعة أطراف فستانها بالاخرى .

وقالت : « اتريدين ايقاظه لمجرد إلباسه ثيابه ؟ » .

فتوقفت دلزي ، ومكثت مكانها وقد رفعت قدماً الى الدرجة التالية ، ويدها على الحائط ورشقة النور الشهباء من النافذة وراءها ، ووقفت لا حراك ولا شكل .

وقالت ألم يستيقظ اذن ؟

- « لم يكن استيقظ عندما أطللت من الباب . ولكن موعده قد فات . فليس من عادته ابداً ان ينام الى ما بعد السابعة والنصف . وأنت تعرفين ذلك » .

لم تقل دلزي شيئاً ، ولم تأت بحركة أخرى ، غير ان المسز كمبسن أدركت ، وإن لم تستطع رؤيتها ، إلا شكلاً مكوراً لا عمق له ، أنها خفضت وجهها بعض الشيء ووقفت أشبه ببقرة في المطر . وقد أمسكت بقربة الماء الفارغة من عنقها .

قالت المسز كمبسن : «لم يفرض عليك أنت ان تتحملي كل هذا ، فالمسؤولية ليست مسؤوليتك . بامكانك ان ترحلي إن شئت . فلست انت التي عليك ان تتحملي العبء الثقيل يوماً بعد يوم . ولا أنت بمدينة بشيء لهم ، او لذكرى المرحوم زوجي . وأنا أعلم انك ما عطفت يوماً على جاسن ، ولم تحاولي قط ان تخفي ذلك عني » .

لم تقل دلزي شيئاً . استدارت ببطء ونزلت الدرج ، هابطة بجسمها من درجة الى درجة ، كما يفعل الطفل ، ويدها على الحائط . وقالت : «اذهبي واتركيه وشأنه . ولا تدخلي عليه ثانية . حالما أجد لستر سأرسله الى فوق . فاتركيه» .

ولما عادت الى المطبخ ، تأملت الموقد ، ثم نزعت وزرتها وارتدت المعطف وفتحت الباب الخارجي وارسلت بصرها في أرجاء الفناء . جعل المطر يضرب جسدها ، دقيقاً عاتياً ، ولكن المشهد فيما عدا ذلك كان قفراً من كل ما يتحرك . فنزلت الدرج بما يشبه الحذر كأنها تبغي الحفاظ على الصمت ، وانعطفت حول المطبخ . وفي الحال برز لستر بسرعة وبراءة من باب السرداب .

فوقفت دلزي وقالت : «ماذا تفعل ؟» .

فقال لستر : «لا شيء . فقد طلب إليّ السيد جاسن أن أجد من اين يخرَ الماء في السرداب» .

- «ومتى طلب إليك ذلك ؟ يوم رأس السنة الأخير ، أليس كذلك ؟» .

- قال لستر : «خطر لي أن القي نظرة وهم بعد نيام ، » وتقدمت دلزي من باب السرداب ، فوقف جانباً فيما راحت تتأمل في العتمة الفواحة برطوبة الأرض والعفن والمطاط .

وقالت : «هه» . ونظرت الى لستر ثانية . فقابل تحديقها بعينين ملؤهما الدعة والبراءة والصراحة . «لست ادري ما الذي أنت فيه ، ولكن عليك ان تمتنع عنه . يظهر أنك انت ايضاً تستنفد صبري هذا الصباح ، لأن

الآخرين يستنفدون صبري . فاصعد في الحال واعتن ببنجي ، أتسمع ؟ » .

قال لستر : « أمرك » ، وأسرع الى درجات المطبخ .

فقالت دلزي : « اسمع ، ما دمت هنا فجئني بكمية اخرى من الحطب » .

فقال : « أمرك » ومر بها على الدرج ومضى الى كومة الحطب . ولما عاد يتخبط بالباب بعد برهة ، وقد اختفى وعشي وراء وجوده الحطبي ، فتحت له دلزي الباب واقتادته عبر المطبخ بيد ثابتة .

وقالت : « اياك ان تهوي بها على ذلك الصندوق مرة اخرى . اياك » .

فقال لستر لاهثاً : « كيف اذن ؟ لا أستطيع ان أنزلها على أي نحو آخر » .

قالت دلزي : « قف مكانك وامسك بها » . وأخذت تنزل عنه الحِمل حطبة حطبة . « ماذا دهاك هذا الصباح ؟ كلما ارسلتك لاحضار الحطب لم تأتني لأكثر من ست قطع ، حتى هذا اليوم . فما الذي نويت ان تستأذنني به اليوم ؟ ألم يغادر ذلك السيرك البلدة ؟ » .

- « بلى . لقد غادرها » .

ولما وضعت آخر حطبة في الصندوق ، قالت : « والآن ، اصعد الى بنجي ، كما قلت لك من قبل . ولا أريد ان يصيح بي أحد من أعلى الدرج حتى أدق الجرس . أتسمع ؟ » .

قال لستر : « أمرك » . واختفى خلال الباب الرفراف . فألقمت دلزي الموقد مزيداً من الحطب ، وعادت الى خشبة الخبز . ثم طفقت تغني من جديد .

وازدادت الغرفة دفئاً . وسرعان ما اكتست بشرة دلزي التماعة غنية بعد ان بدت وكأنها وبشرة لستر قد اكتسبت بما يشبه ذروراً خفيفاً من رماد الحطب ، اذ راحت دلزي تجمع مواد الطعام الخام حولها وتنسّق وجبة الفطور . وقد عُلّقتْ علىْ الحائط فوق احدى الخزائن ساعةٌ تدقدق لا ترى إلا

في الليل . بضوء المصباح ، فتوحي عندها بعمق من الغوامض والاحاجي لأن ليس فيها إلا عقرب واحد ، واذ ذاك مهدت لنفسها بصوت كأنما هي تتنحنح ، ودقَت خمس مرات .

قالت دلزي : «الساعة الثامنة» . وكفت عما هي فيه ورفعت رأسها ، وأصاخت السمع ، ولكن لم يكن ثمة من صوت عدا صوت الساعة والنار . فتحت الفرن ونظرت الى طبق الخبز ، واذ انحنت توقفت وهي تسمع أحدهم ينزل الدرج . وسمعت الاقدام تعبر غرفة الطعام ، ثم انفتح الباب الرفراف ودخل لستر يتبعه رجل ضخم الجثة يبدو كأنه قد صيغ من مادة عجزت جزئياتها عن التماسك فيما بينها او بالهيكل الذي يحملها . بشرته من غير شَعر وتبدو ميتة ، مَرَضيَ الحَبَن ، يمشي شحطاً كالدب الممرّن . أما شعره فناعم فاقع اللون ، وقد مُشِّط على جبينه مُسبَلاً كشعر الاطفال في الصور الفوتوغرافية القديمة . وكانت عيناه صافيتين ، بلون زهرة القمح الزرقاء الفاقعة العذبة ، وشفتاه الصفيقتان منفرجتين ، تريلان قليلاً .

قالت دلزي : «أهو بردان ؟» ومسحت يديها على وزرتها ومسّت يده .

قال لستر : «ان لم يكن هو بردان ، فأنا بردان . موسم الفصح بارد دائماً . لا أذكره جاءنا مرة والطقس دافىء . تقول الست كارولاين اذا لم تجدي الوقت الماء قربتها بالماء الحار ، فلا بأس» .

قالت دلزي : «يا إلهي» . وجرّت كرسياً الى الزاوية التي بين صندوق الحطب والموقد ، فجلس الرجل عليه منصاعاً . وقالت : «انظر في غرفة الطعام وجد أين تركت تلك القربة» . فجاء لستر بالقربة من غرفة الطعام ، فملأتها دلزي وناولته اياها ، وقالت : «اصعد بسرعة . وانظر ان كان جاسن قد استيقظ . وقل لهم كل شيء جاهز» .

خرج لستر ، وقد جلس بن قرب الموقد جلسة رخوة ، دونما اي حركة سوى من رأسه الذي كان يهتز علواً بغير انقطاع وهو يرقب حركات دلزي بنظرات مبهمة عذبة .

ولما عاد لستر قال : « لقد نهض . وتقول الست كارولاين ضعيه على المائدة » . ودنا من الموقد وادار راحتيه المفتوحتين الى الاسفل فوق وعاء النار وقال : « لقد نهض ، وعدا ذلك فإنه سيضرب بكلتا قدميه هذا الصباح » .

قالت دلزي : « ماذا دهاك الآن ؟ ابتعد عن الموقد . كيف استطيع ان افعل شيئاً وانت منحنٍ عليه ؟ » .

- « إني بردان » .

- « كان الأجدر بك ان تفكر بذلك وأنت في اعماق ذلك السرداب . وجاسن ، ما الذي دهاه ؟ » .

- « يقول انني وبنجي قد كسرنا تلك النافذة التي في غرفته » .

- « وهل فيها نافذة مكسورة ؟ » .

- « هذا ما يقوله هو . ويقول انني انا الذي كسرتها » .

- « وكيف يمكنك ان تكسرها وهو يبقيها مقفلة في الليل وفي النهار ؟ » .

- « يقول انني كسرتها بأن رميتها بالحجارة » .

- « وهل فعلت ذلك ؟ » .

- « ابداً » .

قالت دلزي : « لا تكذب عليَّ ، يا ولد » .

قالت لستر : « لا والله ، اسألي بنجي . لم أقرب تلك النافذة » .

قالت دلزي : « اذن من يكسرها ؟ » ثم قالت « انه يغيظ نفسه ، لا اكثر ، ليوقظ كونتن » . وأخرجت طبق البسكوت من الفرن .

قال لستر : « أكيد ، طباعهم غريبة ، هؤلاء القوم . أحمد اللّه انني لست واحداً منهم » .

- « انك لست واحداً ممن! اسمح لي بأن اقول لك ، ايها الولد الأسود ، ان فيك ابليسية آل كمبسن بقدر ما في اي واحد منهم . أواثق انت من انك لم تكسر تلك النافذة ؟ » .

ـ « ولماذا أكسرها ؟ » .

قالت دلزي : « كإحدى ابليسياتك ، تنبّه له الآن ، لئلا يحرق يده ثانية ريثما أهيئ المائدة » .

وذهبت الى غرفة الطعام حيث سمعاها تتنقل فيها ثم عادت ووضعت طبقاً على مائدة المطبخ وصبّت فيه طعاماً . وبن يراقبه ، مريّلاً ، وعلى شفتيه همهمة خافتة من التلهف .

فقالت : « طيّب ، طيّب ، ياحبيبي . هاك فطورك . احضر كرسيّه يا لستر » . فأدنى لستر الكرسي من المائدة وجلس بن عليه ، يئن ويريل . وربطت دلزي فوطةً حول عنقه ومسحت فمه بطرفها . « وحاول أن تمنعه من توسيخ ثيابه ولو مرة في عمرك » ، قالت ذلك وناولت لستر ملعقة .

فكفّ بن عن الأنين ، وراح يرنو الى الملعقة وهي تعلو الى فمه . فكأن التلهف ايضاً فيه مرتبط بالعضل ، والجوع نفسه عاجز عن النطق ، لا يعلم بأنه هو الجوع . ولستر يطعمه بمهارة وانفصال . وبين الحين والحين يعاوده الانتباه وقتاً يتيح له ان يعبث بالملعقة حين يرفعها نحو فم بن ليجعله يطبق شفتيه على الهواء ، ولكنه كان فيما يبدو شارد الذهن . وقد استقرت يده الاخرى على ظهر الكرسي وراحت تتحرك على السطح الأملس ، رهيفةً باحثة ، كأنه يستخرج من الفراغ الميت نغماً غير مسموع ، ومرة نسي حتى معابثة بن بالملعقة بينما أغرت أصابعه الخشب الذبيح باتيان نغم رَكوض معقد لا صوت له الى ان استعاده بن الى وعيه بالولولة من جديد .

أما دلزي فقد كانت تروح وتجيء في غرفة الطعام ، وسرعان ما قرعت جرساً صغيراً صافي النبرة ، وعندئذ سمع لستر من مكانه في المطبخ المسز كمبسن وجاسن ينزلان ، وصوت جاسن ، فأدار عينيه بياضا في محجريه وهو يتسمّع .

قال جاسن : « لا ريب . اني اعرف انهما لم يكسراها . اني اعرف ذلك . لعل تغير الطقس كسرها » .

فقالت المسز كمبسن : «وكيف يكسرها ؟ غرفتك تبقى مقفلة طيلة النهار ، كما تتركها عندما تذهب الى البلدة . وما من احد منا يدخلها سوى يوم الاحد لتنظيفها . لا اريدك ان تظن بأنني ارضى بأن اذهب الى مكان لا يكون مرغوباً في ذهابي اليه ، او انني اسمح لأحد غيري بذلك» .

قال جاسن : «وهل قلت انك انت التي كسرتها ؟ » .

قالت المسز كمبسن : «أنا لا اريد دخول غرفتك ، اني احترم شؤون المرء الخاصة . وما كنت لأطأ العتبة حتى ولو كان لدي مفتاح للباب» .

ـ «نعم . أعرف ان مفاتيحكم لا تصلح . وهذا هو السبب في أنني بدّلت القفل . أما الذي أريد ان أعرفه ، فهو كيف انكسرت تلك النافذة» .

قالت دلزي : «يقول لستر انه لم يكسرها» .

قال جاسن : «أعرف ذلك دون ان أسأله . اين كونتن ؟ » .

قالت دلزي : «حيث تكون صباح كل أحد . على كلٍ ، ماالذي اصابك هذه الأيام الاخيرة ؟ » .

قال جاسن : «سنغيّر ذلك كله . اصعدي واخبريها ان الفطور جاهز» .

قالت : «أرجوك ان تدعها وشأنها ، ياجاسن ، انها تنهض لفطورها صباح كل يوم من الاسبوع ، والسيدة كارولاين تسمح لها بالبقاء في فراشها كل يوم أحد . وأنت أعلم بذلك» .

قال جاسن : «لا أستطيع ان اموّل مطبخاً مليناً بالزنوج لكي يكونوا في خدمة حضرتها . اذهبي واطلبي إليها ان تنزل للفطور» .

قالت دلزي : «لا أحد يخدمها . فأنا اترك لها فطورها في المسخنة ، فتأتي هي ـ» .

ـ «أسمعت ما قلت ؟ » .

ـ «سمعتك . ولا أحدغيرك ، عندما تكون في البيت . فاذا لم تكن كونتن او امك موضع شجارك ، كان لستر او بنجي . لماذا تسمحين له بالاستمرار على ذلك ، يا ست كارولاين ؟ » .

فقالت المسز كمبسن : «خير لك ان تصعدي بأمره . انه رب البيت الآن . ومن حقه ان يطالبنا باحترام رغباته . وانا أحاول ان أحترمها ، فكم بالحري انت» .

قالت دلزي : «أليس من السخف ان يضطرب مزاجه ، بحيث يجبر كونتن على النهوض لمجرد أن ذلك يروق له ؟ لعلك تظن انها التي كسرت نافذتك ؟» .

قال جاسن : «لو خطر لها ذلك لما ترددت . فاذهبي وافعلي مثلما طلبت إليك» .

«ولو فعلت ذلك لما لمتُها قط ، لا واللّه» . قالت دلزي متجهة نحو الدرج . «وانت تنقّ برأسها كل لحظة من لحظات بقائك في البيت» .

قالت المسز كمبسن : «اسكتي يا دلزي . ليس من مقامك او مقامي ان نوصي جاسن بما يفعل . فأنا في بعض الأحايين اعتقد انه مخطئ ، ولكنني احاول ان امتثل لرغباته من اجلكم جميعاً . واذا كانت لي القدرة على النزول الى المائدة ، فان لكونتن القدرة على ذلك أيضاً» .

خرجت دلزي ، وسمعوها تصعد الدرج ، وسمعوها تستغرق في صعودها وقتاً طويلاً .

فقا لجاسن : «لديك طقم رائع من الخدم» . وصب طعاماً لأمه ثم لنفسه . «هل كان لديك يوماً خادم يستحق القتل ؟ لا ريب انه كان لديك ، ايام كنت طفلاً او قبلها ، فلا أذكره» .

قالت المسز كمبسن : «علي ان أسايرهم . لأن علي ان اعتمد عليهم الاعتماد كله . لقد فقدت قوتي وعزمي ، ويا ليتني ما فقدتهما . ليتني أستطيع ان أقوم بشؤون المنزل كلها بنفسي . لكنت على الاقل خففت الكثير عن عاتقك» .

قال جاسن : «وَلْتَحوَّل البيت الى حظيرة للخنازير» . ثم صاح قائلاً : «اسرعي يا دلزي!» .

ـ «أنا أعلم أنك تلومني لأنني أسمح لهم بالذهاب الى الكنيسة اليوم» .

قال جاسن : «بالذهاب الى اين ؟ الم يرحل ذلك السيرك اللعين بعد ؟» .

قالت المسز كمبسن : «الى الكنيسة ، فالملونون يقيمون صلاة للفصح خاصة . وقد وعدت دلزي منذ أسبوعين بالسماح لهم بالذهاب إليها» .

ـ «وذلك يعني اننا سنأكل البارد الناشف من الطعام أو لا شيء مطلقاً» .

ـ «أعرف ان ذلك ذنبي ، وانك ستلومني» .

ـ «وفيم اللوم ؟ أأنت التي بعثت المسيح حياً» .

وسمعا دلزي ترتقي الدرجة الأخيرة ، ثم خُطاها البطيئة فوق .

وسمعاها تقول : «كونتن» . وحالما نادتها لأول مرة وضع جاسن الشوكة والسكينة من يديه وبدا أنه وأمه ينتظران متقابلين عبر المائدة ، في وضعين متماثلين : الواحد منهما قاس خبيث ، ينتهي شعره الكستنائي الملبّد بمعقوفين عنيدين على طرفي جبينه أشبه بساقي البار في الصور الكاريكاتورية ، ولعينيه الكستنائيتين قُزحيّتان كالدحاريج محلّقتان بالسواد ، والأخرى قاسية شكسة ، شيباء الشعر ، وعيناها منتفختا الجفنين حائرتان تبدوان لشدة سوادهما كأنهما كلهما بؤبؤ أو قُزحيّة .

وقالت دلزي : «كونتن . انهضي يا حبيبتي . انهم في انتظارك للفطور» .

قالت المسز كمبسن : «لست أفهم كيف كُسرت تلك النافذة ، اواثق انت انها كُسرت امس ؟ لعلها مكسورة منذ زمن طويل ، ولم تدر بها لدفء الطقس . العارضة العليا ، والستارة مسدلة عليها ـ» .

قال جاسن : «قلت لك للمرة الأخيرة انها كسرت أمس ، ألا تعتقدين انني اعرف الغرفة التي أقيم فيها ؟ أتعتقدين انني كنت استطيع العيش فيها

اسبوعاً وفي النافذة كسر يستطيع المرء أن يُنفذ فيه يده» . وكفَّ صوته فجأة . وانحسر ، وتركه محملقاً بأمه بعينين ظلّتا برهةً خاليتين من كل شيء . كأن عينيه أمسكتا النَفسَ . وامه تنظر اليه بوجه رَخو شكس ، لا يُحد ، يهجس بالغيب ، ولكنه مثلوم الحسّ . وفيما هما كذلك ، قالت دلزي :

« كونتن . كفاك لعباً معي ، يا حبيبتي ، هيا أنزلي للفطور ، يا حبيبتي ، إنهم في انتظارك» .

وقالت المسز كمبسن : «لست أفهم . كأن أحداً ما حاول ان يقتحم البيت ـ» ففز جاسن من كرسيه ، وهوى الكرسي الى الوراء . «ماذا ـ» قالتها المسز كمبسن وهي تحملق به إذ انطلق راكضاً ماراً بها وصاعداً الدرج قفزاً الى حيث التقى بدلزي ، ووجهه في الظل ، فقالت دلزي :

«لقد حردتْ . وامك لم تفتح ـ» غير ان جاسن مر بها راكضاً في الرواق الى الباب . ولم يناد احداً . بل امسك بالمقبض وجرّبه ، ثم وقف والمقبض في يده مطأطىء الرأس قليلاً ، كأنه يصغي الى شيء أنأى بكثير من الغرفة المحدودة الأبعاد خلف الباب ، شيء جعل يطرق سمعه ، لقد كانت وقفة من يأتي بحركة الاصغاء لكي يخادع نفسه بشأن مايسمع . وراحت امه تصعد وراءه الدرج وتناديه . وعندما رأت دلزي كفت عن مناداته وجعلت تنادي دلزي .

قالت دلزي : «قلت لك انها لم تفتح القفل من ذلك الباب بعد» .

وإذ نطقت التفت وجرى نحوها ، ولكنه قال بصوت هادئ لا تهدّج فيه :

«هل تحمل المفتاح معها ؟ أعني أهو معها الآن ، أم انها سوف ـ» .

قالت المسز كمبسن من على الدرج . «دلزي» .

فقالت دلزي : «ما هو ؟ لم لا تدعني ـ» .

قال جاسن : «المفتاح ، مفتاح ذلك الباب . هل تحمله معها طيلة الوقت ؟ أماه» . وعندها رأى امه فنزل الدرج ليلقاها . وقال : «أعطني

المفتاح » . وجعل يتحسس بفظاظة جيوب ثوبها الاسود الخَلِق ، وهي تقاوم .

وقالت : « جاسن ، جاسن! أتحاول ودلزي ان تأخذاني عنوة الى الفراش ثانية ؟ » قالتها وهي تحاول ان تدفع به عنها . « ألن تدعني أمضي حتى يوم الأحد بسلام ؟ » .

فقال جاسن وهو يتحسسها بفظاظة : « المفتاح . علي به » . والتفت الى الباب كأنما يتوقع ان ينفجر وينفتح قبل ان يبلغه بالمفتاح الذي لم يحصل عليه بعد .

- « أنت يا دلزي! » صاحت أمه وهي تمسك بثوبها حولها .

وفجأة صرخ جاسن : « أعطني المفتاح ، يا بلهاء! » وانتشل من جيبها مجموعة ضخمة من المفاتيح الصدئة نظمت على حلقة من الحديد أشبه بما كان يحمله سجّانو القرون الوسطى وعاد يركض في البهو وكلتا المرأتين في إثره .

وقالت امه : « انت ، يا جاسن! لن يجد المفتاح الذي يبغيه . دلزي ، أنت تعلمين أنني لا أسمح لاحد قطعاً بأن يأخذ مفاتيحي » . وانخرطت في العويل .

فقالت دلزي : « هس . لن يصيبها بأذى . لن أسمح له بذلك » .

- « ولكن في بيتي . وصباح يوم الاحد! وأنا التي بذلت جهدي لأنشئهم نشأة مسيحية فاضلة . دعني يا جاسن اجد لك المفتاح الذي تريد » . ووضعت يدها على ذراعه ، ثم أخذت تكافحه ، غير انه قذف بها جانباً بضربة من كوعه والتفت لينظر اليها لحظة ، وفي عينيه قسوة وعذاب ، ثم استدار الى الباب ثانية والمفاتيح الضخمة .

قالت دلزي : « هس . وانت ، يا جاسن! » .

قالت المسز كمبسن وهي تُعول من جديد : « أمر رهيب قد حدث ، إني أعرف ، اسمع ياجاسن » . قالتها وهي تحاول الامساك به مرة أخرى . « يمنعني حتى من ايجاد المفتاح لغرفة في بيتي! » .

قالت دلزي : «لابأس ، لا بأس ، اني هنا ، ولن أدعه يصيبها بأي أذى» . ثم قالت ، رافعة صوتها : «لا تخافي ياحبيبتي اني هنا بقربك!» .

وانفتح الباب جانحاً الى الداخل ، فوقف فيه جاسن برهةً ، حاجباً الغرفة ، ثم خطا الى الداخل ، قال بصوت غليظ خافت : «ادخلا» . فدخلتا . لم تكن تلك غرفة فتاة . بل لم تكن غرفة أحد ، وعطر المساحيق الرخيصة الباهت والأشياء الانثوية القليلة والدلائل الاخرى على المحاولات المستميتة الفجة لتأنيثها ، لم تزد الا في انعدام هويتها ، مضيفة عليها ذلك الجو المكرور من سريع العبور والزوال الذي تتصف به الغرف في المنازل السرية . كان الفراش مرتباً لم يمس . وعلى الأرض لباس داخلي ملوث من الحرير الرخيص زهري اللون ، ومن دُرج خزانة نصف مفتوح تدلى جورب نسائي واحد .وكانت النافذة مفتوحة ، ترى منها شجرة إجاص مزهرة نمت لصق البيت ، تحتك أغصانها وتصر على حائطه ، والهواء الهَطِل المندفع برشاشه من النافذة يحمل الى الغرفة شذا من النوار يفوح بالهجران واليأس .

فقالت دلزي : «أترين ؟ ألم أقل انها بخير ؟» .

قالت المسز كمبسن : «بخير ؟» ولحقت بها دلزي إلى داخل الغرفة ولمستها ، وقالت :

«تعالي واضطجعي في فراشك . سأجدها في عشر دقائق» .

فدفعتها المسز كمبسن عنها وقالت : «ابحثي عن الرسالة . لما فعلها كونتن ترك رسالة» .

-«لا بأس . سأبحث عنها . فتعالي إلى غرفتك» .

قالت المسز كمبسن : «لقد علمت حالما سمَّوها بكونتن ان هذا سيحدث» . واتجهت نحو خزانة الأدراج وأخذت تقلب الأشياء المتناثرة عليها- زجاجات عطر ، علبة بودرة ، قلم ممضوغ ، مقص إحدى شفرتيه مكسورة مستقر على لفاف مرفوَ اكتسى بالبودرة وتلوث بأحمر الشفاه . وقالت : «ابحثي عن الرسالة» .

قالت دلزي : «سأبحث . ولكن تعالي الآن . انا وجاسن سنجدها فهيا إلى غرفتك» .

ـ «جاسن ؟ اين هو ؟» وذهبت الى الباب ، تتبعها دلزي ، ثم الى البهو ، فإلى باب آخر وجدته مغلقاً ، فنادت من خلال الباب : «جاسن» . فلم يأتها أي جواب . فجرّبت المقبض ، ونادت ثانية . ولكن لم يأتها اي جواب ، لأنه كان في الدولاب يقذف الى الوراء بكل ما فيه من ثياب ، وأحذية ، وحقيبة . وبعد ذلك خرج يحمل مقطعاً منشوراً من لوح معشّق ووضعه على الأرض ودخل الدولاب ثانية ليخرج وبين يديه صندوق معدني ، وضعه على الفراش ووقف ينظر الى قفله المكسور ريثما أخرج من جيبه مفاتيح اختار منها مفتاحاً ، ووقف برهة اخرى والمفتاح المختار بيده ، وهو يتأمل القفل المكسور ، ثم اعاد المفاتيح الى جيبه وبحذر شديد أفرغ محتويات الصندوق على الفراش . وراح بنفس الحذر يفرز الأوراق ويلتقطها واحدة واحدة ويهزّها . ثم أدار الصندوق سافله عاليه وهزّه ايضاً وببطء اعاد الأوراق ، ووقف ثانية يتأمل القفل المكسور منحني الرأس ، والصندوق بين يديه ، وسمع من خارج النافذة عصافير الزريق تدوّم وتنعق مروراً بالبيت ثم تنأى ونَعَقاتها تشطّ مع الريح ، وسيارة تمرق في مكان ما ويتلاشى صوتها ايضاً . ونادته امه مرة اخرى من وراء الباب ، ولكنه لم يتحرك . ثم اعاد الصندوق الى الدولاب وقذف بالثياب فيه ، ونزل الدرج الى التلفون . وفيما كان واقفاً هناك ينتظر والسماعة على أذنه ، نزلت دلزي الدرج . ونظرت اليه دون ان تقف ، ومضت في سبيلها .

فُتح الخط ، فقال : «جاسن كمبسن يتكلم» . كان صوته غليظاً ناشزاً فاضطر ان يعيد القول : «جاسن كمبسن ،» مسيطراً على صوته . وأردف : «هيئ سيارة ، مع مفوض ، ان كنت لا تستطيع الذهاب ، في عشر دقائق . سآتي بنفسي ـ ماذا ؟ سرقة . في بيتي . أعرف من ـ سرقة ، أقول لك ، هيئ سيارة ـ ماذا ؟ أليست وظيفتك تنفيذ القانون ؟ ـ نعم ، سأكون عندك في

خمس دقائق . وهيئ السيارة للذهاب حالاً . وإن لم تفعل شكوتك لحاكم الولاية » .

صفق السماعة على موضعها ، وعبر غرفة الطعام ، والفطور ماكاد يُمَس قد بَرد على المائدة وادخل المطبخ . كانت دلزي تملأ قربة الماء الحار ، وقد جلس بن ، وادعاً خالياً . وبقربه لستر ، قابعاً كالكلب اليقظ ، يأكل شيئاً ما . فمشى جاسن عبر المطبخ .

وقالت دلزي : « ألن تفطر ؟ » فلم يعرها بالاً ، « إذهب يا جاسن وتناول فطورك » . غير انه لم يلوِ على شيء . وصفق الباب الخارجي وراءه . ونهض لستر وأسرع الى النافذة يتطلع منها .

وقال : « فظاعة! مالذي حدث فوق ؟ هل كان يضرب الآنسة كونتن ؟ »

قالت دلزي : « اقطع لسانك ، والله إن جعلت بنجي يعول الآن أشبعتك ضرباً على رأسك . أبقِه على هدوئه ما استطعت الى ان أعود » . واحكمت سدَ القربة وخرجت . وسمعاها تصعد الدرج ، ثم سمعا جاسن يمرّ بالبيت في سيارته . وبعد ذلك لم يكن في المطبخ من نأمة سوى نشيش الابريق ودقدقة الساعة .

قال لستر : « أتدري ما الذي أراهن عليه ؟ أراهن على انه ضربها . وانه خبطها على رأسها فذهب لاستدعاء الطبيب . هذا ما اراهن عليه » . وراحت الساعة تدق ، تك تك ،تك تك ، في وقار وعمق ، كأن ذلك نبض البيت المتداعي نفسه ، وبعد قليل وَرورت وتنحنحت ودقت ست مرات . فصعّد بن نظره اليها ، ثم نظر الى رأس لستر الشبيه بالرصاصة ، شبحي السواد في نور النافذة ، وأخذ يهز رأسه الى الأعلى ثانية وهو يريل . ثم جعل يئن .

فقال لستر دون ان يستدير : « اسكت يا معتوه . يظهر لنا انه لن يتاح لنا ان نذهب الى الكنيسة اليوم » . غير ان بن مانفك جالساً على الكرسي ، وقد تدلت يداه الكبيرتان الناعمتان بين ركبتيه ، وهو يئن أنيناً خافتاً . وفجأة انطلق منه صوت بكاء ، عياطٌ وئيد مستمر عديم المعنى . فقال

لستر : «صه» . والتفت اليه ورفع يده قائلاً : «اتريد لي ان اصفعك ؟» إلا ان بن بقي ينظر اليه ، وئيد الصراخ مع كل زفرة من تنفسه . فجاءه لستر وهزّه صارخاً به : «اسكت حالاً!» ثم قال : «هاك» . وجره من على كرسيه ثم جر الكرسي . ووضعه أزاء الموقد وفتح باب صندوق النار ودفع بن الى الكرسي . فكانا أشبه بسحابة تنخز ناقلة ثقيلة الحركة في مرسى ضيّق . وجلس بن من جديد مواجهاً الباب الورديَ ، فهجع . ثم سمعا الساعة ثانية ، ودلزي بطينة الخطى على الدرج . وحالما دخلت أخذ يئن مرة أخرى . ثم رفع عقيرته .

قالت دلزي : «ماذا فعلت به ؟ لم لا تتركه وشأنه هذا الصباح من كل ايام السنة ؟» .

قال لستر : «لم أفعل له شيئاً . لقد أفزعه المستر جاسن . هذا هو السبب . هل قتل الآنسة كونتن ؟» .

قالت دلزي : «صه يا بنجي» . فسكت . وذهبت الى النافذة وتطلعت منها الى الخارج ، وقالت : «هل كفَ المطر ؟» .

ـ «نعم ، منذ مدة» .

ـ «اذن فاخرجا قليلاً . مافرغت من تهدئة الست كارولاين إلا هذه اللحظة» .

ـ أنذهب الى الكنيسة اليوم ؟» .

ـ «سأعلمك بذلك في حينه . أبقه بعيداً عن الدار الى ان أناديك» .

ـ «أنذهب الى المرعى ؟» .

ـ «لا بأس . مادمت تبقيه بعيداً عن الدار لقد تحملت اقصى ما أستطيع تحمله» .

ـ «أمرك . أين ذهب المستر جاسن ، يا أماه ؟» .

ـ «وهل هذا من شؤونك ؟» قالت دلزي ذلك وأخذت تجاور المائدة . «هس يا بنجي . سيخرجَ بك لستر للعب» .

وقال لستر : « ماما ، ما الذي فعله بالآنسة كونتن ؟ » .

ـ « لا شيء مطلقاً . هيا اخرجا من هنا » .

ـ « أراهن على أنها ليست هنا » .

فحدجته دلزي بنظرة منها وقالت : « كيف تعلم انها ليست هناك ؟ » .

ـ « رأيناها أنا وبنجي تنزلق خارجةً من النافذة ليلة البارحة . اليس كذلك يا بنجي ؟ » .

قالت دلزي وهي تحدّق به : « صحيح ؟ » .

ـ « رأيناها تفعل ذلك كل ليلة ، تتدلى الى شجرة الإجاص وتنزل عليها » .

ـ « لا تكذب علي ، يا أسود » .

ـ لست أكذب . اسألي بنجي » .

ـ « لمَ لم تذكر شيئاً عن ذلك اذن » .

قال لستر : « ليس ذلك من شأني . انا لا أريد ان أقحم نفسي في شؤون القوم البيض . هلمّ يا بنجي . لنخرج » .

وخرجا . ومكثت دلزي واقفة عند المائدة ، ثم ذهبت وغسلت اطباق الافطار وتناولت فطورها ونظّفت المطبخ . ثم نزعت وزرتها وعلقتها واتجهت صوب أسفل الدرج وانصتت . فلم تسمع اي صوت . فارتدت معطفها وقبعتها ومضت الى كوخها .

كان المطر قد انقطع . وطفق الهواء يهبّ الآن من الجنوب الشرقي ، ويتقطع في السماء رقعاً زرقاء . وعلى القمة من تل يرى وراء الاشجار وأسطح البلدة وقبابها استقر ضياء الشمس كثوب شاحب ، ثم تلاشى ، وحمل الهواء صوت جرس ، واذا أجراس اخرى ، كأنها استجابت لتلك الاشارة ، تعيد ذلك الصوت وتكرره .

انفتح باب الكوخ وبرزت دلزي ، مرة أخرى في عباءتها العنابية وفستانها الارجواني ، مرتدية قفازين أبيضين ملوثين يمتدان حول الكوع

منها ، ودون لفافة رأسها هذه المرة . ذهبت الى فناء الدار ونادت لستر ، وانتظرت قليلاً ثم اتجهت نحو البيت ودارت حوله الى باب السرداب ، ماشية لصق الحائط ، واجالت نظرها في المدخل . فوجدت بن جالساً على الدرجات ، وامامه لستر مقرفصاً على الأرض الرطبة وقد امسك في يساره بمنشار ، احدودبت قليلاً بضغط من يده ، وهو يضرب جانبه بمطرقة الخشب المهترئة التي كانت تطرق بها الفطائر لأكثر من ثلاثين سنة خلت . فأطلق المنشار رنة رخوة وحيدة انقطعت بسرعة لا حياة فيها ، تاركة المنشار على شكل منحن رقيق براق بين يد لستر والأرض . وبقي محدودباً مغلق السرّ ، ولستر يقول :

« هكذا كان يفعلها . وقد وجدت الشيء الصحيح لضربه به » .

فقالت دلزي : « أهذا ما تفعله اذن ؟ عليّ بتلك المطرقة حالاً » .

قال لستر : « لم أصبها بأذى » .

- « عليّ بها حالاً . وعد بذلك المنشار الى المكان الذي اخذته منه » .

فوضع المنشار عنه وأتاها بالمطرقة . واذا بن يعول ثانية ، عويلاً مديداً يائساً . لا شيء فيه . مجرد صوت . لعله الزمن والظلم والحزن كلها وقد تحولت صوتاً لبرهة من الزمن باتفاق بين أجرام السماء في أفلاكها .

قال لستر : « اصغي إليه ، مازال على هذه الحال منذ ان أخرجتنامن البيت . لست أدري ما الذي دهاه هذا الصباح » .

قالت دلزي : « أحضره هنا » .

قال لستر : « بنجي ، تعال » . ونزل الدرج وأخذ بذراعه . فتبعه مطيعاً ، وهو في عويل كالجئير المتئد الذي تطلقه السفن ، الذي يخيّل للمرء انه يبدأ قبل ان ينطلق الصوت نفسه ، ويكف قبل ان ينقطع الصوت نفسه .

قالت دلزي : « اركض وجئ بقبعته . لاتحدث اي صوت قد تسمعه السيدة كارولاين . هيا ، اسرع . لقد تأخرنا » .

- « ستسمعه على كل حال ، اذا لم توقفيه » .

- « سيكف حالما نغادر المكان . إنه يشمّها . هذا هو السر في عويله » .

- « يشمّ ماذا يا جدتي ؟ » .

- « اذهب وجئ بقبعته » . فذهب لستر . ووقفا في مدخل السرداب ، وبن اخفض منها بدرجة . وقد انتثرت السماء برقع جارية تجر ظلالها السريعة من اعماق الحديقة الشعثاء ، على السياج المحطم وعبر فناء الدار . فأخذت دلزي تمسّد شعر بن على رسلها ، وتسوي الغرة التي على جبينه ، وهو يعول هادئاً غير مستعجل . وقالت دلزي : « هس . هس . سنذهب بعد دقيقة . هس » . وراح يعول هادئاً على رسله .

وعاد لستر لابساً قبعة قش جديدة محاطة بشريط ملون وحاملاً قبعة من قماش . وبانت القبعة للعيان كأنها تعزل جمجمة لستر ، كما يعزلها ضوء ساطع ، بكل ما فيها من سطوح وزوايا متميزة وفي شكلها من التميز المستقل ما يجعل المرء يتوهم لأول وهلة ان القبعة تجثم على رأس شخص آخر وقف خلف لستر مباشرة . فنظرت دلزي الى القبعة ، وقالت :

« لِمَ لم تلبس قبعتك القديمة ؟ » .

- « لم أستطع ان أجدها » .

- « لا ريب . ولا ريب انك تدبرت الامر ليلة البارحة لكي لا تجدها اليوم . يظهر انك انتويت إتلاف هذه القبعة » .

- « اوه ، جدتي ، لن ينزل المطر ثانية » .

- « وما أدراك بذلك ؟ هيا احضر قبعتك القديمة واترك هذه » .

- « اوه جدتي » .

- « اذن اذهب واحضر المظلة » .

- « اختر لك ما يحلو . إما القبعة القديمة ، او المظلة . ولا يهمني أيهما تختار » .

فعاد لستر الى الكوخ ، وبن مستمر في عويله .

وقالت دلزي : «هيا يابنجي . لهما ان يلحقا بنا : لنذهب ونسمع الترتيل» . ودارا حول البيت ، صوب البوابة . وراحت دلزي تكرر «هس» بين الحين والحين وهما يسيران الى ان بلغا البوابة . ففتحتها دلزي ، ولستر يسير وراءهما ، حاملاً المظلة ، وبرفقته امرأة . «لقد جاءا» قالت دلزي . واجتازا البوابة ، وقالت : «والآن ـ» فكف بن . ولحق بهما لستر وامه . وقد ارتدت فروني فستاناً من الحرير الأزرق الزاهي وقبعة مثقلة بالزهور . وهي امرأة نحيلة ، ووجهها مفلطح رائق .

قالت دلزي : «تلتفين بما كلفك شغل ستة أسابيع . ما تفعلين لو أمطرت ؟» .

قالت فروني : «أتبلل ، ما استطعت يوماً ان أوقف المطر» .

قال لستر : «جدتي لا تتحدث الا عن سقوط المطر» .

ـ «ان لم أقلق انا عليكم ، فمن يقلق ؟» قالت دلزي . «هيا بكم . لقد تأخرنا» .

قالت فروني : «القس شيغوغ سيعظ اليوم» .

ـ «صحيح ؟ ومن هو ؟» .

قالت فروني : «واعظ مشهور ، من مدينة سان لويس» .

ـ «هه . ان مايحتاجون اليه هو رجل يستطيع ان يضع مخافة الله في قلوب هؤلاء العابثين من الزنوج الشباب» .

ـ «القس شيغوغ سيعظ اليوم . هكذا يقولون» .

وساروا في الشارع الهادئ ، وعلى طوله زرافات من القوم البيض يتمشون في ملابسهم الزاهية باتجاه الكنيسة ، في عصف من الاجراس ، تشرق عليهم بين الفينة والأخرى شمس متقطعة ، والريح تأتيهم في هبات من الجنوب الشرقي ، نديةً قارسة بعد ايام الدفء .

فقالت فروني : «ليتك تقلعين عن المجيء به الى الكنيسة ياأماه . ان القوم ينتقدون» .

فقالت دلزي : « أي قوم ؟ » .

ـ « لقد سمعتهم ينتقدون » .

فقالت دلزي : « اعرف القوم الذين تعنين . حُقراء البيض . هؤلاء هم . انهم يعتقدون انه غير لائق بكنيسة البيض ، ولكن كنيسة السود لا تليق به » .

ـ « انهم ينتقدون ، مهما قلت » .

ـ « اذن حوّليهم الي . وقولي لهم ان الله سبحانه وتعالى لا يهمه ان كان راشداً ام لا . ولا يهم احداً ذلك إلا الحُقراء من البيض » .

كان يتفرع عن الشارع شارع آخر في زاوية قائمة ، ينحدر ثم يصير الى طريق غير مرصوف . وعلى كلا الجانبين تهبط الأرض بانحدار اشدّ : فهي منبسط فسيح ترقّطه اكواخ صغيرة تستوي اسطحها الملوّحة مع قمة الطريق . وكلها مغروزة في بقع لا عشب فيها تضجّ بضروب الحطام ، من قرميد ، وألواح خشب ، وصحون ، وكل ماكان يوماً ما مفيداً نافعاً . والنبت القليل الذي فيها ليس الا الخضرة المهملة ، والاشجار كلها توت وجمّيز وخرنوب ـ وهي اشجار تساهم أيضاً في اليباب الدميم المحيط بالبيوت ، اشجارها يبدو حتى إزهارها كأنه بقية حزينة عنيدة من بقايا ايلول ، كأنما الربيع مرّ بها مرّ الكرام ، ليدعها تتغذى على رائحة الزنوج القائمة فيما بينهم ، تلك الرائحة القوية التي لا رائحة مثلها .

ومن مداخل البيوت كان الزنوج يخاطبونهم اذ يمرون بهم ، ولا سيما دلزي :

ـ « اختي دلزي ، كيف حالك اليوم ؟ » .

ـ « بخير . هل انت بخير » .

ـ « بخير والحمد لله » .

كانوا يخرجون من أكواخهم ويجهدون في صعود السدّة الى الطريق ـ رجال تتراوح ألوانهم بين الأسود والبني العميق ، على صدورهم سلاسل

ساعات ذهبية وفي ايديهم احياناً عصي للمشي ، وشباب تسربلوا بالأزرق العنيف الرخيص اوالثياب المقلّمة والقبعات المتبخترة ، ونساء يهسهسن واطفال يلبسون ثياباً مستعملة ابتيعت من البيض ، ينظرون الى بن بتخفي حيوانات الليل :

- « اراهن انك لن تدنو منه وتلمسه » .

- « ولم لا ؟ » .

- « ولكنه لا يؤذي الناس . مجرد معتوه » .

- « وكيف لا يؤذي المعتوه الناس ؟ » .

- « هذا المعتوه لا يؤذيهم . وقد لمسته » .

- « اراهن انك لن تلمسه الآن » .

- « لأن دلزي تراني » .

- « لن تلمسه مهما كان » .

- « لا يؤذي الناس . مجرد معتوه » .

وكانت دلزي كلما خاطبها الكبار ، إلا اذا كانوا طاعنين في السن ، تسمح لفروني بالجواب عنها :

- « أمي متوعكة هذا الصباح » .

- « شيء مؤسف . ولكن القس شيغوغ سيشفيها . لسوف يمنحها الراحة ويزيح عنها الأعباء » .

ثم جعل الطريق يرتفع ، مفضياً الى مشهد اشبه بمشهد مرسوم على خلفية مسرح . فالطريق هنا يشق رقعة من التراب الأحمر تتوجها اشجار السنديان ، ثم ينتهي فجأةً ، كشريط مقطوع . وعلى مقربة منه كنيسة لوحتها الأيام تشمخ بقبتها البلهاء اشبه بكنيسة مرسومة والمشهد برمته مسطَح بغير منظور ، لا يختلف عن لوحة مرسومة وضعت في الطرف الأقصى من الأرض المنبسطة ، إزاء اشراق الفضاء العاصف وشهر نيسان والضحى العارم بالأجراس . وراحوا يتجمعون صوب الكنيسة في تؤدة الوافدين الى

صلاة الأحد . فتدخل النساء والأطفال ، بينما يتريث الرجال في الخارج ويتحدثون في جموع مستكينة ، الى ان توقف الجرس عن القرع . واذا ذاك دخل الرجال أيضاً .

كانت الكنيسة قد زينت بزهور شتيتة قطفت من شجيرات الأسيجة وحدائق المطابخ ، وبشرائط من ورق «الكريب» الملون . وقد عُلق فوق المنبر جرس مطروق من اجراس عيد الميلاد ، يطوى كالأكورديون . وكان المنبر خالياً ، وان يكن المرتلون قد اخذوا أماكنهم ، وهم يروّحون بالمراوح بالرغم من ان الطقس لم يكن حاراً .

تجمعت الأغلبية من النساء على جانب من الغرفة ، وهن يتحدثن . ثم دق الجرس مرة واحدة فتفرقن الى مقاعدهن ، وجلس جمهور المصلين ، في توقّع وتطلّع . ودق الجرس ثانية مرة واحدة . فنهض جوق المرتلين وشرعوا في الترتيل وادار المصلون كلهم الرؤوس دفعة واحدة إذ دخل ستة أطفال - اربع بنات بضفائر مشدودة ضفرت فيها قطع صغيرة من القماش كالفراشات ، وولدان كيسيَ رأساهما بالزغب - وساروا في وسط الكنيسة تنظمهم معاً زهور وشرائط بيضاء ، يتبعهم رجلان الواحد خلف الآخر . وقد كان الثاني منهما رجلاً كبير الجثة ، بلون القهوة الفاقع ، يفعل في أنفس مشاهديه بما يرتديه من معطف «فراك» ورباط أبيض . له رأس جليل مهيب ، ورقبة تتثنى على ياقته في ثنيات سخية . غير أنه كان مألوفاً لديهم ، فبقيت الرؤوس ملوية حتى بعد مروره ، ولم يدركوا ان الكاهن الزائر قد دخل عليهم الى ان توقف الجوق عن الترتيل ، فلما رأوا الرجل الذي كان يتقدم كاهنهم يصعد المنبر وهو مازال امامه ارتفع في ارجاء المكان صوت لا يوصف ، تنهدة ، صوت يعبر عن الدهشة والخيبة .

كان الزائر قميئاً ، يلبس معطفاً رثاً أسود ، وقد تجعد وجهه الاسود وتغضن كوجه قرد صغير عجوز . وفيما راح المرتلون ينشدون مرة اخرى ونهض الأطفال الستة ليرتلوا في همسات رفيعة واجفة عديمة النغم ، كان

المصلّون يرقبون فيما يشبه الحرج هذا الرجل لا يملأ العين وقد جلس كالفلاح القزم إزاء ضخامة الكاهن الجليلة . وما برحوا ينظرون اليه في حرج وغير تصديق حتى نهض الكاهن وقدمه بنبرات عميقة جهورية زادت حلاوتها وبلاغتها في ضآلة الزائر .

- «ويأتون بهذا الرجل عبر المسافات الطويلة من سانت لويس!» همست فروني .

فقالت دلزي : «لقد وجدت ان الله يستخدم وسائط أصغر من ذلك ، جلّت قدرته» . ثم قالت لبن : «هس الآن . سيرتلون ثانية بعد دقيقة» .

حين نهض الزائر ليخطب بدت لهجته أشبه بلهجة البيض . كان صوته مستوياً بارداً ، يبدو أضخم من أن يصدر عنه ، فأصغوا اليه استطلاعاً اول الامر ، كمن يصغي الى قرد يتكلم . وأخذوا يرقبونه كأنهم يرقبون رجلاً يمشي على حبل . ونسوا ضآلة شكله لانهماكهم في براعته اذ راح يركض ويتوازن ويرفّ على سلك صوته القرير المتند ، حتى اذا ما اتى اخيراً بحركة كانزلاقة الطير المسف ليحطّ قرب محمل القراءة وقد وضع عليه ذراعاً على مستوى كتفه وتجرد جسمه القرديّ من كل حركة كالمومياء اوالسفينة المفرّغة ، تنهد المصلون كأنهم استيقظوا من حلم جماعي وتململوا قليلاً على مقاعدهم . وفيما وراء المنبر استمر المرتلون في الترويح .

ثم قال صوت : «ايها الأخوة» .

لم يكن الواعظ قد تحرك . وذراعه مازالت ممتدة على المحمل ، وبقي على ذلك الوضع وصوته يتلاشى في اصداء عميقة تتردد بين الجدران ، مختلفاً عن صوته السابق كما يختلف النهار عن الليل ، فيه رنة . حزينة كرنة البوق الصادح ، تغوص في قلوبهم لتنطق فيها من جديد بعد ان تنتهي الى اصداء متراكمة متلاشية ،

وقال مرة أخرى : «أيها الأخوة أيتها الأخوات» . وأزاح الواعظ ذراعه وأخذ يمشي جيئة وذاهباً امام المحمل ، ويداه مضمومتان وراء ظهره ، قدّاً

ضامراً ، محدودباً على نفسه كقدّ رجل اعتاد منذ امد بعيد ان يقارع الارض التي لا ترحم . «ان في نفسي دم الحَمَل* ، وذكراه!» واستمر على جينته وذهابه تحت شرائط الورق المضفور وجرس عيد الميلاد ، محدودباً ويداه مضمومتان وراء ظهره . لقد كان كصخرة صغيرة متآكلة تفيض عليها امواج صوته المتعاقبة . وبدا كأنه يغدو بجسده ذلك الصوت الذي غرز اسنانه في لحمه كشيء من عالم الجنّ . كما بدا المصلون وكأنهم يرقبون بأعينهم اذ راح صوته يفترسه ، الى ان غدا لا شيء وغدوا هم لا شيء ولم يبق ثمة من شيء حتى الصوت بل بقيت عوضاً عنه قلوبهم يخاطب بعضها بعضاً أنغاماً واهازيج تخطت الحاجة الى الالفاظ ، فلما آل به الأمر الى الاتكاء على محمل القراءة ، وارتفع وجهه القرديّ وصار في وضع كالصليب الوادع المعذب الذي يسمو على رثاثته وضآلته ويجعله غير ذي شأن ، انطلق منهم زفير انين طويل ، وصاحت امرأة بصوت شاهق رفيع : «رحماك ، يا يسوع!» .

واذ راحت الغيوم تركض في السماء كانت النوافذ العتمة الهزيلة تتوهج وتخمد في تعاقب واجس ، ومرت سيارة في الطريق خارج الكنيسة ، تكدّ في الرمل ، ثم تلاشت . في حين جلست دلزي جلسة منتصبة ، ويدها على ركبة بن . وتدحرجت دمعتان على خديها المهدّمين ، وهما تدخلان وتخرجان من ملايين التجاعيد ، تجاعيد التضحية ونكران الذات والزمن .

- «أيها الأخوة!» قالها الواعظ بهمس اجش دون ان يتحرك . فقالت المرأة بصوت خفيض : «رحماك ، يا يسوع!» .

وجلجل صوته من جديد كالنفير : «ايها الأخوة والأخوات!» وازاح ذراعه وانتصب في وقفته ورفع يديه : «ان في نفسي دم الحمل وذكراه!» ولم يلحظوا كيف ومتى تحولت نغمته ولهجته الى نغمة الزنوج ولهجتهم ، وظلوا جلوساً يترنحون قليلاً في مقاعدهم والصوت يملك عليهم انفسهم .

---

* يرمز به الى السيد المسيح . «حمل الله الحامل خطايا العالم» . (المترجم)

- «حين تمر السنون والحقب الباردة الطويلة أقول لكم ، أيها الاخوة ، حين تمر السنون والحقب الباردة الطويلة - وإنّي لأرى النور وأرى الكلمة ، أيها الخاطئ المسكين! لقد انقرضت وزالت في مصر العربات المتأرجحة ، والأجيال انقرضت أثراً بعد عين . كان فيما مضى رجل غنيّ : أين هو ، ايها الأخوة ؟ كان فيما مضى رجل فقير : اين هو ، أيتها الأخوات ؟ آه ، إني أقول لكم ، ان لم يكن في قلوبكم لبن الخلاص القديم وطلُه ونداه حين تمر السنون والحقب الباردة الطويلة! » .

- «رحماك ، يا يسوع! » .

- «لكم اقول ايها الاخوة ، ولكن اقول ايتها الأخوات ، سيأتي زمن ، يقول فيه الخاطئ المسكين : لأضع عني ، مع الرب الاله ، لأضع عبئي عني ، وما الذي سيقول يسوع عندئذ ، أيها الإخوة ؟ ايتها الأخوات ؟ افي نفسك دم الحمل وذكراه ؟ لانني لن أرهق السماء بالأعباء! » .

وبحث في سترته وأخرج منديلاً جفف به وجهه . ومن المصلين ارتفع صوت جماعي خفيض : «م م م م م م م م م م! »

وقال صوت المرأة : «رحماك ، يسوع ، يسوع! » .

- «ايها الإخوة! انظروا الى أولئكم الأطفال الصغار الجالسين هناك ، كان يسوع يوماً ما مثلهم . وقد عانت أمه المجد والآلام . ولعلها كانت احياناً تحتضنه اذا ما أرخى الليل سدوله ، والملائكة تهدهده بأناشيدها لينام ، ولعلها نظرت خارج الباب فرأت شرطة الرومان تمر» . ومشى جيئة وذهاباً ، وهو يجفف وجهه . «اسمعوا ، ايها الأخوة! اني لأرى ذلك اليوم . وقد جلست مريم بالباب وفي حضنها يسوع ، يسوع الصغير . كأولئك الأطفال ، يسوع الصغير ، واني لاسمع الملائكة تترنم بتراتيل السلام والمجد . وأرى العينين المغمضتين ، وأرى مريم تقفز فزعة ، وأرى وجه الجندي وهو يقول : سنقتل! سنقتل سنقتل طفلك الوليد يسوع! وإني لأسمع نشيج الأم ونوحها بدون خلاص الله وكلمة الله! » .

- «م م م م م م م م م م م م م م م!... يسوع! ويسوع الوليد!» .

ويرتفع صوت آخر يقول :

« إني أرى ، يا يسوع! رحماك ، إني أرى! » وتلاه صوت آخر ، دونما كلمات ، كالفقاقيع تنطلق من الماء .

- « إني أراها أيها الإخوة ، إني أراها ، إني لأرى المشهد المريع الذي يفقد الأبصار! إني أرى الجلجلة ، واشجارها الثلاث المقدسة ، أرى اللص والقاتل وأقل الاثنين ، وأسمع التفاخر والتباهي : «ان كنت انت المسيح ، ارفع شجرتك وامشِ! » وأسمع ندب النساء والنوح عشية ذلك اليوم ، أسمع البكاء والعويل والله مشيحاً بوجهه يقول : لقد قتلوا يسوع ، ابني الحبيب لقد قتلوه! » .

- « م م م م م م م م م م... يا يسوع ، اني أرى ، يا يسوع! » لكن ، حين يشيح الرب القدير بوجهه ، ليقول : لن أرهق السماء بالاعباء! بوسعي ان أرى الله المفجوع يغلق بابه ، وأرى الفيض العظيم يتلاطم دونه ، وأرى الظلام والموت الأبدي يحلان بالأجيال . واذا أيها الإخوة ، أجل أيها الأخوة ، ما الذي أرى ؟ مالذي أراه أيها الخاطىء المسكين ؟ اني أرى القيامة والنور ، أرى يسوع الوديع يقول : «لقد قتلوني لكي تحيا من جديد ، لقد مت لكي لا يموت ابداً كل من رأى وآمن » . وإني أيها الإخوة لأرى انبلاج يوم القيامة واسمع أبواق الذهب تصدح بالمجد ، والموتى يُبعثون ممن كان في أنفسهم دم الحمل وذكراه! » .

في خضمّ الأصوات والأيدي ظل بن جالساً ، في نشوة من نظراته العذبة الزرقاء . ودلزي منتصبة الجلسة قربه ، تبكي مستحثّة على رسلها متحررة السريرة بدم الحمل وذكراه .

ولما خرجوا وساروا في وهج الظهيرة طوال الطريق الرملي والمصلّون يتفرقون ويتحدثون متمهلين ثانية جماعات جماعات ، استمرت دلزي في بكائها ، غير حافلة بما يقوله الناس .

ـ« واعظ رائع ، يا أماه! ولكنه لم يملأ العين في البدء . أماه هس! » .

ـ « لقد رأى السلطان والمجد » .

ـ « اي نعم . لقد رآهما وجهاً لوجه ، رآهما » .

لم تنبس دلزي بحس ، ولم يرتعش وجهها والدموع تجري في مجاريها الهابطة الملتوية ، ومشت مرفوعة الرأس دون أن تحاول مسح دموعها .

فقالت فروني : « لماذا لا تكفين عن ذلك يا أماه ؟ وهؤلاء الناس يرقبوننا ؟ بعد لحظات سنمر بالقوم البيض » .

فقالت دلزي : « لقد رأيت البداية والنهاية » .

ـ « أية بداية وأية نهاية ؟ » .

فقالت دلزي : « لا عليك ، لقد رأيت البداية ، وها انا الآن أرى النهاية » .

بيد أنها ، قبل بلوغهم الشارع وقفت ورفعت تنورتها ومسحت عينيها بحاشية اعلى تنورتها الداخلية . ثم استأنفوا السير ، وبن يشحط قدميه بجانب دلزي ، وهو يرقب لستر يعبث قدامهم ، والمظلة في يده وقبعة القش على رأسه مائلة باستهتار في ضوء الشمس ، أشبه بكلب كبير غبي يراقب كلباً صغيراً ماهراً . وحالما وصلوا البوابة واجتازوها ، شرع بن بالانين ثانية ، فتوقفوا جميعاً برهة وارسلوا أبصارهم الى اقصى الممشى ، الى البيت المربع الذي تقشر طلاؤه ومدخله المُعمد المتهافت .

وقالت فروني : « ما الذي حدث هناك اليوم ؟ أمرٌ ما قد حدث » .

قالت دلزي : « لم يحدث شيء ، اعتني بشؤونك ودعي البيض يعتنون بشؤونهم » .

قالت فروني : « أمر ما قد حدث . وقد سمعته اول ماسمعت هذا الصباح . ولكن ما لي ولهم ؟ » .

قال لستر : « انا أعرف ما حدث » .

قالت دلزي : « انك تعرف اكثر مما هو في صالحك ، الم تسمع فروني

الآن تقول ما لك ولهم ؟ هيا خذ بنجي خلف البيت وحافظ على هدوئه الى أن أهيئ الغداء » .

قالت لستر : « إني أعرف أين الآنسة كونتن » .

قالت دلزي : « اذن دع معرفتك لنفسك ، وحالما تحتاج كونتن الى نصيحة منك ، فسأدعك تعرف . هيا اذهبوا كلكم والعبوا خلف البيت » .

ـ « انت تدرين ما الذي سيفعله بنجي حالما يبدأون اللعب بالكرة هناك » .

ـ « لم يحن وقتهم بعد . والى ان يحين يكون تي بي قد جاء ليخرج به في العربة . والآن ، عليّ بتلك القبعة الجديدة » .

اعطاها لستر قبعته وذهب بصحبة بن عبر الفناء الخلفي ، وبن مازال ينن ، وذلك دون ان يرفع صوته . ومضت دلزي وفروني الى الكوخ ، وبعد قليل ظهرت دلزي ثانية في فستانها الحائل الرخيص واتجهت نحو المطبخ . كانت النار قد خمدت ، وليس في البيت نأمة فلبست وزرتها وصعدت الى فوق ، وما من نأمة قط . وغرفة كونتن ماتزال على وضعها كما تركوها فدخلتها والتقطت اللباس الداخلي وزجّت بالجورب في الدرج وأغلقته . ثم فتحه ودخلت ، وكان باب المسز كمبسن مغلقاً ايضاً ، فوقفت قربه ، وأنصتت ، ثم فتحته ودخلت ، مقتحمة فوحاً طاغياً من الكافور ، وكانت الستائر مسدلة ، والغرفة شبه مضاءة ، وكذلك السرير ، فحسبت اول الأمر ان المسز كمبسن نائمة وأوشكت ان تغلق الباب ، واذا الاخرى تتكلم ، وتقول :

ـ « ها ، ما الأمر ؟ » .

قالت دلزي : « هذه انا ، أتريدين شيئاً ؟ » .

فلم تجب المسز كمبسن ، وبعد قليل قالت دون ان تحرك رأسها ابداً : « اين جاسن ؟ » .

ـ « لم يعد بعد . ماذا تريدين ؟ » .

لم تقل المسز كمبسن شيئاً . وكالكثيرين ممن يتصفون بالبرود والحَوَر ، فانها ساعة جوبهت بالنكبة التي لا تُدحض ولا تُنقض انتبشت من مكان ما جلداً وقوة . وقد استقر في ذهنها في اعتقاد راسخ بشأن الحدث الذي لما يسبر غوره . فقالت : «هل وجدتها ؟» .

- «وجدت ماذا ؟ ما الذي تتحدثين عنه ؟» .

- «الرسالة . ألم يكن لديها من الاعتبار مايدفعها على الاقل الى ان تترك لنا رسالة ؟ حتى كونتن فعل ذلك» .

فقالت دلزي : «ما الذي تتحدثين عنه ؟ ألا تعلمين انها بخير ؟ أراهنك انها ستدخل من هذا الباب قبل حلول الظلام» .

- «كلام فارغ . انها في الدم . وفي البنت ما في خالها . او أمها . ولست أدري أي الشرين أهون . ولا يهمني» .

- «ما الداعي الى اصرارك على هذا الكلام ؟ وما الذي يجعلها تفعل شيئاً من هذا القبيل ؟» .

- «لست أدري . ما الذي جعل كونتن يفعلها ؟ بربك ، اي سبب في الدنيا حدا به الى ذلك ؟ ألعله أراد ان يتحدى مشيئتي ويسيء الي ؟ ليكن اللّه من يكون ، فانه لن يسمح بذلك . اني سيدة من كرام الناس . قد لا تصدقين ذلك حين تنظرين الى أولادي . ولكنني سيدة من كرام الناس» .

قالت دلزي : «انتظري تري . ستكون هناك قبل حلول الليل ، ولسوف تكون في فراشها ذاك» . لم تقل المسز كمبسن شيئاً ، والقماشة الخضلة بالكافور على جبينها . ورداؤها الاسود عند القدمين من فراشها . ووقفت دلزي ويدها على مقبض الباب .

فقالت المسز كمبسن : «ماذا تريدين ؟ اتنوين ان تهيئي بعض الغذاء لجاسن وبنجامين ، ام لا ؟» .

- «لم يأت جاسن بعد . سأهيئ شيئاً . أواثقة انت من أنك لا تريدين شيئاً ؟ أما زالت قربتك حارة ؟» .

- «ناوليني توراتي» .

- «اعطيتك اياها هذا الصباح ، قبل خروجي» .

- «وضعتها على حافة الفراش . أتتوقعين ان تظل هناك طويلاً ؟» .

ذهبت دلزي الى السرير وبحثت في الظلال التي تحت حافته وعثرت على التوراة منكفئة على وجهها . فسوّت الصفحات المثنية ووضعت الكتاب على الفراش ثانيةً . والمسز كمبسن مازالت مغمضة العينين ، وشعرها والوسادة من لون واحد ، فبدت تحت الفوطة المشبعة بالدواء أشبه براهبة عجوز تصلي . فقالت ، دون ان تفتح عينيها : «لا تضعيها هنا ثانية ، حيث وضعتها من قبل . أتريدين ان تكرهيني على الخروج من فراشي لكي التقطها عن الأرض ؟» .

فأخذت دلزي الكتاب ومدت يدها فوقها ووضعته على طرف الفراش العريض . وقالت : «وكيف تقرئين في هذه العتمة ؟ أأرفع لك الستارة قليلاً ؟» .

- «لا . دعيها عنك . انزلي وهيئي شيئاً لجاسن يأكله» .

فخرجت دلزي ، مغلقة الباب وراءها ، وعادت الى المطبخ . كان الموقد خامداً تقريباً . واذ وقفت على مقربة منه دقت الساعة المعلقة فوق الخزانة عشر مرات ، فقالت بصوت مرتفع : «الساعة الواحدة ، لن يأتي جاسن . لقد رأيت البداية والنهاية» . قالت وهي تتأمل الموقد الخامد ، «رأيت البداية والنهاية» . ووضعت على مائدة قربها بعض الأطعمة الباردة . وأخذت وهي تتنقل بين أرجاء المطبخ تنشد احدى التراتيل . فأنشدت النغم كله بأن كررت وأعادت البيتين الأولين .

ولما انتهت من مد الطعام ذهبت الى الباب ونادت لستر ، وبعد برهة جاء لستر وبن ، وبن مازال يئن بعض الشيء كأنه يئن لنفسه .

قال لستر : «ما كفّ لحظة واحدة» .

قال دلزي : «تعالوا كلوا . جاسن لن يأتي للغذاء» . فجلس لستر وبن

الى المائدة . اما بن فكان مستطيعاً ان يدبر امره إذا كان الطعام ناشفاً ، الا ان دلزي ، رغم كون الطعام بارداً ، ربطت فوطة حول عنقه . فراح هو ولستر يأكلان ، ودلزي تتنقل في المطبخ وتكرر البيتين اللذين تتذكرهما من الترتيلة . وقالت «لنأكل كلنا . لن يأتي جاسن الى البيت» .

لقد كان جاسن في تلك اللحظة على بعد عشرين ميلاً من البيت .

فحالما غادره قاد سيارته بسرعة الى البلدة ، وأدرك جماعات الناس المتهادية في سبيلها الى الصلاة والأجراس القارعة الآمرة تملأ الجو . فقطع الميدان الخالي وانعطف الى شارع أضيق بدا فجأة أشد هدوءاً حتى في تلك الساعة ، وأوقف سيارته امام منزل ذي هيكل خشبي وسار في الممشى المحفوف بالورد الى سقيفة المدخل .

كان وراء الباب الشبكي أناس يتكلمون . ولما رفع يده ليقرع الباب سمع وقع خطى ، فسحب يده وتقدم رجل يلبس سروالاً قطنياً أسود وقميصاً أبيض منشاً الصدر بدون ياقة ، وفتح الباب . كان شعره الأشهب أشعث عنيف الحيوية وعيناه الرماديتان مدورتين براقتين كعيني ولد صغير . فأخذ يد جاسن وسحبه الى الداخل وهو مازال يهزّها .

وقال : «تفضل ، تفضل ، وادخل» .

قال جاسن : «أمستعد انت للذهاب الآن ؟» .

ـ «تفضل وادخل ،» قال الآخر ، وهو يدفعه من كوعه الى غرفة جلس فيها رجل وإمرأة . «انت تعرف زوج ميرتل ، اليس كذلك ؟ جاسن كمبسن ، فيرنن» .

ـ «نعم ، قالها جاسن دون أن ينظر الى الرجل ، ولما جرّ الشريف كرسياً عبر الغرفة ، قال الرجل :

«سنخرج لنترك لكما المجال للكلام . هيّا ، يا ميرتل» .

فقال الشريف : «لا ، لا . لا حاجة الى ذلك . لا أحسب الأمر بهذه الخطورة يا جاسن ؟ تفضل واجلس» .

قال جاسن : «سأخبرك ونحن في طريقنا ، البس قبعتك وسترتك» .
قال الرجل ناهضاً على قدميه : «سنخرج نحن» .
قال الشريف : «ابق جالساً سنخرج انا وجاسن الى الشرفة» .
فقال جاسن : «البس قبعتك وسترتك يا هذا . لقد سبقونا باثنتي عشرة ساعة حتى الآن» .فاقتاده الشريف الى الشرفة ، ومرّ بهما رجل وامرأة وبادراه بالتحية ، فاستجاب لهما بإيماءة بالغة البشر . وكانت الاجراس ما زالت تدق ، في اتجاه الحي المعروف بنقرة الزنوج . وقال جاسن : «جئ بقبعتك ، يا شريف» . غير ان الشريف هيّأ لهما كرسيين ، وقال :
«اجلس وقل لي ما الذي حدث» .
فقال جاسن وهو واقف : «أخبرتك بالتلفون . وقد فعلت ذلك توفيراً للوقت . أتريد ان تضطرني الى اللجوء الى القانون لكي اجبرك على القيام بواجبك الذي أقسمت عليه ؟» .
- «تفضل بالجلوس ، وأخبرني . وسأعنى بأمرك» .
-«ستعنى بأمري ؟ اهذا ما تسميه العناية بأمري ؟» .
- «انت الذي تؤخرنا . تفضل بالجلوس وأخبرني» .
فقص عليه جاسن الأمر ، وإحساسه بالأذى والعجز يتغذى بصوت ما يقول حتى نسي استعجاله بعد مدة في عنف ماتراكم في نفسه من الغضب وتبرير الذات . والشريف يرقبه دونما اضطراب بعينيه المتألقتين الباردتين .
وقال : «ولكنك لا تعرف أنهما هما الفاعلان . انه ضرب من التخمين» .
فقال جاسن : «لا أعرف ؟ انا الذي امضيت يومين لعينين في ملاحقتها في الدروب . محاولاً ابعادها عنه ، بعد ان هددتها بما قد أفعله بها ان انا قبضت عليها برفقته ، اتقول لي ان هذه العا -» .
وقال الشريف : «أرجوك . كاف ، كفاني ما قلت» . وأرسل بصره الى الطرف الآخر من الشارع ويداه في جيبه .

- « وعندما أجيء إليك ، وأنت أحد ضباط القانون - » .

- « سيكون ذلك السيرك في موتسن هذا الأسبوع » .

- « نعم . ولو استطعت ان أجد ضابطاً من ضباط القانون يبدي أقل الاكتراث بحماية الناس الذين انتخبوه لوظيفته ، لكنت هناك انا ايضاً هذه انساعة » . وأعاد سرد القصة ، مكرراً القول بفظاظة ، كأنه يجد لذة حقيقية في غضبه وعجزه . اما الشريف فبدا كأنه لا يصغي إليه مطلقاً .

وقال : « جاسن ، ماالذي كنت تفعله بثلاثة آلاف دولار مخبأة في البيت ؟ » .

- « ماذا ؟ ليس من شأنك أين احفظ نقودي . اما شأنك فهو ان تعينني على استردادها » .

- « هل كانت امك تعلم بوجود هذا المبلغ كله لديك في البيت » .

- « اسمع . لقد نهب بيتي . وانا أعرف الفاعلَيْن كما أعرف مكانهما . وقد جئتك بصفتك ضابطاً من ضباط القانون ، وها أنا أسألك مرة أخرى : أستحاول ان تسترد لي مالي ، أم لا ؟ » .

- « ماذا تنوي ان تصنع بتلك الفتاة ، اذا امسكت بهما ؟ » .

قال جاسن : « لا شيء . لا شيء بالمرة . لن ادع يدي تمسها . هذه العاهرة التي افقدتني وظيفة كانت فرصتي الوحيدة للتقدم في الحياة ، والتي قتلت ابي وما زالت تقصر أجل امي يوماً بعد يوم ، وجعلت اسمي اضحوكة الناس في البلدة . لن أصنع بها شيئاً . ابداً ، بالمرة » .

فقال الشريف : « جاسن انت الذي دفعت بها إلى الهرب يا... » .

- « ليس من شأنك كيف أصرف أمور عائلتي . أتريد أن تساعدني أم لا ؟ » .

-« لقد دفعت بها الى الهرب من البيت . ولدي بعض الشكوك بشأن الصاحب الحقيقي لتلك النقود . الامر الذي لن أعرفه على وجه التأكيد ، لسوء الحظ » .

وقف جاسن مكانه وهو يعصر ببطء حافة قبعته بيديه . وقال بهدوء : « ألن تبدي اية محاولة للقبض عليهما ؟ » .

- « ليس ذلك من شأني يا جاسن . لو كان لديك اي دليل ، لاضطررت الى اجراء اللازم . اما بدون دليل فلا اظن الامر من شأني » .

- « اهذا جوابك اذن ؟ فكر جيداً » .

- « هذا جوابي » .

قال جاسن : « حسناً اذن » . ولبس قبعته . « ستندم والله على هذا . لن أكون عديم الحيلة . ليس هذا البلد بروسيا ، حيث يكون الرجل في حصانة من القانون لمجرد وضعه شارة معدنية صغيرة على صدره » . ونزل الدرج وركب سيارته وشغل محركها . والشريف بقربه يسوق ويستدير ، ويمرق هادراً بالبيت صوب البلدة .

جعلت الاجراس تقرع ثانية ، عالياً في ضياء الشمس المتراكض في مزق وهاجة غير نظيمة من الصوت . وتوقف عند محطة بنزين لتفحص إطاراته وتعبئة خزان سيارته .

- « أذاهب في سفرة ؟ » سأله الزنجي ، فلم يجب . « يبدو ان الجو سيصحو اخيراً » .

فقال جاسن : « سيصحو ، هه ؟ قبل ان تحين الساعة الثانية عشرة ستمطر كما لم تمطر قط من قبل » . ورفع عينيه الى السماء وهو يفكر بالمطر ، والطرق الموحلة الزلقة ، وقد انحصر في مكان ما قصي عن البلدة . وقد حمل له هذا الخاطر ما يشبه نشوة الظفر ، قائلاً لنفسه انه لن يكون في البيت للغذاء وانه ذا ماشرع في رحلته الآن مستجيباً لرغبته العنيفة في السرعة ، فإنه سيصبح عند الظهيرة على أبعد مسافة ممكنة من البلدتين ، فبدا له القدر ، بهذا الصدد ، يحالفه ، فقال للزنجي :

« ما الذي تفعله ؟ هل نقدك أحد شيئاً لتؤخر شغلك مع هذه السيارة أطول مدة ممكنة ؟ » .

ـ «سيارتك هذه ليست فيها قطرة من الهواء» .

ـ «اذن ابتعد عنها وناولني ذلك الانبوب» .

قال الزنجي ناهضاً : «امتلأت الآن . باستطاعتك ان تسوق الآن» . فركب جاسن السيارة وشغل المحرك وانطلق . تحوّل الى حركة الترس (GEAR) الثانية ، والمحرك يلهث وينتفض ، ثم جعل يسرع جداً وهو يصفق الخانق وحشياً دخولاً وخروجاً . وقال : «ستمطر . دعني ابلغ منتصف الطريق ، ولتمطر كما تشاء» . وانطلق متنائياً عن البلدة ورنين اجراسها ، متخيلا نفسه يكدّ سيراً في الأوحال ، باحثاً عن عربة بحصانين . «وما من أحد لعين منهم الا وهو في الكنيسة» . وتصور انه يلقى كنيسة آخر الأمر ويأخذ احدى العربات عنوة واذا صاحبها يخرج ويصرخ به ، فيضربه ويوقعه ارضاً ، ويقول : «انا جاسن كمبسن . أوقفني ان استطعت . وانتخب ان استطعت ضابطاً يستطيع ان يوقفني» . وتصور نفسه يدخل دار المحكمة ومعه ثلة من الجنود ويجرّ بالشريف الى الخارج . «يظن ان بوسعه ان يجلس مكتوف اليدين ويراني افقد وظيفتي! سأريه ما معنى الوظينة» . اما ابنة اخته فلم يفكر بها قط ، كما لم يفكر بالقيمة الاعتباطية التي قدرت للنقود . فلا النقود ولا كونتن كانت لها لديه أية هوية او فردية لعشر سنين طوال . انما الاثنان معاً ترمزان الى الوظيفة التي حرم منها في المصرف ، قبل ان يحظى بها .

اشتد وهج النار ، ولم تعد رقع الظلال الجارية عبر الأرض دليلاً على اكفهرار السماء ، فبدا له في انقشاع الغيوم ضربة ماكرة من العدو ، في المعركة الجديدة التي كان في طريقه اليها يحمل جراحات قديمة . وكان بين الحين والحين يمر بكنائس ما هي الا مباني خشبية قبابها من صفائح حديدية ، تحيط بها خيول مربوطة وسيارات عتيقة ، فيخيل اليه ان كلاً منها موقع استحكام تترصده منه مؤخرة جيش القدر بنظرات خاطفة . فقال : «حاول انت أيضاً ان توقفني ان استطعت!» وهو يتصور نفسه ، وثلة جنوده

مع الشريف المكبل بالقيود في المؤخرة ، يجر القدرة الالهية من على عرشها ، اذا اقتضى الامر ، ويتخيل جحافل السماء والجحيم تقتتل وهو يشق طريقه بينها ويضع يديه نهائياً على ابنة اخته الآبقة .

كانت الريح تهب من الجنوب الشرقي على خدّه باستمرار . وقد خيل اليه انه يستشعر ضربتها المستديمة تنفذ من خلال جمجمته ، وفجأة وقد خالجه هاتف قديم خبط على الفرامل واوقف السيارة وجلس في مكانه دونما حراك . ثم رفع يده الى رقبته وبدأ يسب ، وبقي جالساً وهو يسب في همس خشن ، فقد كان من دأبه كلما اضطر الى السياقة مدة طويلة ان يجهز نفسه بمنديل مشبع بالكافور ، يعقده حول عنقه حالما يبتعد عن البلدة ، وبذلك ينشق بخاره . فخرج ورفع المقعد لعله يكون قد نسي هناك احد هذه المناديل . ونظر تحت المقعدين ووقف برهة وهو يشتم ويلعن ، وقدرأى نفسه موضع هزء من انتصاره . فاتكأ على الباب واغمض عينيه . ان بإمكانه ان يعود ويجلب كافوره المنسي ، او ان يستمر في انطلاقه . ورأسه في كلتا الحالتين يكاد ينفلق صداعاً ، الا انه واثق من وجود الكافور في البيت يوم الأحد ان هو عاد ، في حين انه قد لا يجد اي كافور اذا ما استمر في سيره . ولكن سيتأخر ـ لوعاد ـ ساعة ونصف الساعة في الوصول الى موتسن . فقال : «لعلني أستطيع ان أسوق ببطء . لعلني أستطيع ان أسوق ببطء شاغلاً فكري بشيء آخر ـ» .

فركب السيارة ، وشغلها . سأُفكر بشيء آخر ، «قال لنفسه ، وأخذ يفكر بلورين ، فتخيل نفسه في الفراش معها ، غير انه مضطجع قربها وحسب ، يتوسل اليها ان تساعده ، ثم فكر بالنقود ثانية ، وكيف ان امرأة ، بل فتاة ، غلبت حيلته بحيلتها ، وكم تمنى لو يعتقد ان الرجل هو الذي سرق ماله! اما ان يُسلب الشيء الذي كان يعتبره تعويضاً عن وظيفته المفقودة ، والذي لم يحصل عليه الا بأشق الجهد والمجازفة ، وان يكون الفاعل رمز وظيفته المفقودة بالذات ، بل وأسوأ من ذلك ان يكون الفاعل فتاة عاهرة...

واستمر يسوق ، ساتراً وجهه من الريح الهابة باستمرار بياقة معطفه .

لقد جعل يرى قوى مصيره وقوى ارادته المتعادية تزحف الآن سراعاً معاً ، نحو ملتقى لا مرد له . فعزم على الحيلة والدهاء ، قائلاً لنفسه : لامجال لي للخطأ ، فليس ثمة الا شيء صحيح واحد : لا بديل له ، وعليه ان يفعله . وقد بدا له أنهما سيعرفانه كلاهما حالما يريانه ، وهو يؤمل أن يراها هي اولاً ، الا اذا كان الرجل مازال مرتدياً رباطه الأحمر . وخيل اليه ان اضطراره الى الاعتماد على ذلك الرباط الأحمر انما هو خلاصة النكبة التي تتربص به . انه كاد يشمها ، ويحسها فوق النبض الذي في رأسه .

بلغ القمة من التل الأخير وفي الوادي دخان ، وأسطحة بيوت ، وقبة أو اثنتان تعلوان الشجر . فنزل التل ودخل البلدة ، متمهلاً ، قائلاً لنفسه ان عليه بالحذر ، لكي يجد أولا مكان خيمة السيرك . ولكنه ماعاد يحسن الرؤية الآن ، وأدرك ان النكبة هي التي تستحثه دون انقطاع على الذهاب مباشرة للحصول على شيء يعالج به صداعه .

وفي احدى محطات البنزين أخبروه ان الخيمة لم تنصب بعد ، الا ان سيارات السيرك واقفة على أحد أرصفة المحطة . فساق سيارته الى هناك .

وهناك وجد سيارتي « بولمان » بألوانهما الصارخة واقفتين على الخط .

فاستطلعهما قبل النزول من سيارته ، وهو يحاول ألا يتنفس عميقاً ، لعل الدم لا ينبض عنيفاً في جمجمته . ثم ترجل ومشى بمحاذاة جدار المحطة ، وهو يرقب السيارتين ، وقد تدلى من نوافذهما بعض الملابس المتثنية الرخوة ، كأنها قد غسلت لتوها . وعلى الأرض قرب الدرجات من احداهما كانت ثلاثة كراسي قماشية . غير انه لم ير مايدل على أي حياة فيهما الى ان ظهر بالباب رجل قذر الوزرة وأفرغ قدراً من مائه القذر بإيماءة عريضة ، وقد تألق بطن القدر المعدني بشعاع الشمس ، ثم عاد ثانية الى داخل السيارة .

فقال لنفسه ، علي الآن ان أفاجئه قبل ان ينذرهما . ولم يخطر له ببال

انهما قد لا يكونان في داخل السيارة . أما ألا يكونا هنا ، وألا تتعلق النتيجة برمتها على رؤيته اياها أو رؤيتهما اياه أولاً ، فأمر يناقض الطبيعة ويعاكس سير الأحداث وايقاعها! والأكثر من ذلك : عليه ان يراهما هو أولاً ، ويسترد النقود ، وعندئذ لن يكون لكل ماقد يفعلانه اي خطر لديه ، والا فإن العالم بأسره سيعلم أن جاسن كمبسن قد سلبت ماله عاهرة تدعى كونتن هي ابنة أخته .

واستطلع المكان من جديد ، ثم عاد الى السيارة وصعد درجاتها بسرعة وهدوء ، وتريث عند الباب... كان مطبخ السيارة مظلماً يفوح بروائح الطعام البائت . وبدا الرجل أشبه بلطخة بيضاء ، وهو يغني بصوت « تينور » مهزوز مصدع . ففكر :كبير في السن ، وأضأل مني جسماً . ودخل السيارة ، ورفع الرجل نظره إليه .

- « هه ؟ » قال الرجل ، متوقفاً عن الغناء .

قال جاسن : « أين هما ؟ بسرعة! أفي سيارة النوم ؟ » .

- « من هما ؟ » .

قال جاسن : « لا تكذب علي » . وتخبط في العتمة المزدحمة .

فقال الآخر : « ماذا قلت ؟ من الذي تسميه كاذباً ؟ » وحالما أمسك جاسن بكتفه ، هتف صائحاً : « حذار يا رجل! » .

- « لا تكذب أين هما ؟ » .

- « يا ابن الحرام! » قالها الرجل وذراعه في قبضة جاسن واهية ضامرة . وحاول ان يتخلص من قبضته ثم التفت وأخذ يخبط بحثاً على الطاولة المكدسة وراءه .

وقال جاسن : « هيا . اين هما ؟ » .

فزعق الرجل قائلاً : « سأخبرك اين هما . دعني أجد ساطوري أولاً » .

- « اسمع » قال جاسن وهو يحاول ان يمنع الآخر عن الحركة » .

انه مجرد سؤال أسألك إياه .

فزعق الآخر وهو يخبط على الطاولة بحثاً : « ياابن الحرام! » وحاول جاسن الامساك به بكلتا ذراعيه ، وحصر هياجه القميء . وأحس بجسم الرجل بارداً ناحلاً ، غير انه مشدود بعزم واحد قتال جعل جاسن يرى لأول مرة دونما لبس أو غموض النكبة التي سعى إليها بظلفه .

وقال : « كفى! اسمع! اسمع! سأخرج أمهلني قليلاً ، فأخرج » .

والآخر يصيح : « أتدعوني كاذباً خلني . خلني لحظة واحدة ، لأريك » .

فجعل جاسن يلتفت حوله مرتعباً وهو ممسك بالآخر . كان النهار في الخارج الآن مشرقاً ساطعاً ، حثيثاً خالياً ، وفكر بالناس الذين سيذهبون عما قريب وادعين الى بيوتهم ليتناولوا غذاء الأحد ، في أبهى زيناتهم وأمرحها ، في حين راح هو يجهد للامساك بالشيخ القميء المتفجر هياجاً قاتلاً . ولا يجرؤ على إطلاقه برهة تكفيه للادبار والهرب .

وقال : « هل تكف وتمهلني حتى أخرج من هنا ؟ تكلم » . غير ان الآخر ظل يكافح ، فأطلق جاسن احدى يديه وضربه على رأسه . ضربة عجلى غير مسددة ، ولا عاتية ، ولكن الآخر انكفأ فجأة وانهار مقرقعاً بين القدور والسطول الى الارض ، ووقف جاسن فوقه لاهثاً ، منصتاً . ثم استدار وهرب من السيارة ، غير انه ضبط نفسه عند الباب ونزل الدرجات في شيء من البطء ووقف هناك ايضاً . وجعل تنفسه يحدث صوتاً هه هه هه ، فوقف مكانه محاولاً ان يكتمه ، ونظراته تطفر هنا وهناك ، حين سمع فحفحة وراءه ، فالتفت ليرى الشيخ الصغير يقفز مترنحاً هائجاً من داخل السيارة ، وقد شهر ساطوراً صدئاً عالياً بيده .

فمد أصابعه نحو الساطور ، غير منصدم ولكن مدركاً انه بدأ يقع ارضاً ، مفكراً لنفسه : اهكذا اذن تأتي النهاية ، وظن انه على وشك الموت حين هوى شيء على مؤخر رأسه وقال لنفسه : كيف اصابني هناك ؟ او لعله قد اصابني منذ زمن ، ولكن ما شعرت بالاصابة الا الآن ، وفكر : هيا اسرع ، اسرع ، انته منها ، واذا هو يعاني من رغبة جامحة في الا يموت ، فكافح ، وهو يسمع الشيخ يولول ويشتم بصوته المصدع .

وبقي يكافح حين رفعوه رفعاً ليقف على قدميه ، غير انهم اسندوه في وقفته ، فكف .

وقال : «أينزف دمي بكثرة ؟ مؤخر رأسي . أينزف دمي ؟» .

وبقي يردد ذلك وهو يشعر ان أيدي قوية تدفع به على عجل ، ويسمع صوت الشيخ الرفيع الهائج يتلاشى وراءه . وقال : «انظر الى رأسي . انتظر . اني -» .

- «انتظر!» قالها الرجل الممسك به : «ألا تعلم ان هذا الزنبور الصغير سيقتلك . اركض . لم تصب بأذى» .

فقال جاسن : «لقد ضربني . ألست أنزف ؟» .

قال الآخر :«اركض ،» واقتاده حول منعطف المحطة ، الى الرصيف الخالي حيث وقفت شاحنة «اكسبريس» ، حيث نمت الاعشاب كالحراب في قطعة أرض محفوفة بزهور كالحراب ولافتة كتب عليها بأضواء كهربائية : : عينك على موتسن ، والفجوة تملؤهاعين كهربائية البؤبؤ . ثم أخلى الرجل سبيله .

وقال : «اسمع . خير لك ان تخرج من هنا ولا تعود . ما الذي كنت تحاول فعله ؟ الانتحار ؟» .

فقال جاسن : «كنت أبحث عن شخصين . وكل ما فعلته هو انني سألته اين هما» .

- «عمن تبحث ؟» .

- «عن فتاة . ورجل . كان يلبس رباطاً أحمر أمس في جفرسن . مع هذا السيرك . وقد سلباني» .

- «آ ، اذن انت هو - ولكنهما ليسا هنا» .

قال جاسن : «هذا ما يبدو» ، واتكأ على الجدار ووضع يده على مؤخرة رأسه ثم تفحص كفّه ، وقال : «ظننت انني انزف دماً ظننت انه ضربني بذلك الساطور» .

فقال الرجل : « أنت الذي صدمت رأسك بالسياج . فخير لك ان تغادر هذا المكان . فهما ليسا هنا » .

- « نعم . هذا ما قاله هو ايضاً . فظننته يكذب عليّ » .

- « أتظنني أكذب عليك ؟ » .

- « كلا . اني اعلم انهما ليس هنا » .

- « لقد أمرتهما ان يخرجا من هناك ، كلاهما . فأنا لن أسمح بمثل هذه الامور في سيركي . انني ادير سيركاً محترماً ، وفرقة محترمة » .

- « نعم . ألا تعرف أين ذهبا ؟ » .

- « كلا . ولا اريد ان اعرف . فليس في فرقتي من يستطيع ان يأتي فعلة كتلك . هل أنت - اخوها ؟ » .

- كلا . ولكن لا بأس . أنا إنما أردت ان أراهما . اواثق انت انه لم يصبني ؟ أعني اني لا أنزف دماً ؟ » .

- « والله لو لم اصل هناك في تلك اللحظة ، لكان ثمة دم كثير . فابق بعيداً عن هنا . أتسمع ؟ وإلا فإن ابن الحرام ذاك سيقتلك . هل تلك سيارتك ؟ » .

- « نعم » .

- « اذن اركبها وعد الى جفرسن . وان وجدتهما ، فلن تجدهما في فرقتي . انني ادير سيركاً محترماً . أتقول انهما سلباك ؟ » .

قال جاسن : « لا . لا بأس . غيرمهم » . وذهب الى السيارة وركبها . وقال لنفسه : ما الذي يجب علي ان أفعله ؟ وعندئذ تذكر . فشغّل السيارة وساقها على مهل صعداً في الشارع الى ان وجد حانوتاً . الا انه كان مقفل الباب . فوقف مكانه برهة ويده على مقبض الباب محنيّ الرأس بعض الشيء . ثم انصرف ، ولما رأى رجلاً قادماً بعد قليل سأله هل في المنطقة حانوت مفتوح ، فجاءه الجواب بالنفي . ثم سأله عن موعد سير قطار الشمال ، فأجاب الرجل في الثانية والنصف . فقطع الرصيف وعاد أدراجه الى

السيارة ودخلها وبقي جالساً فيها . وبعد قليل مر اثنان من فتيان الزنوج ، فناداهما .

- « هل يستطيع أحدهما ان يسوق سيارة ؟ » .

- « نعم ، يا سيدي » .

- « ما الذي تتقاضاه لقاء أخذي بهذه السيارة الى جفرسن في الحال ؟ » .

فنظر كلاهما الى الآخر مدمدمين .

قال جاسن : « أعطيك دولاراً » .

فدمدما ثانية ، ثم قال أحدهما : « قليل » .

- « كم تريد ؟ » .

- « قال أحدهما : أتقدر ان تذهب ؟ » .

فأجاب الآخر : « لا والله . لماذا لا تأخذه انت ؟ لاشغل لديك » .

- « لا . والله مشغول » .

- « بماذا ؟ » .

فدمدما مرة أخرى وهما يضحكان .

فقال جاسن : « أعطي أياً منكما دولارين » .

قال الأول : « لا أستطيع الذهاب » .

فقال جاسن : « لا بأس . انصرفا » .

وبقي جالساً مكانه مدة من الزمن . وسمع الساعة تدق النصف ، ثم أخذ الناس يمرون ، بملابس يوم الاحد وعيد الفصح . وكان البعض يلتفتون إليه إذ يمرون - يلتفتون الى الرجل القابع ساكناً وراء سكّان سيارة صغيرة ، وحياته التي لاترى قد انتكثت وانحلّت حوله أشبه بجورب عتيق . وبعد قليل جاءه زنجي يرتدي حلّة عامل .

وقال : « هل انت الذي تريد الذهاب الى جفرسن ؟ » .

قال جاسن : « نعم . كم تريد ؟ » .

ـ «أربعة دولارات» .

ـ «أعطيك اثنين» .

ـ «لا استطيع الذهاب بأقل من اربعة» . وبقي الرجل في السيارة جالساً دون حراك ، ولم ينظر حتى الى محدثه . فقال الزنجي : «أتقبل ام لا ؟» .

ـ «طيب . اصعد» .

وتحول من مكانه ، وجلس الزنجي وراء السكّان . وأغمض جاسن عينيه وهو يقول لنفسه : سأجد له دواء في جفرسن ، لا بد ان أجد شيئاً هناك ، وكيّف نفسه لاهتزازات السيارة العنيفة . وسارت بهم السيارة في طرق يمشي الناس فيها الهوينا ويدخلون منها آمنين الى البيوت وغداء يوم الاحد ـ الى ان ابتعدت عن البلدة . وفكّر بذلك . لم يفكر بالبيت ، حيث كان بن ولستر يتناولان غداءً بارداً على مائدة المطبخ . بل ان شيئاً ما ـ انعدام الكارثة او انعدام الوعيد في شرٍ ما مستديم ـ سمح له بنسيان جفرسن أو أي مكان آخر رآه من قبل ، حيث لا محيد له عن استئناف حياته .

عندما انتهى بن ولستر ، أخرجتهما دلزي الى العراءووقالت : «وحاول الا تثيره حتى الساعة الرابعة . وعندها سيكون تي بي قد جاء» .

قال لستر : «حاضر» . وخرجا . وتناولت دلزي غداءها ، ونظفت المطبخ . ثم ذهبت الى اسفل الدرج وأصاخت السمع ، ولكن لم يكن ثمة أي صوت . فغادرت من خلال المطبخ وخرجت من الباب الخارجي وتريثت على الدرج . لم تر أثراً لبن ولستر ، غير انها اذ وقفت هناك سمعت رنةً رخوةً باتجاه باب السرداب ، فذهبت الى الباب وشاهدت تكراراً لمشهد الصباح .

قال لستر : «هكذا بالضبط كان يفعلها» . وتأمل المنشار الساكن ، فيما يشبه القنوط والرجاء معاً . وقال : «ليس عندي الشيء الصحيح لطرقه به» .

قالت دلزي : «ولن تجده في سردابك هذا . هيا اخرجه الى الشمس حالاً ، قبل ان تصابا بذات الرئة على تلك الأرض المبللة» .

وتريثت وهي ترقبهما يعبران فناء الدار صوب مجموعة من أشجار الأرز قامت قرب السياج ، ثم يممت شطر كوخها .

قال لستر : «والآن ، إياك ان تبدأ! لقد سببت لي كفايتي من المتاعب اليوم» . كانت هناك ارجوحة صنعت من اخشاب البراميل وقد نظمت كاللَحمة في سدى شبكة من الاسلاك ، اضطجع فيها لستر بينما راح بن يحوم دونما وجهة أو هدف . ثم طفق يئن ثانية ، فقال لستر من مضجعه في الأرجوحة : «هس . أتسمع . وإلاّ صفعتك» . فتوقف بن عن الحركة ، ولستر مازال يسمعه يئن ، فقال : «اتسكت ام لا ؟» ونهض من مكانه واقتفى اثر بن فألفاه جالساً القرفصاء إزاء مرتفع صغير من التراب ، على كلا الطرفين منه غُرزت في الأرض زجاجة كانت تحتوي يوماً على سُمّ . كان في احداهما ساق ذابلة لزهرة «جمسن» ، وقد قبع امامها بن وهو يئن بصوت وئيد عديم الافصاح . وبقي يئن عندما بحث حوله دونما تعيين وعثر على عسلوج دسه في الزجاجة الاخرى . فقال لستر : «لم لا تسكت ، هه . ؟ اتريدني ان اعطيك شيئاً يجعلك تئن عن حق ؟ طيب ، انظر» . وركع وانتزع الزجاجة فجأة وأخفاها وراءه . فكف بن عن الأنين ، وبقي جالساً القرفصاء يتأمل المنهبط الذي كانت الزجاجة مغروزة فيه ، وما كاد يسحب نفساً عميقاً يملأ به رئتيه حتى وضع لستر الزجاجة ثانية امام ناظريه ، وفحّ : «هس! إياك أن تعيط . إياك هاهي ، أتراها ؟ ها هي . ان بقيت هنا ، فستبدأ بالعياط . هيا بنا ، لنذهب ونرَ إن كانوا قد بدأوا بضرب الكرة» .

وأمسك بذراع بن وأنهضه وذهبا معاً الى السياج حيث وقفا جنباً الى جنب ، يرسلان النظر من بين اشجار زهر العسل المتواشجة التي لم تكن بعد قد نورت .

وقال لستر : «هاهم . ها قد جاء بعضهم . أتراهم ؟» .

وراحا يتفرجان على اربعة رجال يلعبون جيئة وذهاباً على الارض الخضراء وأطرافها ، ويضعون الكرة مكانها ويضربونها . وجعل بن يتفرج

وهو يئن ويريل . واذا ما ابتعد اللاعبون لحق بن بهم بمحاذاة السياج ، يئن ورأسه في ارتفاع وانخفاض. وقال احدهم : «تعال يا كادي . اعطني الكيس» .

قال لستر : «هس يابنجي ،» بيد ان بن ثابر على جذبه وهو يخبّ ، متشبثاً بالسياج ، وينوح بصوته الأجش اليائس . فاذا مالعب الرجل دوره ومضى ، سار بن إزاءه بمثل سرعته إلى حيث ينعطف السياج في زاوية قائمة ، فتشبث بالسياج وهو يرنو الى الآخرين يتنقلون ويبتعدون .

قال لستر : «ألن تسكت الآن ؟ ألن تسكت ؟» وهز ذراع بن ، وبن متشبث بالسياج ، ينوح على رسله نواحه الأجش . «الن تكفّ ؟ الن تكف ؟» وبن يتطلع من خلال السياج . قال لستر «طيب اذن ، أتريد شيئاً تعيط وتصرخ بسببه ؟» وألوى وجهه فوق كتفه ، في اتجاه البيت . ثم همس : «كادي! اصرخ الآن . كادي! كادي كادي!»

وبعد برهة ، في ما يتخلل صراخ بن من فترات صمت متباعدة ، سمع لستر دلزي وهي تنادي . فأخذ بذراع بن وقفلا عائدين عبر فناء الدار صوب دلزي .

وقال لستر : «الم اقل لك انه لن يهدأ طويلاً» .

فقالت دلزي : «ياانذل! ما الذي فعلت به ؟» .

ـ «لم افعل شيئاً . قلت لك انه ، حالما يبدأ هؤلاء الناس باللعب ، يرفع عقيرته» .

ـ «تعال هنا . هس ، يابنجي ، هس» . غير انه لم يسكت . فعبروا الفناء مسرعين وذهبوا الى الكوخ ودخلوه . وقالت دلزي : «اركض واجلب ذلك الحذاء . احترس من ان تزعج الست كارولاين . واذا قالت شيئاً فقل لها انه معي . هيا انصرف . ولعلك تفعل ذلك دونما خطأ هذه المرة» .

وخرج لستر بينما اقتادت دلزي بن الى السرير واجلسته بجانبها واحتضنته وهي تهدهده ، وتمسح لعاب فمه بحاشية تنورتها ، وتقول وهي تمسّد شعره : «هس . هس . انت عند دلزي . هس» .

الا انه استمر في ولولته الونيدة الهضيمة دونما دمع - صوت يائس جهم هو صوت كل بؤس «لا صوت له تحت الشمس . ثم عاد لستر يحمل خفاً ابيض من الساتان ، وقد اصفر لونه الآن ، وتشقق وتلوث . فلما وضعه في يد بن ، هجع مدة من الزمن . غير انه ما انفك يئن ، وسرعان ما ارتفع صراخه من جديد .

فقالت دلزي : «أتعتقد انك تستطيع ان تجد تي بي ؟» .

- «قال أمس انه سيذهب اليوم الى سانت جون . وقال انه سيعود في الرابعة» .

وراحت دلزي تهدهد بن وتمسد شعره .

وقالت : «طال بنا الوقت ، يايسوع . طال بنا الوقت» .

فقال لستر : «بامكاني ان اسوق تلك العربة» .

- «ستقتل نفسك وبن ان فعلت . ولن تسوقها إلا للشيطنة . اعرف ان لديك من العقل ما يكفي لذلك . ولكني لا استطيع ان أثق بك صه ، صه» .

- «لا ، لن أفعل ذلك . وقد سقتها مع تي بي» . ودلزي تهز بن وهو في حضنها . «تقول الست كارولاين اذا عجزت عن تهدئته فانها ستنزل وتهدئه بنفسها» .

- «هس ياحبيبي ،» قالت دلزي ذلك وهي تمسد شعر بن ، ثم قالت : «حبيبي لستر ، ان كنت تحب جدتك العجوز فهلا سقت تلك العربة بعناية وحذر ؟» .

- «امرك ياجدتي . سأسوقها كتي بي بالضبط» .

وقالت دلزي ، وهي تمسد شعر بن وتهزه هز الطفل : «يعلم الله اني أفعل كل ما استطيعه» . ثم نهضت واردفت : اذهب واحضرها اذن .«فغاب لستر عن النظر . اما بن ، فبقي ممسكاً بالخف يبكي ، ودلزي تقول : «هس ، هس . ذهب لستر ليحضر العربة ويأخذك فيها الى المقبرة . ولن نجازف بجلب قبعتك» . وذهبت الى خزانة ليست إلا ستارة من الخام علقت

عبر احدى زوايا الغرفة ، واحضرت قبعة اللباد التي كانت هي تلبسها . وقالت : «لقد ادركتنا حالة اسوأ من هذه ، لو ان الناس يعلمون . ولكنك ، على كل حال ، طفل الرب ، وانا سأكون ايضاً ملك يديه ، عما قريب ، تبارك سبحانه . هاك» .

ووضعت القبعة على رأسه وزررت سترته . وهو ما انفك ينوح على رسله . ثم اخذت الخف منه ووضعته جانباً ، وخرجت به . وجاء لستر بفرس بيضاء عجوز تجرّ عربة مخلعة مهوجّة الجوانب .

قالت : «ستكون شديد الحذر والانتباه يا لستر ؟» .

قال لستر : «نعم ، جدتي» . واعانت بن على الصعود الى المقعد الخلفي ، وكان قد كف عن البكاء ، غير انه بدأ الآن بالأنين ثانية .

قال لستر : «يريد زهرته . انتظري ، سآتيه بزهرته» .

قالت دلزي : «أما انت فابق مكانك» . ودنت وامسكت بحبل اللجام . «هيا ، اسرع ، عليك بزهرة له» . فجرى لستر منعطفاً حول البيت صوب الحديقة . وعاد بنرجسة واحدة .

فقالت دلزي : «هذه مكسورة الساق . لم لم تأته بزهرة سليمة ؟»

فقال لستر : «انها الوحيدة في الحديقة . لقد اخذتم الزهور كلها يوم الجمعة لتزيين الكنيسة . انتظري سأتدبر أمرها» . وهكذا . فيما راحت دلزي تمسك بالحصان ، أضاف لستر عوداً الى ساق النرجسة وربطهما معاً بخيط ، وأعطاها لبن ، ثم امتطى العربة وأخذ الرسن . ودلزي مازالت ممسكة باللجام .

وقالت : «اتعرف الطريق ؟ اصعد الشارع ، ودر حول الميدان ، فالى المقبرة ، ثم عد مباشرة الى البيت» .

- «حاضر . كويني ، تحركي!»

- «ستكون شديد الحذر ، ها» .

- «نعم ، جدتي» . فأفلتت دلزي اللجام .

وقال لستر : « كويني تحركي » .
قالت دلزي : « لحظة ، ناولني ذلك السوط » .
ـ « اوه ياجدتي » .
ـ « ناولني اياه » قالت دلزي ودنت من العجلة . فناولها اياه لستر على مضض .
وقال : « وكيف اجعل كويني تتحرك الآن ؟ » .
ـ « لا بأس عليك من ذلك . كويني تعلم اكثر منك اين هي ذاهبة . وما عليك الا ان تبقى في مكانك وتمسك بالرسن . أتعرف الطريق ؟ » .
ـ « نعم . انه نفس الطريق الذي يذهب فيه تي بي كل احد » .
ـ « اذن فافعل ما يفعله هو هذا الاحد » .
ـ « طبعاً . الم أسق بدلاًمن تي بي أكثر من مئة مرة ؟ » .
ـ « اذن ، سق هذه المرة ايضاً . هيا . ولكن . والله ، ان آذيت بنجي ، ايها الغلام الاسود ، فلست أدري ما الذي سأفعله بك . انت مصيرك سلاسل السجن ، ولكنني سأرسلك إليها قبل ان تهيأ لك السلاسل » .
ـ « نعم ، جدتي . هيا يا كويني ، تحركي! »
ورفرف بالرسن على ظهر كويني العريض ، فجعلت العربة تتحرك في ترنح .
قالت دلزي : « اسمع يا لستر! » .
قال لستر : « تحركي ياهذه! » ورفرف بالرسن ثانية ، فراحت كويني تقعقع ببطء في الطريق المؤدية الى الشارع والجوف ، يزمزم بها وفي الشارع استحثها لستر على مشية توحي للناظر بأنها دوماً على وشك الوقوع الى الامام دون ان تقع .
وكف بن عن الانين ، وجلس وسط المقعد ممسكاً في قبضته بالزهرة المجبرة ، وعيناه وادعتان مشرقتان يعجز النطق عنهما . وكان لستر الجالس امامه مباشرة يدير رأسه الشبيه بالرصاصة الى الخلف باستمرار الى ان غاب

البيت عن العيان ، فحاد الى جانب الشارع واوقف العربة ونزل منها وبن يرقبه وكسر غصناً من احدى اشجار السياج ، بينما خفضت كويني رأسها وراحت تقضم الحشائش الى ان صعد لستر وجذب رأسها الى الأعلى وساطها لتتحرك من جديد ، ثم رفع كوعيه في زاويتين وأمسك بالغصن والزمام عالياً متخذاً وضعاً من التباهي لا يتناسب في شيء مع قعقعة حوافر كويني المسترخية وقرقرة احشائها التي تضاهي الخفيض من اصوات الأرغن . كانت السيارات تمر بهم ، وكذلك السابلة ، ومر بهم مرة فئة من احداث الزنوج :

ـ «ذاك لستر . الى أين يالستر ؟ ألى المقبرة ؟» .

فقال لستر : «مرحباً . أليست المقبرة مصيركم كلكم ؟ تحركي ، يافيل! » .

ثم اقتربوا من الميدان ، حيث كان الجندي الاتحادي يتطلع بمحجرين خاليين من تحت يده المرمية الى الريح وتقلبات السماء . وهنا زاد لستر من خيلائه وأهوى على كويني الصمّاء بغصنه مرة أخرى ، وهو يجيل البصر في الميدان . وقال : «تلك سيارة السيد جاسن ، » ثم رأى فئة أخرى من الزنوج . فقال : «لنُر هؤلاء الزنوج كيف يتصرف أولاد الذوات ، مارأيك ؟» ونظر الى الخلف ، حيث كان بن جالساً ممسكاً بزهرته في قبضته ، فارغ النظرة رخيّها ، وضرب لستر كويني مرة أخرى وانعطف بها الى اليسار صوب نصب الجندي .

ولبرهة جلس بن مكانه في فراغ مطلق . ثم عاط وارتفع صوته صراخاً على صراخ يكاد لا يتخلله فترة للتنفس . وفيه مايربو على الدهشة بكثير : انه الرعب ، الصدمة ، التمزّق لا عينٌ ولا لسانٌ ، صوت صرف . فدارت عينا لستر في محجريه هنيهة بيضاء ، وقال : «يا الله! هس!هس! ياالله! » ودار عنيفاً مرة أخرى واهوى على كويني بالغصن . فانكسر ، فرمى به عنه ، واذ راح صراخ بن يعلو نحو ذروته العجيبة امسك لستر بأطراف الزمام وانحنى الى امام ، وجاسن قادم نحوه يقفز عبر الميدان الى ان ارتقى درجة العربة .

وبضربة من قفا يده قذف بلستر جانباً وامسك بالزمام واستدار بكويني في الحال وشد بالزمام حتى كان نصفه في يده وساطها به على ردفيها . واستمر بسوطها مرة بعد مرة الى ان انطلقت حِضاراً ، وقد ضج الجو حولهم بتمزق بن الأجش ، وانعطف بها الى يمين النصب . ثم اهوى بقبضته على يافوخ لستر .

وقال : « كيف يخطر لك ان تأخذه الى اليسار ؟ » ومد يده الى الوراء ولطم بن ، كاسراً ساق الزهرة من جديد . وقال : «اخرس! إخرس! » ثم سحب لجام كويني بعنف واوقفها ، وقفز الى الأرض . «عد به الى البيت ، لعنك الله . وان انت عبرت به تلك البوابة ثانية ، قتلتك والله! » .

قال لستر : «نعم ، ياسيدي! » وامسك بالزمام وضرب كويني بأطرافه . «هيا . هيا ، تحركي! بنجي ، ارجوك ، لخاطر الله! » .

ظل صوت بن في زنير وهدير . ولما تحركت كويني ثانية جعلت حوافرها تقعقع على هينتها مرة أخرى ، وفجأة كف بن عن صراخه وسكت . فنظر لستر بسرعة الى الوراء فوق كتفه ، ثم انصرف الى سياقته . وتهدلت الزهرة المكسورة فوق قبضة بن وعادت عيناه الى الفراغ والزرقة والسكينة من جديد اذ راحت الشرفات والواجهات تنساب انسياباً ناعماً مرة اخرى من اليسار الى اليمين ، وكذا الاشجار والأعمدة ، والنوافذ والمداخل ، واللافتات ، كلٌ في مكانها النظيم .



ولد في ٢٥ سبتمبر ١٨٩٧ ببلدة نيوأولباني بولاية مسيسيبي. وأكمل تحصيله العلمي في جامعة مسيسيبي.

أول رواية ظهرت له العام ١٩٢٥ "أجر الجندي" كانت انعكاساً لتجاربه في الخدمة العسكرية التي قضاها في القسم الفني التابع للقوات الجوية الكندية والبريطانية.

تعرّف على الكاتب "شيروود اندرسون" وأدباء آخرين في مدينة نيو أورليانز، وكان هذا التعارف من بين الحوافز التي دفعته إلى كتابة الرواية. أصدر روايته الثانية "البعوض" العام ١٩٢٧.

"الصخب والعنف" هي في رأي النقاد "رواية الروائيين"، وتركيبها الفني، على صعوبته، معجزة من معجزات الخيال.

وغاية فوكنر ي هذه الرواية هي أن يصور انحلال أسرة آل كمبسن، ضمن الانحلال العام في "الجنوب" الذي يتألف من الولايات المتحدة التي انتعشت على زراعة القطن واستخدمت الزنوج رقيقاً إلى أن اندلعت نيران الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، فخسر الجنوب الحرب، وألغي الرق، وغزا الشمال الجنوب بوسائل شتى وتغيرت معالم الحياة فيه.

وهذا التغير، بما فيه من انحطاط أو سموّ، من شهامة أو حقارة، وبما سبقه أو تلاه من جرائم وصراع وهتك أعراض، هو موضوع فوكنر. و"الشرف والإباء" كلمتان تترددان في أكثر كتبه، الشرف والإباء والحب والشجاعة، وقد أحاطت بها قوى الفساد والجريمة والمادية والجشع والخسة. إن فوكنر يرى في قصة "الجنوب" مصغراً لما حلّ بالعالم من فوضى خلقية وانحلال اجتماعي، ويرى في ذلك مأساة كونية.

توفي في ٦ تموز ١٩٦٢.

مكتبة نوبل ١٩٤٩

لوحة الغلاف للرسام بيتر بريغل

ISBN 284305094-4
9782843050947